التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السابع والثلاثون - سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٠٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٠٥٥

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحديد وسورة المجادلة و سورة الحشر)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عبد القادِر السَّقَّاف

المجلد السابع والثلاثون

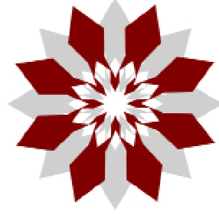
الدُّرَرُ السَّنِيَّة

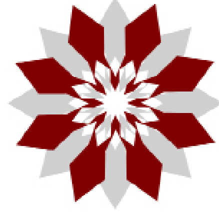
www.dorar.net

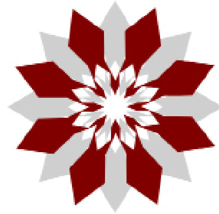
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الحَدِيدِ







سورةُ الحَديدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحديدِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحديدِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ عن بعضِ المفسِّرينَ الإجماعُ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحديدِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).
قال ابنُ عاشور: (وهذا اللَّفظُ وإنْ ذُكِر في سورةِ الكَهفِ [٩٦] في قَولِه تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ وهي سابقةٌ في النُّزولِ على سورةِ الحديدِ على المختارِ، فلم تُسَمَّ به؛ لأنَّها سُمِّيَت باسمِ الكَهفِ؛ للاعتناءِ بقصَّة أهلِ الكَهفِ، ولأنَّ الحديدَ الَّذي ذُكِرَ هنا مرادٌ به حديدُ السِّلاحِ؛ مِن سُيوفٍ ودُروعٍ وخُوَذٍ، تنويهًا به؛ إذ هو أثَرٌ من آثارِ حِكمةِ الله في خَلْقِ مادَّتِه، وإلهامِ النَّاسِ صُنْعَه لتحصُلَ به منافِعُ لتأييدِ الدِّينِ، ودِفاعِ المعتدِينَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: النَّقَّاشُ -كما حكاه عنه ابنُ عطيَّةَ-، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٧).
ونسَب ابنُ الفَرَسِ وابنُ عاشور هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).
واستظهر ابن عاشور أنَّ صدرَ هذه السُّورةِ مكِّيٌّ، وأنَّ ذلك يَنتهي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وأنَّ ما بعدَ ذلك بعضُه نزَل بالمدينة كما تقتضيه معانيه، مِثلُ حكايةِ أقوالِ المنافِقين، وبعضُه نزَل بمكَّةَ، مِثلُ آيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] الآيةَ.
قال: (ويُشبِهُ أن يكونَ آخرُ السُّورةِ [إلى] قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] نزَل بالمدينة، أُلْحِق بهذه السُّورةِ بتوقيفٍ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في خِلالِها أو في آخِرِها. =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعن صِفاتِه الجليلةِ(١).

٢- دعوةُ المؤمِنينَ إلى التَّمَسُّكِ بتعاليمِ دينِهم(٢).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتتاحُ السُّورةِ ببَيانِ تَسبيحِ جميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ للهِ، والثَّناءُ عليه سُبحانَه بذِكرِ بَعضِ أسمائِه الحُسْنى وصِفاتِه.

٢- ذِكرُ بَعضِ مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ مُلْكِه، وشُمولِ عِلْمِه.

٣- حَضُّ المؤمنينَ على الثَّباتِ على إيمانِهم، وعلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ والمؤمناتِ يومَ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المنافِقينَ، وما يجري بيْن الفريقَينِ مِن محاوراتٍ.

٥- حثُّ المؤمنينَ على الخُشوعِ للهِ وخَشْيتِه، وتحذيرُ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في أسبابِ قَساوةِ القُلوبِ الَّتي وَقَع فيها أهلُ الكِتابِ.

٦- ذِكرُ ثوابِ المتصَدِّقينَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قَرضًا حَسَنًا.

= قلتُ: وفيها آيةُ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠] الآيَةَ، وسواءٌ كان المرادُ بالفتحِ في تلك الآيةِ فتْحَ مكَّةَ أو فتْحَ الحُدَيْبِيَةِ، فإنَّه أُطلِق عليه اسمُ الفتحِ، وبه سُمِّيَتْ «سورةُ الفتحِ»، فهي متعيِّنةٌ لأن تكونَ مدَنيَّةً، فلا يَنبغي الاختِلافُ في أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ مدَنيٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- بيانُ مَصيرِ الحياةِ الدُّنيا، والدَّعوةُ إلى إيثارِ الآجِلةِ على العاجِلةِ، والباقيةِ على الفانيةِ.

٨- تقريرُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٩- بيانُ وَحدةِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ، والتَّنويهُ بحِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ والكُتُبِ.



الآيات (١-٦)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَالظَّاهِرُ﴾: أي: الغالِبُ، العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، فلا شَيءَ فَوقَه؛ مِنَ الظُّهورِ بمعنى القَهرِ والغَلَبةِ وكَمالِ القُدرةِ، ومعنى الظُّهور يَقتَضي العُلُوَّ، ومنه: ظَهَر فلانٌ على فلانٍ: إذا علاه وغَلَبَه. وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه، وأصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ[(١)].

﴿وَالْبَاطِنُ﴾: أي: العالِمُ بما بَطَن، مِن قَولِهم: فُلانٌ يَبطُنُ أمرَ فُلانٍ، أي: يَعلَمُ داخِلةَ أمْرِه، وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: المُحتَجِبُ عن الأبصارِ والعُقولِ، وأصلُ (بطن): يدُلُّ على خِلافِ الظَّهرِ[(٢)].

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، ﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٩).

شَيءٍ[١].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[٢].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نَفْسُه وحَقيقتُه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بالإخبارِ بأنَّه نزَّهَه -تعالى- عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ، وأنَّه هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، وأنَّ له وَحْدَه سُلطانَ السَّمَواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه مِن صفاتِه أيضًا أنَّه هو وَحْدَه المَوجودُ أزَلًا قبْلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بدايةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ، وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ، والباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣، ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١،٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).

ثمَّ ذكَر تعالى مِن الأدلَّةِ على وحدانيَّته وقدرتِه أنَّه هو الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه، يَعلَمُ سُبحانَه ما يَدخُلُ في الأرضِ وما يَخرُجُ مِنها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، وما يَصعَدُ إليها، واللهُ معكم أينما كُنتُم بعِلْمِه وإحاطتِه، وهو سُبحانَه بَصيرٌ بما تَعمَلونَ.

له وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، وإليه وَحْدَه تَرجِعُ الأُمورُ.

يُدخِلُ سُبحانَه ظُلْمَةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، وضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيل، وهو وَحْدَه عليمٌ بضَمائِرِ القُلوبِ وأسرارِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: نَزَّهَ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٧، ٣٥٨).
قال ابن جُزَي: (هذا التَّسبيحُ المذكورُ هنا وفي أوائلِ سائرِ السُّوَرِ المُسَبِّحاتِ يحتمِلُ أن يكونَ حقيقةً، أو أن يكونَ بلِسانِ الحالِ؛ لأنَّ كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على وُجودِ الله وقُدرتِه وحِكمتِه). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣).
وممَّن اختار أنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) و(٧/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١). =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[1].

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢﴾.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

= قال ابن جرير: (يعني تعالى ذِكرُه بقولِه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ما دُونَه مِن خَلْقِه يُسَبِّحُه تعظيمًا له، وإقرارًا برُبوبيَّتِه، وإذعانًا لطاعتِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالتَّسبيحِ المُسنَدِ إلى ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن العُقلاءِ وغيرِهم، والحيواناتِ والجماداتِ هو ما يَعُمُّ التَّسبيحَ بِلسانِ المَقالِ كتسبيحِ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وبلِسانِ الحالِ كتسبيحِ غيرِهم؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ يدُلُّ على الصَّانعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨).

وقال ابن عثيمين: (كلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ اللهَ... بلِسانِ الحالِ وبلِسانِ المقالِ، إلَّا الكافرَ؛ فإنَّه يُسبِّحُ اللهَ بلِسانِ الحالِ لا بلِسانِ المقالِ؛ لأنَّ الكافرَ يَصِفُ اللهَ بكلِّ نقصٍ، يقولُ: اتَّخذ اللهُ ولدًا، ويقولُ: إنَّ معه إلهًا، ورُبَّما يُنكِرُ الخالقَ أصلًا، لكنْ حالُه وخلقتُه وتصرُّفُه تسبيحٌ لله عزَّ وجلَّ. والحشراتُ والحيَواناتُ تُسَبِّحُ اللهَ بلِسانِ المقالِ، والحصى يُسَبِّحُ اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١، ٥٤٢).

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصَرُّفِ فيهما[١].

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بأنَّه له المُلْكُ؛ أخبَرَ عن ذاتِه بهذَينِ الوصفَينِ العَظيمَينِ اللَّذَينِ بهما تَمامُ التَّصرُّفِ في المُلكِ، وهو إيجادُ ما شاءَ، وإعدامُ ما شاءَ؛ ولذلك أُعقِبَ بالقُدرةِ الَّتي بها الإحياءُ والإماتةُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه مِن دَلائِلِ الآفاقِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ؛ ذَكَر بعْدَه دَلائِلَ الأنفُسِ؛ فقال[٣]:

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: يُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه[٤].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى دَلائِلَ الآفاقِ أوَّلًا، ودَلائِلَ الأنفُسِ ثانيًا؛ ذَكَر لَفظًا يَتناوَلُ الكُلَّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

فقال[١]:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو ذو قُدرةٍ بالِغةٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، سُبحانَه[٢].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بتمامِ القدرةِ، دلَّ على ذلك بقولِه[٣]:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾.

أي: هو وَحْدَه الموَجودُ أزَلًا قبلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بِدايةٍ مُفتَتَحةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ مُنقَضِيةٍ[٤].

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

أي: وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ فَوقَه، وهو وَحْدَه الباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفْسِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((التوحيد)) لابن منده (٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخَذْنا مَضجَعَنا أن نَقولَ: اللَّهمَّ رَبَّ السَّمَواتِ ورَبَّ الأرضِ ورَبَّ العَرشِ العَظيمِ، رَبَّنا ورَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك مِن شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فَوقَك شَيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شَيءٌ، اقْضِ عنَّا الدَّينَ، وأغْنِنا مِن الفَقرِ))[١].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن ظَهَر لِشَيءٍ بَطَن عن غَيرِه، ومَن بَطَن لشَيءٍ غاب عنه عِلمُه، وكان سُبحانَه في ظُهورِه على ذلك بمعنى أنَّه ليس فَوقَه شَيءٌ، وفي بُطونِه بحيثُ ليس دُونَه شَيءٌ؛ فقد جَمَعت الأوصافُ إحاطةَ العِلمِ والقُدرةِ- أعلَمَ نَتيجةَ ذلك، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ[٣].

= قال الزجاج: (الباطِنُ؛ لأنَّه غيرُ مدركٍ بالحواسِّ كالأشياءِ المخلوقاتِ التي تُدرَكُ بالحواسِّ نحو اللمسِ، والحسِّ، والباطِنُ خلافُ الظَّاهِرِ، والباطِنُ أيضًا في كلامِ العربِ: الخبيرُ العالمُ بما بطَن مِن أمورِ بعضِ مَن يصحبُه، ويداخِلُه). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٠٩).

وقال ابنُ منده: (ومعنَى الباطِنِ: المُحْتَجِبُ عن ذَوي الألبابِ كُنْهُ ذاتِه وكيفِيَّةُ صفاتِه عزَّ وجَلَّ). ((التوحيد)) (٢/ ٨٢).

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أوجَدَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا على عَرشِه بعْدَ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه(٢).

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما يَدخُلُ في الأرضِ فيَغيبُ فيها مِن ماءٍ وبُذورٍ وحَيَواناتٍ، وأَمواتٍ وكُنوزٍ وغَيرِها، ويَعلَمُ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ مِن نَباتٍ وحَيوانٍ، ومَعادِنَ وغَيرِها(٣).

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ تعالى ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ مِن الملائِكةِ، والأمطارِ والبَرَدِ والثُّلوجِ والصَّواعِقِ، والأرزاقِ والوَحيِ وغَيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يَصعَدُ في السَّماءِ مِنَ الملائِكةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٦٧).

والأرواحِ والأعمالِ، والأبخِرةِ وغَيرِها[١].

قال سُبحانَه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ...))[٢] الحديثَ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

أي: واللهُ معَكم بعِلمِه وإحاطتِه، رَقيبٌ عليكم، شَهيدٌ على أعمالِكم في أيِّ مَوضِعٍ كُنتُم فيه مِن برٍّ أو بحرٍ، في لَيلٍ أو نهارٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٤٢) و(٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (يعني أنه حاضرٌ مع كلِّ أحدٍ بعِلمِه وإحاطتِه. وأجمَعَ العلماءُ على تأويلِ هذه الآيةِ بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣).

أي: ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان صانِعُ الشَّيءِ قد لا يَكونُ مَلِكًا، وكان المَلِكُ لا يَكمُلُ مُلكُه إلَّا بعِلمِ جَميعِ ما يكونُ في مَملكتِه، والقُدرةِ عليه، وكان إنكارُهم للبَعثِ إنكارًا لأن يكونَ مَلِكًا؛ أكَّدَ ذلك بتَكريرِ الإخبارِ به، فقال[٢]:

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصرُّفِ فيهما[٣].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى دَلَّ على دوامِ مُلكِه وإحاطتِه، عاطِفًا على ما تَقديرُه: «فمِنَ اللهِ المَبدَأُ»، مُعَبِّرًا بالاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ الخُصوصُ بأمورِ ما تقَدَّمَ، فقال تعالى[٤]:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ ذِكرِه هذه الجُملةَ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أنَّ تَقديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبَهما مِن التَّصرُّفاتِ الإلهيَّةِ المُشاهَدةِ في أحوالِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُلابساتِ أحوالِ الإنسانِ؛ فهذه الجُملةُ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥]، وهو أيضًا مُناسِبٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]؛ تذكيرًا للمُشرِكين بأنَّ المُتصرِّفَ في سَببِ الفناءِ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّهم يَعتقِدون أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ هما اللَّذانِ يُفنيانِ النَّاسَ، وحَكى اللهُ عنهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلمَّا قال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، أبطَلَ بعْدَه اعتقادَ أهلِ الشِّركِ أنَّ للزَّمانِ -الَّذي هو تَعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ، والمُعبَّرُ عنه بالدَّهرِ- تَصرُّفًا فيهم(٢).

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، فيَغيبُ فيه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ الأُمورِ -أي: الشُّؤونِ العامَّةِ والخاصَّةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ- كُلُّها تَرجِعُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، يتصَرَّفُ كما شاء، يحكُمُ بما شاء، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، =

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: ويُدخِلُ اللهُ ضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ، فيَغيبُ فيه[1].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تصَرُّفَ اللهِ في اللَّيلِ -وكان اللَّيلُ وَقتَ إخفاءِ الأشياءِ- أعقَبَ ذِكرَه بأنَّ اللهَ عَليمٌ بأخفى الخفايا -وهي النِّيَّاتُ-؛ فإنَّها مع كَونِها معانيَ غائِبةً عن الحواسِّ كانت مَكنونةً في ظُلمةِ باطِنِ الإنسانِ؛ فلا يَطَّلِعُ عليها عالِمٌ إلَّا اللهُ تعالى[2].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه البالِغُ العِلمِ بضَمائِرِ عِبادِه وسَرائِرِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ مَعرِفةُ هذه الأسماءِ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الإيلاجُ لا يأتي دَفعةً واحِدةً، ولكِنَّه يأتي تدريجيًّا شَيئًا فشَيئًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

الأربَعةِ -وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ- هي أركانُ العِلمِ والمَعرِفةِ؛ فحَقيقٌ بالعَبدِ أن يَبلُغَ في مَعرفتِها إلى حيثُ ينتهي به قُواه وفَهمُه، واعلَمْ أنَّ لك أنت أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطِنًا، بل كلُّ شَيءٍ فله أوَّلٌ وآخِرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ، حتَّى الخَطرةُ واللَّحظةُ والنَّفَسُ، وأدنى مِن ذلك وأكثَرُ؛ فأوَّلِيَّةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ سابِقةٌ على أوَّلِيَّةِ كُلِّ ما سِواه، وآخِريَّتُه ثابِتةٌ بعْدَ آخِريَّةِ كُلِّ ما سِواه؛ فأوَّلِيَّتُه سَبْقُه لكُلِّ شَيءٍ، وآخِريَّتُه بقاؤُه بعدَ كُلِّ شَيءٍ، وظاهِريَّتُه -سُبحانَه- فَوقيَّتُه وعُلُوُّه على كُلِّ شَيءٍ، ومعنى الظُّهورِ يَقتَضي العُلُوَّ، وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه. وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفسِه، وهذا قُربٌ غَيرُ قُربِ المحِبِّ مِن حَبيبِه؛ هذا لَونٌ، وهذا لَونٌ؛ فمَدارُ هذه الأسماءِ الأربَعةِ على الإحاطةِ، وهي إحاطتانِ: زمانيَّةٌ ومَكانيَّةٌ؛ فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالقَبلِ والبَعدِ، فكُلُّ سابِقٍ انتهى إلى أوَّلِيَّتِه، وكُلُّ آخِرٍ انتهى إلى آخِريَّتِه، فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالأوائِلِ والأواخِرِ، وأحاطت ظاهِريَّتُه وباطِنيَّتُه بكُلِّ ظاهِرٍ وباطِنٍ؛ فما مِن ظاهِرٍ إلَّا واللهُ فَوقَه، وما مِن باطِنٍ إلَّا واللهُ دُونَه، وما مِن أوَّلٍ إلَّا واللهُ قَبْلَه، وما مِن آخِرٍ إلَّا واللهُ بَعْدَه؛ فالأوَّلُ قِدَمُه، والآخِرُ دوامُه وبَقاؤُه، والظَّاهِرُ عُلُوُّه وعَظَمتُه، والباطِنُ قُربُه ودُنُوُّه، فسَبَقَ كُلَّ شَيءٍ بأوَّلِيَّتِه، وبَقِيَ بعدَ كُلِّ شَيءٍ بآخِريَّتِه، وعلا على كُلِّ شَيءٍ بظُهورِه، ودنا مِن كُلِّ شَيءٍ ببُطونِه، فلا تُواري منه سَماءٌ سَماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يَحجُبُ عنه ظاهِرٌ باطِنًا، بل الباطِنُ له ظاهِرٌ، والغَيبُ عِندَه شَهادةٌ، والبَعيدُ منه قَريبٌ، والسِّرُّ عِندَه عَلانيَةٌ؛ فهذه الأسماءُ الأربَعةُ تَشتَمِلُ على أركانِ التَّوحيدِ؛ فهو الأوَّلُ في آخِريَّتِه، والآخِرُ في أوَّلِيَّتِه، والظَّاهِرُ في بُطونِه، والباطِنُ في ظُهورِه، لم يَزَلْ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا

وباطِنًا -سُبحانَه وبِحَمدِه[١]!

٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كمالُ مُراقَبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وخَشيتِه؛ بحيث لا يَفْقِدُه حيثُ أمَرَه، ولا يَراه حيثُ نَهاه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ، فإذا سَوَّلَت لك نفْسُك مَعصيةً للهِ عزَّ وجلَّ فاعرِضْ عليها مِثْلَ هذه الآيةِ وأشباهَ ذلك مِن الأشياءِ الَّتي يَجِبُ على المرءِ إذا هَمَّ بسَيِّئةٍ أنْ يَستعرِضَها؛ حتَّى تَمنَعَه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدٌّ على «أهلِ الوَحْدةِ» الَّذين يَحتجُّون بنُصوصِ «المَعِيَّةِ» و«القُرْبِ» على أنَّ الوُجودَ واحِدٌ، ويَتأوَّلونَ نُصوصَ العُلُوِّ والاستِواءِ، وكلُّ نَصٍّ يَحتجُّون به حُجَّةٌ عليهم؛ فإنَّ «المَعيَّةَ» أكثرُها خاصَّةٌ بأنبيائِه وأوليائِه، وعِندَهم أنَّه -تعالى وتَقَدَّس- في كلِّ مَكانٍ، وفي نُصوصِهم ما يُبيِّنُ نَقيضَ قَولِهم؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ، والمُسَبِّحُ غيرُ المُسَبَّح[٤]!

٢- قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتتاحُ هذه السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه مُؤْذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٢٣).

بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشرِكون والمانويَّةُ[1] ونحْوُهم من أهلِ التَّثنيةِ، وأصحابِ التَّثليثِ والبَراهمةِ[2]، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانتْ هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ؛ ولذلك أُتبِعَ اسْمُه العَلَمُ بعَشْرِ صِفاتٍ هي جامِعةٌ لصِفاتِ الكمالِ؛ وهي: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلۡبَاطِنُ﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنَّ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِنَ الحَيواناتِ النَّاطِقةِ والصَّامِتةِ وغَيرِها، والجوامِدِ: تُسَبِّحُ بحَمدِ رَبِّها، وتُنَزِّهُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وأنَّها قانِتةٌ لرَبِّها، مُنقادةٌ لعِزَّته، قد ظهَرَت فيها آثارُ حِكمتِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فهذا فيه بَيانُ عُمومِ افتِقارِ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفْليَّةِ لرَبِّها في جَميعِ أحوالِها، وعُمومِ

(١) المانويَّة: فرقةٌ مِن الثَّنويَّةِ [الَّذين يَزعمون أنَّ النُّورَ والظُّلمةَ أزَليَّانِ قديمانِ، بخِلافِ المجوسِ؛ فإنَّهم قالوا بحدوثِ الظَّلام]، وهم أصحابُ ماني بنِ فاتك، الَّذي أحدَث دينًا بيْنَ المجوسيَّةِ والنَّصرانيَّةِ، وكان يقولُ بنُبُوَّةِ المسيحِ عليه السَّلامُ، ولا يقولُ بنُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ويزعمُ أنَّ العالَمَ مصنوعٌ مركَّبٌ مِن أصلَينِ قديمَينِ: أحدُهما نورٌ، والآخَرُ ظُلْمةٌ، وأنَّهما أزَليَّانِ لم يَزالا، ولن يَزالا. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٤٩).

(٢) البَراهمة: قومٌ مِن الهندِ، يقولونُ بنفيِ النُّبوَّاتِ أصلًا ورأسًا، يَنتسِبون إلى رجُلٍ منهم يُقالُ له: بَراهِمُ، ثمَّ إنَّ البَراهمةَ تفرَّقوا أصنافًا، ومنهم أصحابُ التَّناسُخِ. يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٦٣)، ((الملل والنحل)) للشَّهْرَستاني (٣/ ٩٥-٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

عِزَّتِه وقَهرِه للأشياءِ كُلِّها، وعُمومِ حِكمتِه في خَلْقِه وأمْرِه[١]!

٤- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، ففَسَّرَ الإثباتَ بالنَّفيِ؛ فجَعَل هذه الصِّفةَ الثُّبوتيَّةَ صِفةً سَلبيَّةً، مع أنَّ الصِّفاتِ الثُّبوتيَّةَ أكمَلُ وأكثَرُ؛ وذلك لتوكيدِ الأوَّليَّةِ، يعني أنَّها مُطلَقةٌ، أوَّليَّةٌ ليست أوَّليَّةً إضافيَّةً؛ فيُقالُ: هذا أوَّلٌ باعتِبارِ ما بَعْدَه، وهناك شَيءٌ آخَرُ قَبْلَه، فصار تَفسيرُها بأمرٍ سَلبيٍّ أدَلَّ على العُمومِ باعتبارِ التَّقَدُّمِ الزَّمَنيِّ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ حَسَّنَ العطفَ هنا التَّغايرُ الظَّاهرُ، وكلَّما كان التَّغايُرُ أبْيَنَ كان العطفُ أحسَنَ، فإنَّ الأَوَّليَّةَ لا تُجامِعُ الآخِريَّةَ! ولهذا فَسَّرَها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ((أنت الأوَّلُ؛ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ؛ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[٣]، فأوَّليَّتُه أزَليَّتُه، وآخِريَّتُه أبَديَّتُه.

فإنْ قيلَ: فما تَصنَعُ بقولِه: ﴿وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ فإنَّ ظُهورَه تعالى ثابتٌ مع بُطونِه، فيَجتمِعُ في حقِّه الظُّهورُ والبُطونُ، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فَسَّر «الظَّاهرَ» بأنَّه الَّذي ليس فوقَه شَيءٌ، و«الباطنَ» بأنَّه الَّذي ليس دونَه شيءٌ، وهذا العُلُوُّ والفوقيَّةُ مجامِعٌ لهذا القُرْبِ والدُّنُوِّ والإحاطةِ؟

والجوابُ: الَّذي حَسَّنَ دخولَ «الواوِ» هاهنا أنَّ هذه الصِّفاتِ مُتقابِلةٌ مُتضادَّةٌ؛ وقد عُطِفَ الثَّاني منها على الأوَّلِ للمُقابَلةِ الَّتي بيْنَهما، والصِّفتانِ الأُخْرَيانِ كالأُولَيَيْنِ في المُقابَلةِ، ونِسبةُ الباطنِ إلى الظَّاهرِ كنِسبةِ الآخِرِ إلى الأوَّلِ؛ فكما حَسُنَ العطفُ بيْنَ الأُولَيَيْنِ حَسُنَ بيْنَ الأُخْرَيَينِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ هذا الوَصفُ يَستلزِمُ صِفةَ الغِنى المُطلَقِ؛ لأنَّ الأوَّلَ هنا معناه الموجودُ لِذاتِه دون سَبْقِ عَدَمٍ، ثمَّ هذه الأوَّليَّةُ في الوُجودِ تقتَضي أن تَثبُتَ لله جميعُ صِفاتِ الكَمالِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المُتقابِلَ مِن هذه الأسماءِ مُتلازِمٌ؛ فإذا قلتَ: «الأوَّلُ» فقُلِ: «الآخِرُ»، وإذا قُلتَ: «الظَّاهِرُ» فقُلِ: «الباطِنُ»؛ لِئلَّا تَفوتَ صِفةُ المقابَلةِ الدَّالَّةِ على الإحاطةِ[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ اشتَمَلا على عُمومِ الزَّمانِ، وقَولُه: ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ على عُمومِ المَكانِ[٣].

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إثباتُ أربعةِ أسماءٍ للهِ تعالى، وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ، واستفَدْنا منها خَمسَ صِفاتٍ: الأَوَّليَّةُ، والآخِريَّةُ، والظَّاهِريَّةُ، والباطنيَّةُ، وعُمومُ العِلمِ، واستَفَدْنا مِن مَجموعِ الأسماءِ: إحاطةَ اللهِ تعالى بكلِّ شَيءٍ زَمانًا ومَكانًا؛ لأنَّه قد يَحصُلُ مِن اجتِماعِ الأوصافِ زيادةُ صِفةٍ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إرشادٌ إلى بُطلانِ التَّسَلسُلِ الباطِلِ ببَديهةِ العَقلِ، وأنَّ سِلسِلةَ المخلوقاتِ في ابتدائِها تَنتَهي إلى أوَّلٍ ليس قَبْلَه شَيءٌ، كما تَنتَهي في آخِرِها إلى آخِرٍ ليس بعدَه شَيءٌ، كما أنَّ ظُهورَه هو العُلوُّ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، وبُطونَه هو الإحاطةُ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

لا يكونُ دُونَه فيها شَيءٌ، ولو كان قَبْلَه شيءٌ يكونُ مُؤثِّرًا فيه لَكان ذلك هو الرَّبَّ الخَلَّاقَ! ولا بُدَّ أنْ يَنتهيَ الأمرُ إلى خالقٍ غَيرِ مَخلوقٍ، وغَنيٍّ عن غَيرِه، وكلُّ شَيءٍ فقيرٌ إليه، قائِمٍ بنَفْسِه وكُلُّ شَيءٍ قائِمٌ به، مَوجودٍ بذاتِه وكلُّ شَيءٍ مَوجودٌ به، قَديمٍ لا أوَّلَ له، وكُلُّ ما سِواه فوُجودُه بَعْدَ عَدَمِه، باقٍ بذاتِه وبَقاءُ كلِّ شيءٍ به؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، والآخِرُ الَّذي ليس بَعْدَه شيءٌ، الظَّاهِرُ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس بَعْدَه شَيءٌ[٢]، ولا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يدُلُّ على غايةٍ لآخِريَّتِه؛ لأنَّ هناك أشياءَ أبَديَّةً وهي مِن المَخلوقاتِ،كالجَنَّةِ والنَّارِ، وعليه فيَكونُ معنى: ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ، حتَّى الَّذي لا نِهايةَ له[٣].

١٢- يُستفادُ مِن اسمِ اللهِ «الظَّاهِرُ» عُلُوُّ اللهِ تعالى[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٥]، وهذا كِنايةٌ عن إحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، ولكِنَّ المعنى أنَّه مع عُلُوِّهِ -عزَّ وجلَّ- فهو باطِنٌ؛ فعُلُوُّه لا يُنافي قُرْبَه عزَّ وجلَّ، فـ «الباطِنُ» قَريبٌ مِن معنى «القَريبِ»[٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٢).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٢/ ١١٦).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٦) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

مُستَوٍ على عَرْشِه، عالٍ على جَميعِ خَلْقِه، وقَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يُوهِمُ خِلافَ ذلك! فما الجَوابُ؟

الجَوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه تعالى مُستَوٍ على عَرشِه -كما قال، بلا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ- استِواءً لائِقًا بكَمالِه وجَلالِه، وجميعُ الخلائِقِ في يَدِه أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ! فهو مع جَميعِهم بالإحاطةِ الكامِلةِ، والعِلمِ التَّامِّ، ونُفوذِ القُدرةِ -سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا؛ فلا مُنافاةَ بيْنَ عُلُوِّه على عَرشِه ومَعِيَّتِه لجَميعِ الخَلائِقِ؛ ألَا ترى -ولله المَثَلُ الأعلى- أنَّ أحَدَنا لو جَعَل في يَدِه حَبَّةً مِن خَردَلٍ، أنَّه ليس داخِلًا في شَيءٍ مِن أجزاءِ تلك الحَبَّةِ، معَ أنَّه مُحيطٌ بجَميعِ أجزائِها، ومع جَميعِ أجزائِها، والسَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهما في يَدِه تعالى أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ في يَدِ أحَدِنا -وله المَثَلُ الأعلى سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا-؛ فمعَ أنَّه مُستَوٍ على عَرشِه، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن عَمَلِ خَلْقِه جَلَّ وعلا[1]!

الثَّاني: أنَّه ذَكَرَ استِواءَه على العَرشِ، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وإذا جَمَع اللهُ لنَفْسِه بيْن وَصْفَينِ فإنَّا نَعلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنَّهما لا يَتناقَضانِ؛ لأنَّهما لو تناقَضَا لاستَحالَ اجتِماعُهما؛ إذِ المُتناقِضانِ لا يَجتَمِعانِ ولا يَرتَفِعانِ؛ فلا بُدَّ مِن وُجودِ أحدِهما وانتِفاءِ الثَّاني، ولو كان هناك تَناقُضٌ لَزِمَ أنْ يكونَ أوَّلُ الآيةِ مُكَذِّبًا لآخِرِها، أو بالعكسِ!

الثَّالثُ: أنَّه قد يَجتَمِعُ العُلُوُّ والمَعِيَّةُ في المخلوقاتِ، كما في قَولِ النَّاسِ: «ما زِلْنا نَسيرُ والقَمَرُ مَعَنا».

الرَّابعُ: لو فُرِضَ تعارُضُهما بالنِّسبةِ للمَخلوقِ لم يَلزَمْ ذلك بالنِّسبةِ للخالِقِ؛

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٠).

لأنَّ اللهَ ليس كمِثْلِه شَيءٌ سُبحانَه[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ مِن أدَلِّ شَيءٍ على مُبايَنةِ الرَّبِّ تعالى لِخَلْقِه؛ فإنَّه لم يَخلُقْهم في ذاتِه، بل خَلَقَهم خارِجًا عن ذاتِه، ثمَّ بانَ عنهم باستِوائِه على عَرْشِه، وهو يَعلَمُ ما هم عليه، فيَراهم، ويَنْفُذُهم بَصَرُه، ويُحيطُ بهم عِلمًا وقُدرةً وإرادةً، وسَمعًا وبَصَرًا، فهذا معنى كَونِه سُبحانَه «معهم أينَما كانوا»[٢]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يَقتَضي أنَّه استوى على العَرشِ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ولم يَذْكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لَكان قد ذَكَر خَلْقَه ثُمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مخلوقًا قبْلَ ذلك[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، وليس مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه مُرتَّبٌ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ -يعني: حادِثًا[٤]- ولا شَكَّ أنَّ قيامَ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ مِن كَمالِ اللهِ، فمِن كَماله أنْ يكونَ فاعِلًا؛ متى شاء فَعَل، ومتى شاء لم يَفْعَلْ. وأمَّا مَن قال: إنَّه يَلْزَمُ مِن قيامِ الحوادِثِ به أنْ يكونَ حادِثًا، فهذه قَضيَّةٌ غَيرُ مُسَلَّمةٍ ولا صَحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٣/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قَولِه سُبحانَه وتعالى في آيةِ الكُرسيِّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟

الجوابُ: لا يُوجَدُ خِلافٌ بَيْنَهما؛ فالكُرسيُّ شامِلٌ للسَّمَواتِ والأرضِ، يعني لِعِظَمِه وكِبَرِه يكونُ واسِعًا لهما جَميعًا، أي لكلِّ السَّمَواتِ والأرضِ، والعَرشُ فَوْقَه(١).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، والعَرشُ أعلى المخلوقاتِ(٢).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنَّه إذا قُلْنا: استوى على العَرشِ -بمعنى: علا- فهاهنا سُؤالٌ: وهو: أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ ثمَّ استوى على العَرشِ، فهل يَستلزِمُ أنَّه قبْلَ ذلك ليس عاليًا؟

فالجوابُ: لا يَستلزِمُ ذلك؛ لأنَّ الاستواءَ على العَرشِ أخَصُّ مِن مُطلَقِ العُلُوِّ؛ لأنَّ الاستِواءَ على العَرشِ عُلُوٌّ خاصٌّ به، والعُلُوُّ شامِلٌ على جَميعِ المخلوقاتِ؛ فعُلُوُّه عزَّ وجلَّ ثابِتٌ له أزَلًا وأبَدًا، لم يَزَلْ عاليًا على كُلِّ شَيءٍ قبْلَ أنْ يَخلُقَ العَرشَ، ولا يَلزَمُ مِن عَدَمِ استِوائِه على العَرشِ عَدَمُ عُلُوِّه، بل هو عالٍ، ثمَّ بعْدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلَا عُلُوًّا خاصًّا على العَرشِ(٣).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إبطالُ قَولِ المُعَطِّلةِ والجَهْميَّةِ الَّذين يَقولونَ: ليس على العَرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وأنَّ اللهَ ليس مُستويًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٥).

عرْشِه! ولا تُرفَعُ إليه الأيدي! ولا يَصْعَدُ إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ! ولا رَفَعَ المسيحَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إليه! ولا عُرِجَ برَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليه! ولا تَعرُجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إليه! ولا يَنْزِلُ مِن عندِه جِبريلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولا غيرُه! ولا يَنْزِلُ هو كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا! ولا يخافُه عبادُه مِن الملائِكةِ وغَيرِهم مِن فَوقِهم! ولا يَراه المؤمِنونَ في الدَّارِ الآخِرةِ عِيانًا بأبصارِهم مِن فَوقِهم! ولا تجوزُ الإشارةُ إليه بالأصابِعِ إلى فَوقٍ كما أشار إليه النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أعظَمِ مَجامِعِه؛ في حَجَّةِ الوداعِ، ((وجَعَلَ يَرفعُ إصْبَعَه إلى السَّماءِ ويَنْكُتُها إلى النَّاسِ[١]، ويقولُ: اللَّهُمَّ اشهَدْ))[٢]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّه سُبحانَه على العَرشِ بذاتِه، فإنْ قالوا: فإنَّ العَرَبَ يقولونَ: «استوى فُلانٌ على بَلَدِ كذا وكذا»: إذا استولى عليه وقَهَرَ.

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه لو كان «استوى» بمعنى «استولى» لم يكُنْ لتَخصيصِه العَرشَ بالاستواءِ مَعنًى؛ لأنَّه مُسْتَولٍ على كُلِّ شَيءٍ غَيرِه، فكان يجوزُ أنْ يقالَ: الرَّحمنُ على الجَبَلِ استَوى! وهذا باطِلٌ.

الثَّاني: أنَّ العربَ لا تُدْخِلُ «ثُمَّ» إلَّا لأمرٍ مُستقبَلٍ سيكونُ، واللهُ تعالى لم يَزَلْ قاهِرًا قادرًا مُستَولِيًا على الأشياءِ؛ فلم يكُنْ -بزَعمِهم- لِقَولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ مَعنًى.

(١) يَنْكُتُها إلى النَّاسِ: أي: يشيرُ بها إليهم، كالَّذي يَضرِبُ بها الأرضَ. يُنظر: ((مِرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ١٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

والحديث أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

الثَّالِثُ: أنَّ «الاستواءَ» بمعنى «الاستيلاءِ» لا يكونُ عندَ العربِ إلَّا بعدَ أنْ يكونَ ثَمَّ مُغَالِبٌ يُغالِبُه، فإذا غَلَبَه وقَهَرَه قيل: قد استَولى عليه، فلمَّا لم يكُنْ مع اللهِ مُغالِبٌ لم يكُنْ معنى استِوائِه على عَرْشِه استيلاءَه عليه وغَلَبَتَه، وصَحَّ أنَّ استواءَه عليه هو عُلُوُّه وارتِفاعُه عليه بلا حَدٍّ ولا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ.

الرَّابعُ -وهو قولُ أئمَّةِ اللُّغَةِ-: أنَّ الاستواءَ في اللُّغةِ: هو العُلُوُّ والرِّفْعةُ؛ لأنَّهم يقولونَ: «استوَتِ الشَّمسُ»: إذا تعالتْ، و«استوى الرَّجُلُ على ظَهرِ دابَّتِه»: إذا علاها، وقولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، أي: ارتفَعتْ عليه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: ارتفَعَ عن حالِ النُّقصانِ إلى حالِ الكَمالِ، ويقالُ: استوى أَمْرُ فلانٍ، أي: ارتفعَ وعلا عنِ الحالِ الَّتي كان عليها مِن الضَّعْفِ وسُوءِ الحالِ(١).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ «الاستواءِ» بمعنى «المُلْكِ»؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ استوى على العَرشِ، وقد أخبَرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ -كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ-، وحينَئِذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مُؤخَّرًا عن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العَرشُ بالاستِواءِ(٢)؟!

٢٤- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وهذه المَعِيَّةُ مَعيَّةُ العِلمِ والاطِّلاعِ؛ ولهذا توعَّد ووَعَد على المُجازاةِ بالأعمالِ، بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي:

(١) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٣)، ونقله عن صاحب ((الجامع الصغير في أصول الدين)) الحسين بن أحمد الأشعري المتكلم.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

هو تعالى بصيرٌ بما يَصدُرُ منكم مِنَ الأعمالِ، وما صدَرَت عنه تلك الأعمالُ مِن بِرٍّ وفُجورٍ، فمُجازيكم عليها، وحافِظُها عليكم[١].

٢٥- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وقد فسَّر السَّلفُ مَعيَّةَ اللهِ تعالى لِخَلقِه في الآيتَينِ بالعِلمِ، وهم بذلك لم يُؤَوِّلوها تأويلَ أهلِ التَّعطيلِ، ولم يَصرِفوا الكلامَ عن ظاهرِه؛ وذلك مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرها في سورةِ (المجادلةِ) بيْنَ عِلمَينِ، فقال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ المرادَ أنَّه يَعلَمُهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم.

الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرها مَقرونةً باستوائِه على عَرْشِه -الَّذي هو أعلى المخلوقاتِ-؛ فدَلَّ على أنَّ المرادَ مَعِيَّةُ الإحاطةِ بهم عِلمًا وبَصَرًا، لا أنَّه معهم بذاتِه في كلِّ مَكانٍ، وإلَّا لَكان أوَّلُ الآيةِ وآخِرُها مُتناقِضًا.

الثَّالِثُ: أنَّ العِلمَ مِن لوازمِ المَعيَّةِ[٢].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إلى حيثُ لا مالِكَ سِواه، ودَلَّ بهذا القَولِ على إثباتِ المَعادِ[٣].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه في كَونِه يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ إثباتُ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ له حِكمةٌ عَظيمةٌ لا تقومُ مَصالِحُ الخَلْقِ إلَّا بها؛ لأنَّه يَترتَّبُ على هذا الإيلاجِ اختِلافُ فُصولِ السَّنةِ الَّتي يَترتَّبُ على اختِلافِها نُمُوُّ الأجسادِ والنَّباتِ؛ فمِنَ النَّباتِ ما يكونُ شَتْويًّا، ومِن النَّباتِ ما يكونُ صَيفيًّا[١].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ به ضَعْفَه وافتِقارَه إلى ربِّه؛ إنْ جاء البَرْدُ صار يَتطَلَّبُ ما يُدفِّئُه، وإنْ جاء الحَرُّ صار يَتَطَلَّبُ ما يُبَرِّدُه؛ فهو محتاجٌ إلى ربِّه في الحالَينِ، وهذا مِن فوائِدِ اختِلافِ الحَرِّ والبَرْدِ[٢].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ دَليلٌ على رَحمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ تناوُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ بالزِّيادةِ والنَّقصِ فيه مَصلحةٌ عَظيمةٌ جِدًّا؛ لأنَّ اللَّيلَ إذا طال حَصَلَ البَرْدُ والشِّتاءُ، وظَهَرتْ أشجارُ الشِّتاءِ، وماتتِ الحَشَراتُ الَّتي قد يكونُ بقاؤها ضارًّا بالإنسانِ والنَّباتِ، وكذلك إذا ازدادَ النَّهارُ ازدادَ الحَرُّ فنَضِجَتِ الثِّمارُ، وزال البُخارُ مِن الأرضِ، وماتتْ بذلك حَشَراتٌ كثيرةٌ مِن أجْلِ الحَرِّ، لو أنَّها بَقِيَتْ وتنامَتْ لأَضَرَّتْ بالنَّاسِ، فيكونُ هذا أيضًا فيه دَليلٌ على كَمالِ الحِكمةِ والرَّحمةِ مع القُدرةِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- عُبِّر هنا وفي سُورتَي (الحَشْرِ) و(الصَّفِّ) بالمُضِيِّ: ﴿سَبَّحَ﴾، وفي سُورتَي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٢).

(الجُمُعةِ) و(التَّغابُنِ) بالمُضارِعِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) بالأمْرِ: ﴿سَبِّحِ﴾، وفي سُورةِ (الإسراءِ) بالمصدَرِ: ﴿سُبْحَٰنَ﴾؛ استيعابًا للجِهاتِ المشهورةِ لهذه الكَلِمةِ، وللإيذانِ بتَحقُّقِه في جَميعِ الأوقاتِ. وأنَّ هذه الأشياءَ مسبِّحةٌ في كلِّ الأوقاتِ، لا يختصُّ بوقتٍ دونَ وقتٍ؛ بل هي مسبِّحةٌ أبدًا في الماضي، وستكونُ مسبِّحةً أبدًا في المستقبَلِ. وبدَأَ بالمَصدرِ في (الإسراءِ)؛ لأنَّه الأصلُ، ولأنَّه أبلَغُ مِن حيثُ إنَّه يُشعِرُ بإطلاقِه على استِحقاقِ التَّسبيحِ مِن كلِّ شَيءٍ وفي كلِّ حالٍ، ثم بالمُضِيِّ لسَبْقِ زَمَنِه، ثمَّ بالمضارعِ؛ لشُمولِه الحالَ والمستقبَلَ، ثمَّ بالأمرِ؛ لخُصوصِه بالحالِ، مع تأخُّرِه في النُّطقِ به في قولِهم: فَعلَ، يَفعلُ، افعَلْ[١]. وقيل: جاء في بَعضِ الفواتحِ (سبَّح) على لَفظِ الماضي، وفي بَعضِها على لَفظِ المضارِعِ، وكلُّ واحدٍ منهما معناهُ: أنَّ مِن شأنِ مَن أُسنِدَ إليه التَّسبيحُ أنْ يُسبِّحَه، وذلك هِجِّيراهُ ودَيدنُه[٢].

- وصِيغَ فِعلُ التَّسبيحِ هنا بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَنزيهَه تعالى أمْرٌ مُقرَّرٌ، أمَرَ اللهُ به عِبادَه مِن قبْلُ، وألْهَمَه النَّاسَ، وأودَعَ دَلائلَه في أحوالِ ما لا اختيارَ له، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقولُه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ ففي قولِه: ﴿سَبَّحَ﴾ تَعريضٌ بالمُشرِكين الَّذين أهْمَلوا أهمَّ التَّسبيحِ، وهو تَسبيحُه عن الشَّريكِ والنِّدِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ إمَّا أنْ تكونَ بمَنزلةِ اللَّامِ في: نصَحْتُ لِزَيدٍ، يُقالُ: سبَّحَ اللهَ، كما يُقالُ: نصَحْتُ زَيدًا؛ فجِيءَ باللَّامِ لتَقويةِ وُصولِ الفِعلِ إلى المفعولِ. وإمَّا أنْ تكونَ لامَ التَّعليلِ، أي: أحدَثَ التَّسبيحَ مِن أجْلِ اللهِ، أي: لوَجْهِه خالِصًا(١). وقيل: دخلت «اللَّامُ» هنا؛ لأنَّ المرادَ هو التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، وليس التَّنزيهَ والذِّكْرَ المُجَرَّدَ(٢)!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بحذْفِ (ما) بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ؛ مُوافَقةً لقولِه بعْدُ: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢]، و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الحديد: ٤]، ولأنَّ التَّقديرَ في هذه السُّورةِ: «سبَّحَ للهِ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ»، وكذلك قال في آخِرِ (الحشرِ) بعْدَ قولِه: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحشر: ٢٤]، أي: خلْقُهما، وقاله في سُوَرِ (الحَشْرِ)، و(الصَّفِّ)، و(الجُمعةِ)، و(التَّغابُنِ) بإثباتِها؛ عمَلًا بالأصْلِ(٣).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حالٌ، أو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، مُشعِرٌ بعِلَّةِ الحكمِ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ بذِكرِ صِفةٍ عَظيمةٍ مِن صِفاتِ اللهِ الَّتي مُتعلَّقُها أحوالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

الكائناتِ في السَّمواتِ والأرضِ، وخاصَّةً أهلَ الإدراكِ منهم، ومَضمونُ هذه الجُملةِ يُؤْذِنُ بتَعليلِ تَسبيحِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَن له مُلكُ العوالِمِ العُليا والعالَمِ الدُّنيويِّ حَقيقٌ بأنْ يَعرِفَ النَّاسُ صِفاتِ كَمالِه[١].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ قصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] لعدَمِ الاعتِدادِ بمُلكِ غَيرِه في الأرضِ؛ إذ هو مُلكٌ ناقصٌ؛ فإنَّ المُلوكَ مُفتقِرونَ إلى مَن يَدفَعُ عنهم العواديَ بالأحلافِ والجُندِ، وإلى مَن يُدبِّرُ لهم نِظامَ المَمْلكةِ مِن وُزراءَ وقُوَّادٍ، وإلى أخْذِ الجِبايةِ والجِزيةِ، ونحوِ ذلك، أو هو قَصْرٌ حَقيقيٌّ، إذا اعتُبِرَتْ إضافةُ (مُلْك) إلى مَجموعِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه لا مُلكَ لمالكٍ على الأرضِ كلِّها بَلْهَ السَّمواتِ معه سبحانه[٣].

- وقولُه: ﴿يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٤] مِن مَضمونِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مِفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٤) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ =

وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ فإنَّ الإحياءَ والإماتةَ ممَّا يَشتمِلُ عليه معْنى مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّهما مِن أحوالِ ما عليهما. وتَخصيصُ صِفتَيِ الإحياءِ والإماتةِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ بهما؛ لدَلالتِهما على دَقيقِ الحِكمةِ في التَّصرُّفِ في السَّماءِ والأرضِ، ولظُهورِ أنَّ هذَينِ الفِعلَينِ لا يَستطيعُ المخلوقُ ادِّعاءَ أنَّ له عمَلًا فيهما، وللتَّذكيرِ بدَليلِ إمكانِ البعثِ الَّذي جحَدَه المشرِكون، وللتَّعريضِ بإبطالِ زَعْمِهم إلهيَّةَ أصنامِهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾[1] [الفرقان: ٣]. وقيل: قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لبَعضِ أحكامِ المُلكِ والتَّصرُّفِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تُفيدُ مُفادَ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ لتَعميمِ ما دلَّ عليه قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ مِن بَيانِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾. وإنَّما عُطِفَت بالواوِ، وكان حقُّ التَّذييلِ أنْ يكونَ مَفصولًا؛ لقَصْدِ إيثارِ الإخبارِ عن اللهِ تعالى بعُمومِ القدرةِ على كلِّ مَوجودٍ، وذلك لا يُفيتُ قصْدَ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلَ يَحصُلُ بالمعْنى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ استِئنافٌ في سِياقِ تَبْيينِ أنَّ للهِ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، وبأنَّ مُلكَه دائمٌ في عُمومِ الأزمانِ، وتصرُّفَه فيهما في كلِّ الأحوالِ[4].

= عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ ولم يُذكَرْ لهذا الوصْفِ هنا مُتعلِّقٌ -بكسْرِ اللَّامِ-، ولا ما يدُلُّ على مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّه الأوَّلُ بدونِ تَقييدٍ[1].

- قولُه: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾، أي: هو الآخِرُ بعدَ جَميعِ مَوجوداتِ السَّماءِ والأرضِ، وهو معْنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؛ فتَقديرُ المعْنى: والآخِرُ في ذلك، أي: في استِمرارِ الوُجودِ الَّذي تَقرَّرَ بوَصْفِه بأنَّه الأوَّلُ، فآلَ معْنى (الآخِرِ) إلى معْنى (الباقي)، وإنَّما أُوثِرَ وصْفُ (الآخِرِ) بالذِّكرِ مع وَصْفِ (الأوَّلِ)؛ لأنَّه مُقْتضَى البَلاغةِ؛ ليَتِمَّ الطِّباقُ[2] بيْنَ الوصْفينِ المُتضادَّينِ[3].

- وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ دَلالةُ قصْرٍ مِن طَريقِ تَعريفِ جُزْأيِ الجُملةِ؛ فأمَّا قصْرُ الأوَّليَّةِ على اللهِ تعالى في صِفةِ الوُجودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين معَ مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبَياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْنَ الضَّحِك والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا من أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١).

فظاهرٌ، وأمَّا قصْرُ الآخِريَّةِ عليه في ذلك، وهو معْنى البَقاءِ، فإنْ أُرِيدَ به البقاءُ في العالَمِ الدُّنيويِّ، عرَضَ إشكالُ المُتعارِضِ بما ورَدَ مِن بَقاءِ الأرواحِ، وحديثِ أنَّ عجْبَ الذَّنَبِ لا يَفْنى، وأنَّ الإنسانَ منه يُعادُ[١]. ورفْعُ هذا الإشكالِ أنْ يُجعَلَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[٢]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ ببقاءِ غيرِه تعالى؛ لأنَّه بقاءٌ غيرُ واجبٍ، بلْ هو بجَعْلِ اللهِ تعالَى[٣].

- وفائدةُ إجراءِ الوَصفَينِ المُتضادَّينِ على اسمِ اللهِ تعالَى هنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأْنِ اللهِ تعالى؛ ليَتدبَّرَ العالِمون في مَواقِعِها[٤].

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ هذه الأسماءُ الأربعةُ متقابِلةٌ؛ وكلُّها خبرٌ عن مبتدأٍ واحدٍ لكنْ بواسطةِ حرفِ العطفِ، والإخبارُ بواسطةِ حرفِ العطفِ أقوى مِن الإخبارِ بدونِ واسطةِ حرفِ العطفِ، وفائدتُها: أوَّلًا: توكيدُ السَّابقِ؛ لأنَّك إذا عَطَفْتَ عليه جَعَلْتَه أصلًا، والأصلُ ثابتٌ، ثانيًا: إفادةُ الجمعِ، ولا يَستَلْزِمُ ذلك تعدُّدَ الموصوفَ، فإذا قيل: المعروفُ أنَّ العطفَ يَقتضي المُغايَرةَ! فالجوابُ: نعمْ، لكنَّ المغايرةَ تارةً تكونُ بالأعيانِ، وتارةً تكونُ بالأوصافِ؛ وهذا تغايُرُ أوصافٍ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١- ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٣).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ استِئنافٌ ثانٍ مُفيدٌ الاستِدلالَ على انفرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ؛ ليُقلِعوا عن الإشراكِ به. ويُفيدُ أيضًا بيانًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، وجُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢]؛ فإنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على عَظيمِ الإبداعِ[(١)].

- وبَدَأَ سُبحانَه بالسَّمَواتِ، مع أنَّ الأرضَ سابِقةٌ على السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في سُورةِ «فُصِّلَت» لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الأرضِ؛ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ لأنَّها أشرَفُ وأعلى مِن الأرضِ[(٢)].

- ولعلَّ تَقديمَ الخَلْقِ على العِلمِ؛ لأنَّه دَليلٌ عليه[(٣)].

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ استِئنافٌ لتَقريرِ عُمومِ عِلمِه تعالَى بكلِّ شَيءٍ؛ فكان بيانَ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] وجُملةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] جاريًا على طَريقةِ النَّشرِ لِلَّفِّ على التَّرتيبِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: =

- وقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بدأ بما يُمَاسُّ الإنسانَ -وإنْ كان غيرُه أشرَفَ منه-؛ لأنَّه تَحدَّثَ عمَّا يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ منها قبْلَ التحدُّثِ عمَّا يَنْزِلُ مِن السماءِ وما يَعْرُجُ فيها[١].

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ (يَلِجُ، يَخْرُجُ، يَنْزِلُ، يَعْرُجُ) فيه دَلالةٌ على ما أُودِعَ في الخافِقَينِ مِنَ القُوى؛ فصارَا بحيث يتجَدَّدُ منهما ذلك بخَلْقِه تجَدُّدَ استِمرارٍ إلى حينِ خَرابِهما[٢].

- وقَولُه: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ جاءتْ بلفظِ «فيها» بدلَ «إليها»؛ لنستفيدَ فائدتَينِ:

الفائِدةُ الأُولى: العُروجُ، يعني: الصُّعودَ.

الفائدةُ الثَّانيةُ: الدُّخولُ؛ لأنَّ «في» يُناسِبُها من الأفعالِ الدُّخولُ، تقولُ: «دَخَلَ في المكانِ»، أمَّا «عَرَجَ» و«يَعْرُجُ» فالَّذي يُناسِبُها «إلى»، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَدَلَ عن قولِه: «يَعْرُجُ إليها» إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو عطْفُ معنًى خاصٍّ

= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨).

على معْنًى شَمِلَه وغيرَه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بالمعطوفِ(١).

- و﴿أَيْنَ مَا﴾ ظَرفٌ للدَّلالةِ على تَعميمِ الأمْكِنةِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تكملةٌ لمَضمونِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وكان حقُّها ألَّا تُعطَفَ، وإنَّما عُطِفَت ترجيحًا لجانِبِ ما تَحْتوي عليه مِن الخبَرِ عن هذه الصِّفةِ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأْكيدٌ لنَظيرِه الَّذي في أوَّلِ هذه السُّورةِ؛ كُرِّر ليُبْنى عليه قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ فكان ذِكرُه في أوَّلِ السُّورةِ مَبنيًّا عليه التَّصرُّفُ في الموجوداتِ القابِلةِ للحَياةِ والموتِ في الدُّنيا، وكان ذِكرُه هنا مَبنيًّا عليه أنَّ أُمورَ الموجوداتِ كلِّها تَرجِعُ إلى تَصرُّفِه(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقال قبلَها بآيتَينِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فأعاد لَفظةَ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ووُصِلَت الأُولى بقولِه: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ووُصِلَتْ الأُخرى بقولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المعنَى له المُلْكُ أوَّلًا وآخِرًا؛ فالأوَّلُ في الدُّنيا، وهو وقْتُ الإحياءِ والإماتةِ، والآخَرُ في الآخِرةِ حِينَ تَرجِعُ الأمورُ إليه؛ فقَرَنَ بالأوَّلِ: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).

لأنَّهما مِن أماراتِ الملْكِ، وقَرَنَ بالآخَرِ ما يكونُ في الآخِرةِ مِن مَرجِعِ الخَلْقِ وجَزائِهم بالثَّوابِ والعِقابِ إليه؛ فجاء في كلِّ مكانٍ ما اقتضاهُ وما شاكَلَ معْناه(١).

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿لَهُۥ﴾؛ لقَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى؛ فيُفيدُ صِفةَ الواحِدِ(٢).

- وعطَفَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفَ الخاصِّ مِن وجهٍ على العامِّ منه فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ الجاريةِ في الدُّنيا، وعطْفَ المُغايِرِ فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ التي تَجري يومَ القِيامةِ، فإذا كان المعْنى: تَرجِعُ أفعالُ النَّاسِ إلى اللهِ -أي: تَرجِعُ في الحشرِ-؛ فالمرادُ: رُجوعُ أهلِها للجزاءِ على أعمالِهم؛ إذ لا يَتعلَّقُ الرُّجوعُ بحَقائقِها، فعطْفُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تَتميمٌ لجُملةِ ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: له مُلكُ العوالمِ في الدُّنيا، وله التَّصرُّفُ في أعمالِ العُقلاءِ مِن أهلِها في الآخرةِ. وإنْ أخَذْنا بشُمولِ اسمِ الأمورِ للذَّواتِ، كان مُفيدًا لإثباتِ البعثِ، أي: الذَّواتُ الَّتي كانتْ في الدُّنيا تَصيرُ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيُجازِيها على أعمالِها(٣).

- وتَعريفُ الجمْعِ في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ مِن صِيَغِ العُمومِ(٤).

- وتَقديمُ المُجرورِ على مُتعلَّقِه في قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ للاهتِمامِ لا للقَصْرِ؛ إذ لا مُقْتضَى للقصْرِ الحَقيقيِّ، ولا داعيَ للقَصْرِ الإضافيِّ؛ إذ لا يُوجَدُ مِن الكفَّارِ مَن يُثبِتُ البَعثَ، ولا مَن زَعَموا أنَّ الناسَ يَصيرونَ في

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٥، ٣٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٦).

تَصرُّفِ غيرِ اللهِ سُبحانَه[١].

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ أنْ يقولَ: (وإليه تُرجَعُ الأمورُ)؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بما دلَّتْ عليه، فتَكونَ كالمَثَلِ صالحةً للتَّسييرِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧-١١)

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾: أي: مُمَلَّكِينَ، فجعَل المالَ في أيديكم خَلَفًا لِمَن قبلَكم، فكان لغيرِكم فملَكْتموه، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ[١].

﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: المِيثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بيَمينٍ، وهو مِفعالٌ مِنَ الوَثيقةِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ[٢].

﴿لَرَءُوفٞ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) =

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: الجَنَّة، وأصلُ الحسنِ ضِدُّ القُبحِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا عبادَه إلى الإيمانِ والثَّباتِ عليه، وإلى الإنفاقِ في سبيلِه: آمِنوا باللهِ تعالى فوَحِّدوه، وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فصَدِّقوه واتَّبِعوه، وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ ما لهم إذا فعَلوا ذلك، فيقولُ: فالَّذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه؛ لهم ثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يُرغِّبُهم سبحانَه في الثَّباتِ على الإيمانِ، فيقولُ: وما لَكم لا تُؤْمِنونَ بالله، ورَسولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم، وقد أخَذَ اللهُ منكم العَهدَ بالإيمانِ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ؟!

ثمَّ يقولُ سبحانَه مبينًا جانبًا مِن مظاهرِ فضلِه: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحاتِ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإنَّ اللهَ بكم -أيُّها النَّاسُ- لَرَؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يحُضُّ على الإنفاقِ مرَّةً أخرَى، فيقولُ: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، وللهِ مِيراثُ السَّمَواتِ والأرضِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى تفاوُتَ الدَّرَجاتِ، على حسَبِ تفاوُتِ الأحوالِ والأعمالِ، فيقولُ: لا يَستَوي في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ مِنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ وقاتَلَ، مع مَنْ أنفقَ بَعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ؛ أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ

= لابن الهائم (ص: ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١١).

الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا.

ثمَّ يمدحُ الله تعالى كِلا الفريقَين، فيقولُ: وكُلًّا مِنهما وعَدَ اللهُ الفَوزَ بالجَنَّةِ، واللهُ بما تَعمَلونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يحُثُّ الله سبحانَه على الإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ، فيقولُ: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِيًا به ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، وله ثوابٌ حَسَنٌ وجزاءٌ جَميلٌ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى تَسبيحَ العالَمِ له، وما احْتَوى عليه مِن المُلكِ والتَّصرُّفِ، وما وصَفَ به نفْسَه مِن الصِّفاتِ العُلا، وخَتَمها بالعالِمِ بخَفيَّاتِ الصُّدورِ- أمَرَ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالثَّباتِ على الإيمانِ وإدامتِه، والنَّفقةِ في سَبيلِ اللهِ تعالى[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنواعًا مِنَ الدَّلائِلِ على التَّوحيدِ والعِلمِ والقُدرةِ؛ أتبَعَها بالتَّكاليفِ، وبدأ بالأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه[(٢)].

وأيضًا لَمَّا قامت الأدِلَّةُ على تنزيهِ سُبحانَه؛ قال تعالى آمِرًا بالإذعانِ له ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)]:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

أي: آمِنوا باللهِ تعالى[١] فوَحِّدوه، وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ فصَدِّقوه وأقِرُّوا برسالتِه وما جاء به واتَّبِعوه، وداوِموا على ذلك الإيمانِ واثبُتوا عليه[٢].

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾.

أي: وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه وجعَلَه عِندَكم عارِيَّةً، فتصَدَّقوا منه في سَبيلِه[٣].

---

(١) قال ابن الجوزي: (﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال المفسِّرونَ: هذا الخِطابُ لكفَّارِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٢).
وقال الشوكاني: (وهذا خِطابٌ لكفَّارِ العرَبِ، ويجوزُ أن يكونَ خِطابًا للجميعِ، ويكونَ المرادُ بالأمرِ بالإيمانِ في حقِّ المسلمينَ الاستِمرارَ عليه، أو الازديادَ منه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).
وممَّن اختار أنَّه خِطابٌ للنَّاسِ وجميعِ العِبادِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).
قوله: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ المرادُ: المالُ الَّذي أورثَكم عمَّن كان قبْلَكم، فخَلَفْتُموهم فيه وملكتُموه.
وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٠).
وقيل: المرادُ: أنَّ الأموالَ الَّتي بأيديكم إنَّما هي أموالُ الله، ولَسْتُم بأربابِها المالِكينَ لها على الحقيقةِ؛ لأنَّه خلقَها، وأباح لكم الانتِفاعَ بها، والاستِمتاعَ بمَنافِعِها، وجعَلَكم خُلَفاءَ بالتَّصرُّفِ فيها، فأنتم فيها بمَنزِلةِ الوُكَلاءِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).
قال الماوَرْدي: (في «ما جَعَلَكم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» قَولانِ؛ أحدُهما: يعني: ممَّا جعلَكم مُعَمَّرينَ =

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ تعالى بالإنفاقِ، ووَصَفه بما سَهَّله؛ سَبَّب عنه ما يُرَغِّبُ فيه، فقال تعالى[(١)]:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

أي: فالَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه مِن أموالِهم الَّتي استَخلَفَهم فيها: لهم ثوابٌ عَظيمٌ[(٢)].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ، وعَدَمَ المانعِ منه[(٣)]، فقال:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾.

أي: وما الَّذي يَحمِلُكم على عَدَمِ الإيمانِ باللهِ، والحالُ أنَّ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم المُحسِنِ إليكم[(٤)]؟!

= فيه بالرِّزقِ، قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ فيه بورِاثَتِكم له عمَّن قبْلَكم، قاله الحسَنُ. ويحتمِلُ ثالثًا: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ على القيامِ بأداءِ حُقوقِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القُرطبي في قولِه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: (هو الجنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن =

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ قد أخَذَ منكم العَهدَ بالإيمانِ(١)، ....

= كثير)) (٨/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القرطبي: (أيْ: أخَذ اللهُ ميثاقَكم. قال مجاهِدٌ: هو الميثاقُ الأوَّلُ الَّذي كان وهم في ظَهرِ آدَمَ بأنَّ اللهَ رَبَّكم لا إلَهَ لكم سِواه. وقيل: أخَذ مِيثاقَكم بأنْ رَكَّب فيكم العقولَ، وأقام عليكم الدَّلائلَ والحُجَجَ الَّتي تَدْعو إلى مُتابَعةِ الرَّسولِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهِدٌ، وعَطاءٌ، والكلبيُّ، ومقاتِلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي أنَّ ذلك الميثاقَ بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظرِ-: الرازيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥١). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: وَقَع أخْذُه، فصار في غايةِ القباحةِ تَركُ ما وقع التَّوثُّقُ بسَبَبِه بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظَرِ بإبداعِ العُقولِ، وذلك كُلُّه منضَمٌّ إلى أخذِ الذُّرِّيَّةِ مِن ظَهرِ آدَمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإشهادِهم على أنفُسِهم، وإشهادِ الملائكةِ عليهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (ما أعطانا عزَّ وجَلَّ مِنَ الفِطرةِ والعَقلِ والفَهمِ الَّذي نُدرِكُ به ما يَنفَعُنا ويَضُرُّنا، هذا هو الصَّحيحُ في معنى الميثاقِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

وقال القاسمي: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: بالإيمانِ؛ إذ ركَّبَ فيكم العُقولَ، ونَصَب الأدِلَّةَ، =

إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

= ومكَّنَكم مِنَ النَّظَرِ، بل أودَعَ في فِطَرِكم ما يَضطرُّكم لذلك إذا نُبِّهْتُم، وقد حصَل ذلك بتذكيرِ الرَّسولِ، فما عليكم إلَّا أن تأخُذوا في سَبيلِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢).

وقيل: إنَّ ذلك ببَيعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختاره: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).

قال ابن تيميَّة: (وإنَّما أَخَذ مِيثاقَ المؤمِنينَ ببَيعتِهم له؛ فإنَّ كُلَّ مَن كان مُسلِمًا مُهاجِرًا كان يُبايِعُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما بايَعه الأنصارُ لَيلةَ العَقَبةِ، وإنَّما دعاهم إلى تحقيقِ الإيمانِ وتكميلِه بأداءِ ما يجِبُ مِن تمامِه باطِنًا وظاهِرًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال الطَّبَريُّ: المعنى: إنْ كنتُم مؤمِنينَ في حالٍ مِن الأحوالِ فالآنَ.

وهذا معنًى ليس في ألفاظِ الآيةِ، وفيه إضمارٌ كثيرٌ، وإنَّما المعنى عندي أنَّ قولَه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يَقتَضي أن يُقدَّرَ بأثَرِه: فأنتم في رُتَبٍ شريفةٍ وأقدارٍ رفيعةٍ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إنْ دُمْتُم على ما بدَأْتُم به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أخَذ عليكم مِن الميثاقِ، أو بالحُجَجِ والدَّلائلِ، أو ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بسببٍ مِن الأسبابِ، فهذا مِن أعظَمِ أسبابِه، وأوضَحِ مُوجِباتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ باللهِ خالِقِكم. وكانوا يَعترفون بهذا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ فالزَموا الإيمانَ باللهِ ورسولِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَوطِئةَ ما يُوجِبُ الإيمانَ، وذكَرَ دُعاءَ الرَّسولِ إيَّاهم للإيمانِ- ذكَرَ أنَّه تعالى هو المُنَزِّلُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما دعا به إلى الإيمانِ[1]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحةَ الدَّالَّةِ على الحَقِّ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ والجَهلِ إلى نورِ الإيمانِ والتَّوحيدِ والهُدى واليَقينِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: يكونُ سَببًا في إخراجِكم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ويحتمِلُ أن يعودَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيُخرِجَكم اللهُ تعالى بهذه الآياتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وكِلا المعنَيَين حَقٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَببٌ في إخراجِ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمَّا المُخرِجُ حَقيقةً فهو اللهُ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ بكم؛ حيثُ أنزَلَ كُتُبَه، وأرسَلَ رُسُلَه لهِدايتِكم[1].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ أوَّلًا بالإيمانِ وبالإنفاقِ، ثمَّ أكَّد في الآيةِ المتقَدِّمةِ إيجابَ الإيمانِ؛ أتْبَعَه في هذه الآيةِ بتأكيدِ إيجابِ الإنفاقِ، والمعنى: أنَّكم ستَموتونَ فتُورَثونَ؛

= وقال البِقاعي: (﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الَّتي أنتم مُنغَمِسونَ فيها؛ مِنَ الحُظوظِ والنَّقائِصِ الَّتي جُبِلَ عليها الإنسانُ، والغَفلةِ والنِّسيانِ- الحامِلةِ على تَراكُمِ الجَهلِ؛ فمَن آتاه سُبحانَه العِلمَ والإيمانَ فقد أخرجه مِن هذه الظُّلُماتِ الَّتي طرَأَت عليه ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الَّذي كان وَصفًا لِرُوحِه وفِطرتِه الأُولى السَّليمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ بالظُّلُماتِ: ظُلُماتُ الجَهلِ، وظُلُماتُ الشِّركِ، وظُلُماتُ العُدوانِ، وظُلُماتُ العِصيانِ، وكُلُّ ما خالف الحَقَّ فهو ظُلمةٌ، وكلُّ ما وافقَه فهو نُورٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

فهلَّا قَدَّمْتُموه في الإنفاقِ في طاعةِ اللهِ تعالى[(١)]؟!

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، والحالُ أنَّ كلَّ أملاكِ الخَلقِ صائِرةٌ بعدَ مَوتِهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه؟! فلا معنى للبُخلِ بشَيءٍ لا تَملِكونَه حَقيقةً، وأنتم عنه زائِلونَ[(٢)]!

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ الإنفاقَ فَضيلةٌ؛ بيَّنَ أنَّ المُسابَقةَ في الإنفاقِ تَمامُ الفَضيلةِ[(٣)].

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

أي: لا يَتَساوى في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ منكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ[(٤)] ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أي: أنفِقوا ولا تَخشَوا فَقرًا وإقلالًا؛ فإنَّ الَّذي أنفَقتُم في سَبيلِه هو مالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَقاليدُهما، وعندَه خَزائِنُهما، وهو مالِكُ العَرشِ بما حوى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٤) قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، ومالَ إليه ابنُ عاشور، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، =

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

قال السعدي: (المرادُ بالفَتحِ هنا: هو فَتحُ الحُدَيبِيَةِ، حينَ جرى مِنَ الصُّلحِ بيْنَ الرَّسولِ وبيْنَ قُرَيشٍ مِمَّا هو أعظَمُ الفُتوحاتِ الَّتي حَصَل بها نَشرُ الإسلامِ، واختِلاطُ المُسلِمينَ بالكافِرين، والدَّعوةُ إلى الدِّينِ مِن غيرِ مُعارِضٍ؛ فدَخَل النَّاسُ مِن ذلك الوَقتِ في دينِ اللهِ أفواجًا، واعتَزَّ الإسلامُ عِزًّا عَظيمًا، وكان المسلِمونَ قبْلَ هذا الفَتحِ لا يَقدِرونَ على الدَّعوةِ إلى الدِّينِ في غيرِ البُقعةِ الَّتي أسلَمَ أهلُها، كالمدينةِ وتوابِعِها، وكان مَن أسلَمَ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِها مِن ديارِ المُشركينَ يُؤذَى ويُخافُ؛ فلذلك كان مَن أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ وأنفَقَ وقاتَلَ أعظَمَ دَرَجةً وأجرًا وثَوابًا مِمَّن لم يُسلِمْ ويُقاتِلْ ويُنفِقْ إلَّا بعدَ ذلك، كما هو مُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك كان السَّابِقونَ وفُضَلاءُ الصَّحابةِ غالِبُهم أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصَّحيحِ: «لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فوالَّذي نفْسي بيَدِه، لو أنفَقَ أحَدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه» [البخاري «٣٦٧٣»، ومسلم «٢٥٤٠»]. وهذا قاله لخالدِ بنِ الوليدِ لَمَّا تشاجَر هو وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ؛ لأنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوفٍ كان مِن السَّابِقينَ الأوَّلينَ، وهم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفتحِ وقاتَلوا، وهو فتحُ الحُدَيبِيَةِ، وخالدٌ هو وعَمرُو بنُ العاصِ وعُثمانُ بنُ طَلحةَ أسلَموا في مدَّةِ الهُدنةِ بعدَ الحُدَيبِيَةِ وقبْلَ فتحِ مكَّةَ، فكانوا مِن المُهاجِرينَ التَّابِعينَ، لا مِن المهاجِرينَ الأوَّلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٣٨٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

وقيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ مَكَّةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ -ونَسَبَه إلى جميعِ المفَسِّرينَ-، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي -وقال: (هو الأظهَرُ والأشهَرُ)-، وابنُ كثير -ونَسَبَه إلى الجُمهورِ-، وذهب إليه البِقاعي.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨). =

وقاتَلَ أعداءَ الدِّينِ، مع مَنْ أنفَقَ بعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ[1]!

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾.

أي: أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا[2].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّفضيلُ مُفهِمًا اشتِراكَ الكُلِّ في الفَضلِ؛ صَرَّح به ترغيبًا في الإنفاقِ على كُلِّ حالٍ[3].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

قيل: المُرادُ بهذا الفتحِ فتحُ مَكَّةَ؛ لأنَّ إطلاقَ لفظِ الفتحِ فِي المتعارَفِ يَنْصَرِفُ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((الاستذكار)) لابن عبد البَرِّ (٥/ ١٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

وأيضًا لَمَّا كان التَّفضيلُ بيْن الأمورِ قد يُتوَهَّمُ منه نَقصٌ وقَدحٌ في المفضولِ؛ احترَزَ تعالى مِن هذا بقَولِه[1]:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وكُلٌّ مِنَ القِسمَينِ قد وعَدَه اللهُ الفوزَ بالجَنَّةِ، وإن كان السَّابِقونَ أفضَلَ مِن اللَّاحِقينَ[2].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان زَكاءُ الأعمالِ إنَّما هو بالنِّيَّاتِ، وكان التَّفضيلُ مَناطَ العِلمِ؛ قال مُرَغِّبًا في إحسانِ النِّيَّاتِ، مُرَهِّبًا مِنَ التَّقصيرِ فيها[3]:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِكم ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

قال ابنُ كثير: (أي: فلِخبرتِه فاوَتَ بيْنَ ثَوابِ مَن أنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وقاتَلَ، ومَن فَعَل ذلك بعدَ ذلك؛ وما ذلك إلَّا لعِلْمِه بقَصدِ الأوَّلِ وإخلاصِه التَّامِّ، وإنفاقِه في حالِ الجَهدِ والقِلَّةِ والضِّيقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ أسبابَ الإنفاقِ وأوقاتَه وأعذارَه، ويَعلَمُ أحوالَ الجِهادِ ونَوايا المجاهِدينَ، فيُعطي كُلَّ عامِلٍ على نيَّةِ عَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى حَثَّ على النَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لأنَّ الجِهادَ مُتوَقِّفٌ على النَّفَقةِ فيه، وبَذْلِ الأموالِ في التَّجَهُّزِ له، فقال تعالى[1]:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ مالِه مُحتَسِبًا في نَفَقتِه، مُبتَغِيًا ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كثيرةً، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعْفٍ أو أكثَرَ، وله ثَوابٌ حَسَنٌ، وجزاءٌ جَميلٌ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمرُ بنُ الخطَّابِ: هو الإنفاقُ في سبيلِ اللهِ. وقيل: هو النَّفَقةُ على العيالِ. والصَّحيحُ أنَّه أعَمُّ مِنْ ذلك، فكلُّ مَن أنْفَق في سبيلِ اللهِ بنِيَّةٍ خالِصةٍ وعزيمةٍ صادِقةٍ دَخَل في عُمومِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

قيل: المرادُ بالأجرِ الكريمِ: الجنَّةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٢).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإنْ كانت تَمْرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تكونَ أعظَمَ مِنَ الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[(١)]))[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُحقِّقَ إيمانَه ويُثَبِّتَه، وكُلَّما رأى فيه تَزعزُعًا استعاذ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، ومضَى إلى سبيلِه، وأنْ يُنْفِقَ مِن المالِ، والمالُ محبوبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، ولا يمكِنُ أنْ يَبْذُلَ الإنسانُ شيئًا محبوبًا إليه إلَّا لِمَا هو أحَبُّ، فإذا بَذَلَ الإنسانُ المحبوبَ إليه ابتِغاءً لِرِضوانِ اللهِ، عَلِمْنا أنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ رِضوانَ اللهِ أكثَرَ مِن المالِ، وبذلك يَتَحقَّقُ الإيمانُ[(٣)].

٢- قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾، قَولُه: ﴿ مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾: أي: ليسَت لكم بالحَقيقةِ، وإنَّما انتَقَلتْ إليكم مِن غَيرِكم، وكما وصَلَتْ إليكم تَترُكونَها لغَيرِكم! وفيه تزهيدٌ فيما بيَدِ النَّاسِ؛ إذ مَصيرُه إلى غَيرِه، وليس له مِنه

(١) الفَلُوُّ: المُهْرُ (وهو الصَّغيرُ مِن أولادِ الفَرَسِ)؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فليَ عن أُمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ من إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٧).

إلَّا ما جاء في الحَديثِ: ((يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي مالي! وهل لك يا ابنَ آدَمَ مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنيت، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصَدَّقْتَ فأمضيتَ؟!))[١]، وقيل لأعرابيٍّ: لِمَن هذه الإبلُ؟ فقال: هي للهِ تعالى، عندي[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ عَمَلٍ صالحٍ يُسبَقُ إليه أفضَلُ مِمَّا يُؤَخَّرُ، مِن غيرِ أنْ نُلْحِقَ بالمتأخِّرِ تَقصيرًا[٣].

٤- يَجِبُ أنْ نَكُفَّ عن مَساوِئِ الصَّحابةِ، فلا نَذكُرَهم إلَّا بما يَستَحِقُّونَه مِن الثَّناءِ الجَميلِ، وأنْ نُطَهِّرَ قُلوبَنا مِن الغِلِّ والحِقدِ على أحَدٍ منهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، وقولِه فينا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] [الحشر: ١٠].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فَضيلةَ العَمَلِ على قَدْرِ رُجوعِ مَنفَعتِه إلى الإسلامِ والمُسلِمينَ، أو لكَثْرةِ المِحْنةِ به؛ لقِلَّةِ المُسلِمينَ وكَثرةِ الكُفَّارِ، وهو مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[٥] [التوبة: ١١٧]. فالنَّفَقةُ قبْلَ الفَتحِ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ حاجة

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠١)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

النَّاسِ كانت أكثَرَ لضَعفِ الإسلامِ، وفِعْلَ ذلك كان على المُنفِقينَ حينَئذٍ أشَقَّ. واللهُ أعلَمُ[١]. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ مَن أنفَقَ في شِدَّةٍ أعظَمُ أجرًا مِمَّن أنفَقَ في حالِ الرَّخاءِ[٢].

٦- قال الإمامُ مالِكٌ: (يَنبغي أن يُقَدَّمَ أهلُ الفَضلِ والعَزمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾)[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ نَدْبٌ بَليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى الإنفاقِ في سَبيلِه -بعْدَ الأمرِ به، والتَّوبيخِ على تَرْكِه، وبَيانِ دَرجاتِ المُنفِقينَ[٤]-، وترغيبُ النَّاسِ في أن يُنفِقوا أموالَهم في نُصرةِ المُسلِمينَ، وقِتالِ الكافِرينَ، ومُواساةِ فُقَراءِ المُسلِمينَ[٥]، وسمَّى ذلك الإنفاقَ قرضًا حسنًا؛ حَثًّا للنُّفوسِ وبَعثًا لها على البَذلِ؛ لأنَّ الباذِلَ متى عَلِمَ أنَّ عَينَ مالِه يعودُ إليه -ولا بُدَّ- طَوَّعَت له نَفْسُه بَذْلَه، وسَهُلَ عليه إخراجُه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ مَلِيءٌ وَفِيٌّ مُحسِنٌ كان أبلَغَ في طِيبِ قَلبِه وسَماحةِ نَفْسِه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ يَتَّجِرُ له بما اقترَضه ويُنَمِّيه له ويُثَمِّرُه حتَّى يَصيرَ أضعافَ ما بَذَله، كان بالقَرضِ أسمَحَ وأسمَحَ، فإنْ عَلِمَ أنَّه مع ذلك كُلِّه يَزيدُه مِن فَضلِه وعَطائِه أجرًا آخَرَ مِن غَيرِ جِنسِ القَرضِ، وأنَّ ذلك الأجرَ حَظٌّ عَظيمٌ وعَطاءٌ كَريمٌ؛ فإنَّه لا يتخَلَّفُ عن قَرضِه إلَّا لآفةٍ في نَفْسِه مِنَ البُخلِ والشُّحِّ، أو عَدَمِ الثِّقةِ بالضَّمانِ! وذلك مِن ضَعفِ إيمانِه؛ ولهذا كانت الصَّدَقةُ بُرهانًا لصاحِبِها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤).

وهذه الأمورُ كُلُّها تحتَ هذه الألفاظِ الَّتي تضَمَّنَتْها الآيةُ؛ فإنَّه سُبحانَه سَمَّاه قَرضًا، وأخبَرَ أنَّه هو المُقتَرِضُ لا قَرْضَ حاجةٍ، ولكِنْ قَرْضَ إحسانٍ إلى المُقرِضِ، استدعاه لمُعامَلتِه، وليَعرِفَ مِقدارَ الرِّبحِ فهو الَّذي أعطاه مالَه، واستدعَى منه مُعامَلتَه به، ثمَّ أخبَرَ عمَّا يَرجِعُ إليه بالقَرْضِ، وهو الأضعافُ المُضاعَفةُ، ثمَّ أخبَرَ عَمَّا يُعطيه فَوقَ ذلك مِنَ الزِّيادةِ، وهو الأجرُ الكريمُ، وحيث جاء هذا القَرضُ في القُرآنِ قَيَّده بكَونِه حَسَنًا، وذلك يَجمَعُ أُمورًا ثلاثةً:

أحدُها: أن يكونَ مِن طَيِّبِ مالِه، لا مِن رَديئِه وخَبيثِه.

الثَّاني: أن يُخرِجَه طَيِّبةً به نَفْسُه، ثابتةً عندَ بَذلِه؛ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ.

الثَّالِثُ: ألَّا يَمُنَّ به ولا يُؤذِيَ.

فالأوَّلُ: يتعَلَّقُ بالمالِ، والثَّاني: يتعَلَّقُ بالمُنفِقِ بَيْنَه وبينَ اللهِ، والثَّالِثُ: بَيْنَه وبيْنَ الآخِذِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۞ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ لَمَّا حثَّهم على تجديدِ الإيمانِ على سبيلِ الاستِمرارِ بالتَّعجُّبِ من تركِ ذلك، وكان كلُّ واحدٍ يدَّعي العراقةَ في الخَيرِ؛ هيَّجهم وألهبَهم بقولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أنَّ مِن لُطفِه سُبحانَه وعِنايتِه بكم أنَّه لم يَكتَفِ بمُجَرَّدِ دَعوةِ الرَّسولِ الَّذي هو أشرَفُ العالَمِ، بل أيَّده

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٥).

بالمُعجِزاتِ، ودَلَّكم على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البيِّناتِ[(١)].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ لأفعالِ اللهِ تعالى[(٢)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا المعنى الَّذي تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ جاء مُبَيَّنًا في قَولِه تعالى في (الطَّلاقِ): ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، وآيةُ (الطَّلاقِ) هذه بَيَّنَت أنَّ آيةَ (الحَديدِ) مِن العامِّ المخصوصِ، وأنَّه لا يُخرَجُ بهذا القُرآنِ العَظيمِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إلَّا مَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فقَولُه تعالى في (الحَديدِ): ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: بشَرطِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١]؛ فالدَّعوةُ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ، والخُروجِ بنُورِه مِن ظُلُماتِ الكُفرِ: عامَّةٌ، ولكِنَّ التَّوفيقَ إلى الخُروجِ به مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ خاصٌّ بمَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالمعنى الخاصِّ: للمُؤمِنينَ فقط[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ على مُوجِبِ الإنفاقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٠).

وهذا مِن أبلَغِ البَعثِ على الإنفاقِ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإشارةُ إلى اسمِ اللهِ «الآخِرِ»؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الأوَّلُ والآخِرُ، فإذا ثَبَتَ إرْثُه لهما لَزِمَ منه أنْ يكونَ هو الآخِرَ عزَّ وجلَّ[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ الصَّحابةَ مَراتِبُ، وأنَّ الفَضلَ للسَّابِقِ، وفيه دليلٌ على تَنزيلِ النَّاسِ مَنازِلَهم[(٣)]، وأنَّ الأعمالَ تَتفاوَتُ، والعُمَّالَ يَتفاوتونَ أيضًا؛ فَهُم كلُّهم صَحابةٌ، لكنْ لا يَستَوونَ[(٤)]. فهذه الآيةُ أصلٌ في تفاضُلِ أهلِ الفَضلِ فيما فُضِّلوا فيه، وأنَّ الفَضلَ ثابِتٌ للَّذين أسلَموا بعْدَ الفَتحِ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِهم[(٥)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّبْقَ إلى الإيمانِ وإلى العَمَلِ الصَّالحِ مَنقَبةٌ، ومِن أسبابِ الرُّتَبِ العاليةِ[(٦)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ نفْيُ التَّساوي بيْنَ النَّاسِ، والعَجَبُ أنَّنا نَسمَعُ مَن يُدَندِنُ كثيرًا فيقولُ: «إنَّ دِيْنَ الإسلامِ دِينُ المُساواةِ»! وهذا غلَطٌ على دِينِ الإسلامِ؛ فدِينُ الإسلامِ ليس دِينَ المُساواةِ، ولكِنَّه دِينُ العَدْلِ، والعَدْلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحَدٍ ما يَستَحِقُّه؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٤).

تَجِدُ أكثرَ ما في القرآنِ نَفيَ المُساواةِ، وليس إثباتَها! كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وكقَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) [الزمر: ٩].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ أفضَلُ مِن سائرِ الصَّحابةِ، والسَّابِقونَ الأوَّلُون هم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والمرادُ بالفَتحِ صُلْحُ الحُدَيبيَةِ؛ فإنَّه كان أوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ(٢). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ دليلٌ على فَضيلةِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لإنفاقِه مالَه على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قبْلَ الفَتحِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن لم يَكفُرْ أو مَن لم يأتِ بكَبيرةٍ أفضَلَ ممَّن تاب عنها مُطلَقًا، بل قد يكونُ التَّائِبُ مِن الكُفرِ والفُسوقِ أفضَلَ مِمَّن لم يَكفُرْ ولم يَفْسُقْ؛ فإنَّ اللهَ تعالى فضَّلَ الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا على الَّذين أنفَقوا مِن بَعْدُ وقاتَلوا، وأولئك كلُّهم أسلَموا بعدَ الكُفرِ، وهؤلاء فيهم مَن وُلِدَ على الإسلامِ! وفَضَّلَ السَّابِقينَ الأوَّلينَ على التَّابعينَ لهم بإحسانٍ، وأولئك آمَنوا بعدَ الكُفرِ، وأكثرُ التَّابعينَ وُلِدوا على الإسلامِ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ الصَّحابةِ كُلِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٣٤).

رَضِيَ اللهُ عنهم؛ حيث شَهِدَ اللهُ لهم بالإيمانِ، ووعَدَهم الجَنَّةَ[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ إنَّما نبَّه بهذا؛ لئلَّا يُهدَرَ جانِبُ الآخَرِ بمَدحِ الأوَّلِ دونَ الآخَرِ، فيَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ ذَمَّه؛ فلهذا عَطَف بمَدحِ الآخَرِ والثَّناءِ عليه، مع تَفضيلِ الأوَّلِ عليه[٢]، فمِن بلاغةِ الكلامِ الاحتِراسُ بدَفعِ ما يُتوَهَّمُ وُقوعُه[٣]، فلمَّا كان تفضيلُ السَّابِقينَ قد يُفهَمُ منه أنْ لا فَضْلَ للَّاحِقينَ قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، أي: كلٌّ مِن الَّذين أنفَقوا مِن قَبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والَّذين أنفَقوا مِن بعدُ وقاتَلوا: وَعَدَهم اللهُ الحُسنى، يعني: الجَنَّةَ[٤].

١٦- المُبهَمُ[٥] لا يُقبَلُ حديثُه حتَّى يُعْلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِن الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ حَديثَه؛ لأنَّ الصَّحابةَ كلَّهم عُدُولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ولِتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[٦] [الفتح: ٢٩].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يكُنْ -مِن الصَّحابةِ- مِن المنافِقينَ فهو مِن أهلِ الجَنَّةِ يَقينًا؛ لأنَّه قد وَعَدَهم اللهُ تعالى الحُسنى كلَّهم، وأخبَرَ أنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، وأنَّ مَن سَبَقَتْ له الحُسنى فهو مُبعَدٌ مِن النَّارِ، لا يَسمَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٥) المبهمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عينُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٦) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

حَسيسَها، ولا يَحزُنُه الفَزَعُ الأكبَرُ، وهو فيما اشتَهَى خالِدٌ[(١)].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يُؤَيِّدُ حديث رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ -جلَّ جلالُه- يُرَبِّي صَدَقةَ المتصدِّقِ كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه، أو فَصيلَه))[(٢)]؛ فقد ذَكَر مُضاعَفتَها قبْلَ أجْرِها؛ لِيَكونَ الأجرُ على ما ربَّاه وأعظَمَه، لا على صَغيرِ ما أقرَضَه؛ جُودًا منه وكَرَمًا، وهو أعلَمُ[(٣)].

١٩- قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في تسميةِ الصَّدقةِ بالقَرضِ، وإضافتِها إلى نفْسِه، وهي واصِلةٌ إلى غيرِه: إفادتُنا أنَّ المُتَقَرِّبَ إلى اللهِ بإعطاءِ الفَقيرِ مُعَظِّمٌ حَقَّه، فيَخْرُجُ مِنه: أنَّ المُتحَرِّيَ مَسَرَّةَ رَجُلٍ بإرفادِ مَن يُحِبُّه هو مُكرِمُه بذلك الرِّفْدِ، ومُستَوجِبٌ مِن عِندِه المكافأةَ على فِعْلِه[(٤)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى؛ حيثُ سَمَّاه قَرضًا، والمالُ مالُه، والعَبدُ عَبدُه، ووَعَد بالمُضاعَفةِ عليه أضعافًا كَثيرةً، وهو الكَريمُ الوَهَّابُ[(٥)].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى شَيئَينِ: إلى الإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا

---

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/ ١١٧)، ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

يَرى سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ. وإلى المُتابَعةِ، في قَولِه تعالى: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأنَّ العَمَلَ الحَسَنَ ما كان مُوافِقًا للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

والإخلاصُ والمُتابَعةُ هما شَرطانِ في كلِّ عَمَلٍ: الإخلاصُ لله سبحانَه وتعالى، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(١).

٢٢- القَرضُ الحَسَنُ في قَولِه تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: هو القَرضُ المُستَكمِلُ مَحاسِنَ نَوعِه؛ مِن كَونِه عن طِيبِ نَفسٍ، وبَشاشةٍ في وَجهِ المُستَقرِضِ، وخُلُوٍّ عن كُلِّ ما يُعَرِّضُ بالمِنَّةِ، أو بتَضييقِ أجَلِ القَضاءِ(٢).

٢٣- قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَجْرٌ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَها العامِلُ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ وقَعَ مَوقعَ النَّتيجةِ بعْدَ الاستدلالِ؛ فإنَّ أوَّلَ السُّورةِ قرَّرَ خُضوعَ الكائناتِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى المُتصرِّفُ فيها بالإيجادِ والإعدامِ وغيرِ ذلك؛ فهو القديرُ عليها، وأنَّه عليمٌ بأحوالِهم، مُطَّلِعٌ على ما تُضمِرُه ضَمائرُهم، وأنَّهم صائرونَ إليه فمُحاسِبُهم؛ فلا جَرَمَ تَهيَّأَ المقامُ لإبلاغِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٧).

التَّذكيرَ بالإيمانِ به إيمانًا لا يَشوبُه إشراكٌ، والإيمانِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ قد تبيَّن صِدقُه بالدَّلائلِ الماضيةِ الَّتي دلَّت على صِحَّةِ ما أخبَرَهم به ممَّا كان مَحلَّ ارتيابِهم وتَكذيبِهم، كما أشار إليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، فذلك وجْهُ عَطفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على مُتعلَّقِ الإيمانِ، مع أنَّ الآياتِ السَّابقةَ ما ذَكَرت إلَّا دَلائلَ صِفاتِ اللهِ دونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالخِطابُ بـ ﴿ءَامِنُواْ﴾ للمُشرِكين[١].

- قولُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه تَخصيصُ الإنفاقِ بالذِّكرِ؛ للتَنويهِ بشأْنِه هنا[٢].

- وجِيءَ بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنْفِقوا مِن أموالِكم)، أو (ممَّا رزَقَكم اللهُ)؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن التَّنبيهِ على غفْلةِ السَّامِعينَ عن كَونِ المالِ للهِ، فلمَّا أمَرَهم بالإنفاقِ منه على عِبادِه، كان حقًّا عليهم أنْ يَمتثِلوا لذلك، كما يَمتثِلُ الخازنُ أمْرَ صاحبِ المالِ إذا أمَرَه بإنفاذِ شَيءٍ منه إلى مَن يُعيِّنُه. وأيضًا وُضِعَ قولُه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ مَوضِعَ (ممَّا رزَقْناكم) -كما في سائرِ المواضِعِ- تَسهيلًا على بَذْلِها، وإيذانًا بأنَّ الأموالَ عَواريُّ ودُوَلٌ[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، لا للطَّلَبِ؛ لاستِفادةِ الطلَبِ مِن فِعلِ ﴿جَعَلَكُم﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ لتَأكيدِ الطَّلَبِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ تَفريعٌ وتَسبُّبٌ على الأمرِ بالإيمانِ والإنفاقِ؛ لإفادةِ تَعليلِه، كأنَّه قِيل: لأنَّ الَّذين آمَنوا وأنْفَقوا أعدَدْنا لهم أجْرًا كَبيرًا(١).

- وقولُه: ﴿مِنكُمۡ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: الَّذين آمَنوا، وهم بَعضُ قومِكم، وفي هذا إغراءٌ لهم بأنْ يُماثِلوهم(٢).

- ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا المُضيِّ (آمَنوا - أنفَقوا) في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ مُستعمَلَينِ في معْنى المضارعِ؛ للتَّنبيهِ على إيقاعِ ذلك(٣).

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وعْدٌ بالأجرِ، وفيه مُبالَغاتٌ؛ بجَعْلِ الجُملةِ اسميَّةً، وإعادةِ ذِكرِ الإيمانِ والإنفاقِ، وبِناءِ الحكْمِ على الضَّميرِ، وتَنكيرِ الأجْرِ، ووصْفِه بالكُبْرِ(٤).

- وحُذِفَ مَفعولُ (أَنْفَقُوا)؛ للمُبالَغةِ في الحَثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ حسَبَما أُمِروا به، بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلك عُذرٌ ما في الجُملةِ، على أنَّ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿لَكُمۡ﴾، والعاملُ ما فيه مِن مَعْنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

الاستِقرارِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكُم غيرَ مؤمنينَ؟! على تَوجيهِ الإنكارِ والنَّفيِ إلى السَّببِ فقطْ مع تَحقُّقِ المسبَّبِ، لا إلى السَّببِ والمسبَّبِ جميعًا، فيَكونُ مَضمونُ الجُملةِ الحاليةِ مُحقَّقًا؛ فإنَّ كُلًّا مِن عدَمِ الإيمانِ وعدَمِ الرَّجاءِ أمرٌ مُحقَّقٌ قد أُنكِرَ ونُفِيَ سَببُه[١].

- قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾، وهي مُفيدةٌ لتَوبيخِهم على الكُفرِ معَ تَحقُّقِ ما يُوجِبُ عدَمَه، بعْدَ تَوبيخِهم عليهِ مع عدَمِ ما يُوجِبُه، أيْ: وأيُّ عذْرٍ في ترْكِ الإيمانِ والرَّسولُ يَدعُوكم إليهِ، ويُنبِّهُكم عليه[٢]؟!

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستأنَفةٌ، وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾[٣].

- واسمُ الفاعلِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، بقَرينةِ وُقوعِه في سِياقِ الشَّرطِ، أي: فقدْ حصَلَ ما يَقتضي أنْ تُؤمِنوا مِن السَّببِ الظَّاهرِ، والسَّببِ الخفِيِّ المُرتكِزِ في الجِبِلَّةِ[٤]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ استِئنافٌ ثالثٌ انتقَلَ به الخِطابُ إلى المؤمنينَ، والخطابُ هنا وإنْ كان صالحًا لتَقريرِ ما أفادَتْه جُملةُ ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، ولكنَّ أُسلوبَ النَّظمِ وما عُطِفَ على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه الجُملةِ يَقتضيانِ أنْ تكونَ استئنافًا انتقاليًّا، هو مِن حُسْنِ التَّخلُّصِ[١] إلى خِطابِ المسلِمينَ، مع الدَّلالةِ على تَقريرِ ما قبْلَه، ولا تَفوتُه الدَّلالةُ على تَقريرِ ما قبْلَه؛ لأنَّ التَّقريرَ يَحصُلُ مِن انتِسابِ المعْنيَينِ: معنى الجُملةِ السَّابقةِ، ومعْنى هذه الجُملةِ المواليةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَوقعِها ومعْناها وعِلَّتِها وما عُطِفَ عليها؛ أفادتْ بَيانًا، وتأْكيدًا، وتَعليلًا، وتَذييلًا[٢]، وتَخلُّصًا لغَرَضٍ جديدٍ، وهي أغراضٌ جمَعَتْها جمْعًا بلَغَ حدَّ الإعجازِ في الإيجازِ، مع أنَّ كلَّ جُملةٍ منها مُستقِلَّةٌ بمعنًى عظيمٍ مِن الاستدلالِ والتَّذكيرِ والإرشادِ والامتنانِ[٣].

-وفي قَولِه: ﴿يُنَزِّلُ﴾ خُصوصيَّتَينِ؛ إحداهُما: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل) الدَّالَّةِ على التَّكريرِ، والثَّانيةُ: التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ الدَّالَّةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ المَقامَ للتَّبشيرِ بزيادةِ الإخراجِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ يَومًا فيَومًا، وفي كلِّ

(١) حُسنُ التَّخَلُّصِ: هو الانتِقالُ ممَّا ابتُدِئَ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن مَوضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأسلوبٍ حَسَنٍ مُستطابٍ، على وَجهٍ سَهلٍ دَقيقِ المعنى، بحيث لا يَشعُرُ السَّامِعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقعَ عليه الثَّاني؛ لشِدَّةِ الالتِئامِ بيْنَهما. وحُسنُ التَّخَلُّصِ مُتشابِهٌ جِدًّا مع الاستِطرادِ، إلَّا أنَّ بيْنَهما فرْقًا دقيقًا، بيانُه: أنَّ التَّخَلُّصَ ترْكُ ما كان الكلامُ فيه بالكُلِّيَّةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّصَ إليه. والاستِطرادُ: مُرورٌ بذِكرِ الأمرِ الَّذي استُطرِدَ إليه مُرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ، ثمَّ تَرْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكَلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَضَ عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٢٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهِرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧١).

حالٍ. وانظُرْ قَولَه في الآيةِ الأُخرى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، فلا تَجِدُ في ﴿نَزَّلَ﴾ إلَّا خُصوصيَّةً واحِدةً، وهي: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل)؛ لأنَّ المَقامَ للامتِنانِ، والامتِنانُ يَكونُ بما وقَعَ، لا بما سيَقَعُ(١).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ المُشرِكين في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ قد حَسِبوها إساءةً لهم ولآبائِهم وآلِهَتِهم؛ فقد قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(٢) [الفرقان: ٤١، ٤٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيةَ، الخِطابُ مُوجَّهٌ للمؤمنينَ، فقد أُعِيدَ الخِطابُ بلَونٍ غيرِ الَّذي ابتُدِئَ به في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، ومِن لَطائفِه أنَّه مُوجَّهٌ إلى المنافِقين الَّذين ظاهِرُهم أنَّهم مُسلِمونَ وهمْ في الباطِنِ مُشرِكون، فهمُ الذين شَحُّوا بالإنفاقِ، ووَجْهُ إلحاقِ هذه الآيةِ وهي مَدنيَّةٌ بالمكِّيِّ مِن السُّورةِ -على قولٍ-: مُناسَبةُ استيعابِ أحوالِ المُمسِكينَ عن الإنفاقِ مِن الكُفَّارِ والمؤمنينَ؛ تَعريضًا بالتَّحذيرِ مِن خِصالِ أهلِ الكفْرِ؛ إذ قد سبَقَها قولُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٣) [الحديد: ٧].

(١) يُنظر: ((موجز البلاغة)) ابن عاشور (ص: ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو تَوبيخٌ لهم على تَرْكِ الإنفاقِ المأمورِ به بعدَ تَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلكَ أيضًا عُذْرٌ مِن الأعذارِ(١).

- و(ما) استفهاميَّةٌ، مُستعمَلةٌ في اللَّومِ والتَّوبيخِ على عدَمِ إنفاقِهم في سَبيلِ اللهِ، و(أنْ) مَصدريَّةٌ، والمَصدرُ المُنسبِكُ منها والفِعلِ المنصوبِ بها في مَحلِّ جَرٍّ باللَّامِ، أو بـ(في) مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: ما حصَلَ لكمْ في عدَمِ إنفاقِكم؟! أي: ذلك الحاصلُ أمرٌ مُنكَرٌ(٢).

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿تُنفِقُواْ﴾؛ لظُهورِ أنَّه الَّذي بُيِّنَ حالُه فيما سبَقَ، وللمُبالَغةِ في الحثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ مِن فاعلِ (لَا تُنْفِقُوا) ومَفعولِه، مُؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ؛ فإنَّ ترْكَ الإنفاقِ بغيرِ سَببٍ قَبيحٌ مُنكَرٌ، ومع تَحقُّقِ ما يُوجِبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبْحِ، وأدخَلُ في الإنكارِ؛ فإنَّ بيانَ بَقاءِ جَميعِ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن الأموالِ بالآخِرةِ للهِ عزَّ وجلَّ مِن غيرِ أنْ يَبقَى مِن أصحابِها أحدٌ؛ أقْوى في إيجابِ الإنفاقِ عليهم مِن بَيانِ أنَّها للهِ تعالى في الحقيقةِ، أو أنَّها انتقَلت إليهم مِن غيرِهم، كأنَّه قيلَ: وما لَكم في ترْكِ إنفاقِها في سَبيلِ اللهِ والحالُ أنَّه لا يَبقَى لكُم منها شَيءٌ، بل تَبقى كلُّها للهِ تعالَى(٤)؟!

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧١).

لِزيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ[١].

- وإضافةُ ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ، وهو على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: أهْلِها، وليس المُرادُ ميراثَ ذاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بعْدَ انقراضِ النَّاسِ، فلا يُؤثِّرُ في المقصودِ مِن حثِّهم على الإنفاقِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَفاوُتِ درَجاتِ المُنفِقينَ حسَبَ تَفاوتِ أحوالِهم في الإنفاقِ، بعْدَ بَيانِ أنَّ لهم أجرًا كَبيرًا على الإطلاقِ؛ حثًّا لهم على تَحرِّي الأفْضلِ[٣].

- وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا يَجولُ في خَواطرِ كثيرٍ مِن السَّامعينَ مِن أنَّهم تأخَّروا عن الإنفاقِ غيرَ ناوينَ ترْكَه، ولكنَّهم سيَتدارَكونه. وأُدمِجَ[٤] فيه تَفضيلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٥).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

جِهادِ بَعضِ المجاهِدينَ على بَعضٍ؛ لِمُناسَبةِ كَونِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ يَشملُ إنفاقَ المجاهِدِ على نفْسِه في العُدَّةِ والزَّادِ، وإنفاقَه على غيرِه ممَّن لم يَستكمِلْ عُدَّتَه ولا زادَهُ؛ ولأنَّ مِن المسلمينَ مَن يَستطيعُ الجهادَ ولا يَستطيعُ الإنفاقَ، فأُرِيدَ ألَّا يُغفَلَ ذِكْرُه في عِدادِ هذه الفضيلةِ؛ إذ الإنفاقُ فيها وَسيلةٌ لها[١].

- وعطْفُ القِتالِ على الإنفاقِ للاستِطرادِ[٢]، أو للإيذانِ بأنَّه مِن أهمِّ مَوادِّ الإنفاقِ مع كَونِه في نفْسِه مِن أفضَلِ العباداتِ، وأنَّه لا يَخلُو مِن الإنفاقِ أصلًا[٣].

- ونفْيُ التَّسويةِ مُرادٌ به نفْيُها في الفَضيلةِ والثَّوابِ؛ فإنَّ نفْيَ التَّسويةِ في وصْفٍ يَقْتضي ثُبوتَ أصلِ ذلك الوصْفِ لجَميعِ مَن نُفِيَت عنهم التَّسويةُ، فنفْيُ التَّسويةِ كِنايةٌ عن تَفضيلِ أحدِ جانبَينِ، وتَنقيصِ الجانبِ الآخَرِ نقْصًا مُتفاوِتًا[٤].

- وحُذِفَ ثاني الاستِواءَينِ -وهو قَسيمُ مَن أنفَقَ مِن قبْلِ الفتْحِ- إيجازًا؛ لأنَّ الاستِواءَ لا يتِمُّ إلَّا بعدَ شَيئينِ مُقدَّرينِ، وتَقديرُهما: لا يَستوي منكم مَن أنفَقَ مِن قبْلِ فتْحِ مكَّةَ وقوَّةِ الإسلامِ، ومَن أنفَقَ مِن بعْدِ الفتْحِ، فحُذِفَ؛ لوُضوحِ الدَّلالةِ عليه فيما بعْدَه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤).

(٢) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ يرجِعُ إلى الأوَّل. ويكونُ المرورُ بذكرِ الأمرِ الَّذي استطرد إليه مرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ ثمَّ تركه والعودة إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عروضًا. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، =

- وقولُه: ﴿مِنكُم﴾ حالٌ مِن ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ أصْلُه نعْتٌ، قُدِّمَ للاهتِمامِ؛ تعجيلًا بهذا الوصْفِ(١).

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ دونَ الضَّميرِ؛ لِما تُؤْذِنُ به الإشارةُ مِن التَّنويهِ والتَّعظيمِ، والإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم، وعُلوِّ طَبَقتِهم في الفضلِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الإخبارِ(٢).

- قولُه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ احتراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ اسمَ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ للمُبالَغةِ، وعُبِّرَ بلَفظِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لبَيانِ أنَّ الدَّرجةَ هي دَرجةُ الحُسنَى؛ ليَكونَ للاحتِراسِ معْنًى زائدٌ على التَّأكيدِ، وهو ما فيه مِن البَيانِ(٣).

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، مَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ والبَيانِ لجُملةِ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ(٥).

- و(مَن) استفهاميَّةٌ، و﴿ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ خبَرُها، و﴿ذَا﴾ مُعترِضةٌ لاستِحضارِ حالِ المُقترِضِ بمَنزلةِ الشَّخصِ الحاضرِ القريبِ. أو ﴿ذَا﴾ صِلةٌ، أي: زائدةٌ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧).

لمُجرَّدِ التأْكيدِ[(١)].

- والفاءُ في جُملةِ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فاءُ السَّببيَّةِ؛ لأنَّ المُضاعَفةَ مُسبَّبةٌ على القرْضِ، والمعْنى التَّحريضُ على الإقراضِ، وتَحصيلِ المُضاعَفةِ؛ لأنَّ الإقراضَ سَببُ المضاعَفةِ، فالعملُ لحُصولِ الإقراضِ كأنَّه عمَلٌ لحُصولِ المُضاعفةِ. أو على اعتبارِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ لِتَكونَ الجُملةُ اسميَّةً في التَّقديرِ، فيَقَعَ الخبرُ الفِعليُّ بعْدَ المبتدأِ مُفيدًا تَقويةَ الخبَرِ، وتأْكيدَ حُصولِه، واعتبارِ هذه الجُملةِ جوابًا لـ (مَن) المَوصولةِ بإشرابِ الموصولِ معْنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ كثيرٌ في القرآنِ[(٢)].

- وضَميرُ النَّصبِ في ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القرْضِ الحسَنِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: فيُضاعِفَ جَزاءَه له[(٣)].

- وجُعِلَ الأجْرُ الكَريمُ مُقابِلَ القَرْضِ الحسَنِ؛ فقُوبِلَ بهذا مَوصوفٌ وصِفتُه بمِثْلِهما[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٥)

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُشْرَاكُمُ﴾: أي: بِشارَتُكم الَّتي تُبَشَّرون بها، والبُشْرى تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[(١)].

﴿انظُرُونَا﴾: أي: انتَظِرُونا، مِنَ النَّظَرِ بمعنى الانتِظارِ، ومِنْه النَّظِرةُ: وهي التَّأخيرُ، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه، ومنه الانتظارُ، كأنَّه يَنظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يَأتي فيه[(٢)].

﴿نَقْتَبِسْ﴾: أي: نَستَضِئْ، والقَبَسُ: شُعْلَةُ النَّارِ، وأصلُ (قبس): يدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ النَّارِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

﴿مِن قِبَلِهِ﴾: أي: مِنْ جِهَتِه، وقِبَلُ: أي: الجهةُ المقابِلةُ، ويُقالُ: فَعَل ذلك قِبَلًا، أيْ: مُواجَهةً. وهذا مِن قِبَلِ فُلانٍ، أيْ: مِن عِنْدِه، كأنَّه هو الَّذي أقْبَل به عليك، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(١).

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: أهْلَكْتُموها وأضْلَلْتُموها بالنِّفاقِ، أو: أوقَعْتُموها في بَليَّةٍ وعذابٍ. وفِتنتُهم أنفُسَهم في هذا الموضعِ كانت النِّفاقَ، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رَداءتِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشنقيطي: (الفِتنة أُطْلِقَتْ في القرآنِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وبعضُهم يقولُ: أربعةَ إطلاقاتٍ. أمَّا الإطلاقاتُ الثَّلاثُ الَّتي لم يُخالِفْ فيها أحَدٌ:

فمنها إطلاقُ الفِتنةِ على الاختبارِ، وهو أشهَرُها في القرآنِ.

ومنها إطلاقُ الفتنةِ على الإحراقِ بالنَّارِ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: فَتَنْتُ الذَّهبَ، إذا سَبَكْتَه في النَّارِ وأذَبْتَه، أي: لِيَتَبيَّنَ أخالِصٌ هو أم زائِفٌ. ومِن إطلاقِ الفِتنةِ على مُطْلَقِ الوضعِ في النَّارِ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُحْرَقون بالنَّارِ، والعياذُ بالله...

وكذلك تُطْلَقُ الفِتنةُ على نتيجةِ الاختبارِ إن كانت سيِّئةً خاصَّةً؛ كالمعاصي والكفرِ، فإنَّ الكفَّارَ والعُصاةَ اختَبَرَهم اللهُ بالأوامرِ والنَّواهي، فكانت نتيجةُ الاختبارِ فيهم غيرَ محمودةٍ، حيث كفَروا وعَصَوْا؛ ولِذا يُطْلَقُ اسمُ الفِتنةِ على الكفرِ والمعاصي، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتَّى لا يَبقى شِرْكٌ.

الرَّابعُ: إطلاقُ الفتنةِ بمعنَى الحُجَّةِ، كما قاله بعضُ العلماءِ في قولِه...: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي: حُجَّتُهم). ((العذب النمير)) (١/ ٣٢٥). =

﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾: أي: انتظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، أو: تأخَّرْتُم بالتَّوبةِ، وأصلُ (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[1].

﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: أي: شَكَكْتُم، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ[3].

﴿فِدۡيَةٞ﴾: أي: عِوَضٌ وبَدَلٌ، وأصلُ (فدي): يدُلُّ على جَعْلِ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[4].

﴿مَأۡوَىٰكُمُ﴾: أي: مَثْواكم ومَسكَنُكم، والمأوى: مكانُ كُلِّ شَيءٍ يَأْوِي إليه،

= وذكر ابنُ قُتَيْبةَ مِن معاني الفِتنةِ أيضًا: الصَّدَّ والاستِزلالَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي: يَصُدُّوك ويَستَزِلُّوك. وقولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣] أي: صادِّينَ.

وذكر مِن معانيها: العِبْرةَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وقولِه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ٥]، قال: (أي: يَعتَبِرونَ أمْرَهم بأمْرِنا، فإذا رأَوْنا في ضرٍّ وبلاءٍ، ورأَوْا أنفُسَهم في غِبْطةٍ ورَخاءٍ؛ ظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، ونحن على باطلٍ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

وأصلُ (أوى): يدُلُّ على التَّجمُّع[١].

﴿مَوۡلَىٰكُمۡ﴾: أي: مَصيرُكم، وأولَى بكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا فضلَ الإيمانِ واغتِباطَ أهلِه به يومَ القيامةِ: يومَ تَرى المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يَومَ القيامةِ يَسْعى نُورُهم مِن أمامِهم، وبأيمانِهم، يُقالُ لهم: بِشارتُكم العَظيمةُ اليَومَ جَنَّاتٌ لكم، تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

ثُمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المنافِقين، ويَذكُرُ جانبًا ممَّا يَدورُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ مِن مُحاوَراتٍ، فيقول: يَومَ يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ للَّذِين آمَنوا: انتَظِرونا نَنَلْ قَبَسًا مِن نُورِكم، فيُقالُ لهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالِك نُورًا لأنفُسِكم! فضُرِبَ بيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ حاجِزٌ يَفصِلُ بيْنَهم، له بابٌ باطِنُه مِن جِهةِ المُؤمِنينَ فيه الجنَّةُ، وظاهِرُه مِن جِهةِ المُنافِقينَ يأتِيهم مِن قِبَلِه العَذابُ.

يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ، ونَفعَلُ ما تَفعَلونَ؟! قالوا لهم: بلَى قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم، وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، وشَكَكْتُم في الحَقِّ، وخَدَعَتْكم أمانيُّكم الباطِلةُ، وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ!

فاليَومَ لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ يُخَلِّصُكم مِن العَذابِ، ولا مِنَ الَّذين كَفَروا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

مَنزِلُكم النَّارُ، هي مَوضِعُ قُربكم، ومَصيرُكم، وبِئسَ المَصيرُ هي!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أن أمَرَ اللهُ تعالى بالإيمانِ والإنفاقِ في سبيلِه، وحَثَّ على كُلٍّ منهما بوُجودِ مُوجِباتِه؛ فحَثَّ على الإيمانِ بوُجودِ الأسبابِ الَّتي تُساعِدُ عليه، وهي وُجودُ الرَّسولِ بيْنَ أظهُرِهم، وكتابِه الَّذي يُتلَى بيْنَ أيديهم، وحَثَّ على الإنفاقِ فأبان أنَّ المالَ مالُ اللهِ، وهو عارِيَّةٌ بيْنَ أيديهم ثمَّ يُرَدُّ إليه، وأنَّهم يَنالونَ على إنفاقِه الأجرَ العظيمَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، ثمَّ ذَكَر أنَّ المنفِقينَ أوَّلَ الإسلامِ لهم مِن الأجرِ أكثَرُ مِمَّن أنفَقوا مِن بَعْدُ حِينَ كَثُرَ النَّصيرُ والمُعينُ- ذكَرَ هنا حالَ المؤمِنينَ المنفِقينَ يومَ القيامةِ(١).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: يومَ(٢) ....

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٦٨).

(٢) قال الزمخشري: (﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظَرفٌ لِقَولِه: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. أو مَنصوبٌ بإضمارِ «اذْكُرْ»؛ تعظيمًا لذلك اليَومِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٥).

ممَّن قال: إنَّ ﴿يَوْمَ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ -أي: وله أجرٌ كَريمٌ في اليَومِ الَّذي ترى فيه المؤمنينَ والمُؤمِناتِ يَسعى نُورُهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٤).

وممَّن قال بأنَّ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ: جلالُ الدين المحلي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩)، =

تَرَى(١) المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ يَومَ القيامةِ يَمضي نُورُهم معهم مِن أمامِهم، وبأيْمانِهم(٢).

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

وقيل: هذه الآيةُ تَتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾... وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩).

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَى﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَكونَ على مِنْوالِ المُخاطَباتِ الَّتي قَبْلَه، أي: يومَ يَرى الرَّائي، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

وقال الألوسي: (الخِطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه، أو لسيِّدِ المُخاطَبينَ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥، ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥، ٣٨٦).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ثمَّ يَنتهي النَّاسُ بعدَ مفارقتِهم مكانَ الموقفِ إلى الظُّلْمةِ التي دونَ الصِّراطِ، وهي على جسرِ جهنَّمَ، كما تقدَّم عن عائشةَ: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئِل أينَ النَّاسُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ فقال: «هم في الظُّلْمةِ دونَ الجسرِ» [مسلم «٣١٥»]. وفي هذا الموضعِ يفترقُ المنافقونَ عن المؤمنينَ، ويتخلَّفونَ عنهم، ويسبِقُهم المؤمنونَ، ويُحالُ بينَهم وبينَهم بسورٍ يمنعُهم مِن الوصولِ إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾). ((البداية والنهاية)) (٢٠/ ٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حَقيقيٌّ يَجعَلُه اللهُ للمُؤمنينَ في مَسيرِهم مِن مَكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

واختُلِف في قولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ فقيل: المعنى: وعن أيمانِهم، والمرادُ: في جميعِ جِهاتِهم، وعَبَّرَ عن ذلك بالأيْمانِ؛ تشريفًا لها، فأقامَ الباءَ مُقامَ (عن)، واكتفى بالأيمانِ عن ذِكرِ الشَّمائلِ.

وقيل: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: كُتُبهم الَّتي أُعطوها، فكُتُبُهم بأيْمانِهم، ونُورُهم بيْنَ أيديهم، فحذَفَ الكُتُبَ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى نُفوذَهم فيما يُحِبُّونَ مِنَ الجِهاتِ، وتَيسيرَه لهم؛ أتْبَعَه ما يُقالُ لهم مِنَ المحبوبِ في سُلوكِهم لذلك المحبوبِ، فقال(١):

= لدَلالة قولِه: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ عليها. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ يعني: مِن الجِهةِ اليُمنى: البغويُّ، والخازن، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ أي: كُتُبُ أعمالِهم: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦).

قال ابن عطية: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، يُريدُ: الضَّوءَ المُنبسِطَ مِن أصلِ النُّورِ. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ أصْلُه، والشَّيءُ الَّذي هو مُتَّقِدٌ فيه. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: فمُضَمَّنُ هذا القَولِ أنَّهم يَحمِلونَ الأنوارَ، وكونُهم غيرَ حامِلينَ أكرَمُ، ألَا ترى أنَّ فَضيلةَ عَبَّادِ بنِ بِشرٍ وأُسَيدِ بنِ حُضَيرٍ إنَّما كانت بنُورٍ لا يَحمِلانِه [يُنظر: «صحيح البخاري» «٤٦٥، ٣٨٠٥»]. هذا في الدُّنيا، فكيف في الآخِرةِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢).

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: يُقالُ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: بِشارتُكم العَظيمةُ هذا اليَومَ -أي: يومَ القيامةِ- جَنَّاتٌ لكم تَدخُلونَها، تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ؛ مِن الماءِ أو اللَّبَنِ، أو الخَمرِ أو العَسَلِ[1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ، لا تَخرُجونَ منها أبَدًا[2].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّاتِ في الآخِرةِ والخُلودُ فيها: هو الرِّبحُ والنَّجاحُ العَظيمُ[3].

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح تعالى حالَ المُؤمِنينَ في مَوقِفِ القيامةِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ حالِ المُنافِقينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بَقِيَّةِ الكَلامِ المَحكيِّ بالقَولِ المُبَشَّرِ به، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن الحِكايةِ الَّتي حُكيَت في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

فقال تعالى[(١)]:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي: يومَ[(٢)] يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ لأولئك المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: انتَظِرونا وأمْهِلونا؛ حتَّى نَلحَقَ بكم، ونَنالَ شُعْلةً مِن نُورِكم[(٣)]!

عن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ فيَقولُ: مَن كان يَعبُدُ شَيئًا فلْيَتْبَعْه، فيَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ الشَّمسَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ، وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها))[(٤)].

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

أي: يُقالُ لأولئك المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ تَهكُّمًا بهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالِك نُورًا لأنفُسِكم[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ إذِ اليَومُ هو عَينُ اليَومِ المُعَرَّفِ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (ذلك يَقتَضي أنَّ اللهَ يأذَنُ للمُؤمِنينَ الأوَّلينَ بالسَّيرِ إلى الجنَّةِ فَوجًا، ويَجعَلُ المُنافِقينَ -الَّذين كانوا بَيْنَهم في المدينةِ- سائِرينَ وَراءَهم، كما ورَد في حديثِ الشَّفاعةِ: «وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٨٠٦)، ومسلمٌ (١٨٢) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٣٨٣). =

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾.

أي: فضَرَب اللهُ بيْنَ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ حاجِزًا يَفصِلُ بيْنَهم[1].

﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: لذلك السُّورِ الحاجِزِ بينَ المُؤمِنينَ والمنافِقينَ بابٌ يَدخُلُ منه المؤمِنونَ، داخِلُ ذلك السُّورِ مِن جِهةِ المُؤمِنينَ: فيه الجنَّةُ، وخارِجُ السُّورِ مِن الجِهةِ الَّتي تَلي المُنافِقينَ وتَبدو لهم: يأتِيهم مِن قِبَلِه عَذابُ جهنَّمَ[2].

= قال ابن عثيمين: (﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ والقيلُ هذا: إمَّا مِن المُؤمِنينَ، أو مِنَ الملائِكةِ. فاللهُ أعلَمُ، لا ندري). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

وقال أبو السعود: (﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقفِ ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنَّه مِن ثَمَّ يُقتبَسُ، أو إلى الدُّنيا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

قيل: المرادُ بالسُّورِ: الحِجابُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[الأعراف: ٤٦]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨) و(٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير الثعلبي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤). =

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

أي: يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم، وهم في الظُّلْمةِ والعَذابِ: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ ونَذكُرُ اللهَ، ونَدينُ بالإسلامِ، ونَفعَلُ مِثلَ ما تَفعَلونَ(١)؟!

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: قال المؤمِنونَ لهم: قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا نِيَّةٍ صَحيحةٍ، ولا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم بالنِّفاقِ الَّذي هو كُفرٌ باطِنٌ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

= قال الواحدي: (الرَّحمةُ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: يعني الجنَّةَ الَّتي فيها المؤمنونَ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

أي: وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حوادثَ الدَّهرِ ونوائبَه أن تُهلِكَهم[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨].

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾.

أي: وشَكَكْتُم في الحَقِّ الَّذي جاءَ مِن عِندِ اللهِ تعالى[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَدَعَتْكم أمانيُّ نُفوسِكم الباطِلةُ، فصَرَفَتْكم عن اتِّباعِ الحَقِّ، حتَّى جاءَكم الموتُ[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: تَرَبَّصْتُم بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بالمُؤمِنينَ الدَّوائرَ والهلاكَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: تربَّصْتُم بالإيمانِ والتَّوبةِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩).

قال ابن كثير: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخَّرْتُم التَّوبةَ مِن وقتٍ إلى وقتٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨).

وقال الشربيني: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بالإيمانِ والتَّوبةِ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ(١).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يَقولُ المُؤمِنونَ للمُنافِقينَ الَّذين سَتَروا كُفْرَهم: ففي هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ مِنَ المالِ بَدَلًا مِن عَذابِ اللهِ؛ فيُخَلِّصَكم منه،

= (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشوكاني: (﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطِلةُ الَّتي مِن جُملتِها ما كُنتُم فيه مِنَ التَّرَبُّصِ. وقيل: هو طُولُ الأمَلِ. وقيل: ما كانوا يَتمَنَّونَه مِن ضَعفِ المُؤمِنينَ. وقال قَتادةُ: الأمانيُّ هنا: غُرورُ الشَّيطانِ. وقيل: الدُّنيا. وقيل: هو طَمَعُهم في المَغفِرةِ. وكُلُّ هذه الأشياءِ تَدخُلُ في مُسمَّى الأمانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: وخَدَعَكم باللهِ الشَّيطانُ، فأطمَعَكم بالنَّجاةِ مِن عُقوبتِه، والسَّلامةِ من عَذابِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦).

وقال البِقاعي: (فإنَّه يُنوِّعُ لكم بغُروره التَّسويفَ، ويقولُ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وعَفُوٌّ كريمٌ، وماذا عسى أن تكونَ ذُنوبُكم عندَه وهو عظيمٌ ومُحسِنٌ وحليمٌ ونحو هذا، فلا يَزالُ حتَّى يوقِعَ الإنسانَ، فإذا أوقَعَ واصَلَ عليه مِثلَ ذلك حتَّى يَتمادَى، فإذا تَمادَى صار الباعثُ له حينَئذٍ مِن قِبَلِ نفْسِه، فصار طَوْعَ يَدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (أي: جعَلَ الشَّيطانُ شأنَ اللهِ سببًا لِغُرورِكم، بأنْ خَيَّلَ إليكم أنَّ الحِفاظَ على الكفرِ مَرْضيٌّ للهِ تعالى، وأنَّ النِّفاقَ حافَظْتُم به على دِينِكم، وحَفِظْتُم به نُفوسَكم، وكرامةَ قَومِكم، واطَّلَعْتُم به على أحوالِ عدوِّكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

ولا يُؤخَذُ أيضًا عِوَضٌ مِنَ الَّذين أظهَروا كُفْرَهم؛ فلا خَلاصَ لكم مِنَ النَّارِ، فأنتم جميعًا مُشتَرِكونَ في الكُفرِ[(١)]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: مَنزِلُكم ومُقامُكم الَّذي تَصيرونَ إليه وتَسكُنونَ فيه: النَّارُ[(٢)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

أي: وتلك النَّارُ هي قَرينتُكم الَّتي تُلازِمُكم وتَضُمُّكم إليها، ومَوضِعُ قُربِكم، ومَصيرُكم؛ فلا قُربَ لكم إلى غَيرِها، ولا مَصيرَ إلى سِواها[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المُؤمنينَ للمُنافِقينَ استِمرارًا في التَّوبيخ والتَّنديم، وهذا ما جرى عليه المفَسِّرون... ويجوزُ أن يكونَ كَلامًا صادِرًا من جانِبِ اللهِ تعالى للمُنافِقينَ؛ تأييسًا لهم مِنَ الطَّمَعِ في نَوالِ حَظٍّ مِن نُورِ المؤمِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ النَّارُ[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مِن حَقِّ المؤمِنِ أن يَعتَبِرَ بما تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، فلا يُماطِلَ التَّوبةَ، ولا يَقولَ: غدًا غدًا[٢]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ إلى قَولِه في المُنافِقينَ: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ المُنافِقينَ يَفقِدونَ النُّورَ الَّذي كان المُؤمِنونَ يَمشُونَ به، ويَطلُبونَ الاقتِباسَ مِن نُورِهم، فيُحجَبونَ عن ذلك بحِجابٍ يُضرَبُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمِنينَ، كما أنَّ المنافِقينَ لَمَّا فقَدوا النُّورَ في الدُّنيا كان ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٣] [البقرة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ على المُؤمِنينَ، وكذا في نظائِرِه مِنَ القُرآنِ المَدَنيِّ. ووَجهُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ، إلَّا فيما خُصِصْنَ به مِن أحكامٍ قَليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ؛ وذلك لإبطالِ ما عندَ اليَهودِ مِن وَضعِ النِّساءِ في حالةِ مَلعوناتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

ومَحروماتٍ مِن مُعظَمِ الطَّاعاتِ[(١)]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أنَّ هذا النُّورَ على حَسَبِ الإيمانِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان قَويًّا بقُوَّةِ ذلك الوَصفِ، وضَعيفًا بضَعْفِه، إذَنْ نُورُهم على حَسَبِ إيمانِهم؛ الذَّكَرِ والأُنثى[(٢)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في قَولِه: ﴿نُورُهُم﴾ غَلَبةُ المُذَكَّرِ على المؤنَّثِ، فلم يَقُلْ: «نُورُهُنَّ»[(٣)].

٥- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وَجْهُ عطْفِ المنافِقاتِ على المنافِقينَ هنا كعَطفِ المؤمناتِ على المُؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ قبْلَ هذِه، وهو التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ إلَّا فيما خُصِّصْنَ به مِن أحكامٍ قليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ[(٤)].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعَلَّ جَعْلَ البابِ في سُورٍ واحِدٍ فيه ليَمُرَّ منه أفواجُ المؤمِنينَ الخالِصينَ مِن وُجودِ منافِقينَ بيْنَهم بمرأًى مِن المنافِقينَ المحبوسين وراءَ ذلك السُّورِ؛ تنكيلًا بهم وحَسرةً حينَ يُشاهِدونَ أفواجَ المؤمِنينَ يُفتَحُ لهم البابُ الَّذي في السُّورِ؛ لِيَجتازُوا منه إلى النَّعيمِ الَّذي بباطِنِ السُّورِ[(٥)].

٧- المنافقونَ هم أشقَى الأشقياءِ، ولهذا يُستهزأُ بهم فى الآخرةِ، ويُعطَوْنَ نورًا يَتوسَّطون به على الصِّراطِ، ثمَّ يُطفئُ اللهُ نورَهم، ويُقالُ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، ويُضرَبُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣]، وهذا أشدُّ ما يكونُ مِن الحسرةِ والبَلاءِ: أن يُفتَحَ للعبدِ طريقُ النَّجاةِ والفَلاحِ، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه ناجٍ ورأى مَنازِلَ السُّعداءِ اقتُطِع عنهم، وضُرِبَتْ عليه الشِّقْوةُ، ونعوذُ باللهِ مِن غضَبِه وعِقابِه(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ ذِكْرُ أربعةِ أُصولٍ لهم، هي أسبابُ الخُسْرانِ؛ وهي: فِتنةُ أنفُسِهم، والتَّربُّصُ بالمُؤمِنينَ، والارتيابُ في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاغترارُ بما تُمَوِّهُ إليهم أنفُسُهم. وهذه الأربعةُ هي أصولُ الخِصالِ المتفَرِّعةِ على النِّفاقِ(٢).

٩- قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذكَر اللهُ الكفَّارَ والمنافقينَ هنا وفي غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ، كقولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، ٤٨]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]؛ لِيُمَيِّزَهم عنهم بإظهارِ الإسلامِ، وإلَّا فَهُم في الباطِنِ شَرٌّ من الكُفَّارِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٣) [النساء: ١٤٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إجازةُ تَسميةِ المخلوقِ باسمِ الخالِقِ -وذلك فيما يكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٤٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٣).

والصِّفاتِ-[(١)]؛ إذْ قد دَلَّ على تَسميةِ النَّاسِ به، ثمَّ أجاز هاهنا تَسميةَ النَّارِ أيضًا به[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...﴾ مَنصوبٌ بِفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: (اذكُرْ) تَعظيمًا لذلك اليَومِ، وتَنويهًا بما يَحصُلُ في ذلك اليومِ مِن ثَوابٍ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، ومِن حِرمانٍ للمنافِقينَ والمنافِقاتِ؛ ولذلك كُرِّر (يَوم) -﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾-؛ ليَختَصَّ كلُّ فريقٍ بذِكرِ ما هو مِن شُؤونِه في ذلك اليَومِ. وعلى هذا فالجُملةُ مُتَّصِلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ هذا التَّعلُّقِ، على أنَّه في نظْمِ الكلامِ يصِحُّ جَعْلُه ظرْفًا مُتعلِّقًا بـ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، على طَريقةِ التَّخلُّصِ لذِكرِ ما يَجْري في ذلك اليَومِ مِن الخَيراتِ لأهْلِها، ومِن الشَّرِّ لأهْلِه. وعلى الوجْهِ الأوَّلِ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ أجْرِ المُنفِقينَ، فعُقِّبَ ببَيانِ بَعضِ مَزايا المؤمنينَ، وعلى الوجْهِ الثَّاني فهي مُتَّصلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ التَّعلُّقِ[(٣)].

---

(١) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)) -بعدَ تقريرِ منْعِ تسميةِ غيرِ الله بهذا الاسمِ (الله)؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن الأسماءِ في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ-: (أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي =

- ومعنَى قولِه: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾: يَسْعى نُورُهم حينَ يَسعَون؛ فحُذِفَ ذلك لأنَّ النُّورَ إنَّما يَسْعى إذا سَعى صاحبُه، وإلَّا لانْفصَلَ عنه وترَكَه، وإضافةُ (نُور) إلى ضَميرِهم، وجَعْلُ مَكانِه ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ يُبيِّنُ أنَّه نُورٌ لِذَواتِهم أُكرِموا به[١].

- وإنَّما قال: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾؛ لأنَّ السُّعداءَ يُؤتَون صَحائفَ أعمالِهم مِن هاتَينِ الجِهتَينِ، كما أنَّ الأشقياءَ يُؤتَونَها مِن شَمائلِهم ومِن وراءِ ظُهورِهم، فجُعِلَ النُّورُ في الجِهتَينِ شِعارًا لهم وآيةً[٢]. أو اقتُصِرَ على ذِكرِ الأيمانِ تَشريفًا لها، وهو مِن الاكتفاءِ[٣]، أي: وبجانِبَيْهم[٤].

- قولُه تَعالَى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وفي سُورةِ (التَّحريم): ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ [التحريم: ٨]؛ فقُدِّمَ الفعلُ في الأُولى ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾، وأُخِّرَ في الثَّانيةِ ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾! ووَجْهُ ذلك -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريم): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزِلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ

= حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) الاكتفاء: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سَبيلِ الاكتِفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيهِ مِن الثَّباتِ وتَقدُّمِه واستحكامِه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبِشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ التَّحريمِ، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ ليُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فوَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[(١)].

- قولُه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ هو حالٌ أو استِئنافٌ، أيْ: يُقالُ لهم: بُشراكُم، أي: ما تُبشَّرونَ بِه جنَّاتٌ، أو بُشراكم دُخولُ الجنَّةِ. والكلامُ على حذْفِ مُضافَينِ تَقديرُهما: إعلامٌ بدُخولِ جنَّاتٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[(٢)].

- وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، ولو جَرى على الخِطابِ لَكان التَّركيبُ: (خالدًا أنتُم فيها)[(٣)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ يدُلُّ على مَجموعِ مَحاسِنِ ما وقَعَتْ به البُشرَى، واسمُ الإشارةِ للتَّعظيمِ والتَّنبيهِ، وضَميرُ الفَصْلِ لتَقويةِ الخبَرِ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تَغليبٌ للذُّكورِ؛ لأنَّ المخاطَبِينَ هم أصحابُ النُّورِ، وهو للمُؤمنينَ والمؤمناتِ(١).

- والأمرُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أمْرُ تَوبيخٍ وطرْدٍ، أي: ارْجِعوا إلى الموقفِ حيثُ أُعطِينا الفوزَ فالْتَمِسوه هناك، فمِن ثَمَّ يُقتبَسُ. أو ارْجِعوا إلى الدُّنيا والْتَمِسوا نُورًا، أي: بتَحصيلِ سَببِه، وهو الإيمانُ، أو ارْجِعوا خائبينَ وتَنحَّوا عنَّا، فالْتَمِسوا نُورًا غيرَ هذا؛ فلا سَبيلَ لكم إلى الاقتباسِ منه. وقد عَلِموا أنْ لا نُورَ وراءَهم، وإنَّما هو تَخييبٌ وإقناطٌ لهم(٢).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ على القَولِ بأنَّه مِن كَلامِ الملائكةِ السَّائقينَ للمُنافِقين؛ فمَقالةُ الملائكةِ للمنافِقِينَ تَهكُّمٌ؛ إذ لا نُورَ وَراءهم، وإنَّما أرادوا إطْماعَهم، ثم تَخييبَهم بضرْبِ السُّورِ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ؛ لأنَّ الخَيبةَ بعْدَ الطَّمعِ أشدُّ حَسرةً(٣).

- ولفْظُ ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾؛ إذِ الرُّجوعُ يَستلزِمُ الوراءَ، وهذا كما يُقالُ: رجَعَ القَهْقرَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ظرْفًا لِفعلِ ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، أي: في المكانِ الَّذي خلْفَكم، وتَقديمُه على عامِلِه للاهتمامِ؛ فيَكونُ فيه معْنى الإغراءِ بالْتماسِ النُّورِ هناك، وهو أشدُّ في الإطماعِ؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ النُّورَ يُتناوَلُ مِن ذلك المكانِ الَّذي صدَرَ منْه المؤمنونَ، وبذلك الإيهامِ لا يكونُ الكلامُ كذِبًا؛ لأنَّه مِن المَعاريضِ، لا سيَّما مع احتمالِ أنْ يكونَ ﴿وَرَآءَكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٢٨٣).

تأْكيدًا لمعْنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾[١].

- وضُمِّن قولُه: ﴿فَضُرِبَ﴾ في الآيةِ معْنى الحَجْزِ؛ فعُدِّيَ بالباءِ، أي: ضُرِبَ بيْنهم سُورٌ للحجْزِ به بيْنَ المنافِقينَ والمؤمنينَ[٢].

- وضَمائرُ ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ و﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و(ظَاهِرُهُ) عائِدةٌ إلى السُّورِ، والجُملتانِ صِفتانِ لـ(سُورٍ)، وإنَّما عُطِفَت الجُملةُ الثَّالثةُ بالواوِ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الصِّفةِ مَجموعُ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ تَقريريٌّ، استُعمِلَ كِنايةً عن طلَبِ اللَّحاقِ بهم، والانضمامِ إليهم كما كانوا معَهم في الدُّنيا يَعمَلون أعمالَ الإسلامِ مع المُسلِمينَ[٤].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، هذا الجوابُ إقرارٌ بأنَّ المنافِقِين كانوا يَعمَلون أعمالَهم معهم، ولَمَّا كان هذا الإقرارُ يُوهِمُ أنَّه قولٌ بمُوجَبِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، أعْقَبوا جَوابَهم الإقراريَّ بالاستِدراكِ الرَّافعِ لِما تَوهَّمَه المنافِقون مِن أنَّ الموافقةَ للمؤمنِينَ في أعمالِ الإسلامِ تَكفِي في الْتِحاقِهم بهم في نَعيمِ الجنَّةِ، فبيَّنوا لهم أسبابَ التَّباعُدِ بيْنَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والتَّربُّصُ: انتظارُ شَيءٍ، ويَتعدَّى فِعلُه إلى المفعولِ بنَفْسِه، ويَتعلَّقُ به ما زادَ على المفعولِ بالباءِ، وحُذِفَ هنا مَفعولُه ومُتعلَّقُه؛ لِيَشملَ عِدَّةَ الأمورِ الَّتي يَنتظِرُها المنافِقون في شأْنِ المؤمنينَ، وهي كثيرةٌ، مَرجِعُها إلى أذى المسلمينَ والإضرارِ بهم، فيَتربَّصون هَزيمةَ المسلمينَ في الغَزَواتِ ونحْوِها مِن الأحداثِ؛ قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨]، ويَتربَّصون انقِسامَ المؤمنينَ؛ فقدْ قالوا لفَريقٍ مِنَ الأنصارِ يُندِّمونهم على مَن قُتِلَ مِن قَومِهم في بعضِ الغزَواتِ: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾[1] [آل عمران: ١٦٨].

- والمَقصودُ مِن الغايةِ بقولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ التَّنديدُ عليهم بأنَّهم لم يَرْعَوُوا عن غَيِّهم مع طُولِ مُدَّةِ أعمارِهم، وتَعاقُبِ السِّنينَ عليهم وهم لم يَتدبَّروا في العواقِبِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[2] [فاطر: ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾؛ تَحقيرًا لغُرورِهم وأمانِيِّهم بأنَّها مِن كَيدِ الشَّيطانِ؛ لِيَزدادوا حَسرةً حينَئذٍ[3].

- والغَرورُ -بفتْحِ الغَينِ-: مُبالَغةٌ في المُتَّصِفِ بالتَّغريرِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، أي: بإلقائِه خَواطرَ النِّفاقِ في نُفوسِهم بتَلوينِه في لَونِ الحقِّ، وإرضاءِ دِينِ الكفْرِ. أو عُبِّرَ عَنِ الشَّيطانِ بصِيغةِ المبالَغةِ ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ الَّتي هي المفعولُ؛ لكَثرةِ غُرورِه لبني آدَمَ، كما قال تَعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ويَجوزُ أنْ يُرادَ جِنسُ الغارِّينَ، أي: وغرَّكم باللهِ أئمَّةُ الكفْرِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٧).

وقادةُ النِّفاقِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ معلومًا عندَهم قد شاهَدوا دَلائلَه، فرَّعوا لهم عليه قولَهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾؛ قَطعًا لطَمَعِهم أنْ يَكونوا مع المؤمنينَ يومَئذٍ كما كانوا معَهم في الحياةِ[٢].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المؤمنينَ للمنافِقين؛ استمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديمِ، فمَوقعُ فاءِ التَّفريعِ بيِّنٌ، والعِلمُ للمؤمنينَ بأنْ لا تُؤخَذُ فِديةٌ مِن المنافِقينَ والَّذين كَفَروا حاصِلٌ ممَّا يَسمَعون في ذلك اليَومِ مِن الأقضيةِ الإلهيَّةِ بيْنَ الخلْقِ بحيث صار مَعلومًا لأهلِ المحشَرِ، أو هو عِلمٌ مُتقرِّرٌ في نُفوسِهم ممَّا عَلِموه في الدُّنيا مِن أخبارِ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك مُوجِبُ عطْفِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تَعبيرًا عمَّا عَلِموه بأسْرِه، وهو عطْفٌ مُعترِضٌ جرَّتْه المناسَبةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا صادرًا مِن جانبِ اللهِ تعالى للمنافِقين؛ تأْييسًا لهم مِن الطَّمعِ في نَوالِ حظٍّ مِن نُورِ المؤمنينَ، فيَكونَ الفاءُ مِن عطْفِ التَّلقينِ عاطِفةً كلامَ أحدٍ على كَلامِ غيرِه؛ مِن أجْلِ اتِّحادِ مكانِ المُخاطَبةِ، ويكونَ عطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جمْعًا للفريقَينِ في تَوبيخٍ وتَنديمٍ واحدٍ؛ لاتِّحادِهما في الكُفْرِ[٣].

- وإقحامُ كَلمةِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾؛ لتَذكيرِهم بما كانوا يُضمِرونه في الدُّنيا حِينَ يُنفِقونَ معَ المؤمِنينَ رِياءً وتَقيَّةً، وهو ما حَكاهُ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨).

مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[١] [التوبة: ٩٨].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ كُنِّيَ بنَفْيِ أخْذِ الفِديةِ عن تَحقُّقِ جَزائِهم على الكُفرِ؛ وإلَّا فإنَّهم لم يَبذُلوا فِدْيةً، ولا كان النِّفاقُ مِن أنواعِ الفِدْيةِ، ولكنَّ الكلامَ جرى على الكِنايةِ؛ لِما هو مَشهورٌ مِن أنَّ الأسيرَ والجانيَ قد يَتخلَّصانِ مِن المؤاخَذةِ بفِديةٍ تُبذَلُ عنهما؛ فعَطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قُصِدَ منه تَعليلُ أنْ لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ الكُفرِ مِثلَ الَّذين كَفَروا، أي: الَّذين أعْلَنوا الكُفْرَ حتَّى كان حالةً يُعرَفون بها، وهذا يَقْتضي أنَّ المنافقينَ كانوا هم والكافِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ عندَ أبوابِ جَهنَّمَ؛ ففيه احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ الكافرونَ الصُّرحاءُ مِن ضَميرِ ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أنَّ ذلك حُكْمٌ خاصٌّ بالمنافِقينَ تَعلُّقًا بأقلِّ طمَعٍ؛ فليس ذِكرُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُجرَّدَ استطرادٍ[٢].

- والمأْوى: هو المكانُ الَّذي يُؤْوَى إليه، أي: يُصارُ إليه ويُرجَعُ، وكُنِّيَ به عن الاستِمرارِ والخُلودِ، وأُكِّدَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي: تَرجِعون إليها كما يَرجِعُ المُستنصِرُ إلى مَولاهُ لِيَنصُرَه أو يُفادِيَ عنه، فعُبِّرَ بالمَولى عن المَقرِّ على طَريقةِ التَّهكُّمِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ يَشملُ جَميعَ ما يَصيرون إليه مِن العذابِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-١٩)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ
وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَمَدُ﴾: أي: الزَّمانُ والغايةُ[١].

﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾: أي: الَّذين كثُر صِدقُهم وتصديقُهم، وأصلُ (صدق): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه[٢].

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا المؤمنينَ: ألم يَحِنْ للمُؤمنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَخضَعَ لِذِكرِ اللهِ وما نَزَل مِنَ القُرآنِ، ثمَّ يُحذِّرُهم مِن مُشابَهةِ أهلِ الكِتابِ، فيقولُ: ولا يَكونوا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ، فطالَ عليهم الزَّمانُ، فقَسَت قُلوبُهم، وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بالماءِ بعْدَ يُبسِها، فكذلك يُحْيي القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه بالوَحيِ المُنزَّلِ مِنَ السَّماءِ. قد أوضَحْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبينًا ما أعدَّه للمؤمنينَ الَّذين يَبذُلونَ أموالَهم في سبيلِه: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ والمُنفِقينَ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى: يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى السُّعداءَ ومآلَهم، ويَعطِفُ بذِكرِ الأشقياءِ، ويُبيِّنُ حالَهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ، والشُّهَداءُ لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم. والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه وكَذَّبوا: أولئك أصحابُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ والمُنافِقينَ والمُنافِقاتِ في الدَّارِ الآخِرةِ، كان ذلك مِمَّا يدعو القُلوبَ إلى الخُشوعِ لِرَبِّها، والاستِكانةِ لعَظَمتِه؛ فعاتَبَ اللهُ المُؤمِنينَ على عَدَمِ ذلك، فقال تعالى[١]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قصَصْتَ علينا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١ - ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ لو حدَّثْتَنا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ. قال خَلَّادٌ[(١)]: وزاد فيه حِينَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ ذكِّرْنا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾))[(٢)].

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: (ما كان بيْنَ إسلامِنا وبيْنَ أنْ عاتَبَنا اللهُ بهذه الآيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلَّا أربعُ سِنينَ)[(٣)].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: أمَا حانَ للمُؤمِنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَرِقَّ وتَخضَعَ وتَذِلَّ لِذِكرِ اللهِ وما نَزَلَ

---

(١) هو أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٢) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١١٥٧)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢٠٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٣١٩).

صحَّحه ابنُ حِبَّان، والألبانيُّ في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وحَسَّنَ الحديثَ ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٧).

مِن القُرآنِ[١]؟!

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان للمُسابَقةِ والمُنافَسةِ أثرٌ عَظيمٌ في تحريكِ الهِمَمِ لأهلِ الأَنَفةِ وأُولي المَعالي؛ قال[٢]:

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وأمَا حانَ للمُؤمِنينَ ألَّا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ -التَّوراةَ والإنجيلَ- المُوجِبَ لخُشوعِ القَلبِ والانقيادِ التَّامِّ، مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ عليكم[٣]؟

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الأظهَرُ منه: أنَّ المرادَ خُشوعُ قُلوبِهم لأجْلِ ذِكرِ اللهِ، وهذا المعنى دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي: خافت عِندَ ذِكرِ اللهِ، فالوَجَلُ المذكورُ في آيةِ الأنفالِ هذه والخَشيةُ المذكورةُ هنا: مَعناهما واحِدٌ. وقال بَعضُ العُلَماءِ: المرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وعليه فقَولُه: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الشَّيءِ على نَفْسِه مع اختِلافِ اللَّفظَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٧).

وقيل: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حقوقُ الله، وقيل: ما يُذَكِّرُهم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو الصَّلاةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

أي: فطالَ على أهلِ الكِتابِ الزَّمانُ(١).

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: فقَسَت بسَبَبِ طُولِ الزَّمانِ قُلوبُهم، فصارت غَليظةً لا تَلينُ لِذِكرٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

قيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٢٢).

وقيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ أنبيائِهم. وممَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧).

قال ابن الجوزي: (المعنى: أنَّه بَعُدَ عَهدُهم بالأنبياءِ والصَّالِحينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ يعني: طولَ الأجَلِ، وخُروجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٢).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: طُولُ الزَّمانِ بَيْنَهم وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

قال ابنُ عاشور: (الأَمَدُ: الغايةُ مِن مَكانٍ أو زَمانٍ، والمرادُ به هنا: المُدَّةُ الَّتي أُوصُوا بأن يُحافِظوا على اتِّباعِ شَرائِعِهم فيها، المُغَيَّاةُ بمَجيءِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المُبَشَّرِ في الشَّرائِعِ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

وقيل: المرادُ: طُولُ الأجَلِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٧).

وقال ابنُ عطية: (الأمَدُ: قيل: معناه: أمَدُ انتِظارِ الفَتحِ. وقيل: أمَدُ انتِظارِ القيامةِ. وقيل: أمَدُ الحَياةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

ولا تَرِقُّ لِمَوعِظةٍ[(١)].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن الحَقِّ والهُدى[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بعْدَ يُبسِها وجَدْبِها، بالماءِ المُنزَّلِ مِنَ السَّماءِ، فكذلك يُحْيي اللهُ القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه وصَلابتِه، بالوَحيِ المُنزَّلِ مِنَ السَّماءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

عن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعَثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثَلِ غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ[١] أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ[٢]؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))[٣].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أي: قد أوضَحْنا وأظهَرْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا وتتَّعِظوا وتَعمَلوا بمُوجَبِ ذلك[٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)﴾.

= كثير)) (٨/ ٢١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(١) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧).

(٢) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَويةُ الَّتي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وازَنَ بيْنَ المؤمنينَ والمنافِقين فيما مضى، وأبان ما يكونُ بيْنَهما مِن فارِقٍ يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ هنا التَّفاوُتَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرين[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ بتَخفيفِ الصَّادِ، أي: إنَّ الَّذين صدَّقوا اللهَ ورَسولَه[2]. مِن الصِّدقِ، الَّذي هو خِلافُ الكذبِ.

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتَشديدِ الصَّادِ، أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ[3]. مِن التَّصدُّقِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ أموالِهم مُحتَسِبينَ في إنفاقِها، مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى- يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٧٤).
وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ هذه الآيةَ يُشبِهُ أنْ تكونَ متَّصلةَ المعنَى بقولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وأنَّ آيةَ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] وما بعدَها معترِضٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).
(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشُعبةُ عن عاصِمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).
(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).

أُجورًا كَثيرةً، قد تَبلُغ سَبْعَمِئةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[(١)]!

﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذكَرَ تعالى -قبْلَ هذه الآيةِ- حالَ المؤمِنينَ والمنافِقين، وذكَرَ الآنَ حالَ المؤمنينَ وحالَ الكافِرين[(٣)].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ فَضْلُ المُتصدِّقينَ، وكان مِن المُؤمنينَ مَن لا مالَ له لِيَتصدَّقَ منه؛ أُعقِبَ ذِكرُ المُتصدِّقينَ ببَيانِ فضْلِ المؤمنينَ مُطلقًا، وهو شامِلٌ لِمَن يَستطيعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الكريم: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: ثوابٌ كريمٌ، والكريمُ هو الحسَنُ الطَّيِّبُ؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٢).

أنْ يَتصدَّقَ ومَن لا يَستطيعُ، على نحوِ التَّذكيرِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(١) [الحديد: ١٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ الَّذين هم في غايةِ الصِّدقِ وكَثرةِ التَّصديقِ لِما وَجَب التَّصديقُ به، فليس في قُلوبِهم أدنَى شَكٍّ(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ(٣) الغابِرَ مِن الأُفُقِ(٤)، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟! قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

قال ابن جزي: (الصِّدِّيقُونَ مبالغةٌ مِن الصِّدقِ أو مِن التَّصديقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالِغونَ في الصِّدقِ مبلغًا كبيرًا؛ لأنَّ الصِّدِّيقَ صيغةُ مبالغةٍ، والصِّدقُ يكونُ بالقصدِ وبالقولِ وبالفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

وقال السعدي: (الصِّدِّيقونَ هم الذين كمَّلوا مراتِبَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، والعلمِ النَّافعِ، واليقينِ الصَّادقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)

(٣) الدُّرِّيَّ: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٤) الغابِرَ: أي: الباقِيَ في الأُفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[١].

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾.

أي: والشُّهَداءُ: لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٥٦)، ومسلمٌ (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ الشُّهداءُ مُبتدَأً وخبرُه ما بعدَه، أو يكونَ معطوفًا على الصِّدِّيقينَ. فإنْ كان مُبتدَأً ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جَمْعُ شهيدٍ في سبيلِ الله، فأخبَرَ أنَّهم عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم.

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ، ويُرادُ به الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم يَشهَدونَ على قَومِهم.

وإن كان معطوفًا ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جمْعُ شهيدٍ، فوصَفَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّهم صِدِّيقونَ وشُهَداءُ، أي: جَمَعوا الوصفَين،...

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَشهَدون على النَّاسِ، كقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبَرٌ عن الشُّهداءِ خاصَّةً إن كان مُبتدَأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إن كان الشُّهداءُ مَعطوفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩).

ممَّن اختار أنَّ الجُملةَ مُستأنَفةٌ، وأنَّ الشُّهداءَ مُبتدَأٌ وخبَره ما بعدَه: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيان، وابن كثير، والنيسابوري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، وأبو الضُّحى، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّها معطوفةٌ: الزمخشريُّ، والنسفي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعودٍ، ومجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٦).
قال أبو السعود: (أي: أُولئكَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ المشهورينَ بعلوِّ الرُّتبةِ، ورفعةِ المحلِّ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الأنبياءُ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الَّذين استُشْهِدوا في سبيلِ الله: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨).
قال ابن رجب: (قد يُطلَقُ الشَّهيدُ على مَن حقَّق الإيمانَ وشَهِد بصِحَّتِه؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾). ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) (ص: ١٠١).
وقال ابن القيِّم: (قيل: إنَّ الوقفَ على قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ثمَّ يبتدئُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فيَكونُ الكلامُ جُملتَينِ أخبر في إحداهما عن المؤمنينَ باللهِ ورُسلِه أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والإيمانُ التَّامُّ يَستلزِمُ العِلمَ والعمَلَ والدَّعوةَ إلى الله بالتَّعليمِ والصَّبرِ عليه، وأخبر في الثَّانيةِ أنَّ الشُّهداءَ عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم، ومرتبةُ الصِّدِّيقينَ فوقَ مرتبةِ الشُّهداءِ؛ ولهذا قدَّمَهم عليهم...
وقيل: إنَّ الكلامَ كلَّه جملةٌ واحدةٌ، وأخبر عن المؤمنينَ بأنَّهم هم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ عندَ ربِّهم، وعلى هذا فالشُّهداءُ هم الَّذين يَستَشْهِدُهم اللهُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنونَ، فوصَفَهم بأنَّهم صِدِّيقونَ في الدُّنيا وشُهداءُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، ويكونُ الشُّهداءُ وصْفًا لجملةِ المؤمنينَ الصِّدِّيقينَ. وقيل: الشُّهداءُ هم الَّذين قُتِلوا في سبيلِ الله، وعلى هذا القولِ يَترجَّحُ أن يكونَ الكلامُ جُملتَينِ، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدأً خبرُه ما بعْدَه؛ لأنَّه ليس كلُّ مؤمنٍ صِدِّيقٍ شهيدًا في سبيلِ الله. ويُرجِّحُه أيضًا أنَّه لو كان الشُّهداءُ داخلًا في جملةِ الخبَرِ عن المؤمنينَ لَكان قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ داخلًا أيضًا في جملةِ الخبرِ عنهم، ويكونُ قد أخبر عنهم بثلاثةِ أشياءَ؛ أحدُها: أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والثَّاني: أنَّهم هم الشُّهداءُ، والثَّالثُ: أنَّ لهم أجْرَهم ونورَهم، وذلك يَتضمَّنُ =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ الكافِرينَ[1].

= عطفَ الخبَرِ الثَّاني على الأوَّلِ، ثمَّ ذِكْرَ الخبرِ الثَّالثِ مجرَّدًا عن العطفِ، وهذا كما تقولُ: زَيدٌ كريمٌ وعالِمٌ له مالٌ. والأحسَنُ في هذا تَناسُبُ الأخبارِ بأنْ تُجَرِّدَها كلَّها مِن العطفِ، أو تَعطِفَها جميعًا فتقولُ: زَيدٌ كريمٌ عالِمٌ له مالٌ، أو كريمٌ وعالِمٌ وله مالٌ، فتأمَّلْهُ.

ويُرجِّحُه أيضًا أنَّ الكلامَ يَصيرُ جُمَلًا مُستقِلَّةً قد ذُكِر فيها أصنافُ خلْقِه السُّعداءُ، وهم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالِحونَ، وهم المَذكورونَ في الآيةِ، وهم المُتصَدِّقونَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قرضًا حسَنًا، فهؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ، ثمَّ ذكَر الرُّسلَ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ عَطفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، أي: وهم الشُّهَداءُ، قال: (قيل: معنى كَونِهم شُهَداءَ: أنَّهم شُهَداءُ على الأُمَمِ يَومَ الجزاءِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالشَّهادةُ تكونُ بمعنى الخبَرِ بما يُثبِتُ حَقًّا يُجازَى عليه بخَيرٍ أو شَرٍّ ...)، وجوَّز أيضًا أن يكونَ قَولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدَأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبرًا عن المبتدَأِ، ويكونَ المرادُ الشُّهداءَ في سبيلِ اللهِ.

ثمَّ قال: (والمَعْنَيانِ مِن الشُّهداءِ ممكنٌ الجمْعُ بيْنَهما، فتُحمَلُ الآيةُ على إرادتِهما على طريقةِ استعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧، ٣٩٨). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٣، ١٨٤).

قال ابنُ جزي: (﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ هذا خبرٌ عن الشهداءِ خاصَّةً إنْ كان مبتدأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إنْ كان الشهداءُ معطوفًا، ونورُهم هو النُّورُ الذي يكونُ لهم يومَ القيامةِ، حسَبَما ذكَره في هذه السُّورةِ، وقيل: هو عبارةٌ عن الهدَى والإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ كونَ هذا النُّورِ حقيقةً إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦).

وقال الزمخشري بناءً على أنَّ الشهداءَ معطوفٌ: (﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، ومثلُ نورِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُله، وكَذَّبوا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ: أولئك مُلازِمونَ للنَّارِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن آياتِ القرآنِ تأثيرُه على القَلبِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا قَرَأه بتدبُّرٍ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ، ويُوَجِّهُ الإنسانَ إلى ربِّه، ويُوجِدُ طَعمًا عَجيبًا للإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٢) [الزمر: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ توبيخٌ وعِتابٌ لِمَن سَمِعَ هذا السَّماعَ ولم يُحدِثْ له في قَلبِه صَلاحًا ورِقَّةً وخُشوعًا(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أنَّ قَسْوةَ القَلبِ، وطُولَ الأَمَدِ، والتَّسويفَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ للغَفلةِ وإيثارِ الدُّنيا، وأنَّ الخَشْيةَ والذِّكْرَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ لإيثارِ الآخِرةِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).

﴿ٱلْحَقِّ﴾ الحَثُّ على الاجتِهادِ على خُشوعِ القَلبِ لله تعالى ولِما أنزَلَه مِنَ الكِتابِ والحِكْمةِ، وأنْ يتذَكَّرَ المُؤمِنونَ المواعِظَ الإلهيَّةَ والأحكامَ الشَّرعيَّةَ كُلَّ وَقتٍ، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على ذلك(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الإرشادُ إلى وَسيلةِ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى، والحَثُّ على تعَهُّدِ النَّفْسِ بالمَوعِظةِ، والتَّذكيرُ بالإقبالِ على القُرآنِ وتدَبُّرِه، وكَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ في اللَّجأِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نجاةً، وفي المَفزَعِ إليهما عِصْمةً، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِنَ الهُدى والعِلمِ كمَثَلِ الغَيثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقيَّةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلَأَ والعُشْبَ، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنَفَع اللهُ بها النَّاسَ، فشَربوا وسَقَوا وزَرَعوا، وأصاب منها طائِفةً أُخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلَأً؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه ما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مَمنوعٌ مِن التَّشَبُّهِ والاقتِداءِ بمَن لا يَكونُ مَرضِيَّ الفِعَالِ، وأنَّه إنِ اقتدى به في فِعلٍ بعَينِه لم يَصِرْ بجَميعِ الصِّفاتِ مِثلَه؛ فليَعتبِرِ المُنْكِرُ على مَن شَبَّهَ المُشْمَئِزِّينَ مِن دَعوةِ الدَّاعي في الأحكامِ إلى القُرآنِ، بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وإنْ لم يكُنْ مُنافِقًا ولا كافِرًا بهذا؛ لِيَردَعَه عنِ استِعظامِ ما ليس بعَظيمٍ مِن المُشَبِّهِ، بل فِعْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

والحديثُ الأخيرُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١١١).

المُشْمَئِزِّ بالتَّشبيهِ بالقَومِ عظيمٌ لو عَقَله[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خشوعِ قُلوبِهم، والتَّحذيرُ للمؤمنينَ -بعدَ أن يَطولَ الزَّمانُ- مِن أنْ يَقعوا فيما وقَع فيه أهلُ الكِتابِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له أنْ يُحافِظَ على العَمَلِ، وألَّا يَتكاسَلَ، وألَّا يَدَعَه، بل يَستَمِرُّ على ما هو عليه[٣].

٩- قسوةُ القلوبِ: شِدَّتُها وصلابتُها حتَّى لا يَدخُلَ فيها خَيرٌ؛ لأنَّ ذا الشَّيءَ القاسيَ ليس بقابِلٍ لِدُخولِ شيءٍ فيه، فقلوبُهم صُلْبةٌ شديدةٌ نابيةٌ عن الخَيرِ، لا يَدخُلُها وَعْظٌ، ولا يَنْجِعُ فيها خَيرٌ، والسَّبَبُ الَّذي قَسَت به قُلوبُ أهلِ الكِتابِ نَهى اللهُ عن ارتِكابِه المُسلِمينَ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ قَسوةَ القَلبِ وطُولَ الأَمَلِ يُساعِدُ على الكُفرِ والتَّمادي في الباطِلِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّه يَتوَلَّدُ مِن طُولِ الأمَلِ الكَسَلُ عنِ الطَّاعةِ، والتَّسويفُ بالتَّوبةِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، والنِّسيانُ للآخِرةِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٩٣).

والقَسوةُ في القَلبِ؛ لأنَّ رِقَّتَه وصَفاءَه إنَّما يَقَعُ بتَذكيرِ الموتِ والقَبرِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وأهوالِ القيامةِ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ إهمالَ الرِّعايةِ مُبْلٍ للادِّكارِ في قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَعاهُدَها مُجَدِّدٌ له؛ والقَسوةَ مُتوَلِّدةٌ مِن طولِ الأملِ، وإدمانِ الزَّلَلِ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أنَّ القُلوبَ تَحتاجُ في كُلِّ وَقتٍ إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزَلَه اللهُ، وتُناطَقَ بالحِكْمةِ، ولا يَنبغي الغَفلةُ عن ذلك؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لِقَسوةِ القَلبِ، وجُمودِ العَينِ(٣).

١٤- أسبابُ القَسوةِ كَثيرةٌ؛ منها: كثرةُ الكلامِ بغيرِ ذِكرِ اللهِ، ونَقضُ العَهدِ مع اللهِ تعالى، وكثرةُ الضَّحِكِ، وكَثرةُ الأكلِ ولا سيَّما إن كان مِنَ الشُّبُهاتِ أو الحرامِ، وكثرةُ الذُّنوبِ.

وأمَّا مُزيلاتُ القَسوةِ فمُتعَدِّدةٌ أيضًا؛ فمنها: كثرةُ ذِكرِ اللهِ الَّذي يَتَواطأُ عليه القَلبُ واللِّسانُ، والأصلُ في إزالةِ قَسوةِ القُلوبِ بالذِّكرِ قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾. ومنها: الإحسانُ إلى اليَتامى والمساكينِ. ومنها: كثرةُ ذِكرِ الموتِ. ومنها: زيارةُ القُبورِ بالتَّفكُّرِ في

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

حالِ أهلِها ومَصيرِهم. ومنها: النَّظَرُ في ديارِ الهالِكينَ، والاعتِبارُ بمَنازِلِ الغابِرينَ. ومنها: أكلُ الحلالِ(١).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمالِ؛ فقُلوبُهم فاسِدةٌ، وأعمالُهم باطِلةٌ، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، أي: فَسَدتْ قُلوبُهم فقَسَتْ، وصار مِن سَجِيَّتِهم تحريفُ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، وتَرَكوا الأعمالَ الَّتي أُمِروا بها، وارتَكَبوا ما نُهُوا عنه؛ ولهذا نَهى اللهُ تعالى المُؤمنينَ أن يَتشَبَّهوا بهم في شَيءٍ مِنَ الأُمورِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ العدالةُ التَّامَّةُ في حُكْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لم يُعَمِّمْ، وهذا هو الواجِبُ على مَن تَحدَّثَ عن قَومٍ؛ أنْ يُبيِّنَ الواقِعَ؛ لأنَّ بَعضَ النَّاسِ إذا رأى مِن قومٍ زَيغًا في بَعضِهم عَمَّمَ الحُكْمَ على الجَميعِ، والواجِبُ العَدْلُ، فإنْ كان الأكثَرُ هم الفاسِقينَ، فقُلْ: «أكثَرُهم»، وإنْ كان كثيرٌ منهم فاسِقينَ فعَبِّرْ بالكَثيرِ، على حَسَبِ ما تَقتَضيه الحالُ؛ لأنَّ الواجِبَ أنْ يَقومَ الإنسانُ بالعَدلِ ولو على نَفْسِه أو والِدَيه والأقرَبينَ(٣).

١٧- بعدَ ذِكْرِ أصنافِ السُّعَداءِ ذَكَرَ -سُبحانَه- الأشقياءَ، وهم نَوعانِ: كُفَّارٌ، ومُنافِقونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾،

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٦١) فما بعدها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

وذَكَرَ المُنافِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فهؤلاء أصنافُ العالَمِ كلُّهم، وتَرَك سُبحانَه وتعالى ذِكْرَ المُخَلِّطِ صاحِبِ الشَّائِبَتينِ، على طريقةِ القُرآنِ في ذِكْرِ السُّعَداءِ والأشقياءِ دونَ المُخَلِّطِينَ غالبًا؛ لِسِرٍّ اقتَضَتْه حِكْمتُه سُبحانَه وتعالى؛ فلْيَحْذَرْ صاحِبُ التَّخليطِ؛ فإنَّه لا ضَمانَ له على اللهِ، ولا هو مِن أهلِ وَعْدِه المُطْلَقِ، ولا يَيأسْ مِن رَوْحِ اللهِ؛ فإنه ليس مِن الكُفَّارِ الَّذين قُطِعَ لهم بالعَذابِ، ولكِنَّه بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، واقفٌ بيْن الوَعدِ والوَعيدِ؛ كلٌّ مِنهما يَدْعُوه إلى مُوجبِه؛ لأنَّه أَتَى بسَبَبِه[1]!

١٨- مِن وُجوهِ الاعتِبارِ في النَّظَرِ إلى الأرضِ الَّتي أحياها اللهُ بَعْدَ مَوتِها في فَصلِ الرَّبيعِ بما ساق إليها مِن قَطْرِ السَّماءِ: أنَّه يُرجَى مِن كَرَمِه أنْ يُحْييَ القُلوبَ المَيِّتةَ بالذُّنوبِ وطُولِ الغَفلةِ، بسَماعِ الذِّكرِ النَّازِلِ مِنَ السَّماءِ، وإلى ذلك الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن قَدَر على إحياءِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها بوابِلِ القَطْرِ فهو قادِرٌ على إحياءِ القُلوبِ المَيِّتةِ القاسيةِ، بالذِّكرِ؛ عسى لمحةٌ مِن لَمَحاتِ عَطْفِه ونَفحةٌ مِن نَفَحاتِ لُطفِه، وقد صَلَحَ مِنَ القُلوبِ كُلُّ ما فَسَد[2]!

فمَن أحسَّ بقسوةٍ في قلبِه فليُهْرَعْ إلى ذكرِ الله تعالى وتلاوةِ كتابِه يَرجِعْ إليه حالُه، كما أشار إليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ بإحياءِ الأرضِ الميتةِ بالغيثِ؛

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧).

للتَّرغيبِ في الخشوعِ، والتَّحذيرِ عن القساوةِ[١]. ففي ذِكْرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بعْدَ الَّتي قبْلَها تنبيهٌ على أنَّه تعالى كما يُحيي الأرضَ بعْدَ موتِها، كذلك يُلينُ القلوبَ بالإيمانِ بعْدَ قَسوتِها مِن الذُّنوبِ والمعاصي[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ رَدٌّ على المُرْجِئةِ؛ إذِ المُخاطَبون المُوَبَّخونَ بهذا قد كان لهم -لا مَحالةَ- حَظٌّ في الخُشوعِ قبْلَ استِبطائِهم وتَقريعِهم؛ إذْ لو لم يَكُنْ لهم حَظٌّ فيه -وإنْ قَلَّ- ما كانوا مُؤمِنينَ، فهُم ما التُمِس مِنهم إلَّا زيادةٌ في خُشوعِهم الَّذي بقَليلِه استَحقُّوا اسمَ الإيمانِ قبْلَ أنْ يُطالَبوا بكَثيرِه[٣].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ غيرَ هذا الذِّكرِ دَخَله الدَّخيلُ، وأمَّا هذا فثابِتٌ ثباتًا لا يَقدِرُ أحَدٌ على إزالتِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ المقصودُ التَّحذيرُ، لا أنَّهم تلَبَّسوا بذلك ولم يأنِ لهم الإقلاعُ عنه. والتَّحذيرُ مُنصَبٌّ إلى ما حدث لأهلِ الكتابِ مِن قَسوةِ القُلوبِ بَعْدَ طُولِ الأمَدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

عليهم في مُزاوَلةِ دِينِهم، أي: فلْيَحذَرِ الَّذين آمَنوا مِن أن يكونوا مِثْلَهم على حِدْثانِ عَهْدِهم بالدِّينِ. وليس المقصودُ عُذْرَ الَّذين أُوتوا الكِتابَ بطُولِ الأمَدِ عليهم؛ لأنَّ طُولَ الأمَدِ لا يكونُ سَبَبًا في التَّفريطِ فيما طال فيه الأمَدُ، بل الأمرُ بالعَكسِ، ولا قُصِد تَهوينُ حُصولِه للَّذين آمَنوا بعدَ أن يَطُولَ الأمَدُ؛ لأنَّ ذلك لا يتعَلَّقُ به الغَرَضُ قبْلَ طُولِ الأمَدِ، وإنَّما المقصودُ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خُشوعِ قُلوبِهم، ولكنَّه يُفيدُ تَحذيرَ المؤمِنينَ بعْدَ أنْ يَطولَ الزَّمانُ مِن أنْ يَقَعوا فيما وقَعَ فيه أهلُ الكِتابِ، ويَستتبِعُ ذلك الإنباءَ بأنَّ مُدَّةَ المسلِمينَ تَطولُ قريبًا أو أكثَرَ مِن مدَّةِ أهلِ الكتابِ الَّذين كانوا قبْلَ البَعثةِ؛ فإنَّ القُرآنَ مَوعِظةٌ للعُصورِ والأجيالِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ التَّنديدُ التَّامُّ باليَهودِ والنَّصارى؛ لأنَّها قَسَتْ قُلوبُهم لَمَّا طال عليهم الأمَدُ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ خَيرٌ مِن آخِرِها، وأخشَعُ قُلوبًا؛ وذلك لقُرْبِهم مِن عَهْدِ الرِّسالةِ، وقد صَحَّ بذلك الحديثُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((خَيرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم))[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلمٌ (٢٥٣٣) من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

ﱡﭐ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﱠ إشارةٌ إلى أنَّ عَدمَ الخُشوعِ في أوَّلِ الأمرِ يُفضي إلى الفِسقِ في آخِرِ الأمرِ[١]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ الآياتِ تدُلُّ العُقولَ على العِلمِ بالمَطالِبِ الإلهيَّةِ، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها قادرٌ على أن يُحييَ الأمواتَ بعدَ مَوتِهم، فيُجازيَهم بأعمالِهم، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها بماءِ المطَرِ قادِرٌ على أنْ يُحييَ القُلوبَ الميِّتةَ بما أنزَلَه مِنَ الحقِّ على رَسولِه، وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا عَقْلَ لِمَن لم يَهْتَدِ بآياتِ اللهِ، ولم يَنْقَدْ لشَرائِعِ اللهِ تعالى[٢].

٨- عُمَّالُ الآخرةِ على قِسْمَينِ: منهم مَن يَعمَلُ على الأجرِ والثَّوابِ، ومنهم مَن يَعمَلُ على المَنزلةِ والدَّرَجةِ، فهو يُنافِسُ غيْرَه في الوَسيلةِ والمنزلةِ عندَ اللهِ تعالى، ويُسابِقُ إلى القُربِ منه، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فهؤلاء أصحابُ الأُجورِ والثَّوابِ، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ فهؤلاء أصحابُ المَنزلةِ والقُرْبِ[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ؛ هذه الآياتُ جَمَعَت أصنافَ الخَلْقِ: المتصَدِّقينَ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءَ، وأصحابَ الجَحيمِ؛ فالمُتصَدِّقونَ: الَّذين كان جُلُّ عَمَلِهم الإحسانَ إلى الخَلْقِ، وبَذْلَ النَّفعِ إليهم بغايةِ ما يُمكِنُهم، خُصوصًا بالنَّفعِ بالمالِ في سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٩).

اللهِ. والصِّدِّيقونَ: هم الَّذين كَمَّلوا مَراتِبَ الإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والعِلمِ النَّافعِ، واليَقينِ الصَّادِقِ. والشُّهَداءُ: هم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، وبَذَلوا أنفُسَهم وأموالَهم فقُتِلوا. وأصحابُ الجَحيمِ: هم الكُفَّارُ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ. وبَقِيَ قِسمٌ ذَكَرَهم اللهُ تعالى في سورةِ فاطِرٍ -في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]- وهم المُقتَصِدونَ الَّذين أدَّوُا الواجِباتِ، وتَرَكوا المُحَرَّماتِ إلَّا أنَّهم حَصَل منهم تقصيرٌ ببَعضِ حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ عِبادِه؛ فهؤلاء مآلُهم الجنَّةُ، وإن حَصَلَ لهم عُقوبةٌ ببَعضِ ما فَعَلوا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ سُؤالٌ: لِماذا عَبَّرَ اللهُ تعالى بالقَرضِ، وهو الغَنيُّ سُبحانَه وتعالى؟

الجوابُ: يقولُ هذا جلَّ وعلا؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ أجْرَهم مَضمونٌ كما أنَّ القرضَ مَضمونٌ، وسَيَرُدُّ عليه الحَسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، لكنْ كيف تكونُ الواحِدةُ بعَشَرةٍ وهي رِبًا في القَرْضِ؟

الجوابُ: أوَّلًا: لا رِبَا بيْنَ العَبدِ وبيْنَ رَبِّه.

ثانيًا: القَرْضُ إذا أعطاك المقترِضُ شيئًا بدونِ شرْطٍ فهو حَلالٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم استقرَضَ بَكْرًا -والبَكْرُ يعني بَعيرًا صغيرًا- وردَّ خَيرًا منه، وقال: ((إنَّ خَيْرَكم أحسَنُكم قَضاءً))[٢]؛ ولهذا عبارةُ الفُقَهاءِ: «كلُّ شَرطٍ جَرَّ نَفعًا للمُقْرِضِ فهو رِبًا»، ولم يقولوا: كلُّ زيادةٍ[٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٣٩٠)، ومسلمٌ (١٦٠١) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.
وأخرجه مسلم (١٦٠٠) من حديث أبي رافع رضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٣).

دليلٌ على أنَّ الخُلودَ في النَّارِ مَخصوصٌ بالكُفَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّ التَّركيبَ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، والصُّحبةَ تدُلُّ على المُلازَمةِ عُرفًا، وأمَّا غيرُهم مِنَ العُصاةِ فدُخولُهم فيها ليس على وَجهِ الصُّحبةِ الدَّالَّةِ على المُلازَمةِ(١).

١٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أنَّ الكُفْرَ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ، وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفرَ فقط؛ مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط؛ قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقرِنُ بَيْنَهما؛ وذلك لأنَّ كُلًّا منهما قد يكونُ وَحْدَه مُوجِبًا للخُلُودِ في النَّارِ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار ذلك أشدَّ وأعظَمَ. والعياذُ باللهِ(٢).

١٣- قَولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المرادُ بالآياتِ هنا الآياتُ الشَّرعيَّةُ، والكونيَّةُ؛ فمَن أنكَرَ رُبوبيَّةَ اللهِ تعالى وخَلْقَه للمَخلوقاتِ، وتصرُّفَه في الكَونِ؛ فهذا مكذِّبٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ، وقد يُقِرُّ بذلك، لكنَّه يَكفُرُ ويُكَذِّبُ بالآياتِ الشَّرعيَّةِ، ويُعرِضُ عن طاعةِ اللهِ تعالى(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ استِئنافٌ ناعٍ عليهم تَثاقُلَهم في أُمورِ الدِّينِ، ورَخاوةَ عَقدِهم فيها، واستِبطاءٌ لانتِدابِهم لِما نُدِبوا إليهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٨).

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ نفْيِ اقترابِ وقْتِ فِعْلِ الفعلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ للتَّقريرِ على النفْيِ(١).

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إمَّا بعضٌ منهم رُبَّما كانوا مُقصِّرينَ عن جُمهورِ المؤمنينَ يومَئذٍ بمكَّةَ، فأراد اللهُ إيقاظَ قُلوبِهم بهذا الكلامِ المُجمَلِ، على عادةِ القرآنِ وأقوالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّعريضِ، وإمَّا أنْ يكونَ تَحريضًا للمؤمنينَ على مُراقَبةِ ذلك، والحذَرِ مِن التَّقصيرِ(٢).

- وقَدَّم الخُشوعَ بالذِّكْرِ على الخُشوعِ بما نَزَل مِنَ القُرآنِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والخَوفَ والخَشْيةَ لا تَحصُلُ إلَّا عِندَ ذِكرِ اللهِ تعالى، فأمَّا حُصولُها عِندَ سَماعِ القُرآنِ فذلك مِن أجْلِ اشتِمالِ القُرآنِ على ذِكرِ اللهِ تعالى(٣).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ الوَصْفانِ في قولِه: ﴿لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ للقرآنِ؛ تَشريفًا له بأنَّه ذِكرُ اللهِ، وتَعريفًا لنفْعِه بأنَّه نزَلَ مِن عندِ اللهِ، وأنَّه الحقُّ(٤).

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ حرْفَ نَهْيٍ، ويُعلَّقَ النَّهيُ بالغائبِ التِفاتًا(٥)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٥) الالتفاتُ: هو نقْلُ الكلامِ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ آخَرَ؛ استِدرارًا للسَّامعِ، وتَجديدًا لنشاطِه، وصِيانةً لخاطرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأُسلوبِ الواحدِ على سمْعِه؛ كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تَغييرِ ضَميرِ المُتكلِّمِ نفْسِه: تارةً يَجعلُه تاءً على جِهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً =

أو المرادُ: أبْلِغْهم ألَّا يكونوا[١].

- وفاءُ ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ لتَفريع طُولِ الأمَدِ على قَسْوةِ القلوبِ مِن عدَمِ الخُشوعِ، فهذا التَّفريعُ خارجٌ عن التَّشبيهِ الَّذي في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾، ولكنَّه تَنبيهٌ على عاقِبةِ ذلك التَّشبيهِ؛ تَحذيرًا مِن أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ الَّذين أُوتوا الكتابَ مِن قبْلُ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾، افتِتاحُ الكلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقى جَديرٌ بتوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه، وهو هنا يُشيرُ إلى أنَّ الكلامَ الَّذي بعْدَه له مَغزًى عَظيمٌ غيرُ ظاهرٍ؛ وذلك أنَّه أُرِيدَ به تَمثيلُ حالِ احتِياجِ القُلوبِ المُؤمِنةِ إلى ذِكرِ اللهِ بحالِ الأرضِ المَيتةِ في الحاجةِ إلى المطَرِ، وحالِ الذِّكرِ في تَزكيةِ النُّفوسِ واستِنارتِها بحالِ الغَيثِ في إحياءِ الأرضِ الجَدْبةِ، ودلَّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ

= يجعلُه كافًا، فيَجعَلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يَجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرْطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقَّلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى المُلتَفَتِ عنه. وللمُتَكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مَقاماتٌ، والمشهورُ: أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. وهذا النَّوعُ قد يختصُّ مواقعُه بلطائفِ مَعانٍ قَلَّما تتَّضِحُ إلَّا لأفرادِ البُلغاءِ، أو للحُذَّاقِ المَهرَةِ في هذا الفنِّ والعُلماءِ النَّحارير. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ وإلَّا فإنَّ إحياءَ اللهِ الأرضَ بعْدَ مَوتِها بما يُصيبُها مِن المطَرِ لا خَفاءَ فيه؛ فلا يَقْتضي أنْ يُفتتَحَ الإخبارُ عنه بمِثلِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ إلَّا لأنَّ فيه دَلالةً غيرَ مألوفةٍ، وهي دَلالةُ التَّمثيلِ؛ فالجُملةُ بمَنزِلةِ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٦]؛ لِما تَتضمَّنُه تلك مِن التَّحريضِ على الخُشوعِ لذِكرِ اللهِ، ولكنَّ هذه بمَنزلةِ العِلَّةِ؛ ففُصِلَت ولم تُعطَفْ[١].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للمُؤمنينَ، على طَريقةِ الالْتِفاتِ، إقْبالًا عليهم؛ للاهتِمامِ[٢].

- وقولُه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؛ لأنَّ السَّامعَ قولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ يَتطلَّبُ مَعرفةَ الغرَضِ مِن هذا الإعلامِ، فيكونُ قولُه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جَوابًا عن تَطلُّبِه، أي: أعلَمْناكم بهذا تَبْيينًا للآياتِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يُفيدُ بعُمومِه مُفادَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للاستِغراقِ[٤].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ رَجاءٌ وتَعليلٌ، أي: بَيَّنَّا لكم لأنَّكم حالُكم كحالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٤، ٣٩٥).

مَن يُرْجى فَهْمُه، والبَيانُ عِلَّةٌ لفَهمِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مِن عَطْفِ المرادِفِ في المعْنى؛ لِمَا في المعطوفِ مِن تَشبيهِ فِعْلِهم بقرْضٍ للهِ؛ تَنويهًا بالصَّدقاتِ[٢].

- وعُطِفَ ﴿وَأَقْرَضُواْ﴾ -وهو جُملةٌ- على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ -وهو مُفرَدٌ-؛ لأنَّ المفردَ في حُكْمِ الفعلِ؛ حيثُ كانتِ اللَّامُ في معْنى الموصولِ؛ فقُوَّةُ الكلامِ: إنَّ الَّذين اصَّدَّقوا واللَّائي تَصدَّقْنَ وأقْرَضوا على التَّغليبِ، ووَجْهُ العُدولِ عن تَماثُلِ الصِّلتَينِ فلم يَقُلْ: (إنَّ المُصَّدِّقينَ والمُقرِضينَ)؛ هو تَصويرُ معْنى كَونِ التَّصدُّقِ إقراضًا للهِ. وقيل: ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ اعتراضٌ على سَبيلِ الاستِطرادِ؛ فإنَّ المُصَّدِّقاتِ لو لمْ تُذكَرْ لَكانتْ مُندرِجةً تحتَ ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ على سَبيلِ التَّغليبِ، كما أنَّ قولَه: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ عامٌّ في الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فذِكرُ ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ لِمَزيدِ التَّقريرِ. وقيل: إنَّ (المُصَّدِّقاتِ) ليسَ بعطفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، بل هُو مَنصوبٌ على الاختِصاصِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ المُصَّدِّقينَ على العُمومِ تَغليبًا، وأخصُّ المُصَّدِّقاتِ مِن بيْنِهم، كما تقولُ: إنَّ الَّذين آمنوا -ولا سيَّما العلماءِ منهم- وعمِلُوا الصَّالِحاتِ لهم كذا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّخصيصِ مَزيدُ استِحقاقِهنَّ لمُضاعَفةِ الأجْرِ، كما في المثالِ المذكورِ، بل زِيادةُ احتياجِهنَّ إلى التَّصدُّقِ، الدَّاعيةُ إلى الاعتِناءِ بِحَثِّهنَّ على التَّصدُّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٧)، =

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- في جمْعِ لَفظِ ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ تَعريضٌ بأهلِ الكتابِ الَّذين قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]، فاليهودُ آمَنوا باللهِ وبمُوسى، وكَفَروا بعِيسى وبمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والنَّصارى آمَنوا باللهِ وبعِيسَى، ثُمَّ كفَروا فعَبَدوه، وكفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمُؤمِنونَ آمَنوا برُسلِ اللهِ كلِّهم؛ ولذلك وُصِفوا بأنَّهم الصِّدِّيقونَ[(١)].

- وأيضًا جمَعَ الرُّسلَ؛ لأنَّ مَن آمَن باللهِ، وبجَميعِ ما يجبُ أنْ يُؤمَنَ به مِن صِفاتِه وأفعالِه، وبجَميعِ ما يُضافُ ويُنسَبُ إليهم؛ يكونُ مُفرِطًا في الصِّدْقِ؛ لكَثرةِ ما صدَّقَ به[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم استَحَقُّوا ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ. وما فيهِ مِن معْنى البُعدِ مع قُربِ العَهدِ بالمشارِ إليه؛ للتَّنويهِ بشأْنِهم[(٣)].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) للقَصْرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[(٤)]، أي: هُمُ الصِّدِّيقونَ

= ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٤) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره =

لا الَّذين كذَّبوا بعضَ الرُّسلِ، وهذا إبطالٌ لأنْ يكونَ أهلُ الكتابِ صِدِّيقينَ؛ لأنَّ تَصديقَهم رسولَهم لا جَدْوى له؛ إذ لم يُصدِّقوا بِرسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- و(الصِّدِّيقُ) -بتَشديدِ الدَّالِ- مُبالَغةٌ في المُصَدِّقِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ عطْفَ المفرَدِ على المفرَدِ؛ فهو عطْفٌ على الخبَرِ، أي: وهم الشُّهداءُ، فتَكونَ جُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا نشَأَ عن وصْفِهم بتَينِكَ الصِّفتَينِ؛ فإنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ما هو نَوالُهم مِن هذَينِ الفضْلَينِ. وقيل: معنَى كونِهم شُهداءَ: أنَّهم شهداءُ على الأُممِ يومَ الجزاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ خبرًا عن المُبتدأِ، ويكونَ العطْفُ مِن عطْفِ الجُمَلِ، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، فيكونَ انتِقالًا مِن وصْفِ مَزيَّةِ الإيمانِ باللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وَصْفِ مَزيَّةِ فَريقٍ منهم استَأْثَروا بفَضيلةِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ، وهذا مِن تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فإنَّه لَمَّا نوَّه بوعْدِ المُؤمنينَ

= بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

المُصدِّقينَ المَعْفيينَ مِن قولِه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ ...﴾ [الحديد: ٨] إلخ، فأوفاهم حقَّهم بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾؛ أقبَلَ على وعْدِ الشُّهداءِ في سَبيلِ اللهِ، الَّذين تضمَّنَ ذِكرَهم قولُه: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠] الآياتِ، فالشُّهداءُ إذَنْ هم المَقتولونَ في الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، ويمكِنُ الجمْعُ بيْن معْنيي الشُّهداءِ، على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعْنَيَيه[1].

- قيل: سمَّاهم شُهداءَ تَغليبًا، أو المرادُ لهم أجْرُ الشُّهداءِ، وإلَّا فبَعضُهم لم يُقتَلْ حتَّى يكونَ شَهيدًا[2]. وذلك على أنَّ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ معطوفٌ.

- ومعْنى إضافةِ أجْرٍ ونُورٍ إلى ضَميرِهم في قولِه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ أنَّه أجْرٌ يُعرَّفُ بهم، ونُورٌ يُعرَّفُ بهم، وإذ قد كان مُقْتضَى الإضافةِ أنْ تُفيدَ تَعريفَ المضافِ بنِسبتِه إلى المضافِ إليه، وكان الأجرُ والنُّورُ غيرَ مَعلومَينِ للسَّامعِ؛ كان في الكلامِ إبهامٌ يُكنَّى به عن أجْرٍ ونُورٍ عَظيمَينِ، فهو كِنايةٌ عن التَّنويهِ بذلك الأجْرِ وذلك النُّورِ، أي: أجرٌ ونُورٌ لا يُوصَفانِ إلَّا بأجْرِهم ونُورِهم، أي: أجرٌ ونورٌ لائقانِ بمقامِهم، مع ضَميمةِ ما أفادَتْه العِنْديَّةُ الَّتي في قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مِن معْنى الزُّلْفى والعِنايةِ بهم، المُفيدِ عَظيمَ الأجْرِ والنُّورِ[3].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَا ﴿أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ عائدَينِ إلى لَفظَي ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، أو إلى لَفظِ (الشُّهَدَاءُ) خاصَّةً، بمعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ ممَّن كانوا قبْلَهم مِن الأُمَمِ، ومعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ حينَئذٍ مُغايرٌ للمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨، ٣٩٩).

السَّابقِ بالعمومِ والخُصوصِ على طَريقةِ الاستِخدامِ في الضَّميرِ، وطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ في حمْلِ الخبرِ على المُبتدأِ في قولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، بتَقديرِ: لهم مِثْلُ أجْرِهم ونُورِهم، ولا تأْويلَ في إضافةِ الأجرِ والنُّورِ إلى الضَّميرَينِ بهذا المَحملِ؛ فإنَّ تَعريفَ المضافِ بيِّنٌ؛ لأنَّه قد تَقرَّر في عِلمِ النَّاسِ ما وُعِدَ به الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ مِن الأمَمِ الماضيةِ، وفائدةُ التَّشبيهِ على هذا الوجْهِ تَصويرُ قوَّةِ المُشبَّهِ وإنْ كان أقوى مِن المُشبَّهِ به؛ لأنَّ للأحوالِ السَّالفةِ مِن الشُّهرةِ والتَّحقُّقِ ما يُقرِّبُ صُورةَ المُشبَّهِ عندَ المخاطَبِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تتميمٌ[(٢)] اقتَضاهُ ذِكرُ أهلِ مَراتبِ الإيمانِ والتَّنويهُ بهم، فأُتبِعَ ذلك بوَصْفِ أضْدادِهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّنويهَ بهم بأنَّ إيمانَهم أنْجاهم مِن الجَحيمِ[(٣)].

- ولَفظُ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الاستِغراقَ، فيَتناوَلُ جَميعَ آياتِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩، ٤٠٠).

المُختلِفةِ الأنواعِ، ومُكذِّبُها يكونُ مُفْرِطًا في الكذِبِ؛ لكثرةِ ما كذَّبَ به[(١)].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا باللهِ وكذَّبوا بالقُرآنِ: ما يَشملُ المُشرِكينَ واليهودَ والنَّصارَى، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في دركاتِ الجحيمِ. وفي استِحضارِهم بتَعريفِ اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّهم جَديرون بذلك مِن أجْلِ الكفْرِ والتَّكذيبِ، ولم يُؤْتَ في خبَرِهم بضَميرِ الفَصلِ؛ إذ لا يُظَنُّ أنَّ غيرَهم أصحابُ الجحيمِ[(٢)].

- وفي التَّعبيرِ عنهم بـ﴿أَصْحَٰبُ﴾ مُضافٍ إلى ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: دَلالةٌ على شِدَّةِ مُلازمتِهم للجحيمِ[(٣)].

- وفي الآيةِ احتباكٌ[(٤)]؛ ذكَرَ الصِّدِّيقيَّةَ -وما معها- أوَّلًا دليلًا على أضْدادِها ثانيًا، والجحيمَ ثانيًا دليلًا على النَّعيمِ أولًا. وسرُّه أنَّ الأوَّلَ أعظمُ في الكرامةِ، والثَّانيَ أعظمُ في الإهانةِ[(٥)].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦).

الآيتان (٢٠-٢١)

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ
كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ
شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ
مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ
فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَهۡوٞ﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وكُلُّ باطِلٍ ألهَى عن الخَيرِ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ[١].

﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾: أي: يَفخَرُ بَعضُكم على بعضٍ بما أُعطِيَ مِن مَتاعِ الدُّنيا؛ مِنَ الفَخْرِ: وهو المُباهاةُ في الأشياءِ الخارجةِ عن الإنسانِ، كالمالِ والجاهِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على تعاظُمٍ[٢].

﴿وَتَكَاثُرٞ﴾: التَّكاثُرُ: التَّباهي والتَّباري بكَثْرةِ المالِ والعزِّ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[٣].

﴿غَيۡثٍ﴾: أي: مطَرٍ، وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ، وقيل: الغَيثُ هو

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

مطرٌ في إبَّانِه، وإلَّا فمطرٌ[١].

﴿ٱلْكُفَّارَ﴾: أي: الزُّرَّاعَ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ، ويَستُرُها في التُّرابِ. وقيل: الكُفَّارُ هنا هم الكُفَّارُ باللهِ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٢].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ بعدَ أنْ كان أخضَرَ نَضِرًا، وأصلُ (هيج) هنا: يدُلُّ على يُبْسِ نَباتٍ[٣].

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا، والحُطامُ: ما تحطَّمَ مِن عِيدانِ الزَّرْعِ إذا يَبِسَ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسْرِ شَيْءٍ[٤].

﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: أي: مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، ومَتاعُ الغُرورِ: الشَّيءُ الَّذي لا يُعظِّمُ الاستِمتاعَ به إلا مُغْتَرٌّ، وهو كُلُّ ما يُلْهِي عن طَلَبِ الآخرةِ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خَيرٍ، وأصلُ (غرر) هنا: يدُلُّ على نُقْصانٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).
قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠) و(٥/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الدُّنيا: اعلَموا أنَّ الحياةَ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ زائِلٌ، وزِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتفاخُرٌ بَيْنَكم، وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ، ومُباهاةٌ بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم؛ مَثَلُها كمَثَلِ مَطَرٍ أنبَتَتْ به الأرضُ زُروعًا أعجَبَت الكُفَّارَ، ثمَّ تيبَسُ تلك الزُّروعُ، فترَى بعدَ تَمامِ خُضرتِها ونَضْرتِها ذابِلةً مُصْفَرَّةَ اللَّونِ، ثمَّ تَصيرُ فُتاتًا مُتَكَسِّرًا!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى عِظَمَ الآخرةِ، فيقولُ: وفي الآخِرةِ عذابٌ شَديدٌ للكافِرينَ الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا، وأعرَضوا عن الآخِرةِ، ومَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لعِبادِه المؤمِنينَ، ورِضوانٌ، وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه بالمُسابَقةِ إلى ما فيه سعادتُهم، فيقولُ: سابِقُوا إلى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّماءِ والأرضِ، أُعِدَّت للَّذين آمَنوا باللهِ -تعالى- ورُسُلِه؛ ذلك فَضلُ اللهِ -تعالى- يُؤتيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ الواسِعِ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ التَّحريضَ على الصَّدَقاتِ والإنفاقِ بالإشارةِ إلى دَحْضِ سَببِ الشُّحِّ أنَّه الحِرْصُ على استِبقاءِ المالِ لإنفاقِه في لَذائذِ الحَياةِ الدُّنيا، فضرَبَ لهم مَثَلَ

الحياةِ الدُّنيا بحالٍ مُحقَّرةٍ على أنَّها زائلةٌ؛ تَحقيرًا لحاصِلِها، وتَزهيدًا فيها؛ لأنَّ التَّعلُّقَ بها يَعوقُ عن الفَلَاحِ[(١)].

وأيضًا وَجْهُ الاتِّصالِ أنَّ الإنسانَ قد يَترُكُ الجِهادَ؛ خَوفًا على نَفْسِه مِن القَتلِ، وخَوفًا مِن لُزومِ الموتِ، فبَيَّن أنَّ الحياةَ الدُّنيا مُنقَضِيةٌ؛ فلا يَنبغي أن يُترَكَ أمرُ اللهِ محافظةً على ما لا يَبقى[(٢)].

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾.

أي: اعلَموا أنَّ حَقيقةَ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ وهَزْلٌ باطِلٌ مُنقَطِعٌ لا دوامَ له، ولهوٌ يُلْهِي ويَفرَحُ النَّاسُ ويَتلَذَّذونَ به، ثمَّ يَنقَضي[(٣)]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: والحياةُ الدُّنيا زِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتَستَطِيبونَ شَهَواتِها، وتَستَحسِنونَ مَنظَرَها وزُخْرُفَها، وهي تفاخُرٌ بَيْنَكم؛ فيَفخَرُ بَعضُكم على بَعضٍ بما حَصَّله منها[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٢).
وللفرقِ بينَ اللَّعبِ واللَّهوِ يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ المحررِ (٣٣/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٣).

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي مالِكٍ الأَشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربَعٌ في أُمَّتي مِن أمرِ الجاهِليَّةِ لا يَترُكونَهنَّ: الفَخرُ في الأحسابِ[1]، والطَّعنُ في الأنسابِ، والاستِسقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ!))[2].

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾.

أي: وهي تكاثُرٌ؛ تَتَكَثَّرونَ فيها مِنَ الأموالِ والأولادِ، وتَتباهَونَ فيها بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم[3]!

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّر سُبحانَه أنَّها ظِلٌّ زائِلٌ، وعَرَضٌ هائِلٌ، وكان بعضُ النَّاسِ يَتنَبَّهُ فيَشكُرُ، وبعضُهم يَعمَى فيَكفُرُ، وكان القِسمُ الثَّاني أكثَرَ؛ لأنَّ وُجودَها وإقبالَها يُعمي

(١) الفَخرُ في الأحسابِ أي: التَّفاخُرُ والتَّكبُّرُ والتَّعظيمُ بعَدِّ الرَّجُلِ مَناقِبَه، ومآثِرَ آبائِه، وتفضيلِه نفْسَه على غيرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٣/ ١٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

أكثَرَ القُلوبِ عن حقارتِها- ضرب لذلك مثلًا مُقَرِّرًا لِما مضَى من وَصْفِها؛ لأنَّ للأمثالِ في تقريرِ الأشياءِ وتَصويرِها ما ليس لغَيرِها[1].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

أي: كمَثَلِ مَطَرٍ جاءَ بعْدَ قُنوطِ النَّاسِ، فأنبَتَت به الأرضُ المُجدِبةُ زُروعًا استَحسَنَها الكُفَّارُ[2].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قيل: الكُفَّارُ هنا: الزُّرَّاعُ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغَطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ ويَستُرُها في التُّرابِ. ومِمَّن قال بأنَّ الكُفَّارَ هنا هم الزُّرَّاعُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ باللهِ تعالى؛ فهم أشَدُّ إعجابًا بزينةِ الدُّنيا مِنَ المؤمنينَ. وممَّن ذَهَب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قال ابن القيم: (الصَّحيحُ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ الكُفَّارَ هم الكُفَّارُ باللهِ تعالى، وذلك عُرْفُ القُرآنِ حيثُ ذُكِروا بهذا النَّعْتِ في كلِّ مَوضِعٍ، ولو أراد الزُّرَّاعَ لَذَكَرَهم باسمِهم الَّذي يُعرَفونَ به، كما ذَكَرَهم به في قَولِه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٧١).

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾.

أي: ثمَّ يَبتَدِئُ ذلك الزَّرعُ بالجَفافِ واليُبْسِ، فيُرى بعْدَ تَمامِ خُضرتِه ونَضْرتِه ذابِلًا مُصْفَرَّ اللَّونِ[1]!

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾.

أي: ثمَّ يَصيرُ بعدَ تَناهي جَفافِه ويُبْسِه فُتاتًا مُتَكَسِّرًا[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا المثَلُ دالًّا على زَوالِ الدُّنيا وانقِضائِها وفراغِها لا محالةَ، وأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).
قال ابنُ كثير: (هكذا الحياةُ الدُّنيا؛ تكونُ أوَّلًا شابَّةً، ثمَّ تكتَهِلُ، ثمَّ تكونُ عَجوزًا شَوْهاءَ، والإنسانُ كذلك؛ في أوَّلِ عُمُرِه وعُنْفوانِ شبابِه يكونُ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الأعطافِ، بَهِيَّ المَنظَرِ، ثمَّ إنَّه يَشرَعُ في الكُهولةِ، فتَتغيَّرُ طِباعُه، ويَنفَدُ بَعضُ قُواه، ثمَّ يَكبَرُ فيَصيرُ شَيخًا كبيرًا، ضَعيفَ القُوى، قليلَ الحَرَكةِ، يُعجِزُه الشَّيءُ اليَسيرُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٥).

الآخِرةَ كائِنةٌ لا محالةَ؛ حَذَّر مِن أمْرِها، ورَغَّب فيما فيها مِن الخَيرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما يَؤُولُ إليه أمرُ الدُّنيا مِن الفَناءِ؛ ذكَرَ ما هو ثابِتٌ دائِمٌ مِن أمرِ الآخِرةِ مِن العَذابِ الشَّديدِ، ومِن رِضاه الَّذي هو سَبَبُ النَّعيمِ(٢).

وأيضًا بعدَما بُيِّن حَقارةُ أمْرِ الدُّنيا؛ تَزهيدًا فيها، وتَنفيرًا عن العكوفِ عليها، أُشيرَ إلى فَخامةِ شأْنِ الآخرةِ، وعِظَمِ ما فيها مِنَ اللَّذَّاتِ والآلامِ؛ تَرغيبًا في تَحصيلِ نَعيمِها المُقيمِ، وتَحذيرًا مِن عذابِها الأليمِ، وقد ذُكِرَ العذابُ فقِيلَ: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾؛ لأنَّه مِن نَتائجِ الانهماكِ فيما فُصِّلَ مِن أحوالِ الحياةِ الدُّنيا(٣).

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ يَقَعُ عذابٌ شَديدٌ على الكافِرينَ باللهِ -تعالى- وبرُسُلِه، الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا الزَّائِلةِ، وأعرَضوا عن الآخِرةِ الباقِيةِ(٤).

﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ تَكونُ مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لذُنوبِ عِبادِه الَّذين سَعَوا للآخِرةِ سَعْيَها، ورِضوانٌ مِن اللهِ تعالى يُحِلُّه على أهلِ جَنَّتِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٦).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

أي: وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ يَتمَتَّعُ به النَّاسُ زَمَنًا قَليلًا، يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، وهو زائِلٌ، ويَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، وهو باطِلٌ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ الفِهْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إِصْبَعَه هذه -وأشار يحيى[٢] بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَوضِعُ سَوطٍ في الجنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها))[٤].

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى ما في الآخِرةِ مِنَ المغفِرةِ؛ أمَرَ بالمسابَقةِ إليها[٥].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن حالَ الدُّنيا لِيَصرِفَ الكمَلةَ مِنَ العِبادِ عنها؛ لسُفولِها وحقارتِها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٦).

(٢) وهو يحيى بنُ يحيى التَّميمي، أبو زكريَّا النَّيسابوري، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢٥٠، ٦٤١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

وأنَّ الآخِرةَ بَقاءٌ وكَمالٌ؛ لِيَرغَبوا غايةَ الرَّغبةِ فيها، ولِيَشتاقوا كلَّ الاشتياقِ لكَمالِها وشَرَفِها وجَلالِها؛ أنتَجَ ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: سابِقُوا غَيرَكم وبادِروا إلى عَمَلِ ما يُوجِبُ لكم تحقيقَ المَغفِرةِ مِن رَبِّكم لذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم[2].

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وسابِقوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّمواتِ والأرضِ، لو بُسِطَت ووُصِلَ بَعضُها ببَعضٍ[3]!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).

قال الرازي: (سارِعوا مُسارَعةَ المُسابِقِينَ لأقرانِهم في المِضْمارِ، وقَولُه: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾... لا شَكَّ أنَّ المرادَ منه المُسارَعةُ إلى ما يُوجِبُ المَغفِرةَ؛ فقال قومٌ: المرادُ: سابِقوا إلى التَّوبةِ. وقال آخَرونَ: المرادُ: سابِقوا إلى سائِرِ ما كُلِّفْتُم به، فدَخَل فيه التَّوبةُ. وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المَغفِرةَ والجَنَّةَ لا يُنالانِ إلَّا بالانتِهاءِ عن جميعِ المعاصي، والاشتِغالِ بكُلِّ الطَّاعاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أكثِروا مِن أسبابِها ووسائِلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المَغفِرةِ هي المُسابَقةُ في تحصيلِ أسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال الرازي: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقال في «آلِ عِمْرانَ»: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فذكروا فيه وُجوهًا: =

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: أُعِدَّت تلك الجَنَّةُ وهُيِّئَتْ للَّذين آمَنوا باللهِ تعالى، وآمَنوا برُسُلِه عليهم

= أحدُها: أنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرَضينَ السَّبْعَ لو جُعِلَتْ صفائحَ وأُلزِقَ بعضُها ببعضٍ لَكانت الجنَّةُ في عَرضِها، هذا قولُ مُقاتِلٍ.

وثانيها: قال عَطاءٌ [عن] ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ أنَّ لكلِّ واحدٍ مِن المُطيعينَ جنَّةً بهذه الصِّفةِ.

وثالثُها: قال السُّدِّيُّ: إنَّ اللهَ تعالى شبَّه عَرْضَ الجنَّةِ بعَرضِ السَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ، ولا شكَّ أنَّ طُولَها أزْيَدُ مِن عَرضِها، فذكَرَ العَرضَ تنبيهًا على أنَّ طولَها أضعافُ ذلك.

ورابعُها: أنَّ هذا تمثيلٌ للعِبادِ بما يَعقِلونه، ويقَعُ في نُفوسِهم وأفكارِهم، وأكثَرُ ما يقعُ في نُفوسِهم مِقدارُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا قولُ الزَّجَّاجِ.

وخامِسُها، وهو اختيارُ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الجِنانَ أربعةٌ، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فالمرادُ هاهنا تشبيهُ واحدةٍ مِن تلك الجِنانِ في العَرضِ بالسَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٢).

ونسَبَ القُرطبيُّ هذا القولَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ الآية (١٣٣) إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٠٤).

وقال النَّيْسابوريُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ: (المرادُ المُبالَغةُ في وصْفِ سَعةِ الجنَّةِ، فشُبِّهَتْ بأوسَعِ ما عَلِمَه النَّاسُ مِن خَلقِه وأبسَطِه). ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

السَّلامُ[١].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّةِ فَضلٌ مِنَ اللهِ تعالى تَفَضَّلَ به عليهم، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا * ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ والثَّوابِ الكَبيرِ، فلا يَبعُدُ منه عزَّ وجلَّ التَّفضُّلُ بذلك على مَن يَشاءُ وإنْ عَظُمَ قَدْرُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

أَنَّ الحياةَ ينبغي أن تُتَخَّذَ وَسيلةً للنَّعيمِ الدَّائِمِ في الآخِرةِ، ووِقايةً مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما عدا ذلك مِن أحوالِ الحياةِ فهو مَتاعٌ قَليلٌ؛ ولذلك أعقَبَ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا بالإخبارِ عن الآخِرةِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ﴾... إلخ[1].

٢- إنَّ ذَمَّ الدُّنيا ليس راجِعًا إلى مَكانِ الدُّنيا الَّذي هو الأرضُ الَّتي جَعَلَها اللهُ لبني آدَمَ مِهادًا وسَكَنًا، ولا إلى ما أودَعَ اللهُ فيها مِن الجِبالِ والبِحارِ والأنهارِ والمعادِنِ، ولا إلى ما أنبَتَه فيها مِن الشَّجَرِ والزَّرْعِ، ولا إلى ما بَثَّ فيها مِن الحيَواناتِ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّ ذلك كلَّه مِن نعمةِ اللهِ على عِبادِه بما لهم فيه مِن المنافِعِ، ولهم به مِن الاعتِبارِ والاستِدلالِ على وحدانيَّةِ صانِعِه وقُدرتِه وعَظَمتِه، وإنَّما الذَّمُّ راجِعٌ إلى أفعالِ بني آدمَ الواقِعةِ في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقِعٌ على غيرِ الوجهِ الَّذي تُحمَدُ عاقِبتُه، بل يَقَعُ على ما تَضُرُّ عاقِبتُه، أو لا تَنفَعُ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ والزِّينةَ وكُلَّ ما ذُكِرَ معها: مَذمومٌ جُملةً، إلَّا ما رُخِّصَ فيه مِن مُلاعبةِ الرَّجُلِ امرأتَه وجاريتَه، ولَهْوِ النِّضالِ وما ذُكِرَ معه، وما استُثنِيَ مِن الزِّينةِ في سورةِ (الأعرافِ) مِن أَخْذِ الزِّينةِ عندَ المساجِدِ، وما لم يكُنْ منها سَرَفًا[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا[4].

٥- قد نَجِدُ الإنسانَ أحيانًا يكونُ في حالِ الضِّيقِ أو الوَسَطِ خَيرًا منه في حالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٥).

الغِنى؛ لأنَّه يَغُرُّه الغِنى ويُطْغِيه والعِياذُ باللهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾، يعني: فلا تغترُّوا بها، وعليكم بالآخِرةِ الَّتي إذا زُحزِحَ فيها الإنسانُ عن النَّارِ وأُدخِلَ الجنَّةَ، فإنَّه بذلك يفوزُ فَوزًا لا فَوزَ مِثلُه. نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا وإيَّاكم مِمَّن أُوتِيَ في الدُّنيا حَسَنةً، وفي الآخِرةِ حَسَنةً، ووقاه اللهُ عذابَ النَّارِ[1].

٦- لَمَّا سَمِعَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم قَولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فَهِموا أنَّ المرادَ مِن ذلك أن يجتهِدَ كُلُّ واحدٍ منهم أن يكونَ هو السَّابِقَ لغَيرِه إلى هذه الكرامةِ، والمسارِعَ إلى بلوغِ هذه الدَّرَجةِ العاليةِ؛ فكان أحَدُهم إذا رأى مَن يعمَلُ عَمَلًا يَعجِزُ عنه خَشِيَ أن يكون صاحِبُ ذلك العمَلِ هو السَّابِقَ له، فيَحزَنُ لفَواتِ سَبْقِه، فكان تنافُسُهم في دَرَجاتِ الآخرةِ، واستباقُهم إليها، كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ثمَّ جاء مَن بَعْدَهم فعَكَسَ الأمرَ، فصار تنافُسُهم في الدُّنيا الدَّنِيَّةِ وحُظوظِها الفانيةِ[2]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ فاللَّعِبُ طَورُ سِنِّ الطُّفولةِ والصِّبا، واللَّهوُ طَورُ الشَّبابِ، والزِّينةُ طَورُ الفُتُوَّةِ، والتَّفاخُرُ طَورُ الكُهولةِ، والتَّكاثُرُ طَورُ الشَّيخوخةِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾ إخبارٌ بأنَّ في الآخِرةِ عَذابًا شَديدًا، ومَغفِرةً منه تعالى ورِضوانًا، وهذا مَعنًى حَسَنٌ،

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

وهو أنَّه قابَلَ العَذابَ بشَيئَينِ: بالمَغفِرةِ والرِّضوانِ؛ فهو من بابِ: (لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ)(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ * سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وَصْفُ الدَّاءِ والدَّواءِ معًا؛ فالدَّاءُ: هو الغُرورُ. والدَّواءُ: هو المُسابَقةُ إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانِه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دَلالةٌ على المُبادَرةِ فَورًا لامتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى(٣)، وقد احتَجَّ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ يُفيدُ الفَورَ بهذه الآيةِ، فقالوا: هذه الآيةُ دَلَّت على وُجوبِ المُسارَعةِ؛ فوجب أن يكونَ التَّراخي مَحظورًا(٤).

٥- قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ عندَ جميعِ العلماءِ في النَّدبِ إلى الطَّاعاتِ، وقد استدَلَّ بها بعضُهم على أنَّ أوَّلَ أوقاتِ الصَّلَواتِ أفضلُ؛ لأنَّه يَقْتضي المسارعةَ والمسابقةَ(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أَمْرٌ بالمُسابَقةِ، وقد جاء الأمرُ في آيةٍ أُخرى بالمُسارَعةِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٨٨).
(لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ) لفظُ أثرٍ أخرجه مالكٌ (٢/ ٤٤٦)، والحاكمُ (٣١٧٦)، والبيهقيُّ (١٠٠١٠) موقوفًا عن عُمَرَ رضيَ الله عنه.
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، ووافقه الذهبيُّ في ((التلخيص)) (٢/ ٣٢٩)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٧٢)، وقوَّى إسنادَه ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ١٦١).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وذلك بفِعلِ أسبابِ المغفرةِ، ومِن أسبابِ المغفرةِ: أنْ تسألَ اللهَ المَغفِرةَ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو تَقولُ: أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ومِن أسبابِ المغفرةِ: فِعْلُ ما تكونُ به المَغفِرةُ، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن صام رَمَضانَ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أنَّ مُحْسِني الجِنِّ في الجَنَّة، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ لأنَّ مُؤمِنَهم ممَّنْ آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، فيَدْخُلُ في المبشَّرينَ، ويَستحِقُّ البِشارةَ[٢].

٨- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَنَّةَ مَخلوقةٌ، وتَكرُّرُ ذلك في القُرآنِ يُقوِّي ذلك، والسُّنَّةُ ناصَّةٌ على ذلك، وذلك يَرُدُّ على المُعتَزِلةِ في قَولِهم: «إنَّها الآنَ غيرُ مَخلوقةٍ وستُخْلَقُ»[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ في بابِ الوَعيدِ -حيثُ يُخَلِّدون عُصاةَ الموحِّدينَ في النَّارِ- وقد أخْبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه عن نَفْسِه بإعدادِ الجَنَّةِ للمُؤمِنينَ به وبرُسُلِه في هذه الآيةِ بلا شَرْطٍ[٤].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي سورةِ (آلِ عِمرانَ) قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٣٨)، ومسلمٌ (٧٦٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٧).

ولا مُنافاةَ؛ لأنَّ الأوَّلَ: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَشبيهٌ، والثَّاني: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أيضًا تَشبيهٌ، لكِنْ يُسَمِّيه أهلُ البَلاغةِ: «تشبيهٌ بَليغٌ»[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أنَّ غَيْرَهم لا حَظَّ لهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ مَعنى إعدادِ شَيءٍ لِشَيءٍ قَصْرُه عليه[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّه يَلزَمُ على هذا أن يُقطَعَ بحُصولِ الجنَّةِ لجَميعِ العُصاةِ، وأنْ يُقطَعَ بأنَّه لا عِقابَ عليهم!

الجوابُ: أنَّا نَقطَعُ بحُصولِ الجنَّةِ، ولا نَقطَعُ بنَفيِ العِقابِ عنهم؛ لأنَّهم إذا عُذِّبوا مُدَّةً ثمَّ نُقِلوا إلى الجنَّةِ بَقُوا فيها أبَدَ الآبادِ، فكانت مُعَدَّةً لهم[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بيانُ أنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى لا بمُجَرَّدِ عَمَلِه، كما ثبَت عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا مِنكم عَمَلُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أنَّ الفَضائِلَ لا يُسأَلُ عنها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيهٌ على عِظَمِ حالِ الجنَّةِ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ العَظيمِ إذا أَعطَى عَطاءً مَدَح به نَفْسَه وأثنَى بسَبَبِه على نفْسِه؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكونَ ذلك العَطاءُ عَظيمًا(١)!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ تعالى بالعِظَمِ؛ لأنَّ الفَضلَ هنا يَحتَمِلُ: أنْ يُرادَ به الفَضلُ الَّذي هو فَضلُ اللهِ -أي: عَطاؤُه-، أو أنَّ المرادَ به المُتفضَّلُ به، وهو المُعطَى؛ فعلى الثَّاني لا إشكالَ في استِنباطِ تلك الفائدةِ: أنَّ العِظَمَ يُوصَفُ به غيرُ اللهِ. وعلى الأوَّلِ إذا قُلْنا: إنَّ الفَضلَ هو نفْسُ فِعْلِ اللهِ، فوَصْفُه بالعِظَمِ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، وصِفاتُ اللهِ كذاتِه عَظيمةٌ، فإنْ قال قائلٌ: ما دام الاحتِمالانِ قائمَينِ فلا دَلالةَ على أنه يُوصَفُ بالعِظَمِ مَن سِوَى اللهِ ما دُمْنا نَقولُ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الفَضلُ هنا صِفةً للهِ تعالى، وصِفةُ اللهِ عَظيمةٌ كذاتِ اللهِ!

فالجوابُ عن هذا أنْ يُقالَ: اقرأْ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣]، فوَصَفَ العَرْشَ بالعِظَمِ مع أنَّ عَرشَها مخلوقٌ، إذنْ يَصِحُّ أنْ نقولَ: هذا الفِعلُ عَظيمٌ، وهذا رَجُلٌ عَظيمٌ، هذه سَيَّارةٌ عَظيمةٌ، هذا بَيتٌ عظيمٌ، وما أشْبَهَ ذلك، ولا يَضُرُّ، كما أنَّه يَصِحُّ أنْ نقولَ: فلانٌ عزيزٌ، فلانٌ قَويٌّ؛ ولا حَرَجَ في ذلك، ولكنْ يجبُ أنْ نَعلَمَ أنَّ ما نَصِفُ به المَخلوقَ مِن صفاتِ اللهِ لا يُماثِلُ صِفاتِ اللهِ تعالى، ولا يُدانيها أيضًا؛ لأنَّ الصِّفةَ تكونُ لِمَوصوفٍ تُناسِبُه(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٢).

فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ افتِتاحُ الكَلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقَى جَديرٌ بتوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه(١).

- و(أنَّما) المفتوحةُ الهَمزةِ أخْتُ (إنَّما) المكسورةِ الهَمزةِ في إفادةِ الحصرِ، وحصْرُ الحياةِ الدُّنيا في الأخبارِ الجاريةِ عليها هو قصْرُ أحوالِ النَّاسِ في الحياةِ على هذه الأمورِ السِّتَّةِ ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ باعتبارِ غالبِ النَّاسِ؛ فهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ(٢) بالنَّظرِ إلى ما تَنصرِفُ إليه هِمَمُ غالبِ النَّاسِ مِن شُؤونِ الحياةِ الدُّنيا، الَّتي إنْ سَلِمَ بعضُهم مِن بعضِها لا يَخْلو مِن مُلابَسةِ بعضٍ آخَرَ، إلَّا الَّذين عصَمَهم اللهُ تعالَى؛ وإلَّا فإنَّ الحياةَ قد يكونُ فيها أعمالُ التُّقى، والمنافعِ، والإحسانِ، والتأْييدِ للحقِّ، وتَعليمِ الفضائلِ، وتَشريعِ القوانينِ(٣).

- والتَّكاثُرُ: تَفاعُلٌ مِن الكثرةِ، وصِيغةُ التَّفاعُلِ هنا للمُبالَغةِ في الفِعلِ، بحيثُ يُنزَّلُ مَنزِلةَ مَن يُغالِبُ غيرَه في كثْرةِ شَيءٍ، فإنَّه يكونُ أحرَصَ على أنْ يكونَ الأكثرُ منه عندَه(٤).

- و﴿فِي﴾ مِن قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ إمَّا مُستعمَلةٌ في التَّعليلِ، وإمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٣).

الظَّرفيَّةِ، فإنْ جُعِلَت الأموالُ كالظَّرفِ يَحصُلُ تَكاثُرُ النَّاسِ عندَه كمَن يَنزِعُ مِن بِئرٍ(١).

- وقولُه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خَبرٍ مِن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هي كمَثَلِ غيثٍ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا، وحذْفُ المُسنَدِ إليه مِن النَّوعِ الَّذي يُسمَّى مُتابعةَ الاستعمالِ(٢).

ويجوزُ أنْ يكونَ الكافُ في مَوضعِ الحالِ، و﴿كَمَثَلِ﴾ معْناه: كحالٍ، أي: حالُ الحياةِ الدُّنيا كحالِ غَيثٍ... إلخ، فشُبِّهَت هَيئةُ أهلِ الدُّنيا في أحوالِهم الغالبةِ عليهم -والمُشارُ إلى تَنويعِها بقولِه: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى آخِرِه-، بهَيئةِ غَيثٍ أنبَتَ زرْعًا فأينَعَ، ثمَّ اصفَرَّ، ثمَّ اضمَحلَّ وتَحطَّمَ، أي: تَشبيهُ هَيئةِ هذه الأحوالِ الغالبةِ على النَّاسِ في الحياةِ في كَونِها مَحبوبةً للنَّاسِ مُزهيةً لهم وفي سُرعةِ تَقضِّيها، بهَيئةِ نباتٍ جديدٍ أنْبَتَه غَيثٌ فاسْتوَى واكتمَلَ وأُعجِبَ به مَن رآهُ، فمَضَت عليه مدَّةٌ فيَبِسَ وتَحطَّمَ، والمقصودُ بالتَّمثيلِ هو النَّباتُ، وإنَّما ابتُدِئَ بغَيثٍ تَصويرًا للهيئةِ مِن مَبادئِها؛ لإظهارِ مَواقعِ الحُسنِ فيها؛ لأنَّ ذلك يَكتسِبُ منه المُشبَّهُ حُسنًا(٣).

- قيل: المرادُ بالكُفَّارِ هنا: الزُّرَّاعُ، جمْعُ كافرٍ، وهو الزَّارعُ؛ لأنَّه يَكفُرُ الزَّريعةَ(٤)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٣).

(٢) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٧٠).

(٤) الزَّريعةُ: ما يُزْرَعُ مِن الحَبِّ. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١/ ٥١٨)، ((غلط الفقهاء)) لابن بَرِّي (ص: ٢١).

بتُرابِ الأرضِ، أي: يَستُرُها بالتُّراب، وإنَّما أُوثِرَ هذا الاسمُ هنا -وقدْ قال تعالَى في سُورةِ (الفتحِ): ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]-؛ قصْدًا هنا للتَّوريةِ بالكُفَّارِ الَّذين هم الكافِرونَ باللهِ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بمَتاعِ الدُّنيا؛ إذ لا أمَلَ لهم في شَيءٍ بعْدَه. وقيل: المرادُ الكُفَّارُ جمْعُ الكافرِ باللهِ؛ لأنَّهم قَصَروا إعجابَهم على الأعمالِ ذاتِ الغاياتِ الدُّنيا دونَ الأعمالِ الدِّينيَّة؛ فذِكرُ الكُفَّارِ تَلويحٌ إلى أنَّ المَثَلَ مَسوقٌ إلى جانِبِهم أوَّلًا[١]. وقيل: وإنَّما خَصَّ الكُفَّارَ به؛ لأنَّهم أشَدُّ إعجابًا بالدُّنيا؛ فإنَّها دارُهم الَّتي لها يَعمَلونَ ويَكدَحونَ، فهم أشدُّ إعجابًا بزِينتِها وما فيها؛ مِن المؤمِنينَ[٢].

- وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿يَهِيجُ﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ اصفِرارَ النَّباتِ أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ اصفرارَ النبْتِ مُقارِبٌ ليُبْسِه[٤].

- وإنَّما لم يقُلْ: (فيَصْفَرُّ)؛ إيذانًا بأنَّ اصفِرارَه غيرُ مُقارِنٍ لهَيَجانِه وجَفافِه، وإنَّما المُترتِّبُ عليه رُؤيتُه كذلكَ[٥].

- وعُطِفَ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ بـ (ثمَّ) كعَطفِ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّه أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، وقال في سُورةِ (الزُّمَرِ): ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]؛ ووجْهُه: أنَّ الأفعالَ الَّتي نُسِقَ -أي: عُطِفَ- هذا الفِعلُ عليها في سُورةِ (الزُّمَرِ) هي أفعالُ اللهِ تَعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]، فهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾، والَّذي في سُورةِ (الحديدِ) لم يُسنَدِ الفِعلُ المتقدِّمُ فيه إلى اللهِ تَعالى فيُسنَدَ إليه ما بعْدَه؛ وإنَّما هو: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ﴾، فلم يَصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا ما جاء فيه مِن اختيارِ الكلامِ[1].

- وقدْ ضرَبَ اللهُ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا لأطوارِ ما فيها مِن شَبابٍ وكُهولةٍ وهَرَمٍ ففَناءٍ، ومِن جِدَّةٍ وتَبذُّلٍ وبِلًى، ومِن إقبالِ الأمورِ في زمَنِ إقبالِها، ثمَّ إدْبارِها بعْدَ ذلك؛ بأطوارِ الزَّرعِ. وكلُّها أعراضٌ زائلةٌ، وآخِرُها فَناءٌ، وتَندرِجُ فيها أطوارُ المرْءِ في الحياةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ إلى ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾، كما يَظهَرُ بالتَّأمُّلِ. وهذا التَّمثيلُ مع كَونِه تَشبيهَ هَيئةٍ مُركَّبةٍ بهَيئةٍ مِثلِها، هو صالحٌ للتَّفريقِ ومُقابَلةِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فيُشبَّهُ أوَّلُ أطوارِ الحياةِ وإقْبالُها بالنَّباتِ عقِبَ المطَرِ، ويُشبَّهُ النَّاسُ المُنتفِعون بإقبالِ الدُّنيا بناسٍ زُرَّاعٍ، ويُشبَّهُ اكتِمالُ أحوالِ الحياةِ وقوَّةِ الكُهولةِ بهِياجِ الزَّرعِ، ويُشبَّهُ ابتداءُ الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهرَمُ وابتِداءُ ضَعفِ عمَلِ العامِلِ، وتِجارةِ التَّاجرِ، وفِلاحةِ الفلَّاحِ؛ باصفِرارِ الزَّرعِ وتَهيُّئِه للفَناءِ، ويُشبَّهُ زَوالُ ما كان للمرْءِ مِن قوَّةٍ ومالٍ بتَحطُّمِ الزَّرعِ، ويُفهَمُ مِن هذا أنَّ ما كان مِن

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦).

أحوالِ الحياةِ مَقصودًا لوجْهِ اللهِ؛ فإنَّه مِن شُؤونِ الآخِرةِ، فلا يَدخُلُ تحتَ هذا التَّمثيلِ إلَّا ظاهرًا(١).

- قولُه: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ كان ذِكرُ حالِ الحياةِ الدُّنيا مُقتَضيًا ذِكرَ مُقابِلِه على عادةِ القرآنِ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّحريضِ بقَرينةِ السِّياقِ؛ ولذلك لم يُبيَّنْ أصحابُ العذابِ وأصحابُ المغفرةِ والرِّضوانِ؛ لظُهورِ ذلك(٢).

- وكُنِّيَ عن النَّعيم بـ(مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ)؛ لأنَّ النَّعيمَ قِسمانِ: ماديٌّ، ورُوحانيٌّ؛ فالمَغفرةُ والرِّضوانُ أصلُ النَّعيمِ الرُّوحانيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهما يَقتضيانِ النَّعيمَ الجُسمانيَّ؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لَمَّا رُكِّبَت ذَواتُهم مِن أجسامٍ، وأُودِعَت فيها الأرواحُ، كان النَّعيمانِ مُناسبَينِ لهم تَكثيرًا للَّذَّاتِ، وما لَذَّةُ الأجسامِ إلَّا صائرةٌ إلى الأرواحِ؛ لأنَّها المُدرِكةُ اللَّذَّاتِ، وكان رِضوانُ اللهِ يَقتضي إعطاءَهُم مُنتهى ما به الْتِذاذُهم، ومَغفرتُه مُقتضيةً الصَّفْحَ عمَّا قد يَعوقُ عن بعضِ ذلك(٣).

- وعطْفُ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ على ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للمُقابَلةِ بيْن الحالَينِ؛ زِيادةً في التَّرغيبِ والتَّنفيرِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: وما أحوالُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا مَتاعُ الغُرورِ(٤).

- والحصْرُ في قولِه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ادِّعائيٌّ(٥) باعتِبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥، ٤٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

غالبِ أحوالِ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى غالبِ طالِبيها، فكونُها مَتاعًا أمرٌ مُطَّردٌ، وكَونُ المتاعِ مُضافًا إلى الغُرورِ أمرٌ غالبٌ بالنِّسبةِ لِما عدا الأعمالَ العائدةَ على المرْءِ بالفوزِ في الآخرةِ(١).

- وإضافةُ ﴿مَتَـٰعُ﴾ إلى ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ على مَعْنى لامِ العاقِبةِ، أي: مَتاعٌ صائرٌ لأجْلِ الغُرورِ به، أي: آيِلٌ إلى أنَّه يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، فيُسرِعون في التَّعلُّقِ به(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فَذْلَكةٌ(٣) لِمَا تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢] إلى هنا، فذلِكَ مَسوقٌ مَساقَ التَّرغيبِ فيما به تَحصيلُ نَعيمِ الآخرةِ، والتَّحذيرِ مِن فَواتِه، وما يَصرِفُ عنه مِن إيثارِ زِينةِ الدُّنيا؛ ولذلك فُصِلَت الجُملةُ ولم تُعطَفْ، واقتُصِرَ في الفَذْلَكةِ على الجانبِ المَقصودِ تَرغيبُه دونَ التَّعرُّضِ إلى المُحذَّرِ منه؛ لأنَّه المقصودُ(٤).

- والبِشارةُ هاهنا أعمُّ ممَّا في سُورةِ (آلِ عِمرانَ)؛ لأنَّه قال هناك: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: التَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

وهاهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، ولأنَّ هؤلاءِ أدْوَنُ حالًا مِن أولئك جَعَل عرْضَ الجنَّةِ هنا أقلَّ؛ فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فلَمْ يَجمَعِ السَّماءَ، وأدْخَلَ حرْفَ التَّشبيهِ الدَّالَّ على أنَّ المشبَّهَ أدونُ حالًا مِن المشبَّهِ به. وفي لفظِ ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ هاهنا إشارةٌ إلى أنَّ مَراتبَ هؤلاء مُختلِفةٌ بَعضُها أسبَقُ مِن بَعضٍ، كالمسابَقةِ في الخَيلِ، وفي لَفظِ (سَارِعُوا) هُنالِكَ رمْزٌ إلى أنَّ كلَّهم مُسْتوونَ في القُرْبِ أو مُتقارِبون؛ لأنَّ المرتبَةَ العُليا واحِدةٌ، وهي مَرتبةُ السَّابِقينَ المقرَّبينَ، وإنَّها غايةُ الرُّتبِ الإنسانيَّةِ، فافْهَمْ هذه الأسرارَ؛ فإنَّ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يَشاءُ[(١)].

- قولُه: ﴿سَابِقُوٓا۟﴾، أي: افْعَلوا في السَّعيِ لها بالأعمالِ الصَّالِحةِ حَقَّ السَّعيِ فِعلَ مَن يُسابِقُ شَخصًا، فهو يَسْعى ويَجتهِدُ غايةَ الاجتهادِ في سَبْقِه، ولكنْ رُبَّما كان قَرينُه بَطيئًا فسار هُوينى، وأمَّا المُسارَعةُ فلا تكونُ إلَّا بجَهدِ النَّفْسِ مِن الجانبَينِ مع السُّرعةِ في العُرفِ؛ فآيةُ آلِ عمرانَ[(٢)] الآمِرةُ بالمسارَعةِ الأخصِّ مِن المسابَقةِ أبلَغُ؛ لأنَّها للحثِّ على التَّجرُّدِ عن النَّفْسِ والمالِ وجميعِ الحُظوظِ أصْلًا ورأْسًا، ولذلك كانت جنَّتُها للمتَّقينَ الموصوفينَ، وأمَّا هذه ففي سِياقِ التَّصديقِ الَّذي هو تَجرُّدٌ عن فُضولِ الأموالِ؛ ولذلك كانت جنَّتُها للَّذين آمَنوا[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ لقصْدِ تَعظيمِها، ولتكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، وإلَّا فإنَّ المَغفرةَ سبَقَ ذِكرُها في قولِه: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٨).

(٢) في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: سابِقوا إلى المغفرةِ، أي: أكْثِروا مِن أسبابِها ووَسائلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المغفرةِ هي المسابَقةُ في تَحصيلِ أسبابِها(١).

- وذِكرُ العَرْضِ دُونَ الطُّولِ في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ كلَّ ما لَه عَرْضٌ وطولٌ، فإنَّ عَرْضَه أقَلُّ مِن طُولِه، فإذا وُصِفَ عرْضُه بالبَسطةِ عُرِفَ أنَّ طُولَه أبسَطُ وأمَدُّ(٢). أو العَرْضُ مُستعمَلٌ في السَّعةِ، وتَشبيهُ عَرْضِ الجنَّةِ بعرْضِ السَّماءِ والأرضِ -أي: مَجموعِ عَرْضَيْهما- لقصْدِ تَقريبِ المُشبَّهِ بأقْصى ما يَتصوَّرُه النَّاسُ في الاتِّساعِ، وليس المُرادُ تحديدَ ذلك العَرْضِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

الآيات (٢٢-٢٤)

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾: المصيبةُ: الأمرُ المكروهُ يَنزِلُ بالإنسانِ، يُقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصل إلى المرمى بالصَّوابِ، والمُصيبَةُ أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختصَّتْ بالنَّائبةِ، و(أصاب) جاء في الخَيرِ والشَّرِّ؛ قيل: الإصابةُ في الخَيرِ اعتِبارًا بالصَّوْبِ، أي: المطرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابةِ السَّهمِ، وكِلاهما يَرجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[١].

﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾: أي: نَخلُقَها، وأصلُ (برأ): يدُلُّ على الخَلْقِ[٢].

﴿تَأۡسَوۡاْ﴾: أي: تَحْزَنوا، يُقالُ: أَسِيتُ على الشَّيءِ أَسًى، أي: حَزِنتُ عليه[٣].

﴿مُخۡتَالٖ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي خُيَلاءَ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حَرَكةٍ في تَلَوُّنٍ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦).

لأنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِه يتَلَوَّنُ في حَرَكتِه ألوانًا[١].

﴿فَخُورٍ﴾: أي: كثيرِ الخُيَلاءِ والفَخرِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ[٢].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن عمومِ قضائِه وقدَرِه: ما وَقَع في الأرضِ أو في أنفُسِكم مِن مُصيبةٍ إلَّا وهي مَكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَها، إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، أخْبَرْناكم بذلك؛ لِكَيْلا تَحزَنوا على شَيءٍ فاتَكم مِن الدُّنيا، ولا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ بما نِلْتُم مِن مَتاعِها، واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ فَخورٍ؛ الَّذين يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، ويأمُرونَ غَيرَهم بالبُخْلِ. ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ الحَميدُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ الجِهادِ آنِفًا، وجرى ذِكرُ الدُّنيا، وكان ذلك كُلُّه مِمَّا تَحدُثُ فيه المصائِبُ؛ مِن قَتلٍ وقَطعٍ وأسْرٍ في الجِهادِ، ومِن كوارِثَ تَعرِضُ في الحياةِ؛ مِن فَقْدٍ وألمٍ واحتياجٍ، وجرى مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا بالنَّباتِ، وكان ذلك ممَّا يَعرِضُ له القَحطُ والجوائِحُ- أُتْبِع ذلك بتسليةِ المسلمينَ على ما يُصيبُهم(١).

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾.

أي: ما وَقَع في الأرضِ مِن مُصيبةٍ، كقَحْطِها وهَلاكِ زَرْعِها وثَمَرِها، أو في أنفُسِكم، كالأمراضِ والأوجاعِ، والفَقرِ والمَوتِ- إلَّا وهي مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَ ذلك(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٢، ٤١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه وجهان:

أحدُهما: الجوائِحُ في الزَّرعِ والثِّمارِ. الثَّاني: القَحطُ والغَلاءُ.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:

أحدُها: في الدِّينِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: الأمراضُ والأوصابُ. قاله قَتادةُ. الثالثُ: إقامةُ الحُدودِ. قاله ابنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: ضِيقُ المعاشِ، وهذا معنى روايةِ ابنِ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال السعدي: (وهذا شامِلٌ لعُمومِ المصائبِ الَّتي تُصيبُ الخَلْقَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فكُلُّها قد =

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك[1] أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، لا يَتعَذَّرُ عليه سُبحانَه؛ لإحاطَةِ

= كُتِبَت في اللَّوحِ المحفوظِ؛ صغيرُها وكبيرُها، وهذا أمرٌ عَظيمٌ لا تحيطُ به العقولُ، بل تَذهَلُ عندَه أفئدةُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ قيل: عائِدٌ على المُصيبةِ. وقيل: عائدٌ على الأرضِ. وقيل: عائدٌ على الأنفُسِ. وقيل: عائدٌ إلى جميع ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

والقَولُ بأنَّه يعودُ على المُصيبةِ: مالَ إليه الرازيُّ، واستظهره أبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٢).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على الأنفُسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وأبو العاليةِ، والكلبيُّ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ النَّصبِ في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ عائِدٌ إلى الأرضِ، أو إلى الأنفُسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على جَميعِ ذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عطيَّة: (الضَّميرُ عائِدٌ على المصيبةِ. وقيل: على الأرضِ. وقيل: على الأنفُسِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وجماعةٌ. وذكَرَ المَهْدويُّ جَوازَ عَودِ الضَّميرِ على جميعِ ما ذُكِرَ، وهي كُلُّها مَعانٍ صِحاحٌ؛ لأنَّ الكتابَ السَّابقَ أزَليٌّ قبْلَ هذه كُلِّها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٨)، ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٣٤٠).

(١) قال الرازي: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وفيه قَولانِ؛ أحدُهما: إنَّ حِفظَ ذلك على اللهِ هَيِّنٌ. والثَّاني: إنَّ إثباتَ ذلك على كثرتِه في الكتابِ يسيرٌ على الله، وإن كان عسيرًا على العبادِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧). =

عِلمِه، وكمالِ قُدْرَتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ذلك الأمرَ العَظيمَ الدَّالَّ على ما لَه سُبحانَه مِنَ الكِبرياءِ والعَظَمةِ؛ بَيَّنَ ثَمرةَ إعلامِه، بقَولِه تعالى(٢):

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

أي: أخبَرْناكم بأنَّ كلَّ مصيبةٍ تقعُ فهي في كتابٍ(٣)؛ لِكَيْلا يَشتَدَّ حُزنُكم على

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: خَلْقَ ذلك وحِفْظَه-: الثعلبيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: البغويُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أي: أنَّ عِلمَه تعالَى الأشياءَ قبْلَ كَونِها، وكتابَتَه لها طِبقَ ما يُوجَدُ في حِينِها سهلٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ ما كان وما يكونُ وما لم يَكُنْ لو كان كيفَ كان يكونُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١). =

شَيءٍ فاتَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا[1].

﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾.

أي: ولِكَيلا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ وفَخْرٍ على غَيرِكم بما أعطاكم اللهُ مِن مَتاعِ الدُّنيا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

أي: واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ في نَفْسِه بما أُوتِيَ مِنَ الدُّنيا، فَخورٍ به على النَّاسِ[3].

= وقال ابنُ جرير: (يعني تعالى ذِكرُه: ما أصابكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مُصيبةٍ في أموالِكم ولا في أنفُسِكم إلَّا في كتابٍ قد كُتِبَ ذلك فيه مِن قَبلِ أن نخلُقَ نُفوسَكم؛ ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠).

وقال العُلَيمي: (فَعَلَ اللهُ هذا كُلَّه، وأعلَمَكم به). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابنُ كثير: (لِتَعلَموا أنَّ ما أصابكم لم يكُنْ لِيُخطِئَكم، وما أخطأَكم لم يكُنْ لِيُصيبَكم، فلا تأسَوا على ما فاتَكم؛ فإنَّه لو قُدِّرَ شَيءٌ لَكانَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

وقال البِقاعي: (أي: أعلَمْناكم بأنَّا -على ما لَنا مِنَ العَظَمةِ- قد فرَغْنا من التَّقدير، فلا يُتصَوَّرُ فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ولا تبديلٌ ولا تغييرٌ؛ لأنَّ الحُزنَ لا يَدفَعُه، ولا السُّرورُ يَجلِبُه ويَجمَعُه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩٥).

وقال ابنُ عاشور: (فلا تَجزَعوا للمصائِبِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ أنَّ ما عِندَه مِن نِعمةٍ دُنيويَّةٍ مَفقودٌ يومًا لا محالةَ، لم يَتفاقَمْ جَزَعُه عِندَ فَقْدِه؛ لأنَّه قد وطَّنَ نَفْسَه على ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠-٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الحديد)) (ص: ٤١٤).

قال ابن جزي: (النَّهيُ عن الفَرحِ إنَّما هو عن الذي يقودُ إلى الكِبرِ والطُّغيانِ، وعن الحُزنِ الذي يُخرِجُ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن =

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن جملةِ صِفاتِ المختالِ المكاثِرِ بالمالِ البُخلُ، وكان قد تقَدَّم الحَثُّ على الإنفاقِ، وكان ما يُوجِبُه لذَّةُ الفَخارِ والاختيالِ الَّتي أوصَلَ إليها المالُ حامِلةً على البُخلِ خَوفًا من الإقتارِ الموجِبِ عندَ أهلِ الدُّنيا للصَّغارِ؛ قال تعالى[١]:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

أي: وهم مع اختيالِهم وفَخْرِهم هذا يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، فيَمتَنِعونَ عن إخراجِ ما وَجَب عليهم بَذْلُه منها، ويأمُرونَ غَيْرَهم بذلك[٢].

= كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المُختالُ: الَّذي يتخَيَّلُ في نَفْسِه أنَّه عَظيمٌ، فيَعتَقِدُ في نَفْسِه أكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٦/ ١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (مُختالٌ في فِعْلِه، فَخورٌ في قَولِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

قال القرطبي: (أي: لا يُحِبُّ المُختالِينَ الَّذين يَبخَلُونَ. فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَوضِعِ خَفضٍ نَعتًا للمُختالِ. وقيل: رَفعٌ بالابتِداءِ، أي: الَّذين يَبخَلونَ فاللهُ غَنيٌّ عنهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

قال ابن تيميَّةَ في هذه الآيةِ وآيةِ النساء (٣٧): (قد تُؤُوِّلَتْ في البُخلِ بالمالِ، والمَنعِ، والبُخلِ بالعِلمِ ونحوِه، وهي تَعُمُّ البُخلَ بكُلِّ ما يَنفَعُ في الدِّينِ والدُّنيا مِن عِلْمٍ ومالٍ وغَيرِ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

كما قال الله تبارك وتعالى عن المُنافِقينَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ: «فمَنْ أقبَلَ على ما نُدِبَ إليه مِنَ الإقراضِ الحَسَنِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ حَليمٌ»- عَطَف عليه قَولَه ذامًّا للبُخلِ، مُحَذِّرًا منه[١]:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ عن خَلْقِه غِنًى تامًّا مُطلَقًا؛ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه، كثيرُ الحَمدِ لِمَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قيل: ﴿يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن الإنفاقِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ومَن يُدْبِرْ مُعرِضًا عن عِظَةِ الله، تاركًا العملَ بما دعاه إليه مِن الإنفاقِ في سبيلِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣).

وقيل: يُعرِضْ عن الإيمانِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). =

= وقيل: يُعرِضْ عن أمرِ اللهِ وطاعتِه. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٦).

وقال ابن عاشور: («مَن يَتَوَلَّ» يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأمُرون النَّاس بالبُخلِ -أي: في سبيلِ الله، وفي النَّفَقاتِ الواجِبةِ- قد تَوَلَّوْا عن أمرِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

وقال مكِّي: (قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن قَبولِ ما أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ به مِن الإنفاقِ في سبيلِ الله، وإخراجِ الزَّكاةِ، والإيمانِ بالله وبرسولِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٣٣١).

قولُه: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الأكثَرُ على أنَّه فَعيلٌ بمعنَى مَفعولٍ، أي: مَحمودٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨) و(٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ١٣٠)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ١٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨) و(ص: ٨٥٦).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

وذهب الرَّاغبُ وابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يصحُّ أيضًا أن يكونَ اسمَ فاعِلٍ بمعنى الحامدِ، كما يصحُّ أن يكونَ اسمَ مفعولٍ بمعنى المحمود. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عاشور: (اسمه «الحميد» صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فَعيلًا بمعنَى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنَى كثيرِ الحمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثناءً جميلًا، فكان بذلك كثيرَ الحمدِ. وقد حمَلَه على كِلا المعنيَين ابنُ بَرَّجَانَ الإشبيليُّ في شرحِه لأسماءِ الله الحُسْنى، ووافقه كلامُ ابنِ العربي في «أحكام القرآن» في =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ، يا عبادي إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أُوَفِّيكم إيَّاها، فمَن وَجَد خَيرًا فلْيَحمَدِ اللهَ، ومَن وَجَد غَيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلَّا نَفْسَه))(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ

= سورةِ الأعرافِ، وهو الحقُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((شرح أسماء الله الحسنى)) لابن برجان (١/ ١٤٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

وقال ابنُ عُثيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ المفعولِ؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رُسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحينَ، والثَّناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما لَه مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له مِن كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أنَّه لَمَّا كانتِ المُصيبةُ تتضَمَّنُ فَواتَ مَحبوبٍ أو خَوفَ فَواتِه، أو حُصولَ مَكروهٍ أو خَوفَ حُصولِه؛ نَبَّهَ بالأَسى على الفائتِ على مُفارَقةِ المحبوبِ بعدَ حصولِه، وعلى فَوتِه حيثُ لم يَحْصُلْ، ونَبَّهَ بعَدَمِ الفرحِ به -إذا وُجِدَ- على تَوطينِ النَّفْسِ لِمُفارَقتِه قبْلَ وُقوعِها، وعلى الصَّبرِ على مَرارتِها بعدَ الوُقوعِ، وهذه هي أنواعُ المصائبِ، فإذا تَيَقَّنَ العبدُ أنَّها مَكتوبةٌ مُقَدَّرةٌ، وأنَّ ما أصابه منها لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطَأَه لَمْ يكن لِيُصيبَه؛ هانتْ عليه، وخَفَّ حَمْلُها، وأنزَلَها مَنزِلةَ الحَرِّ والبَرْدِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه بذلك مِن أجْلِ أن تتقرَّرَ هذه القاعدةُ عندَهم، ويَبنوا عليها ما أصابهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فلا يَأْسَوا ويَحزَنوا على ما فاتهم ممَّا طَمَحتْ له أنفُسُهم وتشَوَّفوا إليه؛ لِعِلْمِهم أنَّ ذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن نُفوذِه ووُقوعِه، فلا سبيلَ إلى دَفعِه، ولا يَفرَحوا بما آتاهم اللهُ فرَحَ بَطَرٍ وأشَرٍ؛ لِعِلْمِهم أنَّهم ما أدرَكوه بحَولِهم وقُوَّتِهم، وإنَّما أدرَكوه بفَضلِ اللهِ ومَنِّه، فيَشتَغِلون بشُكرِ مَن أَولى النِّعَمَ، ودَفَعَ النِّقَمَ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ فالعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ عندَ المصائبِ نظرًا إلى القَدَرِ، وأمَّا عند الذُّنوبِ فمأمورٌ بالاستِغفارِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، أمَرَه أن يَصبِرَ على المصائبِ المُقَدَّرةِ ويَستغفِرَ من الذَّنْبِ، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

عمران: ١٨٦]، وقال يوسفُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فذكَر الصَّبرَ على المصائبِ، والتَّقْوى بتَرْكِ المعايبِ، فالنَّظَرُ إلى القَدَرِ عندَ المصائبِ، والاستِغفارُ عندَ المعايبِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المُفرِحاتِ صائِرةٌ إلى زَوالٍ، وأنَّ زَوالَها مُصيبةٌ، واعلَمْ أنَّ هذا مَقامُ المُؤمِنِ مِن الأدَبِ بعْدَ حُلولِ المُصيبةِ، وعِندَ نَوالِ الرَّغيبةِ[٢]. قال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ: (يا ابنَ آدَمَ، لا تأسَفْ على مَفقودٍ لا يَرُدُّه عليك الفَوتُ، ولا تَفرَحْ بموجودٍ لا يَترُكُه في يديك الموتُ)[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَنْعُ إعجابِ المرءِ بعَمَلِه إذا عَمِلَ عَمَلًا يُشْكَرُ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي مَنَّ عليه، وقَدَّرَه له[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ الطُّمَأنينةُ والرَّاحةُ النَّفْسيَّةُ بما يَجري على العَبدِ مِن أقدارِ اللهِ تعالى، فلا يَقْلَقُ بفَواتِ محبوبٍ، أو حُصولِ مَكروهٍ؛ لأنَّ ذلك بقَدَرِ اللهِ الَّذي له مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو كائِنٌ لا محالةَ[٥].

٧- قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (ليس أحدٌ إلَّا وهو يَحزَنُ ويَفرَحُ، ولكنْ

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١/ ٣٩٧).
ونُسِب إلى جعفرٍ الصَّادقِ في ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٥).

إذا أصابَتْه مصيبةٌ جعَلَها صبرًا، فإن أصابه خيرٌ جعَلَه شُكرًا)[١].

٨- قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ متى آمَنَ العبدُ بالقَدَرِ وعَلِمَ أنَّ المصيبةَ مُقَدَّرةٌ في الحاضرِ والغائبِ لم يَجزَعْ ولم يَفرَحْ، ولا يُنافي هذا رقَّةَ القلبِ؛ فإنَّها ناشئةٌ مِن صِفةِ الرَّحمةِ الَّتي هي كمالٌ، واللهُ سُبحانَه إنَّما يَرحَمُ مِن عِبادِه الرُّحماءَ، وقد كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أرَقَّ النَّاسِ قلبًا، وأبْعَدَهم مِن الجَزَعِ، فرِقَّةُ القلبِ رأفةٌ ورحمةٌ، وجَزَعُه مرَضٌ وضَعفٌ[٢].

٩- لقد عزَّى اللهُ المؤمنينَ رحمةً لهم في مصائبِهم، وزهَّدَهم في رغائبِهم، بأنَّ أسَفَهم على فَوتِ المطلوبِ لا يُعيدُه، وفرَحَهم بحُصولِ المحبوبِ لا يُفيدُهم، ولأنَّ ذلك لا مَطمَعَ في بقائِه إلَّا بادِّخارِه عندَ الله، فلا يزالُ العبدُ خائفًا عندَ النِّقمةِ، راجيًا أثَرَ النِّعمةِ، قائلًا في الحالَينِ: ما شاء اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وأكمَلُ مِن هذا أن يكونَ مسرورًا بذِكرِ رَبِّه له في كِلْتا الحالتَينِ، وقيمةُ الرِّجالِ إنَّما تُعرَفُ بالوارداتِ المغَيِّرةِ، ومَن لم تُغَيِّرْه المَضارُّ ولم يَتأثَّرْ بالمَسارِّ فهو سَيِّدُ وَقْتِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تحذيرٌ مِنَ الفَرَحِ، وفيه بيانٌ للمُرادِ مِنَ الفَرَحِ أنَّه الفَرَحُ المُفرِطُ البالِغُ بصاحِبِه إلى الاختيالِ والفَخْرِ[٤].

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنف)) (٧/ ١٣٧)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٢١) والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٢١) وقال: (صحيحُ الإسنادِ)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٩٧).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦، ٢٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۞ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البُخلَ صِفةُ ذَمٍّ؛ حيث قَرَنَ البُخْلَ بالاختيالِ والفَخرِ والأمرِ بالبُخلِ، وذَمَّ على المجموعِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ مَقاديرَ كُلِّ شَيءٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ حُجَّةٌ على القَدَريَّةِ والمُعتزِلةِ واضِحةٌ؛ إذْ قد أخبَرَ سُبحانَه نصًّا بإيداعِ المصائبِ كتابَه السَّابِقَ قبْلَ وُقوعِها، والهاءُ في ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ لا تَخْلو مِن أنْ تكونَ راجِعةً على الأنْفُسِ، أو على الأرضِ؛ فإنْ كانت على الأرضِ فالأنفُسُ مَخلوقةٌ بَعْدَها، وإنْ كانت على الأنفُسِ فمَصائِبُها مَكتوبةٌ عليها قبْلَ خَلْقِها، وهي على كُلِّ الأحوالِ قبْلَ الأنفُسِ، والمعاصي أكبَرُ المصائبِ، والجِناياتُ مِن جانبِها، ومَن كُتِبَ عليه فِعلٌ يَفعَلُه أو يُفعَلُ به فلا بُدَّ مِن كَونِه[٣]. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن أدَلِّ دليلٍ على القَدَريَّةِ نُفاةِ العِلمِ السَّابِقِ[٤]، فقد استُدِلَّ بها على أنَّه تعالى عالِمٌ بالأشياءِ قبْلَ وُقوعِها. ووَجهُ الاستِدلالِ: أنَّه تعالى لَمَّا كَتَبَها في الكِتابِ قبْلَ وُقوعِها، وجاءت مُطابِقةً لذلك الكِتابِ؛ عَلِمْنا أنَّه تعالى عالِمٌ بها بأَسْرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أنَّ المرادَ ذَمُّ الفَرَحِ الَّذي يَختالُ فيه صاحِبُه ويَبطَرُ، وأمَّا الفَرَحُ بنِعمةِ اللهِ والشُّكرُ عليها فغيرُ مَذمومٍ[١]؛ فليس المرادُ به الانتِهاءَ عن الحُزنِ والفَرَحِ -اللَّذَينِ لا ينفَكُّ عنهما الإنسانُ بطَبْعِه-، بل المرادُ الحُزنُ المُخرِجُ لصاحِبِه إلى الذُّهولِ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ لأمرِ اللهِ تعالى، والفَرَحِ المُلْهي عن الشُّكرِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النِّعَمَ لا بُدَّ في إيجادِها وإبقائِها مِن حافِظٍ، ثُمَّ إنَّها لو خُلِّيَت ونَفْسَها فاتَت؛ لأنَّ الأشياء ليس مِن ذاتِها إلَّا العَدَمُ[٣]. فالفواتُ والعَدمُ ذاتيٌّ للأشياءِ، فلو خُلِّيَتْ ونفسَها لم تَبْقَ، بخلافِ حصولِها وبقائِها؛ فإنَّه لا بدَّ مِن استنادِهما إليه عز وجل[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ، وفي الحَديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلكي شَيئًا))[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢، ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديثُ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧٣).

مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ﴾ (ما) نافيةٌ، و(مِن) صِلةٌ في النفْيِ؛ للدَّلالةِ على نفْيِ الجِنسِ؛ قَصْدًا للعُمومِ(١).

- ومَفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ما أصابَكُم، أو ما أصابَ أحَدًا(٢).

- وتَكريرُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المَعطوفِ على المنْفيِّ في قولِه: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذلك المذكورِ بخُصوصِه؛ فإنَّ المصائبَ الخاصَّةَ بالنَّفْسِ أشدُّ وقْعًا على المُصابِ؛ فإنَّ المصائِبَ العامَّةَ إذا أخطَأَتْه فإنَّما يَتأثَّرُ لها تأثُّرًا بالتَّعقُّلِ لا بالحِسِّ، فلا تَدومُ مُلاحظةُ النَّفْسِ إيَّاها(٣).

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ مَنفيَّةٍ بـ(ما)؛ إذ التَّقديرُ: ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ كائنةٍ في حالٍ إلَّا في حالِ كَونِها مَكتوبةً في كتابٍ، أي: مُثبَتَةً فيه. والقصْرُ المُفادُ بـ(إلَّا) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ(٤)، أي: إلَّا في حالِ كَونِها في كتابٍ دونَ عدَمِ سبْقِ تَقديرِها في عِلمِ اللهِ، ردًّا على اعتقادِ المُشركين والمنافقينَ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾(٥) [آل عمران: ١٦٨].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ردٌّ على أهْلِ الضَّلالِ مِن المشركين وبَعضِ أهلِ الكتابِ الَّذين لا يُثبتون للهِ عُمومَ العِلمِ، ويُجوِّزون عليه البَداءَ[١] وتَمشِّي الحِيَلِ، ومِن أجْلِ قصْدِ الرَّدِّ على المُنكِرين أُكِّدَ الخبَرُ بـ(إنَّ)[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد قال سُبحانه هنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال في (التَّغابُنِ): ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، ففصَّل هنا، وأَجمَلَ ثَمَّ؛ مُوافَقةً لِما قبْلَهما؛ لأنَّه فصَّلَ هنا بقولِه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآيةَ [الحديد: ٢٠]، بخلافِه ثَمَّ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ التَّعليلُ بلامِ العِلَّةِ و(كَي) مُتعلِّقٌ بمُقدَّرٍ دلَّ عليه هذا الإخبارُ الحكيمُ، أي: أعلَمْناكم بذلك لكَي لا تَأْسَوا على ما فاتَكُم... إلخ[٤].

- وقولُه: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ تَتميمٌ لقولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾؛ فإنَّ المقصودَ مِن الكلامِ ألَّا يَأْسَوا عندَ حُلولِ المصائبِ؛ لأنَّ

(١) البَداءُ له مَعانٍ؛ منها: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

المقصودَ هو قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، ثمَّ يُعلَمُ أنَّ المَسرَّاتِ كذلك بطَريقِ الاكتفاءِ[(١)].

- وقُرِئَ قولُه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بمَدٍّ بعْدَ الهَمزةِ مُحوَّلٍ عن هَمزةٍ ثانيةٍ، هي فاءُ الكَلمةِ، أي: ما جعَلَه آتيًا لكم، أي: حاصِلًا عِندَكم؛ فالهمزةُ الأُولى للتَّعديةِ إلى مَفعولٍ ثانٍ، والتَّقديرُ: بما آتاكُمُوه. وعلى هذه القِراءةِ فعائدُ الموصولِ مَحذوفٌ؛ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ، وفيه إدماجُ[(٢)] المِنَّةِ مع الموعظةِ؛ تَذكيرًا بأنَّ الخَيراتِ مِن فَضلِ اللهِ. وقُرِئ ﴿بِمَا أَتَاكُمْ﴾ بهمْزةٍ واحدةٍ[(٣)]، على أنَّه مِن (أتى)؛ إذا حصَلَ، فعائدُ الموصولِ هو الضَّميرُ المستترُ المرفوعُ بـ (أتى)، وفي هذه القراءةِ مُقابَلةُ ﴿أَتَاكُمْ﴾ بـ ﴿فَاتَكُمْ﴾، وهو مُحسِّنُ الطِّباقِ[(٤)]، ففي كِلْتا القراءتينِ مُحسِّنٌ[(٥)].

- وفي تَخصيصِ التَّذييلِ بالنَّهيِ عن الفرَحِ المذكورِ: إيذانٌ بأنَّه أقبَحُ مِن الأَسى[(٦)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧).

والاكتفاءُ تقدم تعريفه (ص: ٩٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٣) وهي قراءةُ أبي عَمرٍو، وقرأ الباقون بمدِّ الهمزةِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

والقِراءتانِ مُتلازِمتانِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢، ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

ﵟٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﵟٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَﵞ ابتِداءَ كلامٍ على الاستِئنافِ؛ لأنَّ الكلامَ الَّذي قبْلَه خُتِمَ بالتَّذييلِ بقولِه: ﵟوَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍﵞ [الحديد: ٢٣]؛ فيكونَ ﵟٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَﵞ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفًا يدُلُّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ، والتَّقديرُ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم، وحامدٌ للمُنفِقينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُتَّصِلًا بما قبْلَه على طَريقةِ التَّخلُّصِ؛ فيكونَ ﵟٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَﵞ بدَلًا مِن ﵟكُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍﵞ، أو خبَرًا لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ هو ضَميرُ ﵟكُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍﵞ، تَقديرُه: هم الَّذين يَبخَلون، وعلى هذا الاحتِمالِ الأخيرِ فهو مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه اتِّباعًا للاستِعمالِ[١].

- وجُملةُ ﵟوَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ تَذييلٌ؛ لأنَّ (مَن يَتولَّ) يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم -على قولٍ-؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأْمُرون بالبُخلِ قد تَولَّوا عن أمْرِ اللهِ، و(مَنْ) شَرطيَّةٌ عامَّةٌ[٢].

- وجُملةُ ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ قائِمةٌ مَقامَ جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ مَضمونَها عِلَّةٌ للجوابِ، فالتَّقديرُ: ومَن يَتولَّ فلا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، ولا يَضُرُّ الفقيرَ؛ لأنَّ اللهَ غنِيٌّ عن مالِ المُتولِّينَ، ولأنَّ له عِبادًا يُطيعون أمْرَه فيَحمَدُهم[٣].

- وجُملةُ ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ تهديدٌ وإشعارٌ بأنَّ الأمرَ بالإنفاقِ إنَّما هو لمصلحةِ المُنفِقِ فقط[٤]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

وتقدَّم الكلامُ على متابعة الاستعمال (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

وقولُه: ﴿هُوَ﴾ تنصيصٌ على الحصرِ والتَّأكيدِ[١].

- والغَنِيُّ: الموصوفُ بالغِنَى، أي: عدَمِ الاحتِياجِ. ولَمَّا لم يُذكَرْ له مُتعلِّقٌ كان مُفيدًا الغِنى العامَّ[٢].

- والحميدُ: وصْفُ مُبالَغةٍ، أي: كثيرُ الحمْدِ للمُنفِقينَ؛ لأنَّ اللهَ يُثِيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثَوابًا جَزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثَناءً جَميلًا؛ فكان بذلك كَثيرَ الحمْدِ[٣]. وذلك على قولٍ في معناه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٥، ١٧٢).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدلِ، وأصلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَين مُتضادَّيْن: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقالُ: أَقْسَطَ: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[١].

﴿بَأْسٌ﴾: أي: قُوَّةٌ وشِدَّةٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[٢].

﴿قَفَّيْنَا﴾: أي: أَتْبَعْنا، تَقولُ: قَفَوْتُ الرَّجُلَ: إذا تَبِعْتَه وسِرْتَ في أَثَرِه، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٣].

﴿رَأْفَةً﴾: الرَّأفةُ: أشَدُّ الرَّحمةِ، وأعلَى معانيها، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ[(١)].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: الرَّهْبانيَّةُ: الغُلُوُّ في التَّعَبُّدِ، بالانفِرادِ في الجِبالِ، والانقِطاعِ عن النَّاسِ في الصَّوامِعِ، ورَفْضِ النِّساءِ، وتَرْكِ الدُّنيا، وهي اسمٌ مَبنيٌّ مِنَ «الرَّهبةِ» بمعنى الخَوفِ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على الخَوفِ[(٢)].

﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: أي: أحْدَثوها واختَرَعوها، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتِداءِ شَيءٍ وصُنْعِه لا عن مِثالٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ في نَصبِ «رَهبانيَّةً» وَجهانِ:

أحَدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدَها، أي: وابتَدَعوا رَهبانيَّةً ابتَدَعوها. فالوَقفُ تامٌّ عِندَ قَولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثمَّ يَبتَدِئُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، أي: لم نَشْرَعْها لهم، بل هم ابتَدَعوها مِن عندِ أنفُسِهم، ولم نَكتُبْها عليهم، وجُملةُ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مُفَسِّرةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

والوَجهُ الثَّاني: أنَّها مَعطوفةٌ على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، و«جَعَلَ» على هذا بمعنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٢).

«خَلَقَ»؛ فالجَعْلُ هنا جَعلٌ كَونيٌّ قَدَريٌّ، وليس جَعْلًا شَرعيًّا دِينيًّا، و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صِفةٌ لـ(رَهْبَانِيَّةً)، أي: جَعَلَ اللهُ في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتَدَعةَ[1].

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لم نَفرِضْها عليهم، ولكِنَّهم ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ، وأنزَلْنا معهم الكِتابَ والميزانَ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالعَدْلِ، وأنزَلْنا الحديدَ فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ، وفيه مَنافِعُ للنَّاسِ في مَعايِشِهم، ولِيَعلَمَ اللهُ مَن يَستَعمِلُ السِّلاحَ المُتَّخَذَ مِنَ الحَديدِ في نَصرِ اللهِ ورُسُلِه بالغَيبِ، إنَّ اللهَ قَويٌّ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، عزيزٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ سُبحانَه.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ، وجعَلْنا في نَسْلِهما الأنبياءَ والكُتُبَ؛ فمِنهم مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الإنجيلَ، وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوه رِقَّةً ورَحمةً. ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، لم نَفرِضْها عليهم، بل ابتَدَعوها طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى، فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ

---

(١) قال ابن عطيَّة: (والمعتزلةُ تُعرِبُ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أنَّها نصبٌ بإضمارِ فِعلٍ يُفَسِّرُه ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وليست بمعطوفةٍ على الرَّأفةِ والرَّحمةِ، ويَذهَبون في ذلك إلى أنَّ الإنسانَ يَخلُقُ أفعالَه، فيُعرِبون الآيةَ على مَذهَبِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٩-١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٤- ٢٥٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، فآتَينا المؤمِنينَ مِنهم أجْرَهم، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم[1].

﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

أي: وأنزَلْنا مع رُسُلِنا الكِتابَ بالحَقِّ، وأنزَلْنا معهم العَدْلَ[2]؛ لِيَتعامَلَ النَّاسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

(٢) قال ابنُ عطيَّة: (﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾: العَدْلَ في تأويلِ أكثرِ المُتأوِّلينَ. وقال ابنُ زَيدٍ وغيرُه مِن المتأوِّلينَ: أراد الموازينَ المُصرَّفةَ بيْنَ النَّاسِ. وهذا جزءٌ مِنَ القولِ الأوَّلِ. وقولُه: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يُقوِّي القولَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والميزانُ يُفَسِّرُه السَّلَفُ بالعَدلِ، ويُفَسِّرُه بَعضُهم بما يُوزَنُ به، وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٧١).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وهو: العدلُ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وغيرُهما. وهو الحقُّ الَّذي تَشهَدُ به العقولُ الصَّحيحةُ المُستقيمةُ، المُخالِفةُ للآراءِ السَّقيمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

قيل: المعنَى: وأمَرْنا بالعَدْلِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن كثير: (﴿... بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالحقِّ والعدلِ، وهو: اتِّباعُ الرُّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتُهم فيما أمَروا به؛ فإنَّ الَّذي جاؤُوا به هو الحقُّ الَّذي ليس وراءَه حقٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

بَيْنَهم بالعَدلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإعراضُ بعدَ الإبلاغِ في الإيضاحِ مُوجِبًا للرَّدِّ على الفَسادِ بأنواعِ الجِهادِ؛ قال مُهَدِّدًا ومُمْتَنًّا، ترغيبًا وترهيبًا[(٢)]:

﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾.

أي: وخَلَقْنا الحديدَ، فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ شَديدةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).

قال السعدي: (الكِتابُ هو اسمُ جِنسٍ يَشملُ سائرَ الكُتُبِ الَّتي أنزَلَها اللهُ لهدايةِ الخَلقِ، وإرشادِهم إلى ما يَنفعُهم في دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال الواحدي: (﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ لِيَتعامَلَ النَّاسُ بَيْنَهم بالعَدلِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤). =

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: وفي الحَديدِ مَنافِعُ كَثيرةٌ للنَّاسِ في مَعايِشِهم وحاجاتِهم المُتنوِّعةِ[1].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ اللهُ -عِلمَ رُؤيةٍ وظُهورٍ للوُجودِ يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ- مَن يَنصرُ دينَ اللهِ، ويَنصرُ رُسُلَه، بالغَيبِ[2].

= قال الشوكاني: (﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: خلَقْناه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] والمعنى: أنَّه خلَقَه مِن المعادِنِ، وعَلَّم النَّاسَ صَنْعَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

قال الرَّسْعَني: (﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مَعايِشهم ومصالحِهم وصنائِعِهم. فقَلَّ أن تَرى صنعةً إلَّا والحديدُ قِوامُها، أو له فيها مَدخَلٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤-٤٢٦).

قال البقاعي: (﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾... عِلمَ شَهادةٍ؛ لأجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ بما يَليقُ بعُقولِ الخَلقِ، فيكَونَ الجَزاءُ على العَمَلِ لا على العِلمِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ عِلْمُ الظُّهورِ الَّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ أو العِقابُ...؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ شَيءٍ، ولكن لا يُشْكِلْ عليك الأمرُ، لا تَقُلْ: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ إلَّا بعدَ هذا! فالعِلمُ عِلْمانِ: عِلْمٌ بالشَّيءِ قبْلَ وُجودِه، وعِلْمٌ بالشَّيءِ بعدَ وُجودِه، والعِلمُ السَّابقُ لا يَترتَّبُ عليه ثَوابٌ ولا عِقابٌ حتَّى يُمتحَنَ النَّاسُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

وقولُه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: قيل: بالغَيبِ منه عنهم، أو غائبًا عنهم، أو غائبينَ عنه، أو وهم لم يَرَوُا اللهَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢١٢)، ((تفسير الجلالين)) (١١/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان طَلَبُ النُّصْرةِ مَظِنَّةً لتَوَهُّمِ الضَّعفِ، نفى ذلك[1]، وذَكَر أنَّه غَنِيٌّ عن نُصرتِه بقُدرتِه وعِزَّتِه، وأنَّه إنَّما كَلَّفَهم الجِهادَ لِمَنفعةِ أنفُسِهم، وتحصيلِ ما يترَتَّبُ لهم مِن الثَّوابِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو القُوَّةِ البالغةِ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وذو العِزَّةِ التَّامَّةِ فيَمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ وسُوءٍ ونَقصٍ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ الَّذي لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ[3]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

= الحديد)) (ص: ٤٢٦).

وقيل: المرادُ: ولم يرَ اللهَ ولا الآخرةَ. وممَّن اختاره: البغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٢).

قال القرطبي: (﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يَنصُرونَهم لا يُكَذِّبونهم، ويؤمِنون بهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم لا يَرَوْنَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١).

وقيل: أي: بما سمِعَ مِن الأوصافِ الغائبةِ عنه، فآمَن بها؛ لقيامِ الأدِلَّةِ عليها. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٥).

وقال البِقاعي: (كائنًا ذلك النَّصرُ بالغَيبِ مِن الوعدِ والوعيدِ، أي: بسببِ تصديقِ النَّاصِرِ لِما غاب عنه مِن ذلك. أو: غائبًا عن كلِّ ما أوجَب له النُّصرةَ). ((نظم الدرر)) (٧/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نبُوَّةَ الأنبياءِ عُمومًا؛ ذكَرَ مِن خَواصِّهم النَّبيَّيْنِ الكريمَينِ نُوحًا وإبراهيمَ اللَّذَينِ جَعَل اللهُ النُّبُوَّةَ والكتابَ في ذُرِّيَّتِهما(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ إلى قَومِهما(٢).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: وجعَلْنا في نَسْلِ نُوحٍ وإبراهيمَ جَميعَ الأنبياءِ والكُتُبِ الإلهيَّةِ مِن بَعْدِهما؛ كالتَّوراةِ، والزَّبُورِ، والإنجيلِ، والقُرآنِ(٣).

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٧ - ٧٩].

وقال سُبحانَه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال اللهُ تبارك وتعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿الْكِتَابَ﴾: ما كان بيَدِ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مِن الكُتُبِ الَّتي فيها أصولُ ديانتِهم مِن صُحُفِ إبراهيمَ، وما حَفِظوه مِن وَصاياه ووصايا إسماعيلَ وإسحاقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

[الصافات: ١١٢، ١١٣].

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

أي: فمِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ مَن هو مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ[١].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن ذُرِّيَّتِهما خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[٢].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾.

أي: ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا إلى أقوامِهم، فأرسَلْناهم واحِدًا تِلْوَ آخَرَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعودُ إلى الذُّرِّيَّة، أي: على آثارِ الذُّرِّيَّة. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّي، والقرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢).

وقيل: على آثارِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان عيسى عليه السَّلامُ أعظَمَ مَن جاء بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن بني إسرائيلَ؛ وهو المُؤَيِّدُ به هذا النَّبيُّ الخاتَمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تجديدِ دِينِه، وتقريرِ شَريعتِه، وكان الزُّهْدُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ في تابِعِيه في غايةِ الظُّهورِ، مع أنَّ ذلك لم يَمنَعْهم مِن القَسوةِ المُنَبِّهةِ سابِقًا على أنَّ المُوجِبَ لها طُولُ الأمَدِ، النَّاشئِ عنها الإعراضُ عن الآياتِ الحاضِرةِ معه، والكِتابِ الباقي بَعْدَه- خَصَّه بالذِّكرِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

أي: وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الكِتابَ المُسَمَّى بالإنجيلِ[(٢)].

= وقيل: مِن بَعدِ نُوحٍ وإبراهيمَ وذُرِّيَّتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨).
وقال النسفي: (﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: نوحٍ وإبراهيمَ ومَن مضى مِن الأنبياءِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).
وقال البيضاوي: (أي: أرسَلْنا رَسولًا بعْدَ رَسولٍ، حتَّى انتهى إلى عيسى عليه السَّلامُ، والضَّميرُ لنُوحٍ وإبراهيمَ ومَن أُرسِلَا إليهم، أو مَن عاصَرَهما مِنَ الرُّسُلِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠).
وقال البِقاعي: (﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: الأبوَينِ المَذكورَينِ ومَن مضى قَبْلَهما مِنَ الرُّسُلِ، ولا يعودُ الضَّميرُ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّها باقيةٌ مع الرُّسُلِ وبَعْدَهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٥).
(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوا عِيسى على دِينِه رِقَّةً ولِينًا ورَحمةً[1].

كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٤].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، ولم نَفرِضْها عليهم؛ فاعتَزَلوا النَّاسَ، ورَفَضوا الزَّواجَ، وتَركوا الدُّنيا، وآثَروا العُكوفَ والتَّفَرُّغَ للعبادةِ في الصَّوامِعِ أو الجِبالِ أو غَيرِها[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٨).

والفرقُ بيْنَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ أنَّ الرَّأفةَ أبْلَغُ مِن الرَّحمةِ، فهي أشَدُّ الرَّحمةِ وأرَقُّها. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٥٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٦).

وقيل: الرَّأفةُ: الرَّحمةُ المُتعلِّقةُ بدَفعِ الأذى والضُّرِّ، والرَّحمةُ: العطْفُ والمُلايَنةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما ابتَدَعوها إلَّا طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى(١).

= (١٧/ ٢٦٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ -يعني: ابتَدَعوها- إمَّا بِفعلٍ مُضمَرٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، أو يُقالُ: هذا الفِعلُ عَمِلَ في المُضمَرِ والمُظهَرِ، كما هو قَولُ الكوفيِّينَ. حكاه عنهم ابنُ جَريرٍ، وثَعلَبٌ وغَيرُهما... وعلى هذا القَولِ فلا تكونُ الرَّهبانيَّةُ مَعطوفةً على الرَّأفةِ والرَّحمةِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها مَعطوفةٌ عليها، فيكونُ اللهُ قد جَعَل في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتدَعةَ، ويكونُ هذا جعلًا خَلْقيًّا كَونيًّا، والجَعْلُ الكَونيُّ يَتناوَلُ الخَيرَ والشَّرَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وعلى هذا القَولِ فلا مَدْحَ للرَّهبانيَّةِ بجَعْلِها في القُلوبِ، فثَبَت على التَّقديرَينِ أنَّه ليس في القُرآنِ مَدحٌ للرَّهبانيَّةِ). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٢/ ١٨٩-١٩١).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قَدَّم المعمولَ لفِعلٍ غَيرِ مَذكورٍ؛ لِيَدُلَّ عليه بما يُفَسِّرُه، لِيَكونَ مَذكورًا مرَّتَينِ تأكيدًا له، وإفهامًا لذَمِّ نَفْسِ الابتداعِ- أتْبَعَه المُفَسِّرَ لعامِلِه، فقال: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾... وفي التَّقديمِ على العامِلِ سِرٌّ آخَرُ، وهو الصَّلاحيَةُ للعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ في لَفظِ الابتِداعِ أنْ لا صُنْعَ للهِ فيها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال القرطبي: (وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمَرْناهم إلَّا بما يُرضي اللهَ. قاله ابنُ مسلم. وقال الزَّجَّاجُ: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ معناه: لم نَكتُبْ عليهم شيئًا البتَّةَ، ويكونُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِنَ الهاءِ والألِفِ في ﴿كَتَبۡنَٰهَا﴾، والمعنى: ما كتَبْنا عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ اللهِ. وقيل: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾ الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والتَّقديرُ: ما كتَبْناها عليهم لَكِنِ ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم قصَدوا بذلك =

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

أي: فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، وما قاموا بها حَقَّ القيامِ(١).

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾.

أي: فآتَيْنا المؤمِنينَ مِنهم ثوابَ إيمانِهم(٢).

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت مُتابَعةُ الأهواءِ تَكسِبُ صِفاتٍ ذَميمةً تَصيرُ مَلَكاتٍ راسِخةً للأنفُسِ،

= رِضوانَ اللهِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. والآخَرُ: ما كتَبْنا عليهم ذلك، إنَّما كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ جرير: (الَّذين لم يَرعَوها حَقَّ رِعايتِها مُمكِنٌ أن يكونَوا كانوا على عَهدِ الَّذين ابتَدَعوها، وممكِنٌ أن يكونوا كانوا بَعْدَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: فما قاموا بما التَزَموه حَقَّ القيامِ، وهذا ذمٌّ لهم مِن وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في الابتِداعِ في دينِ اللهِ ما لم يأمُرْ به اللهُ. والثَّاني: في عدَمِ قيامِهم بما التَزَموه مِمَّا زَعَموا أنَّه قُربةٌ يُقَرِّبُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٦٩).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ جَميعَهم قَصَّروا تقصيرًا مُتفاوِتًا، قَصَّروا في أداءِ حقِّها... والمعنى: ما حَفِظوا شؤونَ الرَّهبانيَّةِ حِفظًا كاملًا، فمَصَبُّ النَّفيِ هو القَيدُ بوَصفِ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وهذا الانتفاء لهُ مراتِبُ كثيرةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

أشار إلى ذلك بالعُدولِ عن النَّهْجِ الأوَّلِ، فقال[١]:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن أولئك خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ على اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحَديدِ السِّلاحُ: حَضٌّ على القِتالِ، وتَرغيبٌ فيه[٣].

٢- اعلَمْ أنَّ الدَّعوةَ إلى الله تعالى بطَريقَينِ: طَريقِ لِينٍ، وطَريقِ قَسْوةٍ؛ أمَّا طَريقُ اللِّينِ: فهي الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى بالحِكمةِ والمَوعِظةِ الحَسَنةِ، وإيضاحِ الأدِلَّةِ في أحسَنِ أُسلوبٍ وألطَفِه، فإنْ نجَحَت هذه الطَّريقُ فبها ونِعْمَتْ، وهو المطلوبُ، وإنْ لم تَنجَحْ تَعَيَّنَت طَريقُ القَسوةِ بالسَّيفِ حتَّى يُعبَدَ اللهُ وَحْدَه، وتُقامَ حُدودُه، وتُمتَثَلَ أوامِرُه، وتُجتَنَبَ نَواهيه، وإلى هذه الإشارةُ بقَولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ ففيه الإشارةُ إلى إعمالِ السَّيفِ بَعْدَ إقامةِ الحُجَّة؛ فإنْ لم تَنفَعِ الكُتُبُ تعَيَّنت الكَتائِبُ، واللهُ تعالى قد يَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ[1]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ لَفتُ بَصائِرِ السَّامِعينَ إلى الاعتِبارِ بحِكمةِ اللهِ تعالى مِن خَلقِ الحَديدِ وإلهامِ صُنْعِه، والتَّنبيهِ على أنَّ ما فيه مِن نَفْعٍ وبأسٍ إنَّما أُريدَ به أن يُوضَعَ بأسُه حيثُ يَستَحِقُّ، ويُوضَعَ نَفْعُه حيثُ يَليقُ به، لا لِتُجعَلَ مَنافِعُه لِمَن لا يَستَحِقُّها، مِثلُ قُطَّاعِ الطَّريقِ، والثُّوَّارِ على أهلِ العَدْلِ؛ ولِتَجهيزِ الجُيوشِ لحِمايةِ الأوطانِ مِن أهلِ العُدوانِ، وللادِّخارِ في البُيوتِ لِدَفعِ الضَّارياتِ والعادياتِ على الحُرَمِ والأموالِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت النُّصْرةُ قد تكونُ ظاهِرةً، كما يقَعُ مِن مُنافِقٍ، أو ممَّن مُرادُه المنافِعُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّ الَّذي أراده: النُّصرةُ بالغَيبِ، ومعناه: أن تَقَعَ عن إخلاصٍ بالقَلبِ[3]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يَدخُلُ في هذا النَّصرِ نَصرُ شَرائِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَه، ونَصرُ وُلاةِ أُمورِ المُسلِمينَ القائِمينَ بالحَقِّ[4].

٦- ذُكِرَ عِندَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ مَهْديٍّ قَومٌ مِن أهلِ البِدَعِ، واجتِهادُهم في العِبادةِ، فقال: (لا يَقبَلُ اللهُ إلَّا ما كان على الأمرِ والسُّنَّةِ، ثمَّ قرأَ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يَقبَلْ ذلك منهم، ووبَّخَهم عليه. ثمَّ قال: الزَمِ الطَّريقَ والسُّنَّةَ)[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ تنفيرٌ عَظيمٌ عن البِدَعِ، وحَثٌّ شَديدٌ على لُزومِ ما سَنَّه اللهُ وشَرَع، وتحذيرٌ مِن التَّشديدِ؛ فإنَّه لن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غلَبَه. وفيه أيضًا حَثٌّ عَظيمٌ على المُداوَمةِ على ما اعْتِيدَ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، خُصوصًا أنَّه ما عَمِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَمَلًا إلَّا داوَمَ عليه، وكان يَنهى عن التَّعَمُّقِ في الدِّينِ، ويأمُرُ بالرِّفْقِ والقَصْدِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه جملةٌ مؤكَّدةٌ بـ «اللَّامِ»، و«قد»، و«القَسَمِ المُقدَّرِ»، والتَّقديرُ: واللهِ لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ، ولعَلَّ قائلًا يقولُ: كيف يُقْسِمُ اللهُ؟ وكيف يُؤَكِّدُ اللهُ خَبَرَه بالقَسَمِ، وهو الصَّادِقُ بدونِ ذلك؟!

الجوابُ: أنَّ القرآنَ الكريمَ نَزَلَ بلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، واللِّسانُ العَربيُّ المُبينُ يُؤَكِّدُ الأشياءَ الهامَّةَ، أو الأشياءَ المُنْكَرةَ بأنواعِ المؤكِّداتِ حتَّى يَطْمَئِنَّ المُخاطَبُ، ولا يَرتابَ المُرتابُ، وهذا يُذكَرُ في القُرآنِ كثيرًا[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ الكتابَ أعَمُّ مِن القُرآنِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥).

كلَّ رسولٍ معه كتابٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان هذا الميزانُ مِمَّا يُعرَفُ بالعَقلِ فكيف جَعَلَه اللهُ تعالى مما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ؟

الجَوابُ: أنَّ الرُّسُلَ ضَرَبَتْ للنَّاسِ الأمثالَ العَقليَّةَ الَّتي يَعرِفونَ بها التَّماثُلَ والاختِلافَ؛ فإنَّ الرُّسُلَ دَلَّتِ النَّاسَ وأرشَدَتْهم إلى ما به يَعرِفونَ العَدْلَ، ويَعرِفونَ الأقيسةَ العَقليَّةَ الصَّحيحةَ الَّتي يُستَدَلُّ بها على المطالِبِ الدِّينيَّةِ؛ فليستِ العُلومُ النَّبَويَّةُ مَقصورةً على مجرَّدِ الخبَرِ -كما يَظُنُّ ذلك مَن يَظُنُّه مِن أهلِ الكلامِ، ويَجعلون ما يُعْلَمُ بالعَقلِ قَسيمًا للعُلومِ النَّبَويَّةِ-، بلِ الرُّسُلُ صلواتُ اللهِ عليهم بَيَّنَتِ العُلومَ العَقليَّةَ الَّتي بها يَتِمُّ دينُ النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا، وضربتِ الأمثالَ، فكَمَلَت الفِطرةُ بما نَبَّهَتْها عليه وأرشَدَتْها؛ مِمَّا كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، أو كانتِ الفِطرةُ قد فَسَدَتْ بما حَصَلَ لها مِنَ الآراءِ والأهواءِ الفاسِدةِ، فأزالتْ ذلك الفَسادَ، وبَيَّنَتْ ما كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، حتَّى صار عندَ الفِطرةِ مَعرِفةُ الموازينِ الَّتي أَنزَلها اللهُ وبَيَّنَتْها رُسُلُه، والقُرآنُ والحديثُ مملوءٌ مِن هذا؛ يُبَيِّنُ اللهُ الحقائقَ بالمقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والفَرْقَ بيْن المُختَلِفَينِ، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كقَولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، أي: هذا حُكْمٌ جائِرٌ لا عادِلٌ؛ فإنَّ فيه تَسويةً بيْن المختلفَينِ، وقال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

[ص: ٢٨]، ومِن التَّسويةِ بيْن المتماثلَين قَولُه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. فجِنْسُ الميزانِ العَقليِّ حقٌّ كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه، وليس هو مُختَصًّا بمَنطِقِ اليونانِ -وإنْ كان فيه قِسْطٌ منها-، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ التَّسويةَ بيْن المتماثلَينِ، والفَرْقَ بيْن المختلفَينِ، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ[1]، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[2]. وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشتَرَكُ، وهو الجامِعُ، وهو الحدُّ الأوسَطُ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أنَّ الأصلَ في العُقودِ كلِّها إنَّما هو العَدْلُ الَّذي بُعِثَتْ به الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ به الكُتُبُ[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

---

(١) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١١٩).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٨٢).

والحدُّ الأوسطُ: هو ما يكونُ مكرَّرًا بيْن القضيَّتَينِ الصُّغرى والكبرى. يُنظر: ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٩٢).

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أنَّ الشَّريعةَ مَبْناها على العَدْلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أنَّ المقصودَ مِن إرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ أنْ يقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ في حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ خَلْقِه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أَخْبَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه أَرْسَلَ رُسُلَه وأَنْزَلَ كُتُبَه؛ لِيَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ، وهو العَدلُ، ومِن أعظَمِ القِسطِ التَّوحيدُ، وهو رأسُ العَدلِ وقِوامُه، وإنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ؛ فالشِّرْكُ أظلَمُ الظُّلْمِ، والتَّوحيدُ أعدَلُ العَدلِ، فما كان أشَدَّ مُنافاةً لهذا المقصودِ فهو أكبَرُ الكبائرِ، وتفاوتُها في دَرَجاتِها بحَسَبِ مُنافاتِها له، وما كان أشدَّ مُوافَقةً لهذا المقصودِ فهو أوجَبُ الواجِباتِ، وأفرَضُ الطَّاعاتِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أنَّ الدِّينَ لن يقومَ إلَّا بالكِتابِ، والميزانِ، والحَديدِ؛ كتابٌ يَهدي به، وحَديدٌ يَنْصُرُه، فالكِتابُ به يقومُ العِلمُ والدِّينُ، والميزانُ به تقومُ الحُقوقُ في العقودِ الماليةِ والقُبوضِ، والحَديدُ به تقومُ الحدودُ على الكافِرينَ والمنافِقينَ، ولهذا كان في الأزمانِ المتأخِّرةِ الكتابُ للعُلَماءِ والعُبَّادِ، والميزانُ للوزراءِ والكُتَّابِ وأهلِ الدِّيوانِ، والحديدُ للأمراءِ والأَجْنادِ، والكِتابُ له الصَّلاةُ، والحديدُ له الجِهادُ؛ ولهذا كان أكثرُ الآياتِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ولهذا جَمَعَ اللهُ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٨).

بيْنَهما في مَواضِعَ مِن القُرآنِ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الميزانَ هو مِمَّا جاءت به الرُّسُلُ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ القياسَ الصَّحيحَ هو مِمَّا بُعِث به الرُّسُلُ؛ لأنَّ القياسَ تَسويةُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لِعِلَّةٍ جامِعةٍ، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ والمُقايَسةَ بيْنَ الأُمورِ؛ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: لِيَقُومَ النَّاسُ في الدِّينِ والدُّنيا بالقِسْطِ؛ بالعَدْلِ في حَقِّ اللهِ، وفي حَقِّ العِبادِ(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّسُلَ مُتَّفِقونَ في قاعِدةِ الشَّرعِ، وهي القيامُ بالقِسْطِ، وإن اختَلَفت أنواعُ العَدلِ بحَسَبِ الأزمِنةِ والأحوالِ(٤).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ اللَّامُ في قَولِه ﴿لِيَقُومَ﴾ للتَّعليلِ، يعني: أَرْسَلْنا الرُّسُلَ وأنزَلْنا معهم الكتابَ، وأنزَلْنا معهم الميزانَ لهذه الحكمةِ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسطِ، ولهذا لا تَجِدُ أَعْدَلَ مِن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وكلُّ ما خالَفَ دِينَ اللهِ عزَّ وجلَّ فهو جَوْرٌ وظُلْمٌ(٥).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٣).

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ سؤالٌ: هل كلُّ مُنَزَّلٍ غيرُ مخلوقٍ؟

الجوابُ: لا، لكنْ كلُّ مُنَزَّلٍ يكونُ وَصفًا مُضافًا إلى اللهِ، فهو غيرُ مخلوقٍ -كالكلام-، وإلَّا فإنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِن السَّماءِ ماءً، وهو مخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وهو مَخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] والأنعامُ مَخلوقةٌ، فإذا كان المُنَزَّلُ مِن عندِ اللهِ صفةً لا تقومُ بذاتِها وإنَّما تقومُ بغَيرِها، لَزِمَ أنْ يكونَ غيرَ مخلوقٍ؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أصلٌ في جميعِ ما يُتَّخَذُ مِنه؛ مِن سِلاحٍ وغَيرِه[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وقَبْلَها: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أنَّ قُوَّةَ الحَديدِ لِحفظِ الكِتابِ والمِيزانِ، وحَملِ النَّاسِ عليهما[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ نَصرُ الرُّسُلِ؛ فإذا كان الرَّسولُ حيًّا فالمرادُ: يَنْصُرُ الرَّسولَ نَفْسَه وشَريعتَه، وبَعْدَ مَوتِه يَنصُرُ شَريعتَه، وفي هذا دليلٌ على أنَّ نَصرَ الشَّريعةِ نَصْرٌ لِمَن جاء بها، فلا يُشْكِلُ على هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُمِيتُ الرَّسولَ قبْلَ أنْ يرى النَّصرَ الواسِعَ له؛ لأنَّنا نقولُ: نَصْرُ شَريعتِه نَصْرٌ له[٤].

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٦١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٨٩)، ((شرح الطحاوية)) (١/ ١٩٦، ١٩٧) و(٢/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٥).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آدَمَ ليس برَسولٍ، وأنَّ إدريسَ ليس قَبْلَ نُوحٍ -كما ذَكَره بعضُ المؤرِّخينَ-، وهو خَطَأٌ مُخالِفٌ للقُرآنِ الكريمِ، فليس قَبْلَ نُوحٍ رَسولٌ، وآدمُ نبيٌّ مُكَلَّمٌ كَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاء مِن وَحْيِه، ثمَّ سار على نَهْجِه بَنُوه مِن بَعْدِه، فلمَّا انتشرَ النَّاسُ وكَثُروا صار بيْنَهم اختِلافٌ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1] [البقرة: ٢١٣].

١٩- قال الله تعالى في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وفيه دَلالةٌ على أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذكر هنا في سُورةِ (الحديد) ما يدُلُّ على اشتِراكِ نوحٍ عليه السَّلامُ معه في ذلك في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ وَجْهَ الاقتِصارِ على إبراهيمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّته، وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرينِ:

أحدُهما: أنَّ كلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ.

الثَّاني: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ؛ كهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، ويُونسَ -على خِلافٍ فيه-، ولا يُنافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعْدَ إبراهيمَ لا مَن كان قبْلَه أو في عصْرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا هو الواقعُ؛ أنَّ بني آدمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

أكثَرُهم ضالٌّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١) [الأنعام: ١١٦].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ نُصَّ على عيسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه ليس بَيْنَه وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِهِ وسلَّمَ رَسولٌ، بل ولا نبيٌّ أيضًا، ليس بَيْنَهما رَسولٌ ولا نَبيٌّ، وما يُقالُ: إنَّ خالِدَ بنَ سنانٍ وغَيرَه له نُبُوَّةٌ، فكلُّه كَذِبٌ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: هذا إشارةٌ إلى أنَّهم أُمِروا في الإنجيلِ بالصَّفحِ، وتَرْكِ إيذاءِ النَّاسِ، وألانَ اللهُ قُلوبَهم لذلك، بخِلافِ اليَهودِ الَّذين قَسَت قُلوبُهم، وحَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضِعِه(٣).

٢٣- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الرَّأفةُ والرَّحمةُ مِن أفعالِهم، واللهُ جاعِلُهما، فهو الجاعِلُ لِلذَّواتِ وصِفاتِها وأفعالِها وإراداتِها واعتِقاداتِها، فذلك كلُّه مَجعولٌ مخلوقٌ له، وإن كان العبدُ فاعلًا له باختيارِه وإرادتِه(٤).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الآيةَ: ذمٌّ لهم؛ لابتِداعِ ما لم يأمُرْ به اللهُ في الدِّينِ، ولعَدَمِ القيامِ بما التَزَموه على أنَّه قُرْبةٌ، فيُستَدَلُّ به على كراهةِ النَّذرِ، مع وُجوبِ الوَفاءِ به، وعلى أنَّ أحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْوَمُها، وأنَّ مَن اعتاد تطَوُّعًا كُرِهَ له تَرْكُه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ إشعارٌ بأنَّ ما يَكتُبُه اللهُ على العِبادِ مِنَ التَّكاليفِ لا يَشُقُّ على النَّاسِ العَمَلُ به[1].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَمَّ مَن لم يَرْعَ قُرْبةً ابتَدَعها للهِ تعالى حَقَّ رعايتِها، فكيف بمَن لم يَرْعَ قُرْبةً شَرَعَها اللهُ لعبادِه، وأَذِنَ بها، وحَثَّ عليها[2]؟!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ثَناءٌ على المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ مِمَّن مَضَوا مِنَ النَّصارى قَبْلَ البَعثةِ المُحَمَّديَّةِ، وبُلوغِ دَعوتِها إلى النَّصارى[3].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ -فيما يَجعلون الفِسْقَ دَرَجةً بيْنَ دَرَجتَينِ مِن الإيمانِ والكُفرِ-؛ إذِ الفِسْقُ في جميعِ هذه الأمكِنةِ كُفْرٌ لا شَكَّ فيه؛ لِمَا دلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ ناشئٌ عمَّا تقدَّمَ مِن التَّحريضِ على الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ، وعن ذِكرِ الفتْحِ، وعن تَذييلِ ذلك بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وهو إعذارٌ للمُتولِّينَ مِن المنافِقينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٩).

لِيَتداركوا صَلاحَهم باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والتَّدبُّرِ في هدْيِ القرآنِ، وإنذارٌ لهم أنْ يَرْعَوُوا ويَنْصاعوا إلى الحُجَّةِ السَّاطعةِ بأنَّه يكونُ تقويمُ عِوَجِهم بالسُّيوفِ القاطعةِ، وهو ما صرَّحَ لهم به في قولِه في سُورةِ (الأحزابِ) [٦٠، ٦١]: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾، وقوله في سُورةِ (التَّحريمِ) [٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤] مُجرَّدُ مُتاركةٍ، فيَطمَئِنُّوا لذلك[١].

- قولُه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)، وهو راجعٌ إلى ما تَضمَّنَه الخبرُ مِن ذِكرِ ما في إرسالِ رُسلِ اللهِ وكُتبِه مِن إقامةِ القسْطِ للنَّاسِ، ومِن التَّعريضِ بحمْلِ المُعرِضينَ على السَّيفِ إنِ استَمرُّوا على غُلَوائِهم[٢].

- وجمْعُ (الرُّسلِ) هنا لإفادةِ أنَّ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بِدْعًا مِن الرُّسلِ، وأنَّ مُكابَرةَ المنافِقينَ عَمايةٌ عن سُنَّةِ اللهِ في خلْقِه، فتأْكيدُ ذلك مَبنيٌّ على تَنزيلِ السَّامعينَ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رسُلًا قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حالَهم في التَّعجُّبِ مِن دَعواهُ الرِّسالةَ كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا مِن قبْلُ[٣].

- والمِيزانُ: مُعبَّرٌ به عن العدْلِ بيْنَ الناسِ في إعطاءِ حُقوقِهم -على قولٍ-؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ممَّا يَقتضيهِ الميزانُ وُجودَ طرَفَينِ يُرادُ مُعرفةُ تَكافئِهما؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وهذا الميزانُ تُبيِّنُه كُتبُ الرُّسلِ، فذِكرُه بخُصوصِه للاهتمامِ بأمْرِه؛ لأنَّه وَسيلةُ انتِظامِ أُمورِ البشَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وليس المرادُ أنَّ اللهَ ألْهَمَهم وضْعَ آلاتِ الوزْنِ؛ لأنَّ هذا ليس مِن المُهِمِّ، وهو ممَّا يَشمَلُه معْنى العدْلِ؛ فلا حاجةَ إلى التَّنبيهِ عليه بخُصوصِه[١].

- قَولُه: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جَمَعَ المنافِعَ؛ لأنَّها لا تُحصى أجناسُها، فَضْلًا عن أنواعِها وأفرادِها، فمَن يُحصي المنافِعَ الَّتي تَحصُلُ بالحَديدِ؟ ولهذا جاءتْ بالجَمعِ المعروفِ بـ «صيغةِ مُنتهى الجُموعِ»[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ إلى آخِرِها، أي: لأنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ في شُؤونِه القُدسيَّةِ، فكذلك يجِبُ أنْ تكونَ رُسلُه أقوياءَ أعِزَّةً، وأنْ تكونَ كُتبُه مُعظَّمةً مُوقَّرةً، وإنَّما يَحصُلُ ذلك في هذا العالَمِ المَنوطةِ أحداثُه بالأسبابِ المَجعولةِ بأنْ يَنصُرَه الرُّسلُ وأقوامٌ مُخلِصون للهِ، ويُعينوا على نشْرِ دِينِه وشَرائعِه[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ تَكليفَهم الجهادَ وتَعريضَهم للقِتالِ ليس لحاجتِه في إعلاءِ كَلمتِه وإظهارِ دِينِه إلى نُصرتِهم، بلْ إنَّما هُو ليَنتَفِعوا به، ويَصِلُوا بامتثالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

الأمْرِ فيه إلى الثَّوابِ؛ وإلَّا فهُو غَنِيٌّ بقُدرتِه وعِزَّتِه عنهم في كلِّ ما يُريدُه[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ لمَّا أُرِيدَ تَفصيلٌ لإجْمالِه تَفصيلًا يُسجَّلُ به انحرافُ المُشرِكين مِن العرَبِ والضَّالِّين مِن اليهودِ عن مَناهجِ أبوَيْهما: نوحٍ، وإبراهيمَ[(٢)].

- ولَمَّا ذكَرَ تعالى إرسالَ الرُّسلِ جُملةً؛ أفرَدَ منهم في هذه الآيةِ نُوحًا وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ تَشريفًا لهما بالذِّكرِ؛ أمَّا نوحٌ فلأنَّه أوَّلُ الرُّسلِ إلى مَن في الأرضِ، وأمَّا إبراهيمُ فلأنَّه انتسَبَ إليه أكثرُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وهو مُعظَّمٌ في كلِّ الشَّرائعِ، ثمَّ ذكَرَ أشرَفَ ما حصَلَ لذُرِّيَّتِهما، وذلك النُّبوَّةُ -وهي الَّتي بها هَدْيُ النَّاسِ مِن الضَّلالِ- والكتابُ، كالتَّوراةِ، والزَّبورِ، والإنجيلِ، والقرآنِ، وهي جَميعُها في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإبراهيمُ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ؛ فصدَقَ أنَّها في ذُرِّيَّتِهما[(٣)].

- وتَكريرُ القَسَمِ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾؛ لإظهارِ مَزيدِ الاعتناءِ بالأمْرِ، أيْ: وباللهِ لَقدْ أرسَلْناهُما[(٤)].

- والعُدولُ عن سَننِ المُقابَلةِ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤، ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).

للمُبالَغةِ في الذَّمِّ، والإيذانِ بغَلَبةِ الضُّلَّالِ وكَثرتِهم[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، (ثمَّ) للتَّراخِي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ بَعثةَ رُسلِ اللهِ الَّذين جاؤوا بعْدَ نوحٍ وإبراهيمَ، ومَن سبَقَ مِن ذُرِّيَّتِهما، أعظَمُ ممَّا كان لدى ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ الَّذين قفَّى اللهُ بهم؛ إذ أُرسِلوا إلى أُمَمٍ كَثيرةٍ، مِثْلِ عادٍ وثَمودَ، وبني إسرائيلَ، وفيهم شَريعةٌ عظيمةٌ، وهي شَريعةُ التَّوراةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ هذا تَعريفٌ للأمَّةِ بأنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا كثيرينَ على وجْهِ الإجمالِ، وهو تَمهيدٌ للمقصودِ مِن ذِكرِ الرَّسولِ الأخيرِ الَّذي جاء قبْلَ الإسلامِ، وهو عِيسى عليه السَّلامُ[(٣)].

- وفي إعادةِ فعلِ ﴿قَفَّيْنَا﴾ وعدَمِ إعادةِ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ قيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى بُعدِ المدَّةِ بيْنَ آخِرِ رُسلِ إسرائيلَ وبيْنَ عيسَى عليه السَّلامُ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ عطْفُ الرَّحمةِ على الرَّأفةِ مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لاستِيعابِ أنواعِه بعْدَ أنْ اهتُمَّ ببَعضِها[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٠، ٤٢١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢١).

- والإتيانُ بالموصولِ وصِلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إشعارٌ بأنَّ جعْلَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ في قُلوبِهم مُتسبَّبٌ عن اتِّباعِهم سِيرتَه، وانقطاعِهم إليه[(١)].

- وجُملةُ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ احتراسٌ[(٢)]، ومَجموعُ الجُمَلِ الثَّلاثِ استِطرادٌ واعتِراضٌ[(٣)].

- والاستِثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾، وهو استِثناءٌ مُنقطِعٌ؛ فالاستِثناءُ يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَعمولًا في المعْنى لِفعلِ ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾؛ فالمعْنى: لكنْ كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ -وذلك على قولٍ- أي: أنْ يَبتَغوا رِضوانَ اللهِ بكلِّ عمَلٍ، لا خُصوصَ الرَّهبانيَّةِ الَّتي ابتَدَعوها، أي: إنَّ اللهَ لم يُكلِّفْهم بها بعَينِها[(٤)].

- وقد فُرِّع على قولِه: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وما بَعْدَه، قولُه: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: فترتَّبَ على الْتِزامِهم الرَّهبانيَّةَ أنَّهم -أي: المُلتزِمين للرَّهبانيةِ- ما رَعَوها حقَّ رِعايتِها[(٥)].

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ اللَّومِ على تَقصيرِهم فيما الْتَزَموه أو نَذَرُوه، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٥).

تَقهقُرٌ عن مَراتبِ الكمالِ، وإنَّما ينْبغي للمُتَّقي أنْ يَكونَ مُزدادًا مِن الكَمالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إلى آخِرِه، وما بيْنَهما استِطرادٌ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كِفۡلَيۡنِ ﴾: أي: ضِعْفَينِ ونَصيبَينِ وحَظَّينِ، ويُستَعمَلُ الكِفلُ في النَّصيبِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضَمُّنِ شَيءٍ لِشَيءٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ عَظيمَينِ مِن رَحمتِه، ويَجْعَلْ لكم نُورًا تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا، ويَغفِرْ لكم، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ.

يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه لكم -أيها المُسلِمونَ-، ولِكَي يَعلَمُوا أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، وحَقِّقوا الإيمانَ برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، واثبُتوا عليه(١).

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٩).

قيل: الخِطابُ هنا لليَهودِ والنَّصارى، وأنَّ المعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، اتَّقوا اللهَ وآمَنوا برَسولِه مُحمَّدٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٨).

ونقَلَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ عن عامَّةِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وعُتْبةُ بنُ أبي حَكِيمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢).

قال ابن جُزَي: (يؤيِّدُ هذا [أي أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكتابِ] قولُه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نَصيبَينِ، وقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بي...»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

قال الرَّسْعَني: (المعنى: يؤتِكم كِفْلَينِ بسببِ إيمانِكم الأوَّلِ والثَّاني. ومنه الحديثُ الصَّحيحُ: «أيُّما رجُلٍ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بمحمَّدٍ فله أجْرانِ». أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ أبي موسى الأشعريِّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٨).

وضعَّف هذا القَولَ ابنُ تيميَّةَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٩).

وذلك لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُناديَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الكتابِ وهم كَفَرةٌ بوصفِ الإيمانِ أبدًا؛ فإنَّ اللهَ لم يقُلْ قَطُّ للكفَّار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فسياقُ الآيةِ في المؤمنينَ مِن هذه الأمَّةِ، وهو ظاهرُ القرآنِ المُتبادرُ الَّذي لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ. يُنظر المصادر السَّابقة. ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ...﴾[النساء: ١٣٦].

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ كَبيرَينِ من رحمتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثَلاثةٌ يُؤتَونَ أجْرَهم مَرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآمَنَ به واتَّبَعه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ ...))(٢).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَثَلُ المُسلِمينَ واليَهودِ والنَّصارى كَمَثَلِ رَجُلٍ استأجَرَ قَومًا يَعمَلونَ له

= وذكر السعديُّ أنَّ الظَّاهرَ أنَّ الأمرَ عامٌّ، يَدخُلُ فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم، وأنَّ اللهَ أمَرَهم بالإيمانِ والتَّقْوى الَّذي يَدخُلُ فيه جميعُ الدِّينِ، ظاهرِه وباطنِه، أُصولِه وفُروعِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هَذينِ الاحتِمالَينِ مَقصودانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالكِفْلَينِ هاهنا قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أحَدَهما لإيمانِهم بمَن تقدَّم مِن الأنبياءِ، والآخَرَ لإيمانِهم بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابنُ عبَّاسٍ [وهذا على أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكِتابِ]. والثَّاني: أنَّ أحدَهما أجرُ الدُّنيا، والثَّاني أجرُ الآخرةِ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللَّفظُ له.

عَمَلًا يومًا إلى اللَّيلِ، على أجرٍ مَعلومٍ، فعَمِلوا له إلى نِصفِ النَّهارِ، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجْرِك الَّذي شرَطْتَ لنا، وما عَمِلْنا باطِلٌ! فقال لهم: لا تَفعَلوا، أكمِلوا بَقيَّةَ عَمَلِكم، وخُذوا أجْرَكم كامِلًا، فأبَوا، وتَرَكوا! واستأجَرَ أجيرَينِ بَعْدَهم، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ يومِكما هذا، ولَكما الَّذي شرَطْتُ لهم مِنَ الأجرِ، فعَمِلوا حتَّى إذا كان حينُ صَلاةِ العَصرِ، قالا: لك ما عَمِلْنا باطِلٌ! ولك الأجرُ الَّذي جعَلْتَ لنا فيه، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ عَمَلِكما، ما بَقِيَ مِنَ النَّهارِ شَيءٌ يَسيرٌ، فأبَيَا! واستأجَرَ قَومًا أن يَعمَلوا له بَقيَّةَ يَومِهم، فعَمِلوا بَقيَّةَ يومِهم حتَّى غابت الشَّمسُ، واستَكمَلوا أجرَ الفَريقَينِ كِلَيهما! فذلك مَثَلُهم ومَثَلُ ما قَبِلوا مِن هذا النُّورِ!))[1].

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾.

أي: ويَجْعَلِ اللهُ لكم نُورًا بالقُرآنِ واتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

قال الواحدي: (﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: الصِّراطَ، كما قال: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [التحريم: ٨]، فهذا علامةُ المُؤمِنينَ في القيامةِ، وهذا قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ ومُقاتِلٍ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ويجعَلْ لكم سَبيلًا واضِحًا في الدِّينِ تَهتَدونَ به، وهذا معنى قَولِ مجاهدٍ، يعني: الهُدى والبَيانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٠).

والمعنى الثَّاني: هو في الجُملةِ ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وذهب إليه القرطبيُّ، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن =

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ لا يخلو مِن نُقصانٍ، فلا يَبلُغُ جَميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ؛ قال[1]:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويَستُرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم[2].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ لعِبادِه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ إنِ اتَّقَيتُموه وآمَنتُم برَسولِه؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه للمُسلِمينَ؛ مِن

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ إيتاؤُهم نُورًا مَعنويًّا في الدُّنيا، وحَقيقيًّا في الآخِرةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

تَضعيفِ الأجْرِ، والنُّورِ، والمَغفِرةِ، فلا يَملِكونَ مَنْعَه أو إعطاءَه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جرير: (قِيلَ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ إنَّما هو: لِيَعلَمَ، وذُكِرَ أنَّ ذلك في قراءةِ عبدِ اللهِ: «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ»؛ لأنَّ العَرَب تَجعَلُ «لا» صِلةً في كُلِّ كَلامٍ دخَلَ في أوَّلِه أو آخِرِه جَحدٌ غيرُ مُصرَّح، كقَولِه في الجَحدِ السَّابقِ الَّذي لم يُصَرَّحْ به: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقَولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقَولِه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأنبياء: ٩٥] الآيةَ، ومعنى ذلك: أهلَكْناها أنَّهم يرجِعون). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: لِيَعلَمَ عِلمًا عَظيمًا يَثبُتُ مَضمونُ خَبَرِه ويَنتَفي ضِدُّه، بما أفاده زيادةُ النَّافي). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٢٦).

وقال ابنُ عاشور: (أرى أنَّ دعوى زيادةِ «لا» لا داعيَ إليها، وأنَّ بقاءَها على أصلِ معناها -وهو النَّفيُ- مُتعَيِّنٌ، وتُجعَلُ اللَّامُ للعاقبةِ، أي: أعطَيْناكم هذا الفَضلَ وحُرِمَ منه أهلُ الكتابِ، فبَقِيَ أهلُ الكتابِ في جَهْلِهم وغُرورِهم بأنَّ لهم الفَضلَ المستمِرَّ، ولا يحصُلُ لهم عِلمٌ بانتِفاءِ أن يكونوا يَملِكونَ فَضْلَ اللهِ، ولا أنَّ اللهَ قد أعطى الفضلَ قَومًا آخَرينَ وحَرَمَهم إيَّاه، فيَنسَونَ أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ، وليس أحدٌ يَستَحِقُّه بالذَّاتِ. وبهذا الغرورِ استمَرُّوا على التَّمَسُّكِ بدينِهم القديمِ... والمعنى: لا تَكترِثوا بعَدَمِ عِلمِ أهلِ الكتابِ بأنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ، وبأنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ، أي: لا تَكترِثوا بجَهْلِهم المركَّبِ في استِمرارِهم على الاغترارِ بأنَّ لهم مَنزِلةً عندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ عالمٌ بذلك، وهو خلَقَهم، فهم لا يُقلِعونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٢).

وقيل -بناءً على أنَّ (لا) غيرُ مزيدةٍ-: الضَّميرُ في قولِه: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ وأصحابِه، والتَّقديرُ: لِئَلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ أنَّ النَّبيَّ والمؤمنينَ لا يَقْدِرونَ على شيءٍ مِن فضلِ اللَّه، وأنَّهم إذا لم يَعْلَموا أنَّهم لا يَقْدِرونَ عليه فقد عَلِموا أنَّهم يَقْدِرونَ عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٦).

وقال السمين الحلبي: (وفي «لا» هذه وجهانِ؛ أحدهما: وهو المشهورُ عندَ النُّحاةِ والمفسِّرينَ والمُعْرِبين: أنَّها مَزيدةٌ... والتَّقديرُ: أَعْلَمَكم اللهُ بذا؛ لِيَعلَمَ أهلُ الكتابِ عدمَ قُدرتِهم على شيءٍ مِنْ فضلِ اللهِ، وثبوتَ أنَّ الفَضْلَ بيدِ اللهِ. وهذا واضِحٌ بَيِّنٌ... =

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولِكَي يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ أنَّ كُلَّ الفَضلِ بيَدِ اللهِ وَحْدَه، فيُعطي فَضلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وَفْقَ حِكمتِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما بقاؤُكم فيما سَلَف قَبْلَكم مِن الأُمَمِ كما بيْنَ صَلاةِ العَصرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ، أُوتيَ أهلُ التَّوراةِ التَّوراةَ، فعَمِلوا حتَّى إذا انتَصَف النَّهارُ عَجَزوا، فأُعطُوا قِيراطًا قِيراطًا[٢]، ثمَّ أُوتيَ أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعَمِلوا إلى صَلاةِ العَصرِ، ثمَّ عَجَزوا، فأُعطُوا قيراطًا قِيراطًا، ثمَّ أُوتينا القُرآنَ، فعَمِلْنا إلى غُروبِ الشَّمسِ، فأُعطِينا قِيراطَينِ قِيراطَينِ، فقال أهلُ الكِتابَينِ: أيْ رَبَّنا أعطَيتَ هؤلاءِ قيراطَينِ قيراطَينِ، وأَعطَيتَنا قيراطًا قيراطًا، ونحنُ كُنَّا أكثَرَ عَمَلًا! قال: قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: هل ظَلَمْتُكم مِن أجرِكم مِن شَيءٍ؟ قالوا: لا، قال: فهو فَضْلي أُوتيه مَن أشاءُ!))[٣].

= والثَّاني: أنَّها غيرُ مَزيدةٍ. والمعنى: لئلَّا يَعلَمَ أهلُ الكتابِ عَجْزَ المؤمنينَ. ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال الرازي: (أكثر المفسِّرينَ على أنَّ «لا» هاهنا صِلةٌ زائدةٌ، والتَّقديرُ: لِيَعلَمَ أهلُ الكتابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) القيراط: المرادُ به النَّصيبُ، وهو في الأصل نِصفُ دانقٍ، والدَّانِقُ سدسُ درهمٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٤٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٤٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٥٧).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه لا يَخُصُّ بالفضلِ إلَّا لأنَّه لا يَسَعُ جَميعَ النَّاسِ، دَفَع ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ، فيَتفَضَّلُ على مَن يَشاءُ بما يَشاءُ مِن نِعَمِه الكثيرةِ العَظيمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ * يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ التَّقْوى هي مِن أسبابِ حُصولِ العِلمِ، وما أكثَرَ الَّذين يَنْشُدُون العِلمَ، ويَنْشُدُون الحِفظَ، ويَطلُبونَ الفَهمَ، فنقولُ: إنَّ تحصيلَه يَسيرٌ، وذلك بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتحقيقِ الإيمانِ -الَّذي هو مُوجَبُ العِلمِ-؛ فاعمَلْ بما عَلِمتَ يَحصُلْ لك عِلْمُ ما لم تَعلَمْ، فتَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ زيادةِ العِلمِ ولا شَكَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تَسيرونَ بسَبَبِه سَيرًا صَحيحًا يُوصِلُكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[3]، فمَن عَمِلَ بما عَلِم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ[١]، فهذه التَّقوى الَّتي يُعلِّمُ اللهُ صاحبَها بسببِها ما لم يكُنْ يَعلَمُ: هي عمَلُه بما عَلِم مِن أمرِ الله، لا تَزيدُ على ذلك[٢].

٢- النُّورُ هو مادَّةُ كلِّ خيرٍ، وصلاحِ كلِّ شيءٍ، وهو يَنشأُ عن امتثالِ أمرِ الله واجتِنابِ نَهْيِه، وعن الصَّبرِ على ذلك؛ فإنَّه ضياءٌ، فإنَّ حِفْظَ الحُدودِ بتَقوى اللهِ يَجعَلُ اللهُ به لصاحِبِه نورًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ العَمَلَ بالعِلْمِ هو مِن أعظمِ أسبابِ حِفْظِه وثباتِه، وتَرْكَ العَمَلِ به إضاعةٌ له، فما استُدِرَّ العِلْمُ ولا استُجْلِبَ بمِثْلِ العَمَلِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المُؤمِنينَ مُؤمِنونَ برَسولِه؟!

الجوابُ: أنَّ المُرادَ طَلَبُ الدَّوامِ على الإيمانِ. أو معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا يومَ الميثاقِ، آمِنوا باللهِ ورَسولِه اليَومَ. أو: يا أيُّها الَّذين آمَنوا في العَلانِيَةِ باللِّسانِ، اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه في السِّرِّ بتَصديقِ القَلبِ[٥]. وقيل: معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، آمِنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَكونُ خِطابًا لأهلِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٣).

الكِتابِ خاصَّةً(١).

٢- لَفْظُ «الإيمانِ» أكثرُ ما يُذكَرُ في القُرآنِ مُقَيَّدًا؛ فلا يكونُ ذلك اللَّفظُ مُتناوِلًا لجَميعِ ما أمَرَ اللهُ به، بل يُجعَلُ مُوجِبًا لِلَوازِمِه وتَمامِ ما أُمِرَ به، وحينَئذٍ يَتناوَلُه الاسمُ المطلَقُ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد كَفَلَ لِمَنْ آمَنَ به أنْ يَجعَلَ له نُورًا يَمشي به(٣).

٤- مَنْ آمَنَ بربِّه وأطاعه زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِنَ الهُدى والإيمانِ كما بيَّن اللهُ تعالى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، وفيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ، ومَفهومٌ مِنها أنَّه يَنقُصُ أيضًا(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ الحَسَنةَ الثَّانيةَ قد تكونُ مِن ثَوابِ الأُولى، وكذلك السَّيِّئةُ الثَّانيةُ قد تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ مَن قام بما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ أشْرَفَ على عِلْمِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأغناه اللهُ بالنُّورِ الَّذي بَعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٣، ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

عليه وسلَّم- عمَّا سِواه[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ضَمِنَ لهم سُبحانَه بالتَّقوى ثلاثةَ أُمورٍ:

أحدُها: أعطاهم نَصيبَينِ مِن رَحمتِه؛ نصيبًا في الدُّنيا، ونَصيبًا في الآخِرةِ، وقد يُضاعَفُ لهم نَصيبُ الآخِرةِ فيَصيرُ نَصيبَينِ.

الثَّاني: أعطاهم نورًا يَمشُونَ به في الظُّلُماتِ.

الثَّالِثُ: مَغفِرةُ ذُنوبِهم، وهذا غايةُ التَّيسيرِ؛ فقد جعَلَ سُبحانَه التَّقوى سَبَبًا لكُلِّ يُسْرٍ، وتَرْكَ التَّقوى سَبَبًا لكلِّ عُسْرٍ[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضاعَفَ لهذه الأُمَّةِ -لِكَونِها خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ- أَجْرَها مرَّتَينِ[(٣)]، ومِن ذلك كَونُ صَومِ يومِ عَرَفةَ بسَنَتينِ؛ فإنَّها قد وُعِدَتْ في العَمَلِ بأجْرَينِ، وأمَّا عاشوراءُ فقد كانتِ الأُمَمُ قبْلَ هذه الأُمَّةِ تَصومُه، ففُضِّلَ ما خُصَّتْ به هذه الأُمَّةُ[(٤)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أنَّ ما وَعَد اللهُ به المؤمنينَ مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمُ مِمَّا وَعَدَ به مُؤمني أهلِ الكِتابِ، وإيتاؤُهم أجْرَهم مرَّتَينِ هو كما قال تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكَونُ ما وَعَدَ به المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣).

(٤) الفائدةُ لابنِ هُبَيرةَ في كتابِه ((الإفصاح))، نقَلَها عنه ابنُ رجب. يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٦٤).

مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمَ: أنَّ إيتاءَ أهلِ الكِتابِ أجْرَهم مَرَّتَينِ، أعطى المؤمنينَ مِن هذه الأُمَّةِ مِثْلَه، كما بَيَّنَه بقَولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وزادهم بقَولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ: وهي: أنَّهم يَمشُونَ على الصِّراطِ بأنوارِهم كما يَمشُونَ بها بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا، ومَن لا نورَ له فإنَّه لا يَستطيعُ أنْ يَنقُلَ قدَمًا عن قَدَمٍ على الصِّراطِ، فلا يَستطيعُ المشيَ أحْوَجَ ما يكونُ إليه[2]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنَّه سُبحانَه حَكيمٌ؛ لا يَفعَلُ شَيئًا عَبَثًا ولا لغَيرِ مَعنًى ومَصلَحةٍ[3]!

١٢- لَمَّا نهى اللهُ عن التَّشَبُّهِ بهؤلاء الَّذين قَسَت قلوبُهم، ذكَرَ أيضًا في آخِرِ السُّورةِ حالَ الَّذين ابتَدَعوا الرَّهبانيَّةَ، فما رعَوْها حَقَّ رعايتِها، فعَقَّبَها بقَولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩]؛ فإنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ: تصديقُه وطاعتُه، واتِّباعُ شريعتِه، وفي ذلك مُخالَفةٌ للرَّهبانيَّةِ؛ لأنَّه لم يُبعَثْ بها، بل نهَى عنها، وأخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّبَعه كان له أجْرانِ، وبذلك جاءت الأحاديثُ الصَّحيحةُ[4].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغالبُ في القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٩٥).

العَظيمِ أنَّ الَّذين آمَنوا لقَبٌ للمُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنْ لَمَّا وقَعَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هنا عقِبَ قولِه: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] -أي: مِنَ الَّذين اتَّبعوا عِيسى عليه السَّلامُ- احتمَلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَه اللَّقَبِيَّ -أي: كونَه كالعَلَمِ- بالغَلَبةِ على مُؤمِني مِلَّةِ الإسلامِ. واحتمَلَ أنْ يكونَ قد استُعمِلَ استِعمالَه اللُّغويَّ الأعمَّ، أي: مَن حصَلَ منه إيمانٌ، وهو هنا مَن آمَنَ بعِيسى. أو يكونَ هذانِ الاحتِمالانِ مَقصودينِ؛ ليأخُذَ خُلَّصُ النَّصارَى مِن هذا الكلامِ حَظَّهم، وهو دَعوتُهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليَستَكمِلوا ما سبَقَ مِن اتِّباعِهم عِيسى؛ فيكون الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الموجودينَ ممَّن آمَنوا بعِيسى، أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إيمانًا خالِصًا بشَريعةِ عِيسى، اتَّقوا اللهَ، واخْشَوا عِقابَه، واتْرُكوا العَصبيَّةَ والحَسَدَ وسُوءَ النَّظَرِ، وآمِنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وأمَّا احتمالُ أنْ يُرادَ بالَّذين آمَنوا الإطلاقُ اللَّقَبيُّ، فيَأخُذَ منه المؤمِنونَ مِن أهلِ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بِشارةً بأنَّهم لا يَقِلُّ أجْرُهم عن أجْرِ مُؤْمِني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم لَمَّا آمَنوا بالرُّسلِ السَّابقينَ أعْطاهم اللهُ أجْرَ مُؤْمِني أهلِ مِلَلِهم، ويكون قولُه: ﴿وَءَامِنُوا۟﴾ مُستعمَلًا في الدَّوامِ على الإيمانِ؛ كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في سُورةِ (النِّساءِ) [١٣٦]، ويكون إقحامُ الأمْرِ بالتَّقوى في هذا الاحتمالِ قصْدًا لأنْ يَحصُلَ في الكلامِ أمْرٌ بشَيءٍ يَتجدَّدُ ثمَّ يُردَفَ عليه أمْرٌ يُفهَمُ منه أنَّ المرادَ به طلَبُ الدَّوامِ، وهذا مِن بَديعِ نظْمِ القرآنِ[1].

- قولُه: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي إطلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

لَفظِ ﴿بِرَسُولِهِۦ﴾ إيذانٌ بأنَّه عَلَمٌ فَردٌ في الرِّسالةِ، لا يَذهَبُ الوهمُ إلى غَيرِه[١].

- وقولُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ لهم بما هو وَسيلةٌ ومُقدِّمةٌ للمَقصودِ، وهو الأمْرُ بقولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، ورُتِّبَ على هذا الأمرِ ما هو جَوابُ شَرْطٍ مَحذوفٍ، وهو جُملةُ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ...﴾ إلخ، المجزومُ في جَوابِ الأمرِ، أي: يُؤتِكُم جَزاءً في الآخِرةِ، وجَزاءً في الدُّنيا[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ويَتعلَّقُ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بـ﴿يُؤْتِكُمْ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: ذلك مِن رَحمةِ اللهِ بكم. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ صِفةً لـ﴿كِفْلَيْنِ﴾، وتكونَ (مِن) بَيانيَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تَحتمِلُ أنْ تكونَ تعليليَّةً، فيَكونَ ما بعْدَها مَعلولًا بما قبْلَها، وحرْفُ (لا) يكون زائدًا للتَّأكيدِ والتَّقويةِ، والمُعلَّلُ هو ما يَرجِعُ إلى فضْلِ اللهِ لا مَحالةَ. وقيل: تَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وضَميرُ ﴿يَقْدِرُونَ﴾ عائدًا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمَنوا به -على قولٍ في التفسيرِ- على طريقِ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وأصْلُه: ألَّا تَقدِروا، وإذا انتَفَى عِلمُ أهلِ الكتابِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ لا يَقدِرون على شَيءٍ مِن فضْلِ اللهِ، ثبَتَ ضِدُّ ذلك في عِلْمِهم، أي: كيف أنَّ الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٨، ٤٢٩).

والمسلمينَ يَقدِرون على فضْلِ اللهِ، ويكون ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ مُعبَّرًا به عن معْنى: يَنالُون، وأنَّ الفضلَ بيَدِ اللهِ، فهو الَّذي فضَّلَهم، ويكون ذلك كِنايةً عن انتفاءِ الفضلِ عن أهلِ الكتابِ الَّذين لم يُؤمِنوا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وليستْ زائدةً، واللَّامُ للعاقِبةِ(١).

- قوله: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لعلَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا خاصٌّ بهذه الأمَّةِ الَّتي هي أقَلُّ عمَلًا وأكثرُ أجرًا(٢).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تَذييلٌ، يَعُمُّ الفَضلَ الَّذي آتاهُ اللهُ أهْلَ الكِتابِ المُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغيرَه مِن الفضْلِ(٣).



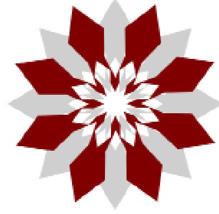
(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٠ - ٤٣٢). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٩).

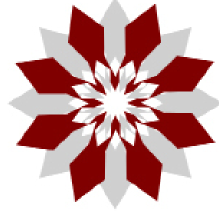
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٤).

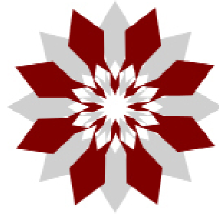
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٣).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ المُجادلةِ







سورةُ المُجادلةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المجادلةِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المجادلةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- بيانُ حُكمِ الظِّهارِ، وإبْطالُ ما كان في الجاهِلِيَّةِ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ المجادلةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾، وقد افتُتِحَت بقَضيَّةِ مجادَلةِ امرأةِ أَوسِ بنِ الصَّامتِ لدى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ مُظاهَرةِ زَوجِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

قال الشهاب الخفاجي: (المجادلة: بفَتحِ الدَّالِ وكَسْرِها، والثَّاني هو المعروفُ... وتُسمَّى سورةَ ﴿قَدۡ سَمِعَ﴾). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٤).

واختار ابن عاشور أنَّ كَسرَ الدَّالِ أظهَرُ، قال: (لأنَّ السُّورةَ افتُتِحت بذِكرِ الَّتي تجادِلُ في زوجِها، فحقيقةٌ أن تُضافَ إلى صاحبةِ الجدالِ، وهي الَّتي ذكرها اللهُ بقَولِه: ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]... وأمَّا فَتحُ الدَّالِ فهو مصدَرٌ مأخوذٌ مِن فِعلِ ﴿تُجَادِلُكَ﴾ كما عَبَّرَ عنها بالتَّحاوُرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

(٢) وقيل: قَولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ نزل بمكَّةَ، وقيل: العَشرُ الأُوَلُ منها مدنيَّةٌ، والباقي مكِّيٌّ. ولا دليلَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٧)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

٢- فَضحُ المنافِقينَ، وبَيانُ ضَلالاتِهم، وأقوالِهم الباطِلةِ، وأفعالِهم الذَّميمةِ[١].

٣- ذِكرُ بَعضِ الآدابِ الَّتي يجِبُ على المؤمِنينَ أن يَتحَلَّوا بها[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الحديثُ عن المرأةِ الَّتي جادَلَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ زَوْجِها، وبيانُ حُكمِ الظِّهارِ وكَفَّارتِه.

٢- ذِكرُ الَّذين يُحادُّونَ اللهَ ورَسولَه، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٣- تقريرُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يخفَى عليه شَيءٌ.

٤- الكلامُ عن التَّناجي وما كان يَتناجى به أعداءُ الإسلامِ ويُحَيُّونَ به الرَّسولَ، وما يَنبغي أن يكونَ عليه تناجي المؤمِنينَ، وذِكرُ ما كان اللهُ تعالى شَرَعه للمؤمِنينَ قبْلَ مناجاتِهم للرَّسولِ.

٥- بيانُ بَعضِ آدابِ المجالِسِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ صِفاتِ المنافِقينَ، ومُوالاتِهم لليَهودِ، وحَلِفِهم على الكَذِبِ، ونِسْيانِهم ذِكرَ اللهِ، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ، وبيانِ صِفاتِهم الكريمةِ، وحُسْنِ عاقبتِهم.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

الآيات (١-٤)

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تُجَادِلُكَ﴾: أي: تُحاجِجُك وتُراجِعُك، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سَبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وهو مِن بابِ استِحكامِ الشَّيءِ في استِرسالٍ يكونُ فيه، وامتِدادِ الخصومةِ، ومراجعةِ الكلامِ، وأصلُه مِن: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحكَمْتُ فَتْلَه(١).

﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾: أي: مُحاوَرتَكما ومُراجَعتَكما القَولَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ(٢).

﴿وَزُورًا﴾: أي: كَذِبًا ومَيلًا عن طريقِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) =

﴿يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: الظِّهارُ: قَولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، وهي كَلِمةٌ كانوا يقولونَها يُريدونَ بها الفِراقَ، يُقالُ: ظاهَر الرَّجُلُ مِن امرأتِه ظِهارًا، وتَظَهَّر، وتَظاهَر، إذا قال لها ذلك. وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿يَتَمَآسَّا﴾: كنايةٌ عن الجِماعِ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وتَشتَكي إلى اللهِ تعالى مِمَّا لَحِقَ بها بظِهارِ زَوجِها منها، واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما، إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الظِّهارِ: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم تحريمَ اللهِ

= للراغب (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

قيل: الظِّهارُ مُشتَقٌّ مِن الظَّهرِ، ويُنظر في سببِ اختِصاصِ الظَّهرِ بذلك: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٨٨).

وقيل: ليس مأخوذًا مِن الظَّهرِ الَّذي هو عُضوٌ مِن الجسدِ؛ لأنَّه ليس الظَّهرُ أولى بالذِّكرِ في هذا الموضعِ مِن سائرِ الأعضاءِ الَّتي هي مَواضِعُ المُباضَعةِ والتَّلذُّذِ، بل الظَّهرُ هاهنا مأخوذٌ مِن العُلوِّ، وكلُّ مَن علا شيئًا فقد ظهَره، ومنه سُمِّيَ المركوبُ ظَهرًا؛ لأنَّ راكبَه يعلوه، وكذلك امرأةُ الرَّجُلِ ظَهْرُه؛ لأنَّه يعلوها بمِلكِ البُضْعِ، وإن لم يكُنْ مِن ناحيةِ الظَّهرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

عليهم ظُهورَ أمَّهاتِهم، لا يَصِرْنَ زوجاتُهم أمَّهاتٍ لهم في الحقيقةِ بهذا الظِّهارِ، ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، وإنَّ أولئك المُظاهِرينَ لَيَقولونَ قولًا شَنيعًا، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، وإنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غفورٌ.

ويُبيِّنُ اللهُ تعالى تفصيلَ الأحكامِ المترتِّبةِ على الظِّهارِ شرعًا، فيقولُ: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعزِمونَ على جِماعِهنَّ ثانيةً؛ فعلى الرَّجُلِ عِتقُ رَقبةٍ مِن قَبلِ أن يَقَع بيْنَهما جِماعٌ، وذلكم مَوعِظةٌ مِن ربِّكم، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَه. فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ، فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا. فُرِضَ هذا عليكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك حدودُ اللهِ حدَّها لكم. وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾.

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحَمدُ للهِ الَّذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ، لقد جاءت خَوْلةُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَشكو زَوجَها، فكان يَخفَى علَيَّ كلامُها، فأنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية))[(١)].

(١) أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ الجزمِ مختصَرًا قبل حديث (٧٣٨٦)، وأخرجه موصولًا =

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

أي: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ[١] الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ[٢] زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي[٣]، فتُجادِلُك خَوفًا مِن وُقوعِ الطَّلاقِ عليها، وخَشيةً مِن فِراقِ زَوجِها بذلك الظِّهارِ[٤].

= النسائيُّ (٣٤٦٠) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٨٨)، وأحمدُ (٢٤١٩٥).

صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٦٣)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٣٣٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٤٦٠)، وقال ابنُ تيميَّةَ في ((تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٨٠): (إسناده ثابتٌ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٢٢٨).

(١) قال ابنُ كثير: (خَولةُ بِنتُ ثَعْلبةَ، ويُقالُ فيها: خَولةُ بنتُ مالكِ بنِ ثَعلبةَ، وقد تُصَغَّرُ فيُقالُ: خُوَيلةُ، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، فالأمرُ فيها قريبٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦). وقيل في اسمِها غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٩٨).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وتعَلُّقُ فِعلِ التَّجادُلِ بالكَونِ في زَوجِها على نيَّةِ مُضافٍ معلومٍ مِن المقامِ في مِثلِ هذا، أي: في شأنِ زَوجِها وقضيَّتِه، كقَولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وهو مِن المسألةِ الملقَّبةِ في أصولِ الفقهِ بإضافةِ التَّحليلِ والتَّحريمِ إلى الأعيانِ [وهي دلالةُ الاقتِضاءِ]، في نحوِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تُجادِلُك في شأنِ زَوْجِها: الرازيُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

وقال الواحدي: (تُجادِلُك في قَولِ زَوجِها وكَلامِه). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢٦).

(٣) قال الزَّجَّاجُ: (كانت هذه الكَلِمةُ مِمَّا يُطَلِّقُ بها أهلُ الجاهِليَّةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

قال ابنُ جرير: (كانت مُجادَلَتُها رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في زَوجِها -وزوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ- مُراجَعَتَها إيَّاه في أمرِه، وما كان مِن قَولِه لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، ومُحاوَرَتَها إيَّاه في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦).

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وتَشتَكي تلك المُجادِلةُ إلى اللهِ تعالى ما لَدَيها مِنَ الهَمِّ والضُّرِّ بظِهارِ زَوجِها منها، وتَسألُه الفَرَجَ(١).

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

أي: واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما ومُراجَعتَكما الكلامَ فيما بَيْنَكما(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ له كَمالُ السَّمعِ والبَصَرِ، فأحاط سَمْعُه وبَصَرُه بكُلِّ شَيءٍ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ(٣).

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى الخبَرَ عن إحاطةِ العِلمِ؛ استأنَفَ الإخبارَ عن حُكمِ الأمرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال الواحدي: (هو قولُها: أشكو إلى اللهِ فاقَتي ووَحْدتي، وإنَّ لي صِبيةً صِغارًا، إنْ ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهم إلَيَّ جاعُوا، وجعَلَتْ تَرفَعُ رأسَها إلى السَّماءِ، وتقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال السعدي: (في ضِمنِ ذلك الإشارةُ بأنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ شَكْواها، ويَرفَعُ بَلْواها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

المجادَلِ بسَبَبِه، فقال ذامًّا للظِّهارِ[1]:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

أي: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم على أنفُسِهم بتَشبيهِهنَّ بظُهورِ أُمَّهاتِهم، فيقولونَ لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا؛ ما نِساؤُهم اللَّائي يُظاهِرونَ مِنهنَّ بأمَّهاتِهم؛ فيقولوا لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظَهرِ أمَّهاتِنا، بل هنَّ لهم حلالٌ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (أجمَعَ الفُقَهاءُ على أنَّ مَن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، أنَّه مُظاهِرٌ، وأكثَرُهم على أنَّه إن قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ ابنتي أو أختي أو غيرِ ذلك مِن ذواتِ المَحارِمِ؛ أنَّه مُظاهِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٣).

وممَّن نقَل الإجماعَ أيضًا على أنَّه إن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، كان مُظاهِرًا: ابنُ المنذِرِ، وابنُ رُشْدٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٨)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٠٥)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٥).

وكذلك يكونُ مُظاهِرًا مَن شَبَّه زَوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه على التَّأبيدِ مِن أقارِبِه غَيرِ الأمِّ؛ كجَدَّتِه، وعَمَّتِه، وخالتِه، وأُختِه، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزَّيْلَعي وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ٤)، ((منح الجليل)) لعُلَيْش (٤/ ٢٢٧)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وإذا قال الرَّجُلُ لِزَوجتِه: أنتِ أمِّي، ونوى الظِّهارَ؛ كان مُظاهِرًا، وإن لم يَنوِ به ظِهارًا فليس بظِهارٍ، وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٦٣٨)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٧٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (أصلُ الظِّهارِ مُشتَقٌّ مِنَ الظَّهرِ، وذلك أنَّ الجاهِليَّةَ كانوا إذا تظاهَرَ أحدٌ مِن امرأتِه قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، ثمَّ في الشَّرعِ كان الظِّهارُ في سائرِ الأعضاءِ قياسًا على الظَّهرِ، وكان الظِّهارُ عندَ الجاهليَّةِ طلاقًا، فأرخَصَ اللهُ لهذه الأمَّةِ وجعل فيه كفَّارةً، ولم يَجعَلْه طلاقًا =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾.

أي: ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، لا زَوجاتُهم اللَّاتي ظاهَروا مِنهُنَّ[١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

أي: وإنَّ المُظاهِرينَ مِن نِسائِهم لَيَقولونَ بظِهارِهم هذا قولًا شَنيعًا لا يُعرَفُ في الشَّرعِ، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، ولا وجودَ له في الواقِعِ[٢]!

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ العَفوِ عن ذُنوبِ عِبادِه -فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم بها-،

= كما كانوا يعتَمِدونَه في جاهِلِيَّتِهم. هكذا قال غيرُ واحِدٍ مِنَ السَّلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧).

إذا شَبَّه زَوجتَه بعُضوٍ مِن أعضاءِ أمِّه غيرِ الظَّهرِ، كان ظِهارًا، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ في الجُملةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، على تفصيلٍ عندَهم واختلافٍ في بعضِ الأعضاءِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٥/ ٥٣٥)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٤٢٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٣)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وقوله: ﴿مِنكُم﴾ قيل: خِطابٌ للمؤمنينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٦).

وقيل: الخِطابُ للعربِ خاصَّةً، وكان طلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ. يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٥).

بالِغُ المَغفرةِ لهم فيَمحو عَيْنَها وأثَرَها، ويَسترُها عليهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هَجَّن اللهُ سُبحانَه الظِّهارَ، وأثبَتَ تَحريمَه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وكان ما مَضَت عليه العوائدُ لا بُدَّ أن يبقَى منه بقايا؛ أتْبَعَ ذلك بيانَ حُكمِ هذه الواقِعةِ، وما لعَلَّه يَقَعُ مِن نظائِرِها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾.

أي: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعودونَ لِما قالوا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عمَّا كان منكم في حالِ الجاهليَّةِ، وهكذا أيضًا عمَّا خرج مِن سَبْقِ اللِّسانِ، ولم يَقصِدْ إليه المتكَلِّمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابن عثيمين: (العفوُ هو التَّجاوُزُ عن عبادِه في تركِ الواجبِ وفِعلِ المحرَّمِ، وعفْوُ الله عزَّ وجلَّ عفْوٌ كاملٌ مقرونٌ بالقُدرةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، بخِلافِ عفوِ غيرِه؛ فقد يكونُ للعَجْزِ؛ أي: العجْزِ عن الأخْذِ بالثَّأرِ...

الغفورُ: هو السَّاترُ للذُّنوبِ، المُتجاوِزُ عنها، فإذا أُضيفَ العفوُ إلى المغفرةِ حصَل الكمالُ، وهو أنَّ العفْوَ لتَرْكِ الواجبِ، والمغفرةَ لِفعلِ المحرَّمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨- ٤٦٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٩٢، ١٩٣).

اختلَف أهلُ العِلمِ في تفسيرِ العَودِ المذكورِ؛ على أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بالعَودِ: العزمُ على الوطءِ. وممَّن ذهب إليه: الحنفيَّةُ، والمالكيَّةُ -(وزادوا =

= في قولٍ آخَرَ لهم مع هذا العزم: نِيَّةَ الإمساكِ في العصمةِ)- وهو اختيارُ ابنِ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٦)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٤٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٥١).

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالعَودِ: الوطءُ نفْسُه. وهو مذهبُ الحنابلة، واختاره ابنُ القيِّم. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٤).

الثَّالثُ: أنَّ معناه: أن يُمسِكَها زوجةً بعدَ الظِّهار، معَ القُدرةِ على الطَّلاقِ. وهذا مذهبُ الشَّافعيَّةُ. يُنظر: ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (٨/ ١٨٣)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٣٥٦).

قال الشوكاني: (وقيل: هو الكفَّارةُ، والمعنى: أنَّه لا يَستبيحُ وطْأَها إلَّا بكفَّارة، وبه قال اللَّيثُ ابنُ سعدٍ، ورُوِيَ عن أبي حَنيفةَ. وقيل: هو تكريرُ الظِّهارِ بلَفظِه، وبه قال أهلُ الظَّاهرِ، ورُوِيَ عن بُكَيرِ بنِ الأشَجِّ وأبي العاليةِ والفرَّاءِ، والمعنى: ثمَّ يَعودون إلى قَولِ ما قالوا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابنُ قُتَيْبةَ: (يَتوهَّمُ قَومٌ: أنَّ الظِّهارَ لا يُحسَبُ ولا يقَعُ حتَّى يتكرَّرَ اللَّفظُ به؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾! وقد أجمَع النَّاسُ على أنَّ الظِّهارَ يقعُ بلَفظٍ واحدٍ، فأمَّا تأويلُ قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ فإنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يُطلِّقون بالظِّهارِ؛ فجعَل اللهُ حُكمَ الظِّهارِ في الإسلامِ خِلافَ حُكمِه عندَهم في الجاهليَّةِ؛ وأنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ في الجاهليَّةِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ لما كانوا يَقولونه مِن هذا الكلامِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٥٦، ٤٥٧).

وقال ابن العربي: (إذا عَزَم على خِلافِ ما قال، ورآها خِلافَ الأُمِّ كَفَّر، وعاد إلى أهلِه. وتحقيقُ هذا القولِ أنَّ العزمَ قولٌ نفْسيٌّ، وهذا رجُلٌ قال قولًا يَقتضي التَّحليلَ وهو النِّكاحُ، وقال قولًا يَقتضي التَّحريمَ وهو الظِّهارُ، ثمَّ عاد لِما قال، وهو قولُ التَّحليلِ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يكونَ منه ابتداءَ عقدٍ؛ لأنَّ العقدَ باقٍ، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّه قَولُ عزمٍ يُخالِفُ ما اعتَقَده، وقاله في نفْسِه مِن الظِّهارِ الَّذي أخبَر عنه بقولِه: أنتِ علَيَّ كظهرِ أُمِّي. وإذا كان ذلك كَفَّر، وعادَ إلى أهلِه؛ لقولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، وهذا تفسيرٌ بالغٌ في فَنِّه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٣).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ -واللهُ تعالى أعلَمُ- أنَّ العَودَ له مَبدأٌ ومُنتهى، فمَبدؤُه العزمُ على الوطءِ، ومُنتهاه الوطءُ بالفعلِ، فمَن عزَم على الوطءِ فقد عاد بالنِّيَّةِ؛ فتَلزَمُه الكفَّارةُ لإباحةِ الوطءِ، ومَن وطِئَ بالفعلِ تَحَتَّمَ في حقِّه اللُّزومُ، وخالف بالإقدامِ على الوطءِ قبْلَ التَّكفيرِ). =

﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فعليهم عِتقُ رَقبةٍ كامِلةٍ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجَينِ جِماعٌ(١).

= ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

قال ابن الفَرَس: (وقد اختُلِف في هذه الآيةِ: هل هي على نَظْمِها، أم فيها تقديمٌ وتأخيرٌ؟ فالمشهورُ أنَّه لا تقديمَ فيها ولا تأخيرَ، وهو الصَّحيحُ. وذهب بعضُهم إلى أنَّ فيها تقديمًا وتأخيرًا، وذُكِر عن الأخفَشِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال الواحدي: (قال الأخفشُ: تقديرُ الآيةِ: والَّذين يُظاهِرون مِن نسائِهم، فتحريرُ رقَبةٍ لِما قالوا، ثمَّ يَعودون إلى نسائِهم، أي: فعليهم تحريرُ رقبةٍ لِما نطَقوا به مِن ذلك التَّحريم. والتَّقديمُ والتَّأخيرُ كثيرٌ في التَّنزيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦١). ويُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٣٧).

قال ابن الفَرَس: (وهذا قولٌ ضعيفٌ، يَفسُدُ به نظْمُ الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال أيضًا: (واختُلِف في معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِمَا قَالُواْ﴾؛ فيحتملُ أن يكونَ بمعنَى: في أيِّ فيما قالوا. وقيل: المعنى: مِن أجْلِ ما قالوا. وقال الفرَّاءُ: معناه: عن ما قالوا، قال: والمعنى: ثمَّ يَرجِعون عن ما قالوا ويُريدون الوطءَ. وقيل: هي على بابِها، والمعنى: ثمَّ يَعودون لِقَولِهم، والقولُ بمعنى المَقولِ، فالمعنى: ثمَّ يَعودونَ لِوَطْءِ المَقولِ فيها الظِّهارُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (لا يجوزُ للمُظاهِرِ الوَطءُ قبْلَ التَّكفيرِ، فإنْ جامَعَها قبْلَ التَّكفيرِ أَثِمَ وعَصى، ولا يَسقُطُ عنه التَّكفيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣). ويُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٨٨).

وقال ابنُ هُبَيرةَ: (اختَلَفوا في اشتراطِ الإيمانِ في الرَّقَبةِ الَّتي يُكَفِّرُ بها المُظاهِرُ؛ فقال أبو حَنيفةَ وأحمَدُ في إحدى روايتَيه: ليس بشَرطٍ فيه. وقال مالكٌ والشَّافِعيُّ وأحمدُ في الرِّوايةِ الأُخرى عنه: هو شَرطٌ). ((اختلاف الأئمة العلماء)) (٢/ ١٨٩).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي: فإعتاقُ رقَبةٍ كاملةٍ مِن قبْلِ أن يَتماسَّا، فهاهنا الرَّقَبةُ مُطْلَقةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالإيمانِ، وفي كفَّارةِ القتلِ مُقيَّدةٌ بالإيمانِ؛ فحمَلَ الشَّافعيُّ رحمه الله ما أُطلِقَ هاهنا على ما قُيِّدَ هناك لاتِّحادِ المُوجِبِ، وهو عِتقُ الرَّقَبةِ، واعتضَد في ذلك بما رواه عن مالكٍ بسنَدِه، عن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، في قصَّةِ الجاريةِ السَّوْداءِ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله =

﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

أي: وَجَب عليكم ذلك العِتقُ؛ مَوعِظةً لكم؛ لِتَنتَهوا عن الظِّهارِ، وتَنزَجِروا عن الوُقوعِ فيه ثانيةً[(١)].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ بجَميعِ ما تَعمَلونَه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا يَخفَى عليه شيءٌ، ويُجازي كلَّ عامِلٍ بعمَلِه[(٢)].

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها -إمَّا لعَدَمِ وُجودِها، أو لعَدَمِ القُدرةِ على دَفعِ ثَمَنِها- وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ بلا إفطارٍ بَيْنَهما، مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ[(٣)].

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾.

= عليه وسلَّم قال: «أعتِقْها فإنَّها مؤمنةٌ». وقد رواه أحمدُ في مُسنَدِه [٢٣٧٦٢]، ومسلمٌ في صحيحه [٥٣٧]. ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

قال البِقاعي: (﴿خَبِيرٞ﴾ أي: عالِمٌ بظاهِرِه وباطِنِه، فهو عالِمٌ بما يُكَفِّرُه؛ فافعَلوا ما أمَرَ اللهُ به، وقِفوا عندَ حُدودِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٢-٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

أي: فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ -لِمَرضٍ، أو لغيرِه مِنَ الأعذارِ- وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا[(١)].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: هذا المفروضُ عليكم في كَفَّارةِ الظِّهارِ قد شَرَعْناه لكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ، فتَعمَلوا بحُكمِ اللهِ، وتَنتَهوا عمَّا حرَّم اللهُ[(٢)].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

أي: وتلك الحدودُ الَّتي حدَّها اللهُ لكم، والفُروضُ الَّتي بيَّنها لكم: هي حُدودُ اللهِ؛ فلا تَتعَدَّوها ولا تَنتَهِكوها[(٣)].

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه، التَّارِكينَ العَمَلَ بأحكامِ شَرعِه، والوُقوفَ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

قال السعدي: (﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصِّيامَ ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ إمَّا بأنْ يُطعِمَهم مِن قوتِ بلدِه ما يَكْفيهم، كما هو قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، وإمَّا بأن يُطعِمَ كلَّ مسكينٍ مُدَّ بُرٍّ أو نِصفَ صاعٍ مِن غيرِه ممَّا يجزي في الفِطرة، كما هو قولُ طائفةٍ أخرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

وقال الشوكاني: (الظَّاهرُ مِن الآيةِ أن يُطعِمَهم حتَّى يَشبَعوا مرَّةً واحدةً، أو يَدفَعَ إليهم ما يُشبِعُهم، ولا يَلزَمُه أن يَجمَعَهم مرَّةً واحدةً، بل يجوزُ له أن يُطعِمَ بعضَ السِّتِّينَ في يومٍ، وبعضَهم في يومٍ آخَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

حُدودِه: عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذه الواقِعةُ تدُلُّ على أنَّ مَن انقطَع رَجاؤُه عن الخَلقِ، ولم يَبقَ له في مُهِمِّه أحدٌ سِوى الخالقِ، كفاه اللهُ ذلك المُهِمَّ(٢).

٢- عن ثُمامةَ بنِ حَزْنٍ، قال: (بَيْنَما عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ على حِمارِه لَقِيَتْه امرأةٌ، فقالت: قِفْ يا عُمَرُ، فوقف، فأغلَظَت له القَولَ، فقال رجُلٌ: يا أميرَ المؤمِنينَ، ما رأيتُ كاليَومِ! فقال: وما يَمنَعُني أن أستَمِعَ إليها وهي الَّتي استَمَع اللهُ لها؟! أنزَلَ فيها ما نزَل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾)(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن قَولِ الإنسانِ ما لا يُرضي ربَّه عزَّ وجلَّ، وأنَّه مهما أخفى القولَ فإنَّ اللهَ تعالى يَسمَعُه؛ قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٤) [الزخرف: ٨٠].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه بيانُ لُطفِ اللهِ تعالى بعِبادِه، واعتنائِه بهم؛ حيثُ ذكَرَ شَكوى هذه المرأةِ المُصابةِ، وأزالها ورفَعَ عنها البَلوَى، بل رفَع البلوى بحُكمِه العامِّ لكُلِّ مَنِ ابتُلِيَ بمِثلِ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ في ((التاريخ الكبير)) (٧/ ٢٤٥)، وابنُ مَرْدويه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

القَضيَّةِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ افتُتِحَت آياتُ أحكامِ الظِّهارِ بذِكرِ سَبَبِ نُزولِها؛ تنويهًا بالمرأةِ الَّتي وجَّهَت شَكواها إلى اللهِ تعالى، بأنَّها لم تُقَصِّرْ في طَلَبِ العَدلِ في حَقِّها وحَقِّ بَنيها، ولم تَرضَ بفِعلِ زَوجِها، وابتِدارِه إلى ما يَنثُرُ عِقْدَ عائلتِه، وتعليمًا لنِساءِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ورِجالِها واجِبَ الذَّودِ عن مَصالِحِها[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ ترغيبٌ في التَّوبةِ ودعوةٌ إليها، فمِن صفاتِه تعالى أنْ يَترُكَ عِقابَ مَن شاء، ومِن صفاتِه أنْ يَمحوَ عينَ الذَّنْبِ وأثَرَه حتَّى إنَّه كما لا يعاقبُ عليه لا يُعاتِبُ؛ فهل مِن تائبٍ طلبًا للعفوِ عن الزَّلَلِ، والإصلاحِ لما كان مِن خلَلٍ[٣]؟

٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّ التِزامَ أحكامِ اللهِ والعَمَلَ بها: مِنَ الإيمانِ، بل هي المقصودةُ، ومِمَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويَكمُلُ ويَنمو[٤].

٨- جعَلَ الله تعالى الصِّيامَ معادِلًا لتحريرِ الرَّقَبةِ في ثلاثةِ أحكامٍ مِن كتابِه؛ إذ جعَلَ على مَن قتَلَ مؤمنًا خطأً: تحريرَ رقبةٍ مؤمنةٍ، وديةً مسلَّمةً إلى أهلِه ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]. وجعَلَ على الذين يُظاهِرونَ مِن نسائِهم ثمَّ يَعودونَ لما قالوا تحريرَ رقبةٍ مِن قبلِ أنْ يتماسَّا ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. وجعَلَ كفَّارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

اليمينِ تحريرَ رقبةٍ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، فانظُرْ لم كتَبَ اللهُ على مَن ارتكَب شيئًا مِن هذه الخطايا الثلاثَ: أنْ يُحرِّرَ رقبةً مؤمنةً مِن رقِّ الاستعبادِ، فإنْ لم يجِدْها فعليه أنْ يعمَلَ على تحريرِ نفسِه مِن رقِّ مطالبِ الحياةِ، ورقِّ ضروراتِ البدنِ، ورقِّ شهواتِ النَّفسِ، فالصيامُ هو عتقُ النَّفسِ الإنسانيةِ مِن كلِّ رقٍّ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: أوجَبْنا ذلك لِيتحَقَّقَ لكم الإيمانُ؛ فإنَّه كُلَّما كان الإنسانُ مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ مع المشَقَّةِ ازداد إيمانُه ورَغبتُه فيما عندَ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا الكلامَ كان بعدَ وُقوعِ الحادثةِ، وأنَّ اللهَ تكلَّمَ بالقرآنِ حديثًا[٣]؛ فإنَّ «قد» للتَّحقيقِ، و«سَمِعَ» فعلٌ ماضٍ يَقتضي أنْ يكونَ المسموعُ سابقًا للخَبَرِ عنه، وأنَّ الخَبَرَ عنه لاحِقٌ، ومعلومٌ أنَّ المرأةَ إنَّما شَكَتْ إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أمرٍ حادثٍ[٤]؛ فالكلامُ صِفةٌ فعليَّةٌ باعتبارِ آحادِه، لكن باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ، لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا، لكنَّه يَتكلَّمُ بما شاء متى شاء[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامِها به[٦].

(١) يُنظر: ((جمهرة مقالات محمود شاكر)) (٢/ ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ إثباتُ صِفةِ السَّمعِ للرَّبِّ تعالى حقيقةً، وأنَّه بنَفْسِه سَمِعَ[1]، وأنَّه يَسْمَعُ الأصواتَ مهما بَعُدَتْ ومهما خَفِيَتْ[2]، والآيةُ الكريمةُ أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفةِ السَّمْعِ؛ فقد ذَكَر الماضيَ والمُضارِعَ واسمَ الفاعلِ؛ فقال: «سَمِعَ»، و«يَسْمَعُ»، وهو «سميعٌ»، وله السَّمْعُ[3]. فنؤمنُ بأنَّ مِن أسماءِ الله تعالى السَّميعَ، وأنَّه دالٌّ على صِفةِ السَّمعِ، وأنَّ لهذا السَّمعِ حُكمًا وأثَرًا وهو أنَّه يَسمَعُ به[4]، وأنَّ سَمْعَ الله يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، كما في هذه الآيةِ -وهو مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ-، وسمعِ استِجابةٍ، وهو مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، كما في قولِه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مُجيبُ الدُّعاءِ[5].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

قال ابن عثيمين: (سمْعُ الإدراكِ قد يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، وقد يُرادُ به التَّهديدُ، وقد يُرادُ به التَّأييدُ، فهذه ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، مِثلُ هذه الآيةِ [﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾].

الثَّاني: يُرادُ به التَّهديدُ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وانظُرْ كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ حينَ وصَفوا اللهَ تعالى بالنَّقصِ، قبْلَ أن يقولَ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ وصْفَ الله بالنَّقصِ أعظَمُ مِن قتلِ الأنبياءِ.

الثَّالثُ: سمْعٌ يُرادُ به التَّأييدُ، ومنه قولُه تبارك وتعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالمرادُ بالسَّمعِ هنا التَّأييدُ، يعني: أسمَعُك وأؤيِّدُك، يعني: أسمعُ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ دَلالةٌ على القاعدةِ المُقَرَّرة: أنَّ «العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ»؛ فالسَّبَبُ خاصٌّ، ولكنَّ الحُكْمَ عامٌّ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ والمُتعارَفُ في صِيغةِ الظِّهارِ أنْ تَشتمِلَ على ما يدُلُّ على الزَّوجةِ والظَّهرِ والأُمِّ، ولم يُشِرِ القرآنُ إلى اسمِ الظَّهرِ ولا إلى اسمِ الأُمِّ إلَّا مُراعاةً للصِّيغةِ المُتعارَفةِ بيْن النَّاسِ يومَئذٍ، بحيث لا يَنتقِلُ الحُكْمُ مِن الظِّهارِ إلى صِيغةِ الطَّلاقِ إلَّا إذا تَجرَّدَ عن تلك الكلماتِ الثَّلاثِ تَجرُّدًا واضحًا[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ استدَلَّ به مَن قال: لا حُكمَ لظِهارِ الزَّوجةِ مِن زَوجِها؛ لأنَّه تعالى خَصَّ الظِّهارَ بالرَّجُلِ[٣]، فالمرأةُ إنْ قالتْه لزَوجِها فليس بظِهارٍ، فكما أنَّها لا تُطَلِّقُ نفْسَها؛ فلا تُظاهِرُ من زوجِها[٤].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ استدَلَّ مالكٌ بقَولِه: ﴿مِنكُم﴾ أنَّ الكافرَ لا يَدخُلُ في هذا الحُكمِ[٥]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنكُم﴾ كنايةٌ عن

= ما تَقولانِ، وما يُقالُ لكما). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٣).

وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعة. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٥/ ٥٤١)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ، والمالكيَّة، وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٢)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((المبدع شرح المقنع)) لابن مفلح (٨/ ٣٢). =

المُسلِمينَ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، والكافِرُ غيرُ جائزِ المغفِرةِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ بِناءٌ على الأوَّلِ(١).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ فيه أنَّه لا يَصِحُّ الظِّهارُ مِن امْرأةٍ قبْلَ أن يَتزَوَّجها؛ لأنَّها لا تَدخُلُ في نِسائِه وقْتَ الظِّهارِ، كما لا يَصِحُّ طَلاقُها، سواءٌ نَجز ذلك أو عَلَّقَه(٢)، فالظِّهارُ خاصٌّ للزَّوجاتِ، دون الأجنبيَّاتِ(٣).

٩- قول الله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ الآيةِ يقتضي أنَّه لا أمَّ إلَّا الوالِدةُ، وهذا مُشكِلٌ؛ لأنَّه قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولا يمكِنُ أن يُدفَعَ هذا السُّؤالُ بأنَّ المَعنيَّ مِن كَونِ المرضِعةِ أُمًّا، وزَوجةِ

= قال الشنقيطي: (لأنَّ الظِّهارَ منكَرٌ مِن القولِ وَزُورٌ يُكَفِّرُه اللهُ بالعِتقِ، أو الصَّومِ، أو الإطعامِ، ... والكافرُ لا يُكَفِّرُ عنه العِتقُ أو الصَّومُ أو الإطعامُ ما ارْتَكَبه مِن المُنكَرِ والزُّورِ لكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ سَيِّئةٌ لا تَنفَعُ معها حسَنةٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٠).

قال الجَصَّاصُ: (وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وذلك خِطابٌ للمؤمنينَ يدُلُّ على أنَّ الظِّهارَ مخصوصٌ به المؤمنونَ دونَ أهلِ الذِّمَّةِ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ ولم يَخصُصِ المَذكورينَ في الثَّانيةِ؟ قيل له: المَذكورونَ في الآيةِ الثَّانيةِ هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى؛ فوجب أن يكونَ خاصًّا في المُسلمينَ دونَ غيرِهم). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٠٢). ويُنظر ما أُجيبَ به عن ذلك في: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والظَّاهريَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٦٦)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ١٩٩)، ((الفروع)) لابن مفلح (٩/ ١٨٢).

الرَّسولِ أُمًّا: حُرمةُ النِّكاحِ، وذلك لأنَّا نقولُ: إنَّ بهذا الطَّريقِ ظَهَر أنَّه لا يلزَمُ مِن عدَمِ الأُمومةِ الحقيقيَّةِ عَدَمُ الحُرمةِ، فإذَنْ لا يلزَمُ مِن عَدَمِ كَونِ الزَّوجةِ أُمًّا عَدَمُ الحُرمةِ، وظاهِرُ الآيةِ يُوهِمُ أنَّه تعالى استدَلَّ بعَدَمِ الأمومةِ على عدَمِ الحُرمةِ، وحينَئذٍ يتوَجَّهُ السُّؤالُ؟

الجوابُ: أنَّه ليس المرادُ مِن ظاهِرِ الآيةِ ما ذُكِرَ في السُّؤالِ، بل تقديرُ الآيةِ كأنَّه قيل: الزَّوجةُ ليست بأمٍّ حتَّى تَحصُلَ الحُرمةُ بسَبَبِ الأُمومةِ، ولم يَرِدِ الشَّرعُ بجَعْلِ هذا اللَّفظِ سَبَبًا لوُقوعِ الحُرمةِ حتَّى تحصُلَ الحُرمةُ، فإذَنْ لا تحصُلُ الحُرمةُ هناك البتَّةَ، فكان وصْفُهم لها بالحُرمةِ كَذِبًا وزُورًا(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وكذا في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤] سؤالٌ: وهو أنَّ المتظاهِرَ ما قال: إنَّ زوجتَه أُمُّه، لكِنَّه شَبَّهَها بها، وهو لَمْ يَقُلْ: «ما هُنَّ مِثْلَ أُمَّهاتِهم»؛ بل قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾!

والجواب: أنَّ المُتظاهِرَ مقصودُه تحريمُ الوطءِ، وقولُه «أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي» معناه: وَطْؤُكِ مِثْلُ وَطْءِ أمِّي، فمقصودُه تشبيهُ الوطءِ بالوطءِ؛ وأنْ يكونَ وَطْؤُها مِثلَ وَطْءِ أُمِّه، وذلك يقتضي أنْ تكونَ حرامًا، ووَطْؤُها لا يكونُ مِثْلَ وَطْءِ أُمِّه إلَّا إذا كانت مِن جِنْسِ أُمِّه، وإلَّا فإذا تبايَنَتِ الحقائقُ تباينتْ أحكامُها، فكان مُوجَبُ قولِهم أنْ تكونَ الأزواجُ مِن جنسِ الأمَّهاتِ، كما تكونُ أُمُّ الأبِ والأمِّ مِن جنسِ الأمِّ في التَّحريمِ والمَحْرَميَّةِ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذا الجِنسَ ما هو هذا الجِنسُ، بل جنسٌ آخَرُ، فقال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٢).

﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، وهم لَمْ يكونوا يَقولونَ: هو مولودٌ منه، بل جَعلوه مِن جنسِ المولودِ، فجَعلوا حُكْمَه حُكْمَ المولودِ منه الَّذي هو الابنُ، فقال تعالى: هذا ما هو مِن جِنْسِ الابنِ، فلا يكونُ حالُه حالَه(١).

وأمَّا قولُه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ فالجوابُ عنه أنَّ الكَذِبَ إنَّما لزِمَ لأنَّ قولَه: (أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي) إمَّا أنْ يَجعَلَه إخبارًا أو إنشاءً، وعلى التَّقديرِ الأوَّلِ: أنَّه كَذِبٌ؛ لأنَّ الزَّوجةَ مُحلَّلةٌ والأمَّ مُحرَّمةٌ، وتشبيهُ المحلَّلةِ بالمحَرَّمةِ في وَصفِ الحِلِّ والحُرمةِ كَذِبٌ، وإنْ جعَلْناه إنشاءً(٢) كان ذلك أيضًا كَذِبًا؛ لأنَّ كونَه إنشاءً معناه: أنَّ الشَّرعَ جعَلَه سَببًا في حُصولِ الحُرمةِ، فلمَّا لم يَرِدِ الشَّرعُ بهذا التَّشبيهِ كان جَعْلُه إنشاءً في وُقوعِ هذا الحُكمِ يكونُ كَذِبًا وزُورًا(٣).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وذِكْرُ الآياتِ لمَن ظاهَرَ بأُمِّه فهذا بِناءً على أنَّه الغالبُ: أنَّ الإنسانَ يُظاهِرُ بأُمِّه، لكنْ لو قال الإنسانُ: «أنتِ علَيَّ كظَهرِ أختي» أو: «كظَهرِ عَمَّتي» فهو كقَولِه: «كظَهرِ أُمِّي»؛ لأنَّه لا فَرْقَ، والضَّابطُ في هذا: أنْ يُشَبِّهَ زوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه تَحريمًا مؤَبَّدًا(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ تأكيدُ ميراثِ وَلَدِ الملاعَنةِ، ووَلَدِ الزِّنا؛ لشُمولِ اسمِ الأُمومةِ لِمَن وُلِدَ بهما، وهو نظيرُ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٩٣).

(٢) أي: إنشاء الزَّوجِ حُكمًا، وهو تحريمُ زوجتِه، بتنزيلِها مَنزِلةَ الأمِّ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

ويُعَدُّ مظاهِرًا مَن شبَّه زوجتَه بمَن تحرُمُ عليه تحريمًا مؤبَّدًا، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلةِ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾[١] [النجم: ٣٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ أنَّ الظِّهارَ حرامٌ[٢] لا يجوزُ الإقدامُ عليه؛ لأنَّه -كما أخْبَرَ اللهُ عنه- مُنكَرٌ مِن القَولِ وزُورٌ، وكِلاهما حرامٌ، والفرقُ بيْنَ جِهةِ كَونِه مُنكَرًا وجِهةِ كَونِه زُورًا: أنَّ قولَه: «أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي» يتضمَّنُ إخبارَه عنها بذلك، وإنشاءَه تحريمَها، فهو يتضمَّنُ إخبارًا وإنشاءً، فهو خَبَرٌ زورٌ، وإنشاءٌ مُنكَرٌ؛ فإنَّ الزُّورَ هو الباطلُ، خِلافُ الحقِّ الثَّابتِ، والمُنكَرُ خِلافُ المعروفِ، وخَتَم سُبحانَه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾، وفيه إشعارٌ بقيامِ سَبَبِ الإثمِ الَّذي لولا عَفوُ اللهِ ومَغفِرتُه لآخَذَ به[٣].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا﴾ فيه أنَّه يُكرَهُ للرَّجُلِ أن يُناديَ زوجتَه ويُسَمِّيَها باسمِ مَحارِمِه، كقَولِه: (يا أُمِّي) (يا أُختي)

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٧).

وولدُ الملاعنةِ وأمُّه يتوارثانِ تَوارُثَ سائرِ الأولادِ والأمَّهاتِ، وذكرَ ابُن قُدامةَ أنَّه لا يعلمُ خِلافًا في أنَّ أمَّ ولدِ المُلاعَنةِ تَرِثُ هذا الولدَ، ويرِثُ ذَوو الفروضِ منه فروضَهم. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٦/ ٣٤٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٦/ ٤٣).

واتَّفق الفقهاءُ على استِحقاقِ ولدِ الزِّنا الإرثَ مِن أمِّه وأقاربِها، وعلى أنَّهم يَرِثونه أيضًا بالفرضِ والتَّعصيبِ، وعصَبَتُه عصَبةُ أمِّه. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٨/ ٣٣٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٥/ ٢٢٣).

(٢) قال برهانُ الدِّينِ ابنُ مُفلِحٍ: (وهو محرَّمٌ إجماعًا، حكاه ابنُ المُنذِرِ). ((المبدع)) (٧/ ٣).

ومِن أهلِ العِلمِ مَن جعَل الظِّهارَ كبيرةً مِن الكبائرِ، قال الهَيْتَميُّ: (الظِّهار كبيرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سمَّاه زُورًا، والزُّورُ كبيرةٌ... ويُوافِقُ ذلك ما نُقِل عن ابنِ عبَّاسٍ مِن أنَّ الظِّهارَ مِن الكبائرِ). ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (٢/ ٨٥). ويُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

ومنهم مَن لم يَعُدَّه مِن الكبائرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٦).

ونحوَه؛ لأنَّ ذلك يُشبِهُ المحرَّمَ[١].

١٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أومَأ قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ إلى أنَّ مُرادَ اللهِ مِن هذا الحُكمِ التَّوسِعةُ على النَّاسِ، فعَلِمْنا أنَّ مَقصَدَ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ أن تدورَ أحكامُ الظِّهارِ على مِحوَرِ التَّخفيفِ والتَّوسِعةِ، فعلى هذا الاعتبارِ يَجِبُ أن يَجريَ الفُقَهاءُ فيما يُفتُونَ؛ ولذلك لا ينبغي أن تلاحَظَ فيه قاعِدةُ الأخذِ بالأحوَطِ، ولا قاعِدةُ سَدِّ الذَّريعةِ، بل يجبُ أن نسيرَ وَراءَ ما أضاء لنا قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّحريمَ لا يكونُ طَلاقًا؛ إذْ لو كان الحرامُ طَلاقًا بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ما جاز وَطْءُ المُظاهَرِ منها بعدَ الكَفَّارةِ؛ لأنَّ الطَّلاقَ حَلٌّ لا تَعقِدُه الكَفَّارةُ، والبَيْنونةُ لا تَعودُ وَصْلًا بها، والمُحَرَّمةُ بالظِّهارِ إنْ لم تكُنْ أغلَظَ تحريمًا مِن المُحَرَّمةِ بغيرِ الظِّهارِ فهي مِثلُها[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ إبطالُ ما كانوا عليه في الجاهِليَّةِ وفي صَدرِ الإسلامِ مِن كَونِ الظِّهارِ طَلاقًا، ولو

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٨).

يُنظر للخِلافِ في حُكمِ ما إذا قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ حرام: ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠).

وقال ابنُ قُدامةَ: (وأكثرُ الفُقهاءِ على أنَّ التَّحريمَ إذا لم يَنوِ به الظِّهارَ، ليس بظِهارٍ، وهو قولُ مالكٍ، وأبي حنيفةَ، والشَّافعيِّ). ((المغني)) (٨/ ٨).

صَرَّح بنِيَّتِه له، فقال: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، أعني به الطَّلاقَ؛ لم يكُنْ طَلاقًا، وكان ظِهارًا، وهذا بالاتِّفاقِ، إلَّا ما عَساه مِن خِلافٍ شاذٍّ؛ وهذا لأنَّ الظِّهارَ كان طَلاقًا في الجاهِليَّةِ فنُسِخَ، فلم يَجُزْ أنْ يُعادَ إلى الحُكْمِ المنسوخِ[١].

١٨- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّ الكفَّارةَ إنَّما تجِبُ بالعَودِ لِما قال المُظاهِرُ، لا بمُجَرَّدِ الظِّهارِ[٢]، وفيه ردٌّ على مَن أوجَبَ الكَفَّارةَ بمُجَرَّدِ لَفظِ الظِّهارِ، ولم يَعتَبِرِ العَودَ[٣].

١٩- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لعَلَّ الحِكمةَ في وُجوبِ الكَفَّارةِ قبْلَ المَسيسِ: أنَّ ذلك أدعَى لإخراجِها؛ فإنَّه إذا اشتاقَ إلى الجِماعِ، وعَلِمَ أنَّه لا يُمكَّنُ مِن ذلك إلَّا بعْدَ الكَفَّارةِ، بادَرَ لإخراجِها[٤]. أو لأنَّ ذلك أبلغُ في النِّكايةِ.

٢٠- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّه يُجزِئُ في كَفَّارةِ الرَّقَبةِ الصَّغيرُ والكَبيرُ، والذَّكَرُ والأُنثى؛ لإطلاقِ الآيةِ في ذلك[٥].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ استدَلَّ به مَن قال بإباحةِ الاستِمتاعاتِ بالمُظاهَرِ منها، بِناءً على عَدَمِ دُخولِها في لَفظِ المُماسَّةِ[٦]، وعلى هذا فيَجوزُ

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤٣).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ في الأظهَرِ، وقولٌ للمالكيَّةِ، وروايةٌ عن أحمدَ، واختاره ابنُ عثيمين. =

له أنْ يُقَبِّلَها ويَضُمَّها، ويَخلُوَ بها، ويُكَرِّرَ نَظَرَه إليها، إلَّا إذا كان لا يأمَنُ على نَفْسِه، فحينَئذٍ تكونُ له فَتوى خاصَّةٌ بالمَنعِ، وإلَّا فالأصلُ الجوازُ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى حَرَّمَ التَّمَاسَّ وهو الجِماعُ، فأباح ما سِواه بالمفهومِ، لكنْ لو كان الرَّجُلُ يَعلَمُ مِن نفْسِه -لقُوَّةِ شَهوتِه- أنَّه لو فَعَل هذه المقَدِّماتِ لَجامَعَ، فحينَئذٍ نَمنَعُه، ونَظيرُه الصَّائِمُ يَحرُمُ أنْ يُجامِعَ، ويجوزُ أنْ يُباشِرَ، والحائِضُ يَحرُمُ وَطْؤُها، وتجوزُ مُباشَرتُها، فالمُهِمُّ أنَّه ليس هناك دليلٌ أنَّه متى حُرِّمَ الجِماعُ في عبادةٍ حُرِّمَ دواعيه[1].

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يدُلُّ على إيجابِ الكَفَّارةِ قبْلَ المُماسَّةِ؛ فإنْ جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم يَجِبْ عليه إلَّا كَفَّارةٌ واحِدةٌ، وهو قَولُ أكثَرِ أهلِ العِلمِ[2].

= يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٩)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٩).

وذلك خلافًا للجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغيناني (٤/ ٣٧٤)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤).

قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ: عدمُ جوازِ الاستِمتاعِ بوطءٍ أو غيرِه قبْلَ التَّكفيرِ؛ لعمومِ قولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٥).

نقل ابنُ قُدامةَ أنَّه لا اختلافَ أنَّ المُظاهِرَ يَحرُمُ عليه وَطءُ امرأتِه قبْلَ أن يُكَفِّرَ، إذا كانت الكفَّارةُ عِتقًا أو صَومًا. يُنظر: ((المغني)) (٨/ ١١).

أمَّا إذا كانت الكفَّارةُ إطعامًا فيَحرُمُ على المُظاهِرِ الوَطءُ أيضًا قبْلَ أدائِها باتِّفاقِ المذاهبِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٣)، ((مواهب الجليل)) للحطَّاب (٥/ ٤٣٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٨)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ١٤٨). =

٢٣- القَيدُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لم يَذْكُرْه سُبحانَه في الإطعامِ؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، كما أنَّه لم يَقُلْ في الصِّيام: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، ولكِنْ ذَكَرَ التَّماسَّ في الصِّيام ولم يَكْتَفِ بذِكْرِه في العِتْقِ؛ لأنَّ في الصِّيامِ يصومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ قبْلَ التَّمَاسِّ، فيَتأخَّرُ التَّماسُّ هذه المدَّةَ الطَّويلةَ، فلو لم يَذْكُرْه لَظَنَّ الظَّانُّ أنَّه في العِتْقِ وَجَبَ التَّقديمُ؛ لأنَّ الزَّمانَ يَسيرٌ، فيُمكِنُه أنْ يُعتِقَ ثُمَّ يَطَأَ تلك اللَّيلةَ، وأمَّا الصِّيامُ فيَتأخَّرُ الوَطْءُ شَهرينِ مُتتابِعَينِ، وفي هذا مَشَقَّةٌ عَظيمةٌ، فلا يُفهَمُ هذا مِن مجرَّدِ تَقييدِه في العِتْقِ؛ فلهذا أُعِيدَ ذلك في الصِّيامِ، وأمَّا الإطعامُ فمعلومٌ أنَّه دونَ الإعتاقِ ودونَ الصِّيامِ، وقد جُعِلَ بَدَلًا عنه، فإذا كانتِ الكَفَّارةُ المتقدِّمةُ الفاضِلةُ يجبُ عليه أنْ يُقدِّمَها على الوَطْءِ، والمرأةُ مُحَرَّمةٌ قبْلَ التَّكفيرِ، فلَأَنْ تكونَ الكفَّارةُ المؤخَّرةُ المفضولةُ كذلك بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الظِّهارَ أَوْجَبَ تحريمَها إلى التَّكفيرِ بالكَفَّارةِ المقَدَّمةِ؛ فكيف يُبيحُها قبْلَ التَّكفيرِ إذا كَفَّرَ بالكَفَّارةِ المفضولةِ المؤخَّرةِ؟! هذا ممَّا يُعْلَمُ مِن تنبيهِ الخِطابِ وفَحواه[1] أنَّ الشَّارعَ لا يَشْرَعُ مِثلَه، فكان إعادةُ ذِكْرِه ممَّا لا

= وقال ابنُ قُدامةَ: (وذهبَ أبو ثورٍ إلى إباحةِ الجِماعِ قبْلَ التَّكفيرِ بالإطعامِ. وعن أحمدَ ما يَقتضي ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَمنَعِ المَسيسَ قبْلَه، كما في العِتقِ والصِّيامِ). ((المغني)) (٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

ومَن جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم تَلزَمْه إلَّا كفَّارةٌ واحِدةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: يُنظر: ((مختصر القُدُوري)) (ص: ١٦٥)، ((شرح الزرقاني على مختصر خليل)) (٤/ ٢٩٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٩).

(١) فَحوى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، وهو نَوعانِ: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثرِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قولِ أفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقَلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

يَليقُ ببلاغةِ القرآنِ وفصاحتِه وحُسْنِ بيانِه، بل نَفْسُ تحريمِها قبْلَ صيامِ الشَّهرينِ -وهو الأصلُ المُبْدَلُ منه- يُوْجِبُ تحريمَها قبْلَ البَدَلِ -وهو الإطعامُ- بطَريقِ الأَولى، وتقديمُ الإطعامِ على التَّماسِّ أسهَلُ مِن تقديمِ الصِّيامِ، وهو في الإعتاقِ قال: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ولم يَقُلْ مِثلَ ذلك في الصِّيامِ والإطعامِ، وقد عُلِمَ أنَّهما كذلك، وأنَّهم يُوعَظونَ بالصِّيامِ والإطعامِ كما يُوعَظونَ بالإعتاقِ[(١)].

٢٤- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الحُكمِ المذكورِ، أي: تُزْجَرون به عن ارتكابِ المنكَرِ المذكورِ؛ فإنَّ الغَراماتِ مَزاجِرُ عن تَعاطي الجناياتِ، والمرادُ بذِكرِه بَيانُ أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ هذا الحُكمِ ليس تَعويضَكم للثَّوابِ بمُباشرتِكُم لتَحريرِ الرَّقَبةِ الَّذي هو عَلَمٌ في استِتباعِ الثَّوابِ العظيمِ، بلْ هو رَدْعُكم وزجْرُكم عن مُباشَرةِ ما يُوجِبُه[(٢)].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينٗا﴾ فيه أنَّ الكَفَّارةَ مُرَتَّبةٌ: العِتقُ، ثمَّ صَومُ شَهرَينِ مُتتابِعينِ، ثمَّ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٤٠٩).

قال البِقاعي: (حُذِفَ قَيدُ المُماسَّةِ لذِكْرِه في الأوَّلَينِ، ولَعلَّ الحِكمةَ في تخصيصِ هذا به أنَّ ذِكرَه في أوَّلِ الخِصالِ لا بُدَّ منه، وإعادتَه في الثَّاني لطُولِ مُدَّته؛ فالصَّبرُ فيها عنه فيه مَشقَّةٌ، وهذا يمكِنُ أن يُفعَلَ في لحظةٍ لَطيفةٍ لا مَشَقَّةَ للصَّبرِ فيها عن المُماسَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وممَّن نقل الإجماعَ على أنَّ الكفَّارةَ على التَّرتيبِ: ابنُ رُشْد، والرَّمْليُّ، والصَّنْعانيُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١١١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٣/ ٢٠٤)، ((سبل السلام)) =

٢٦- قولُه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ فيه تشوُّفُ الشَّارعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقاقَ، فيُقالُ: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[١].

٢٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّتابُعَ شَرطٌ[٢]، فيجبُ ألَّا يُفطِرَ بَيْنَهما إلَّا لعُذرٍ كالسَّفَرِ والمرَضِ، فإنْ لَمْ يُتابِعْ -بأنْ أَفْطَرَ يومًا في أثناءِ الشَّهرَينِ بدُونِ عُذرٍ- فعليه أنْ يَستَأنِفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى اشترَطَ أنْ يكونَ الشَّهرانِ مُتتابِعَينِ، فلا بُدَّ أنْ يَستَأنِفَ[٣].

= للصنعاني (٣/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٧).

نقَل ابنُ قُدامةَ الإجماعَ على وُجوبِ التَّتابُعِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

قال ابن عاشور: (ولا يَمَسُّ امرأتَه حتَّى يَتِمَّ الشَّهرانِ مُتتابعَينِ، فإنْ مسَّها في خلالِ الشَّهرينِ أثِم، ووجَب عليه إعادةُ الشَّهرينِ. وقال الشَّافعيُّ: إذا كان الوطءُ لَيلًا لم يَبطُلِ التَّتابُعُ؛ لأنَّ اللَّيلَ ليس محلًّا للصَّومِ، وهذا هو الجاري على القياسِ، وعلى مقتضى حديثِ سَلَمةَ بنِ صخرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ المُظاهِرَ إذا وطِئَ مَن ظاهَرَ منها في النَّهارِ عامدًا، فإنَّ فِعلَه هذا يَقطَعُ التَّتابُعَ.

واختلَفوا فيما إذا وَطِئها في اللَّيلِ عامدًا أو ناسيًا، أو وطِئها في النَّهارِ ناسيًا؛ فذهب أبو حنيفةَ ومحمَّدٌ إلى أنَّ المُظاهِرَ إذا جامَع الَّتي ظاهَر منها باللَّيلِ عامدًا أو بالنَّهارِ ناسيًا، فإنَّ ذلك يَقطَعُ التَّتابُعَ. وقال أبو يوسفَ: إنَّ التَّتابُعَ لا يُقطَعُ بذلك.

وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ وطْءَ المُظاهَرِ منها يَقطَعُ التَّتابُعَ مطلقًا؛ سواءٌ أكان باللَّيلِ أم بالنَّهارِ، وسواءٌ أكان عالِمًا أو ناسيًا أم جاهلًا أم غالطًا، أو بعُذرٍ يُبيحُ الفِطرَ كسَفَرٍ.

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّ وطْأَه باللَّيلِ لا يَقطعُ التَّتابُعَ، ويُعتبَرُ عاصيًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١). =

٢٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أُعيدَ قَيدُ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يكونُ المَسُّ إلَّا بعْدَ انقِضاءِ الصِّيامِ، فلا يُظَنُّ أنَّ مجَرَّدَ شُروعِه في الصِّيامِ كافٍ في العَودِ إلى الاستِمتاعِ(١).

= ونقَل ابنُ المُنذِرِ وابنُ قُدامةَ الإجماعَ على أنَّ مَن صام بعضَ الشَّهرَينِ، ثمَّ قَطَعَه مِن غيرِ عُذرٍ: أنَّ عليه أن يَستأنِفَ الشَّهرَينِ. ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

وقال ابن عطيَّة: (ولا خِلافَ أحفَظُه مِن أهلِ العِلمِ أنَّ الصَّائمَ في الظِّهارِ إنْ أفسَدَ التَّتابُعَ باختياره أنَّه يَبتَدِئُ صَومَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكر الخِلافَ في قطع تَتابُعِ الصَّومِ لِعُذرٍ كمرَضٍ ونحوِه، وأنَّ مِن أهلِ العِلمِ مَن قال: إن كان قطعُ التَّتابُعِ لعُذرٍ، فإنَّه لا يَقطَعُ حُكمَ التَّتابُعِ، وله أن يَبنيَ على ما صام قبْلَ حُصولِ العُذرِ. ومنهم مَن قال: يَنقطِعُ التَّتابُعُ؛ لأنَّه أفطَرَ بِفعلِه، فلَزِمَه الاستئنافُ.

قال: (الأظهَرُ عندي في هذا الفرعِ أنَّ قطْعَ تَتابُعِ صَومِ كفَّارةِ الظِّهارِ بالإفطارِ في أثناءِ الشَّهرَينِ إن كان لسببٍ لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عنه، كالمرضِ الشَّديدِ الَّذي لا يَقدِرُ معه على الصَّومِ: أنَّه يُعذَرُ في ذلك، ولا يَنقطِعُ حُكمُ التَّتابُعِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عن ذلك، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقولُ: «إذا أَمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم» [البخاري «٧٢٨٨» ومسلم «١٣٣٧»]، وإن كان يُمكِنُه التَّحرُّزُ عن الإفطارِ الَّذي قطَع به التَّتابُعَ كالإفطارِ للسَّفرِ في أثناءِ صَومِ الكفَّارةِ، وكما لو كان ابتِداءُ صَومِه الكفَّارةَ من شعبانَ؛ لأنَّ شَهرَه الثَّانيَ رمضانُ، وهو لا يُمكِنُ صَومُه عن الكفَّارةِ، وكما لو ابتدَأ الصَّومَ في مدَّةٍ يَدخُلُ فيها يومُ النَّحرِ أو يومُ الفِطرِ أو أيَّامُ التَّشريقِ: فإنَّ التَّتابُعَ يَنقطِعُ بذلك؛ لأنَّه قادرٌ على التَّحرُّزِ عن قَطعِه بما ذُكِر؛ لقُدرته على تأخيرِ السَّفرِ عن الصَّوم كعَكسِه، ولقُدرته أيضًا على الصَّومِ في مدَّةٍ لا يَتخلَّلُها رمضانُ، ولا العيدانِ، ولا أيَّامُ التَّشريقِ، كما لا يَخفى. وإذا قطَع التَّتابُعَ بإفطارٍ هو قادرٌ على التَّحرُّزِ عنه بما ذُكِر، فكَونُه يَستأنِفُ صَومَ الشَّهرَينِ مِن جديدٍ ظاهِرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، وقد ترَكَ التَّتابُعَ مع قُدرتِه عليه. هذا هو الأظهَرُ عندَنا، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢١، ٢٢١). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٧)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ ثمَّ قَولِه: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّ عَدْلَ الصِّيامِ مِنَ الصَّدَقةِ أنْ يُطْعِمَ عن كلِّ يومٍ مِسكينًا، وكقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ وذلك لأنَّ طَعامَ يومٍ كصَومِ يومٍ[(١)].

٣٠- قال تعالى: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، والشَّهرانِ هما الهِلالانِ، وليس السِّتينَ يَومًا، فلو قُدِّرَ أنَّ الشَّهرَ الأوَّلَ ناقِصٌ والثَّاني ناقِصٌ، فستكونُ الأيامُ ثمانيةً وخمسينَ يومًا، ولا حَرَجَ؛ لأنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: «ستِّينَ يومًا»، إنَّما قال: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾[(٢)].

وجائِزٌ أن يَصومَهما الرَّجُلُ بالعَدَدِ، فيَصومُ سِتِّينَ يَومًا تِباعًا، وجائِزٌ أن يَصومَهما بالأهِلَّةِ، يَبدأُ مع الهِلالِ، ويُفطِرُ مع الهِلالِ، وإن جاء أحَدُ شَهرَيه ناقِصًا فذلك مُجزِئٌ عنه، وجائِزٌ إن بدأ صَومَه في وَسَطِ الشَّهرِ أنْ يُبَعِّضَ الشَّهرَ الأوَّلَ، فيَصومَ إلى الهِلالِ، ثمَّ يَصومَ شَهرًا بالهِلالِ، ثمَّ يُتِمَّ الشَّهرَ الأوَّلَ بالعَدَدِ[(٣)].

٣١- قولُه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فيه مَجيءُ الصَّومِ دَرَجةً ثانيةً قَريبةً مِن دَرجةِ تَحريرِ الرَّقَبةِ في المُناسَبةِ؛ وذلك رُخصةٌ لِمَن لم يَجِدْ عِتْقَ رَقبةٍ أنْ يَنتقِلَ إلى صِيامِ شَهرينِ مُتتابِعينِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَجِدْ رَقبةً يَعتاضُ بفَكِّها عن فَكِّ عِصمةِ الزَّوجةِ، نُقِلَ إلى كَفَّارةٍ فيها مَشقَّةُ النَّفْسِ بالصَّبرِ على لَذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ ليَدفَعَ ما الْتَزَمَه بالظِّهارِ مِن مَشقَّةِ الصَّبرِ على ابتعادِ حَليلتِه[(٤)].

٣٢- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مِن إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا، فلو جَمَع طَعامَ سِتِّينَ مِسكينًا

(١) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيميَّة - كتاب الحج)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩، ٢٠).

ودفَعَها لواحِدٍ أو أكثَرَ مِن ذلك دونَ السِّتِّينَ، لم يَجُزْ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[1]. فالواجِبُ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، لا طَعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فبَيْنَهما فَرْقٌ؛ إذا قُلْنا: إطعامُ ستِّينَ مِسكينًا فلا بُدَّ مِن هذا العَدَدِ، وإذا قُلْنا: طعامُ سِتِّينَ مِسكينًا فإنَّه يجوزُ أنْ تُعطيَه واحِدًا[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّه لا يُجْزِئُه دَفْعُ الكَفَّارةِ إلَّا إلى المساكينِ، ويَدخُلُ فيهم الفُقَراءُ، كما يَدخُلُ المساكينُ في لَفظِ الفُقَراءِ عندَ الإطلاقِ[3].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّ الواجِبَ الإطعامُ؛ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسكينًا، لا أنْ تُمَلِّكَ السِّتِّينَ مِسكينًا، فلو غَدَّى المساكينَ أو عَشَّاهم فإنه يُجْزِئُه؛ لأنَّه يَصْدُقُ عليه أنَّه أَطْعَمَ سِتِّينَ مِسكينًا، أمَّا ما قَدَّرَه الشَّرعُ فإنَّه لا بُدَّ فيه مِن التَّمليكِ، ولا بُدَّ فيه مِن التَّقديرِ الَّذي قَدَّرَه الشَّرعُ، مِثالُه: صَدَقةُ الفِطرِ، وفِديةُ الأذى[4].

٣٥- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: بالتِزامِ هذا الحُكمِ وغيرِه مِن الأحكامِ، والعملِ به؛ فإنَّ التِزامَ أحكامِ اللهِ، والعملَ بها مِن الإيمانِ، ومِمَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويكمُلُ ويَنْمو[5]، ففيه دليلٌ على أنَّ العَمَلَ يَدخُلُ في مُسَمَّى الإيمانِ؛ فقد أمَرَهم بهذه الأعمالِ، وبَيَّنَ أنَّه أمَرَهم بها لِيَصيروا بعَمَلِها مُؤمِنينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

فدَلَّت الآيةُ على أنَّ العَمَلَ مِنَ الإيمانِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

- حرْفُ (قَدْ) للتَّحقيقِ، ففي هذه الآيةِ تحقيقُ الفعلِ بـ(قد)[(٢)].

- وقد استُحضِرَت المرأةُ بعُنوانِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ تَنويهًا بمُجادَلتِها وشَكواها؛ لأنَّها دلَّت على تَوكُّلِها الصَّادقِ على رَحمةِ ربِّها بها وبأبْنائِها وبزَوجِها[(٣)].

- والاشتِكاءُ: مُبالَغةٌ في الشَّكوَى، وهي ذِكرُ الإنسانِ ما آذاهُ، يُقال: شَكا، وتَشكَّى، واشْتَكى، وأكثَرُها مُبالَغةً (اشْتَكى)[(٤)].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لِما قبْلَه؛ فإنَّ إلْحافَها في المسألةِ، ومُبالَغتَها في التَّضرُّعِ إلى اللهِ تعالى، ومُدافَعتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها بجَوابٍ مُنبِئٍ عن التَّوقُّفِ، وتَرقُّبِ الوحْيِ، وعِلْمَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقال الرَّسْعَني: («قَدْ» هاهنا على أصلِها للتَّوقُّعِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُجادِلةَ توَقَّعا أن يَسمَعَ اللهُ مُجادَلتَهما وشَكْواهما، ويُنزِلَ فيهما ما عَساه يكونُ راحةً لها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣).

وقال ابن عاشور: (ومعنى التَّوقُّعِ الَّذي يُؤذِنُ به حرْفُ «قدْ» في مِثلِ هذا يُؤَوَّلُ إلى تَنزيلِ الَّذي يَتوقَّعُ حُصولَ أمْرٍ -لشِدَّةِ استِشرافِه له- مَنزِلةَ المُتردِّدِ الطَّالبِ؛ فتَحقيقُ الخبَرِ مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ لنُكتةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩).

تعالى بحالِها؛ مِنْ دَواعي الإجابةِ[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارعِ ﴿يَسۡمَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ السَّمعِ حسَبَ استِمرارِ التَّحاوُرِ وتجدُّدِه[٢]، ولاستِحضارِ حالةِ مُقارَنةِ سَمْعِ اللهِ تعالَى لتَحاوُرِهما؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشأْنِ ذلك التَّحاوُرِ[٣]. فكَونُ اللهِ تَعالى سامِعًا ما جَرى مِن المُحاوَرةِ مَعلومٌ لا يُرادُ مِن الإخبارِ به إفادةُ الحكْمِ، فتَعيَّنَ صَرْفُ الخبَرِ إلى إرادةِ الاعتناءِ بذلك التَّحاوُرِ، والتَّنويهِ به وبعَظيمِ مَنزلتِه؛ لاشتمالِه على تَرقُّبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنزِلُه عليه مِن وحْيٍ، وتَرقُّبِ المرأةِ الرَّحمةَ[٤].

- وفي نَظْمِ المُجادِلةِ في سِلْكِ الخِطابِ تَغليبًا: تَشريفٌ لها مِن جِهتَينِ[٥]: تَوجيهِ الخِطابِ لها، وجَعْلِها في ضَميرٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطَريقِ التَّحقيقِ[٦]، أو تَذييلٌ[٧] لجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾[٨].

- وكُرِّرَ اسمُ الجَلالةِ (الله) في مَوضعِ إضمارِه ثَلاثَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لتَربيةِ المَهابةِ، وإثارةِ تَعظيمِ مِنَّتِه تعالَى ودَواعي شُكْرِه، ولتَعليلِ الحُكمِ بوَصْفِ الأُلوهيَّةِ، وتأكُّدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢١٦).
(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).
(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

استِقلالِ كلِّ جُملةٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وما يُتِمُّ أحكامَها تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ لجُملةِ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...﴾ [المجادلة: ١] الآيةَ؛ لأنَّ فيها مَخرَجًا ممَّا لَحِقَ بالمُجادِلةِ مِن ضُرٍّ بظِهارِ زَوجِها، وإبطالًا له، ولها أيضًا موقِعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في النَّفْسِ أنْ تقولَ: فماذا نشَأَ عن استِجابةِ اللهِ لشَكوى المُجادِلةِ؟ فيُجابُ بما فيه المَخرَجُ لها منه[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ كان الظَّاهِرُ أنْ يُقالَ هنا: (الَّذين يُظاهِرون من نسائِهم)، ولكنْ زِيدَ هنا ﴿مِنكُم﴾؛ قيل: ليُدمَجَ فيه توبيخُ العرَبِ، وتَهجينًا لعادَتِهم في الظِّهارِ؛ لأنَّه كان مِن أَيْمانِ أهلِ جاهليَّتِهم خاصَّةً دونَ سائرِ الأُمَمِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]؛ وذلك أنَّ الأوَّلَ خِطابٌ للعربِ -على قولٍ-، وكان طَلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ، فقيَّده بقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).

﴿مِنكُم﴾، وبقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، ثمَّ بيَّن أحكامَ الظِّهارِ للنَّاسِ عامَّةً، فعطَفَ عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ فجاء في كلِّ آيةٍ ما اقتضاهُ معناهُ(١). أو أنَّ قولَه: ﴿مِنكُم﴾ خِطابٌ للمؤمنينَ، والمذكورون في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى(٢).

- وعلى أنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ للمسلمينَ، فيَكونُ ذِكرُ هذا الوَصْفِ للتَّعميمِ؛ بَيانًا لمَدلولِ الصِّلةِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ إرادةُ مُعيَّنٍ بالصِّلةِ(٣).

- قولُه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، أي: ليس أزواجُهم أُمَّهاتٍ لهم بقولِ أحَدِهم: أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، أي: لا تَصيرُ الزَّوجُ بذلك أُمًّا لقائلِ تلك المقالةِ. وهذا تَمهيدٌ لإبطالِ أثَرِ صِيغةِ الظِّهارِ في تَحريمِ الزَّوجةِ، بما يُشيرُ إلى أنَّ الأُمومةَ حَقيقةٌ ثابتةٌ لا تُصنَعُ بالقولِ؛ إذ القولُ لا يُبدِّلُ حَقائقَ الأشياءِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤]؛ ولذلك أُعقِبَ هنا بقولِه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، أي: فليستِ الزَّوجاتُ المُظاهَرُ مِنهنَّ بصائراتٍ أُمَّهاتٍ بذلك الظِّهارِ؛ لانعِدامِ حَقيقةِ الأُمومةِ منْهنَّ؛ إذ هنَّ لم يَلِدْنَ القائلينَ: أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، فلا يَحرُمْنَ عليهم؛ فالقَصْرُ في الآيةِ حَقيقيٌّ(٤)، أي:

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

فالتَّحريمُ بالظِّهارِ أمْرٌ باطلٌ لا يَقْتضيهِ سَببٌ يُؤثِّرُ إيجادَه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾، وهو تَعليلٌ للمَقصودِ مِن هذا الكلامِ، أي: إبطالِ التَّحريم بلَفظِ الظِّهارِ؛ إذ كَونُهنَّ غيرَ أُمَّهاتِهم ضَروريٌّ لا يَحتاجُ إلى التَّعليلِ[٢].

- وفي الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالسَّلب والإيجابِ[٣]؛ ففي قولِه: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ نفيٌ لصَيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأُمومةِ لِلَّتي وَلَدَتِ الولَدَ[٤].

- وزِيدَ صَنيعُهم ذمًّا بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ تَوبيخًا لهم على صَنيعِهم، أي: هو مع كَونِه لا يُوجِبُ تَحريمَ المرأةِ هو قولٌ مُنكَرٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣).

(٣) السَّلْبُ والإيجابُ: هو بِناءُ الكلامِ على نفْيِ الشَّيءِ من جِهةٍ، وإثباتِه مِن جِهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهيِ عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادِحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لممدوحِه بعدَ ذلك، وهو يَجري في الأفعالِ والأسماءِ على حدٍّ سواءٍ، فمِن أمثلةِ الأفعالِ: الأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والإثباتُ والنَّفيُ في قولِه سبحانَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم ٦، ٧]. وجرَيانُه في الأسماءِ مثل قولِه تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، وقولِه تعالى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ؛ للاهتِمامِ بإيقاظِ النَّاسِ لشَناعةِ الظِّهارِ؛ إذ كانوا قد اعْتادُوه، فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن يتردَّدُ في كَونِه مُنكَرًا أو زُورًا[١]. ومَناطُ التأْكيدِ ليس صُدورَ القولِ عنهم؛ فإنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ، بلْ كونُه مُنكَرًا عندَ الشَّرعِ وعندَ العقلِ والطَّبْعِ، كما يُشعِرُ بِه تَنكيرُ كَلمةِ ﴿مُنكَرًا﴾[٢].

- وبعْدَ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ كِنايةً عن عدَمِ مُؤاخَذتِهم بما صدَرَ منهم مِن الظِّهارِ قبْلَ هذه الآيةِ؛ إذ كان عُذْرُهم أنَّ ذلك قَولٌ تابَعوا فيه أسْلافَهم، وجَرى على ألْسنتِهم دونَ تَفكُّرٍ في مَدلولاتِه[٣].

- وتأْكيدُ الخبَرِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لمُشاكَلةِ تأْكيدِ مُقابِلِه في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[٤].

- وأَعْقَبَ ﴿لَعَفُوٌّ﴾ بقولِه: ﴿غَفُورٌ﴾؛ فقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ في معنى: إنَّ اللهَ عفَا عنهم، وغفَر لهم؛ لأنَّه عفوٌّ غفورٌ، يَغفِرُ هذا وما هو أشدُّ. والعفوُّ: الكثيرُ العَفوِ، والعفْوُ عدَمُ المؤاخَذةِ بالفِعلِ، أي: عفُوٌّ عن قولِهم الَّذي هو مُنكَرٌ وزُورٌ. والغَفورُ: الكَثيرُ الغُفرانِ، والغُفرانُ: الصَّفحُ عن فاعلِ فِعلٍ مِن شأْنِه أنْ يُعاقِبَه عليه؛ فذِكرُ وصْفِ (غَفُورٍ) بعْدَ وصْفِ (عَفُوٍّ) تَتميمٌ[٥]؛ لتَمجيدِ اللهِ؛ إذ لا ذنْبَ في المُظاهَرةِ حيثُ لم يَسبِقْ فيها نهْيٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

ومع ما فيه مِن مُقابَلةِ شَيئينِ -وهما: (مُنكَرًا وزُورًا)- بشَيئينِ هما: (عفُوٌّ غَفورٌ)[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ أُعيدَ المُبتدأُ -﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾- فيها للاهتِمامِ بالحُكْمِ والتَّصريحِ بأصحابِه، وكان مُقتضَى الكلامِ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَعودوا لِما قالوا فتَحريرُ رَقبةٍ)؛ فيَكونَ عطْفًا على جُملةِ الخبَرِ مِن قولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾[(٢)] [المجادلة: ٢].

- وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لتَفصيلِ حُكْمِ الظِّهارِ بعْدَ بَيانِ كَونِه أمرًا مُنكَرًا[(٣)].

- و(ثُم) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ عاطفةٌ جُملةَ ﴿يَعُودُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾، وهي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ تَعريضًا بالتَّخطئةِ لهم بأنَّهم عادُوا إلى ما كانوا يَفعَلونه في الجاهليَّةِ بعْدَ أنِ انقطَعَ ذلك بالإسلامِ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ ما يدُلُّ على قَولِهم لفظَ الظِّهارِ[(٤)].

- والمُرادُ بـ(ما قالوا): ما قالوا بلَفظِ الظِّهارِ، وهو ما حرَّموه على أنفُسِهم مِنَ الاستِمتاعِ المُفادِ مِن لَفظِ: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي؛ فِفعلُ القولِ في هذا وأمثالِه ناصبٌ لمُفرَدٍ؛ لوُقوعِه في خِلالِ جُملةٍ مَقولةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥، ١٦).

المعْنى الَّذي وقَعَ التَّحريمُ له بلَفظِ الظِّهارِ بالمَوصولِ وصِلتِه هذه؛ إيجازٌ وتَنزيهٌ للكلامِ عن التَّصريحِ به، فالمعْنى: ثمَّ يَرُومون أن يَرجِعوا للاستِمتاعِ بأزواجِهم بعْدَ أنْ حرَّموه على أنفُسِهم[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ للتَّعليلِ؛ فيَكونَ التَّقديرُ على هذا الوجْهِ: ثمَّ يُريدونَ العَودَ لأجْلِ ما قالوا، أي: لأجْلِ رَغبتِهم في أزواجِهم، فيَصيرَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ مُقدَّرًا يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: يَعودون لِما تَركوه مِن العِصمةِ، ويَصيرَ الفِعلُ في معْنى: يَندَمون على الفِراقِ[٢].

- قولُه: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ عبَّر بالرقبةِ عن الذَّاتِ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُحرِّرُ الرَّقَبةَ وحْدَها، بل يُحرِّرُ كُلَّ العَبدِ، ففيه صِحَّةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾، أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ ما تَعمَلونه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ فيه مَجِيءُ الكَفَّارةِ مُتناسِبةً مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٨، ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

المُكفَّرِ عنه مُرتَّبةً تَرتيبًا مُناسِبًا؛ وتَوضيحُ ذلك أنَّه مَن لم يَستطِعْ -لعَجْزِه أو ضَعْفِه- رخَّصَ اللهُ له أنْ يَنتقِلَ إلى إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا عِوَضًا عن الصِّيامِ؛ فالإطعامُ دَرجةٌ ثالثةٌ يَدفَعُ عن سِتِّينَ مِسكينًا ألَمَ الجوعِ عِوَضًا عمَّا كان الْتزَمَه على نفْسِه مِن مَشقَّةِ الابتعادِ عن لَذَّاتِه(١).

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِن البيانِ والتَّعليمِ للأحكامِ، والتَّنبيهِ عليها، وإلى ما ذُكِرَ مِن الأحكامِ، أي: ذلك المَذكورُ لتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه، أي: لتُؤمِنوا إيمانًا كاملًا بالامتثالِ لِما أمَرَكم اللهُ ورسولُه، فلا تَشُوبوا أعمالَ الإيمانِ بأعمالِ أهلِ الجاهليَّةِ، وهذا زِيادةٌ في تَشنيعِ الظِّهارِ، وتَحذيرٌ للمسلمينَ مِن إيقاعِه فيما بعْدُ. وما في اسمِ الإشارةِ (ذَٰلِكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِ المُشارِ إليه، وبُعْدِه في الفضْلِ(٢).

- ولَمَّا كان المشارُ إليه -وهو صِيامُ شَهرينِ أو إطعامُ ستِّينَ مسكينًا- عِوَضًا عن تَحريرِ رَقبةٍ، كان ما عُلِّلَ به تَحريرُ رَقبةٍ مُنسَحِبًا على الصِّيامِ والإطعامِ، وما عُلِّلَ به الصِّيامُ والإطعامُ مُنسحِبًا على تَحريرِ رقبةٍ، فأفاد أنَّ كلًّا مِن تَحريرِ رَقبةٍ وصِيامِ شَهرينِ وإطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا؛ مُشتمِلٌ على كِلْتا العِلَّتينِ، وهما: الموعظةُ، والإيمانُ باللهِ ورَسولِه(٣).

- قولُه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الأحكامِ المذكورةِ. وما في اسمِ الإشارةِ (تِلْكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ لتَعظيمِها، والتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

- وقولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَتْميمٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: ذلك الحُكمُ -وهو إبطالُ التَّحريمِ بالظِّهارِ- حكْمُ الإسلامِ، وأمَّا ما كانوا عليه فهو مِن آثارِ الجاهليَّةِ، وهو سُنَّةُ قومٍ لهم عَذابٌ أليمٌ على الكفْرِ وما تولَّدَ منه مِن الأباطيلِ، فالظِّهارُ شرْعُ الجاهليَّةِ؛ لأنَّه وضَعَه المشرِكون، ولم يَكنْ مِن الحَنيفيَّةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خُتِمَ قولُه هنا: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بـ﴿أَلِيمٌ﴾، وبعْدَه ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥] بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بضِدِّه، وهو الإيمانُ، فتَوعَّدَهم على الكفْرِ بالعذابِ الأليمِ، الَّذي هو جَزاءُ الكافرينَ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿كُبِتُوا۟﴾، وهو الإذلالُ والإهانةُ، فوصَفَ العذابَ بمِثلِ ذلك، فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾(٢)، فهذه الآيةُ خُتِمتْ بقولِه: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: يبيِّنُ لكم ذلك لتُؤْمِنوا باللهِ ورسولِه، وذكَرَ الحدودَ الَّتي حدَّها لعِبادِه، ثمَّ سمَّى مَن لم يُؤمِنْ كافرًا باسمِه، وتوعَّدَه بالعَذابِ الموجِعِ المبالَغِ فيه، وهو ما يُخَوِّفُ اللهُ تعالَى به عِبادَه. وأمَّا قولُه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ فلأنَّ قبْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟﴾؛ فضمَّنَ معنى الفِعلَينِ الشَّرطَ والجزاءَ، فجعَلَ الكبْتَ جَزاءَ مَن آثَرَ حِزبًا غَيرَ حِزبِ اللهِ ورسولِه، وحدًّا غَيرَ حَدِّهما، والكَبْتُ: الإذلالُ، وقيل: الغَلَبُ والقهرُ والتَّخييبُ، وكلُّ ذلك مُتقارِبٌ، فلمَّا أَخبَرَ اللهُ تعالى بالكَبتِ عمَّن حادَّ اللهَ ورسولَه وجانَبَهما، وصارَ في حدٍّ غيرِ حَدِّهما؛ وصَفَ العذابَ الَّذي ينزِلُ به بالإذلالِ والإهانةِ، وإنْ كان كلُّ مؤْلِمٍ مُهينًا، وكلُّ مُهينٍ مؤْلِمًا.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

وممَّا يَشهَدُ لذلك قولُه تعالى في آخرِ السُّورةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]؛ فقولُه هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ كقولِه في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[١].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٧، ١٢٥٨).

الآيات (٥-٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا
يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآدُّونَ﴾: أَي: يُخالِفونَ ويُحارِبونَ ويُعادُونَ، يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه. وأصلُ (حدد): يدُلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكونُ فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[(١)].

﴿كُبِتُواْ﴾: أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا، يُقالُ: كَبَتَ اللهُ فُلانًا: إذا صَرَفَه وأذَلَّه. والمردودُ بالذُّلِّ يُقالُ له: مَكْبوتٌ، وأصلُ (كبت): يدُلُّ على الإذلالِ والصَّرفِ عن الشَّيءِ[(٢)].

﴿أَحۡصَىٰهُ﴾: أي: عدَّه عليهم، وأثبَتَه وحَفِظَه، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ وإطاقةٍ[(٣)].

﴿نَّجۡوَىٰ﴾: أي: سِرَارٍ ومُناجاةٍ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٢)، ((مقاييس =

﴿أَدْنَىٰ﴾: أي: أقَلَّ، وأصل الدُّنوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: ﴿مَا﴾: نافيةٌ. ﴿يَكُونُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ تامٌّ مَرفوعٌ، أي: ما يَقَعُ أو يَحدُثُ. ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾: مِن: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. نَجْوَى: فاعِلٌ مجرورٌ لَفظًا، مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مضافٌ إليه مجرورٌ. ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ، والاستِثناءُ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدأٌ. ﴿رَابِعُهُمْ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ مَرفوعٌ، والجُملةُ الاسميَّةُ في محَلِّ نَصبٍ، حالٌ.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: الواو: حرفُ عَطفٍ. (لَا): زائِدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ. ﴿أَدْنَىٰ﴾: معطوفٌ على لَفظِ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾: معطوفٌ على لَفظِ «نَجْوَى» مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرفٌ مَنصوبٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ، والجملةُ في محلِّ نَصبٍ، حالٌ[2].

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٨/ ١٧٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُعادون ويحارِبونَ اللهَ ورسولَه: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ اللهَ ورَسولَه، ويُعادونَهما ويُحاربونَهما أُذِلُّوا وأُخْزُوا كما وقَع للمُخالِفينَ مِن قَبْلِهم، وقد أنزَلْنا في القُرآنِ آياتٍ واضِحاتٍ، وللكافِرينَ عَذابٌ مُخْزٍ مُذِلٌّ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا، عَدَّ اللهُ عليهم ما عَمِلوه، وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه، واللهُ شهيدٌ رَقيبٌ على كُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يخبرُ تعالى عن شمولِ عِلمِه وإحاطتِه بخَلقِه، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّمَواتِ، وما في الأرضِ، لا يتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا خَمسةٌ إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا أقَلَّ مِن ذلك ولا أكثَرُ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه، ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى المؤمنينَ الواقِفينَ عندَ حُدودِه؛ ذَكَر المحادِّينَ المخالِفينَ لها[1].

وأيضًا لَمَّا جرى ذِكرُ الكافرينَ، وجَرى ذِكرُ حُدودِ اللهِ، وكان في المدينةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤).

مُنافِقون مِن المشركين؛ نُقِل الكلامُ إلى تَهديدِهم، وإيقاظِ المسلمينَ للاحترازِ منْهم(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادُونَ اللهَ ورَسولَه، ويجعلون حدودًا غيرَ حدودِه؛ فإنَّهم يُرَدُّونَ عن مُبتَغاهم هذا بعُنفٍ وإذلالٍ وإغاظةٍ لهم، كما وقع للمُخالِفينَ اللهَ ورُسُلَه مِن قَبْلِهم(٢).

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾.

أي: وقد أنزَلْنا آياتٍ واضِحاتٍ، ليس لأحَدٍ حُجَّةٌ أو عُذرٌ في مُخالفتِها، ولا يخالِفُها مِن بَعدِ ذلك سِوى مُكابِرٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٢، ١٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال الشوكاني: (والحالُ أنَّا قد أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَن حادَّ اللهَ ورسلَه مِن الأُمَمِ المتقدِّمَةِ، وقيل: المرادُ الفرائِضُ التي أنزَلَها الله سبحانَه، وقيل: هي المُعجِزاتُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٢).

أي: وللكافِرينَ عَذابٌ يُهينُهم ويُذِلُّهم في الآخِرةِ مُقابِلَ استِكبارِهم عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَرْكِ الخُضوعِ والانقيادِ إليه[١].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه بيَّنَ أنَّ عَذابَ هؤلاء المحادِّينَ في الدُّنيا: الذُّلُّ والهوانُ، وفي الآخِرةِ العَذابُ الشَّديدُ، ثمَّ ذَكَر تعالى ما به يتكامَلُ هذا الوَعيدُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَه، ذكَرَ وَقْتَه على وَجهٍ مُقَرِّرٍ لِما مضَى من شُمولِ عِلْمِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال[٣]:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

أي: للكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ في اليَومِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه الكافِرينَ جَميعًا، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نُصِب بـ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أو بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: «واذكُرْ»؛ تعظيمًا لليومِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير =

﴿أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

أي: أحصى اللهُ عليهم ما عَمِلوه، فعَدَّه وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ ممَّا عمِلوه وغيرِه، ولا يخفَى عليه شَيءٌ، فهو سُبحانَه حاضِرٌ لا يَغيبُ، وحَفيظٌ رَقيبٌ[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ

= الرسعني)) (٨/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥٨).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مكِّيٌّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٦٧).

قال الرَّازي: (في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ قولانِ:

أحدُهما: كلَّهم، لا يُترَكُ منهم أحدٌ غيرَ مَبعوثٍ.

والثَّاني: مُجتمِعينَ في حالٍ واحدةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿جَمِيعًا﴾ في حالِ كَونِهم مُجتمِعينَ في البعثِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ؛ أكَّد سبحانَه بيانَ كَونِه عالِمًا بكلِّ شيءٍ، فقال[١]:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمَواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أقوالِ عِبادِه وأعمالِهم وسرائِرِهم[٢]؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾.

أي: لا يَتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ من الرُّؤيةِ العِلميَّةِ؛ لأنَّ عِلمَ الله لا يُرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال الآجُرِّي: (ابتدأ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآيةَ بالعِلمِ، وختَمَها بالعِلمِ؛ فعِلمُه عزَّ وجَلَّ مُحيطٌ بجَميعِ خَلْقِه، وهو على عَرشِه، وهذا قَولُ المُسلِمينَ). ((الشريعة)) (٣/ ١٠٧٦). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٤)، ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (٧/ ١٤٤).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (عُلماءُ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ الَّذين حُمِلَ عنهم التَّأويلُ في القُرآنِ قالوا في =

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

أي: ولا يَتحَدَّثُ خَمسةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

أي: ولا يَتحدَّثُ سِرًّا أقَلُّ مِن ثلاثةٍ أو أكثَرُ مِن خَمسةٍ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكُنَّا إذا أشرَفْنا[3] على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتَفَعَت أصواتُنا، فقال

= تأويلِ هذه الآية: هو على العَرشِ، وعِلمُه في كُلِّ مَكانٍ، وما خالفَهم في ذلك أحدٌ يُحتَجُّ بقَولِه). ((التمهيد)) (٧/ ١٣٨، ١٣٩).

وقال ابنُ كثير: (حكى غيرُ واحدٍ الإجماعَ على أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ مَعيَّةُ عِلمِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ في إرادةِ ذلك، ولكِنَّ سَمْعَه أيضًا مع عِلْمِه مُحيطٌ بهم، وبَصَرَه نافِذٌ فيهم، فهو سُبحانَه مُطَّلِعٌ على خَلْقِه، لا يَغيبُ عنه مِن أمورِهم شَيءٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) أشرَفْنا: أي اطَّلعنا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٣٥).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[١] على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قَريبٌ))[٢].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه الكامِلُ بأقوالِ خَلْقِه وأفعالِهم، وضَمائِرِهم وأحوالِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك سُبحانَه[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذه

---

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٩٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٦).

الجُملةُ تأكيدٌ لِمَا سَبَقَ مِن حيثُ المعنى، يعني أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، سواءٌ كان فِعلًا أو قولًا أو إضمارًا في القَلبِ،كلُّ ذلك فاللهُ شَهيدٌ عليه، والمقصودُ مِن هذا بيانُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ فإنَّه يَحْذَرُ ويَكُفُّ عن المعاصي، ويقومُ بالواجِباتِ(١).

٢- مَن كثُرتْ ذُنوبُه وسيِّئاتُه حتَّى فاتت العَدَّ والإحصاءَ، فلْيَستَغفِرِ اللهَ ممَّا عَلِمَ اللهُ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم كلَّ شَيءٍ وأحصاه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فالعبدُ يحتاجُ إلى استغفارٍ عامٍّ مِن جميعِ ذُنوبِه، ما عَلِم منها وما لم يَعلَمْ، ما ذكره منها وما نَسِيَه، فكلُّ ذلك قد عَلِمَه اللهُ وأحصاه(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تحذيرٌ مِن المعاصي، وترغيبٌ في الطَّاعاتِ(٣)، فهو يَستوجِبُ أنْ يخافَ العبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيْتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لن تَخفى على اللهِ، بل إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تَعلَمُه أنت؛ فأنت تَعلَمُ مِن نفْسِك ما يمكنُ أن تُحيطَ به، لكنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تحيطُ به، فيَعلَمُ مُستقبَلَك، ومآلَك، وحالَك، وأنت لا تَعلَمُ، وهذا يُوجِبُ

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤١٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).

للعبدِ المؤمنِ بذلك: أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لو كنتَ بحُجرةٍ مُظلِمةٍ ليس عندَك أحَدٌ، وأردتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى يَراك[١].

٤- مِمَّا يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ قُوَّةُ المُراقَبةِ له، والعِلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قُلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيثُ كانوا، كما دَلَّ على ذلك القُرآنُ في مواضِعَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[٢]، ومَعِيَّةُ اللهِ مَعِيَّتان: مَعِيَّةٌ عامَّةٌ، وهي مَعِيَّتُه لجميعِ عِبادِه حتَّى مَن عصاه؛ قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، ومَعِيَّةٌ خاصَّةٌ وهي مَعِيَّتُه لأهلِ طاعتِه، فهوَ سبحانه مع الَّذين اتَّقَوا ومع الَّذين هم مُحسِنون. وقال لِموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقال في حَقِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وصاحِبِه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمَعِيَّةُ الخاصَّةُ تَقتضي حُسْنَ الظَّنِّ بإجابتِه ورِضاه، وحِفْظِه وصِيانتِه، والمَعِيَّةُ العامَّةُ تقتضي التَّحذيرَ مِن عِلْمِه واطِّلاعِه، وقُدرتِه وبَطْشِه وانتِقامِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ لَمَّا ذَكَر إحصاءَه له في قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه ممَّا يُمكِنُ في العادةِ إحصاؤُه، نفَى ذلك بقَولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

كُلُّهم مجتَمِعينَ؛ لخُروجِه عن الحَدِّ في الكثرةِ، فكيف بكُلِّ واحدٍ على انفرادِه، ونَسُوا ما فيه مِنَ المعاصي تهاوُنًا بها، وذلك عَينُ التَّهاوُنِ باللهِ تعالى، والاجتراءِ عليه(١).

٢- ذَكَرَ أهلُ اللُّغةِ أنَّه إذا كان اسمُ «فاعل» على العَدَدِ من غيرِ جنسِ المفعولِ فإنَّه يُجعَلُ زائِدًا، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وإنْ كان مِن جِنْسِه فيُجعَلُ أحدَهم(٢)، فلو قيل: «فلانٌ رابعُ أربعةٍ» فإنه يكونُ من جِنْسِه، ولو قيل: «رابعُ ثلاثةٍ» صار مِن غيرِ جِنْسِه؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «إلَّا هو ثالثُهم»، وقال عن النَّصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ولَمْ يَقُلْ: «ثالثُ اثنينِ»؛ لأنَّهم يَجعلون اللهَ ومريمَ وعيسى سواءً! يَجعلون الكلَّ جِنسًا واحدًا، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ قال ذلك لأنَّهما مِن جِنسٍ واحِدٍ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ ليس مُقتضاها أنْ تكونَ ذاتُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مُختَلِطةً بالخَلْقِ. ويدُلُّ على ذلك: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَها في آيةِ المجادَلةِ بيْنَ ذِكرِ عمومِ عِلْمِه في أولِ الآيةِ وآخِرِها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيكونُ ظاهِرُ الآيةِ: أنَّ مُقتَضى هذه المَعيَّةِ عِلْمُه بعبادِه، وأنَّه لا يَخفى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الطهارة)) (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٤/ ١٧٠).

عليه شيءٌ مِن أعمالِهم، لا أنَّه سُبحانَه مُختلِطٌ بهم، ولا أنَّه معهم في الأرضِ[(١)]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ لا يُنافي ما ذَكَره تعالى عن نفْسِه مِن العُلُوِّ، لأنَّه سُبحانَه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا يُقاسُ بخَلْقِه؛ فمَعِيَّتُه ثابتةٌ مع عُلُوِّهِ تبارك وتعالى، وإذا كان العُلُوُّ والمَعِيَّةُ لا يَتناقَضانِ في حقِّ المخلوقِ -فإنَّهم يقولونَ: «ما زِلْنا نسيرُ والقَمَرُ معنا» ولا يَعُدُّون ذلك تناقُضًا مع أنَّ القمرَ في السَّماءِ- فثُبُوتُ ذلك في حقِّ الخالقِ مِن بابِ أَولى، وبهذا يَبطُلُ قولُ مَن زَعَمَ أنَّ مَعِيَّةَ اللهِ تَستَلزِمُ أنْ يكونَ في الأرضِ مُختَلِطًا بالخَلْقِ! فإنَّ هذا قَولٌ باطلٌ باتِّفاقِ السَّلَفِ، المُستنِدِ على الكتابِ والسُّنَّةِ في إثباتِ عُلُوِّ اللهِ فوقَ خَلْقِه[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذه المَعِيَّةُ تقتضي إحصاءَ ما عَمِلُوه، فإذا كان يومُ القيامةِ نَبَّأهم بما عَمِلوا، يعني: أخْبَرهم به، وحاسَبَهم عليه؛ لأنَّ المرادَ بالإنباءِ لازِمُه، وهو المحاسَبةُ، لكنْ إنْ كانوا مؤمنينَ فإنَّ اللهَ تعالى يُحصي أعمالَهم، ثمَّ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ!))[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٤٤١)، ومسلمٌ (٢٧٦٨) مطوَّلًا من حديث عبدِالله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أُوثِرَ الفِعلُ ﴿يُحَآدُّونَ﴾ هنا؛ لوُقوعِ الكلامِ عقِبَ ذِكرِ حُدودِ اللهِ؛ فإنَّ المُحادَّةَ مُشتقَّةٌ مِن الحدِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المُتعادِيَين كأنَّه في حدٍّ مُخالِفٍ لحَدِّ الآخَرِ. وفِعلُ ﴿كُبِتُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الوعيدِ، أي: سيُكْبَتون، فعُبِّر عنه بالمُضِيِّ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في خبَرِه، مثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ولأنَّه مُؤيَّدٌ بتَنظيرِه بما وقَعَ لأمثالِهم، وقَرينةُ ذلك تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو كان إخبارًا عن كبْتٍ وقَعَ، لم يكُنْ ثَمَّ مُقْتضًى لتأْكيدِ الخبَرِ؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ فيما وقَعَ، ويَزيدُ ذلك وُضوحًا قولُه: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وجُملةِ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، أي: لا عُذْرَ لهم في مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه؛ فإنَّ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القرآنِ بيِّنةً على صِدْقِه[2]. أو حالٌ مِن واوِ ﴿كُبِتُواْ﴾، أيْ: كُبِتوا لمُحادَّتِهم، والحالُ أنْ قدْ أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ[3].

- قولُه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ إمَّا تَتميمٌ[4]؛ فتكونُ اللَّامُ للعهْدِ، والتَّقديرُ: ولهم عَذابٌ مُهينٌ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ وضْعًا للمُظهَرِ موضعَ المُضمَرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللَّعنةَ لَحِقَتْهم لكُفْرِهم، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاء الَّذين حَادُّوا اللهَ ورسولَه كفَّارٌ، ولِيَعُمَّ هؤلاء وغيرَهم -وإنْ كان كلُّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

كَفَر فهو مُحادٌّ للهِ ورسولِه-؛ لكنَّ ذِكْرَ الوصفِ أَبْلَغُ. وإمَّا تذييلٌ[١]، فتكونُ اللَّامُ للجنْسِ؛ ليَستغرِقَ كلَّ الكافرينَ، فيَدخل الكافِرون بالآياتِ فيه دُخولًا أوَّليًّا[٢].

- ووُصِفَ عَذابُهم بالمُهينِ؛ لمُناسَبةِ وَعيدِهم بالكبْتِ الَّذي هو الذُّلُّ والإهانةُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ...﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لِفعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليوم، وتَهويلًا عليهم، أو يكونَ على أنَّه جَوابٌ لِمَن سأَلَ: متى يكونُ عَذابُ هؤلاء؟ فقيل له: يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أي: يكونُ يومَ يَبعَثُهم اللهُ[٤].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ تَهديدٌ بفضْحِ نِفاقِهم يومَ البعثِ، وفيه كِنايةٌ عن الجزاءِ على أعمالِهم[٥].

- وجُملةُ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن (مَا عَمِلُوا)، والمقصودُ مِن الحالِ هو ما عُطِفَ عليها مِن قولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾؛ لأنَّ ذلك مَحلُّ العِبرةِ. وبه تَكونُ الحالُ مُؤسِّسةً لا مُؤكِّدةً لعامِلِها[٦]، وهو ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾، أي: عَلِمَه

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) الحالُ في اصطلاحِ النُّحاةِ: إمَّا مُؤسِّسةٌ، وإمَّا مؤكِّدةٌ؛ فالمؤسِّسةُ -وتُسمَّى المبيِّنةَ أيضًا؛ لأنها =

اللهُ عِلمًا مُفصَّلًا مِن الآنَ، وهم نَسُوه، وذلك تَسجيلٌ عليهم بأنَّهم مُتهاوِنون بعَظيمِ الأمرِ، وذلك مِن الغُرورِ[(١)].

وقيل: قولُه: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عمَّا نشأَ ممَّا قبْلَه مِنَ السُّؤالِ؛ إمَّا عنْ كَيفيَّةِ التَّنبئةِ، أو عنْ سَببِها، كأنَّه قيلَ: كيفَ يُنبِّئُهم بأعمالِهم وهيَ أعراضٌ مُنْقضيةٌ مُتلاشيةٌ؟ فقيلَ: أحصاهُ اللهُ عَددًا، لمْ يَفُتْه منه شَيءٌ، فقولُه تعالَى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينَئذٍ حالٌ مِن مَفعولِ (أحْصَى). أو قِيل: لِمَ يُنبِّئُهم بذلك؟ فقيل: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فيُنبِّئُهمْ به؛ ليَعرِفُوا أنَّ ما عايَنُوه مِن العذابِ إنَّما حاقَ بهم مِن أجْلِه، وفيه مَزيدُ تَوبيخٍ وتَنديمٍ لهُم غيرَ التَّخجيلِ والتَّشهيرِ[(٢)].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لإحصائِهِ تعالى[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن

= تُذكَرُ للتَّبيينِ والتَّوضيحِ- هي الَّتي لا يُستفادُ معناها بدُونِها، نحو: جاء خالدٌ راكبًا. وأكثَرُ ما تأتي الحالُ مِن هذا النَّوعِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] و [الكهف: ٥٦]. والمؤكِّدةُ هي الَّتي يُستفادُ معناها بدُونِها، وإنَّما يُؤتَى بها للتَّوكيدِ، وهي ثلاثةٌ؛ الأُولَى: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ عامِلِها، وهي الَّتي تُوافِقُه معنًى فقط، أو معنًى ولفظًا. فالأوَّلُ نحو: تَبسَّمَ ضاحِكًا، ومنه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. والثَّاني كقولِه تعالَى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ [النساء: ٧٩]. الثَّانيةُ: ما يُؤتَى بها لتوكيدِ صاحِبِها، نحو: جاء التَّلاميذُ كلُّهم جميعًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. الثَّالثةُ: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ مَضمونِ جُملةٍ مَعقودةٍ مِن اسمَينِ مَعرفتَينِ جامدَينِ، نحو: هو الحقُّ بَيِّنًا، أو صريحًا، ونحو: نحن الإخوةُ مُتعاونينَ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((شرح الأشموني لألفية ابن مالك)) (٢/ ٢٧، ٢٨)، ((جامع الدروس العربية)) للغلاييني (٣/ ٩٩، ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ استِشهادٌ على شُمولِ شَهادتِه تعالى، أي: ألَمْ تَعلَمْ عِلمًا يَقينًا مُتاخِمًا للمُشاهَدةِ بأنَّه تعالى يَعلَمُ ما فيهما مِن الموجوداتِ[1]؟

- وهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ هو تَخلُّصٌ مِن قولِه تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] إلى ذِكرِ عِلمِ اللهِ بأحوالِ المنافِقينَ وأحلافِهم اليهودِ، فكان المنافِقون يُناجي بعضُهم بَعضًا ليُرِيَ للمسلمينَ مَوَدَّةَ بَعضِ المنافقينَ لبَعضٍ؛ فإنَّ المنافِقين بتَناجِيهم يُظهِرون أنَّهم طائفةٌ أمْرُها واحدٌ، وكلمتُها واحدةٌ، وهم وإنْ كانوا يُظهِرون الإسلامَ يُحِبُّون أنْ تكونَ لهم هيْبَةٌ في قُلوبِ المسلمينَ يتَّقون بها بأْسَهم إنِ اتَّهَموا بَعضَهم بالنِّفاقِ، أو بدَرَت مِن أحَدِهم بادِرةٌ تَنُمُّ بنِفاقِه، فلا يُقْدِمُ المؤمنون على أذاهُ؛ لعِلمِهم بأنَّ له بِطانةً تُدافِعُ عنه. وكانوا إذا مرَّ بهم المسلِمون نَظَروا إليهم، فحَسِبَ المارُّونَ لعلَّ حدَثًا حدَثَ مِن مُصيبةٍ، وكان المسلمونَ يَومَئذٍ على تَوقُّعِ حرْبٍ مع المشركين في كلِّ حِينٍ، فيَتوهَّمونَ أنَّ مُناجاةَ المُتناجِينَ حديثٌ عن قُرْبِ العدُوِّ، أو عن هَزيمةٍ للمُسلمينَ في السَّرايا الَّتي يَخرُجون فيها؛ فنَزَلَتْ هذه الآياتُ لإشعارِ المنافقين بعِلمِ اللهِ بماذا يَتناجَون، وأنَّه مُطْلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم؛ ليَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلمينَ؛ فهذه الآيةُ تَمهيدٌ لقولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ الآيةَ[2] [المجادلة: ٨].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥، ٢٦).

- قولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن سَعةِ عِلمِه تَعالى، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه[1]. وقيل: جملةُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى آخرِها بدَلُ البعضِ مِن الكلِّ؛ فإنَّ معْنى قولِه: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: أنَّه مُطَّلِعٌ على ما يَتناجَون فيه، فكأنَّه تعالى نَجِيٌّ معهم، والمقصودُ مِن هذا الخبرِ الإنذارُ والوعيدُ[2].

- وحرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ...﴾ صِلةٌ في النَّفيِ؛ لقَصْدِ العُمومِ[3].

- والنَّجوى: التَّناجي، فلا تَخْلو إمَّا أنْ تكونَ مُضافةً إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: مِن نَجْوى ثلاثةِ نفَرٍ، أو مَوصوفةً بها، أي: مِن أهْلِ نَجوى ثلاثةٍ، فحُذِفَ الأهْلُ، أو جُعِلوا نَجْوى في أنفُسِهم مُبالَغةً[4].

- ولَمَّا عُلِمَ بالتَّكريرِ أنَّ ما ذُكِرَ على سَبيلِ المثالِ لا لمعْنًى يَخُصُّه مِن جِهةِ بالعلمِ، عمَّ بقولِه: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ﴾، فبدَأَ بالقليلِ؛ لأنَّه قبْلَ الكثيرِ، وهو أخْفى منه. ولَمَّا كان العِلمُ بالكثيرِ أعسَرَ مِن أجْلِ انتشارِهِ قال: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾[5].

- وخُصَّ الثلاثةُ والخَمسةُ بالذِّكرِ؛ قيل: لِبناءِ الكلامِ على أغلبِ عاداتِ المُتناجِينَ. أو لأنَّ العدَدَ المفردَ أشرَفُ مِن الزَّوجِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وتْرٌ يُحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣).

الوِترَ؛ فخُصَّ العَددانِ المذكورانِ بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن رِعايةِ الأمورِ الإلهيَّةِ في جَميعِ الأمورِ، ثمَّ بعْدَ ذِكرِهما زِيدَ عليهما ما يَعُمُّ غيرَهما مِن المُتناجِينَ. أو خُصَّ الثَّلاثةُ والخمسةُ؛ لأنَّ أقلَّ ما يَكْفي في المُشاوَرةِ ثلاثةٌ حتَّى يَتِمَّ الغرَضُ، فيَكونُ الاثنانِ كالمُتنازِعَينِ في النَّفيِ والإثباتِ، والثَّالثُ كالمُتوسِّطِ الحاكمِ بيْنَهما، فحينَئذٍ تُحمَدُ المُشاوَرةُ، ويتِمُّ الغرَضُ، وكذا كلُّ جمْعٍ يَجتمِعُ للمُشاوَرةِ لا بُدَّ مِن واحدٍ يكونُ حَكَمًا بيْنَهم مَقبولَ القولِ[١]. وقيل: العددُ غيرُ مقصودٍ؛ لأنَّه تعالى إنَّما قصَد -وهو أعلَمُ- أنَّه مع كلِّ عدَدٍ قَلَّ أو كَثُر، يَعلَمُ ما يَقولون سرًّا وجهرًا، ولا تَخفى عليه خافيةٌ، فمِنْ أجْلِ ذلك اكتفى بذِكرِ بعضِ العددِ دونَ بعضٍ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إنْباءَهم بما تَكلَّموا وما عَمِلوه في الدُّنيا في يومِ القيامةِ، أدَلُّ على سَعةِ عِلمِ اللهِ مِن عِلمِه بحَديثِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ مُعظَمَ عِلمِ العالِمينَ يَعْتريهِ النِّسيانُ في مِثلِ ذلك الزَّمانِ مِن الطُّولِ، وكَثرةِ تَدبيرِ الأمورِ في الدُّنيا والآخِرةِ. وفي هذا وَعيدٌ لهم بأنَّ نَجْواهم إثْمٌ عَظيمٌ، فنُهِيَ عنها، ويَشملُ هذا تَحذيرَ مَن يُشارِكُهم[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، فأغنَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢ - ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧).

(إنَّ) غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ[١].

- وفيه تأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، وإلَّا فإنَّ المخاطَبَ لا يَتردَّدُ في ذلك[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٠)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ
بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا
تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ[1].

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، أو الفعلُ الَّذي يستحقُّ عليه اللَّومَ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثم بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[2].

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: أي: التَّعدِّي والظُّلمِ، والعُدوانُ أصلُه الظُّلْمُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ[3].

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٣٤، ٧٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦، ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، =

﴿بِٱلْبِرِّ﴾: البِرُّ هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحقِّ الله ولعِبادِه، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، ومِن ذلك قولُهم: يَبَرُّ رَبَّه، أيْ: يُطيعُه، وهو مِن الصِّدْقِ[1].

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: أي: أداءِ مَا كَلَّفكم مِن فَرائِضِه واجْتِنابِ مَعاصيه، أو: التَّقْوى هنا: اسمٌ جامعٌ لتركِ جميعِ المَحارِمِ والمآثِمِ، وأصل (وقى): يدُلُّ على دَفْعِ شَيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألَم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نَهاهم اللهُ عنه مِنَ ذلك الإسرارِ، ويَتسارُّونَ بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيتِك، وإذا جاءَك هؤلاءِ القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن رجب: (البِرُّ يُطلَقُ باعتِبارِ مَعنَيَينِ:

أحدُهما: باعتبارِ مُعامَلةِ الخَلقِ بالإحسانِ إليهم، ورُبَّما خُصَّ بالإحسانِ إلى الوالدَينِ، فيُقالُ: برُّ الوالدين، ويُطلَقُ كثيرًا على الإحسانِ إلى الخَلقِ عمومًا... وإذا قُرِن البِرُّ بالتَّقْوى -كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]- فقد يكونُ المرادُ بالبِرِّ: مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقْوى: معاملةَ الحقِّ بفِعلِ طاعتِه، واجتِنابِ مُحرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ: فِعلُ الواجباتِ، وبالتَّقْوى: اجتِنابُ المحرَّماتِ...

والمعنى الثَّاني مِن معنى البِرِّ: أن يُرادَ به فِعلُ جميعِ الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى، ويقولونَ سِرًّا: هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ، فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا بما نَقولُه لمحمَّدٍ؟ كافِيَتُهم جهنَّمُ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها، فبِئسَ المرجِعُ هي!

ثمَّ يقولُ تعالى مخاطبًا المؤمنينَ، ومؤدِّبًا وموجِّهًا لهم: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم بيْنَكم، فلا تتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ، وتَسارُّوا بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ واجتِنابِ المحَرَّماتِ، واتَّقوا اللهَ الَّذي إليه تُجمَعونَ.

إنَّما المُناجاةُ مِن تزيينِ الشَّيطانِ؛ ليوقِعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ، وليس الشَّيطانُ بضارِّ المؤمِنينَ شيئًا إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نهاهم اللهُ عنه مِنَ التَّناجي بالشَّرِّ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).
قيل: نزَلَت هذه الآيةُ في اليهودِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرازيُّ ونسَبَه للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).
وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩). =

﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: ويُوصي بَعضُهم بعضًا سرًّا فيما بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ[1] ومَعصيةِ الرَّسولِ

= وقيل: هي في المنافِقين. وممَّن ذهب إلى ذلك: السَّمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠، ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

قال ابن عطية: (وقال ابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ كُلُّها في منافِقينَ. ويُشبِهُ أنَّ مِن المنافِقينَ مَن تخَلَّق في هذا كُلِّه بصِفةِ اليهودِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

وقيل: هي في المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١).

(١) الإثم قيل: هو المعصيةُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩).

وقال ابن عاشور: (الإثمُ: المعصيةُ، وهو ما يَشتَمِلُ عليه تناجيهم مِن كلامِ الكُفرِ وذَمِّ المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: المرادُ به الكَذِبُ. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي))، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١).

وقيل: هو الفواحِشُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠).

والعدوان قيل: هو الظُّلمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

قال ابنُ عاشور: (العُدوانُ -بضَمِّ العَينِ: الظُّلمُ، وهو ما يُدَبِّرونَه مِن الكَيدِ للمُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: هو النِّهايةُ في قَصدِ الشَّرِّ بالإفراطِ في مجاوَزةِ الحُدودِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٦٨).

وقيل: معنى الإثمِ ما هو إثمٌ في نفْسِه، والعدوانُ ما فيه تَعَدٍّ على المؤمنينَ. وممَّن اختار هذا =

محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومخالَفتِه[١]؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَهم في اختلاءِ بَعضِهم ببَعضٍ؛ ذكَرَ حالَ نِيَّاتِهم الخبيثةِ عندَ الحضورِ في مَجلِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائِشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ[٣]! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائِشةُ، لا

= المعنى: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٠).

وقريبٌ منه قولُ ابنِ كثير: (﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ وهو ما يختَصُّ بهم، ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وهو ما يتعلَّقُ بغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣).

وقيل: الإثمُ هو تناجيهم في حالةِ نصرةِ المؤمنينَ وأمْنِهم، والعُدوانُ هو تناجيهم حالةَ خَوفِ المؤمنينَ وقتالِهم؛ لكنْ في غَيبةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ يحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أنَّ الإثمَ والعُدوانَ مُخالَفتُهم الرَّسولَ في النَّهيِ عن النَّجوى، فلمَّا عادوا إلى ما نَهاهم عنه لَزِمَهم الإثمُ والعُدوانُ، وصاروا آثمينَ ظالِمينَ.

والثَّاني: أنَّ الإثمَ والعدوانَ ذلك السِّرُّ الَّذي يجري بيْنَهم؛ لأنَّه إمَّا مكرٌ وكَيدٌ بالمسلمينَ، أو شيءٌ يَسوؤُهم، فهو إثمٌ وعُدوانٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١).

(٣) السَّامُ: المَوتُ. والذَّامُ: العَيبُ والذَّمُّ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٤، ١٥٨).

تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟ فأنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[1].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِي اللهُ عنهما: (أنَّ اليهودَ كانوا يقولونَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سامٌ عليك! ثمَّ يقولونَ في أنفُسِهم: لولا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نَقولُ! فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ)[2].

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

أي: وإذا جاءك هؤلاء القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى[3].

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه أحمدُ (٦٥٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٣/ ٥٦٤) (١٤٤٦٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٦٧٩).

حسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٦٩)، وجوَّد إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ بيْنَ النَّقَلةِ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ، كانوا يأتون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيقولونَ: السَّامُ عليك، يُريدونَ بذلك السَّلامَ ظاهِرًا، وهم يَعنون الموتَ باطِنًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٢).

وقال السعدي: (هؤلاء المذكورونَ إمَّا أُناسٌ مِن المنافقين يُظهِرونَ الإيمانَ، ويُخاطِبونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ الَّذي يوهِمون أنَّهم أرادوا به خَيرًا، وهم كَذَبةٌ في ذلك، وإمَّا أُناسٌ مِن أهلِ الكِتابِ، الَّذين إذا سلَّموا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالوا: السَّامُ عليك يا محمَّدُ، يَعنون بذلك الموتَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الآيةَ كُلَّها في المنافِقينَ لا في اليهودِ، وأنَّ المرادَ تحيَّتُهم بتحيَّةِ =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائشةُ، لا تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟))(١).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مرَّ يهوديٌّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: السَّامُ عليك، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وعليكَ. فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتدرونَ ما يقولُ؟ قال: السَّامُ عليك. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ألا نَقتُلُه؟ قال: لا، إذا سلَّم عليكم أهلُ الكِتابِ فقولوا: وعليكم))(٢).

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

أي: ويقولون سِرًّا(٣): هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ ما

= الجاهليَّةِ، كأَنعِمْ صَباحًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٢٤)، ومسلمٌ (٢١٦٥) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) قال ابن عثيمين: (﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يُحدِّثُ شخصٌ منهم نفْسَه، أو المعنى: يقولون فيما بيْنَهم). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقم: ٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فيما بيْنَهم: السمرقنديُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير =

نَقولُه لمحمَّدٍ(١)؟

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾.

أي: يكفي هؤلاء عِقابًا لهم على ما يقولونَه: جَهنَّمُ، يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها(٢).

= الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (المراد أنَّهم قالوه بألسنتِهم سرًّا... وهذا هو الَّذي ذكره المفسِّرونَ، قالوا: كانوا يقولون: سامٌ عليك، فإذا خرَجوا يَقولون في أنفُسِهم، أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ: لو كان نبيًّا عُذِّبْنا بقولِنا له ما نقولُ. وإن قُدِّر أنَّه أُريدَ بذلك أنَّهم قالوه في قُلوبِهم فهذا قولٌ مُقيَّدٌ بالنَّفْسِ، مِثلُ قولِه: «عمَّا حدَّثَتْ به أنفُسَها»؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فأطلَقوا لفظَ القَولِ هنا والمرادُ به ما قالوه بألسنتِهم؛ لأنَّه النَّجوى والتَّحيَّةُ الَّتي نُهوا عنها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يُسِرُّون في أنفُسِهم ما ذكره عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ عنهم، وهو قولُهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال ابن عثيمين: (أصلُ القولِ لا بُدَّ أن يكونَ بصَوتٍ، ولو كان قولًا بالنَّفْسِ لَقيَّده اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣، ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال القرطبي: (قالوا: لو كان محمَّدٌ نبيًّا لعَذَّبَنا اللهُ بما نقولُ، فهلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ! وقيل: قالوا إنَّه يَرُدُّ علينا ويقولُ: وعليكم السَّامُ، والسَّامُ: الموتُ، فلو كان نبيًّا لاستُجيبَ له فينا ومُتْنا. وهذا موضِعُ تَعجُّبٍ منهم؛ فإنَّهم كانوا أهلَ كتابٍ، وكانوا يَعلَمونَ أنَّ الأنبياءَ قد يَغضَبونَ فلا يُعاجَلُ مَن يُغضِبُهم بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: فبِئسَ المرجِعُ والمُنقَلَبُ جهنَّمُ[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَمَّ اليهودَ والمنافِقينَ على التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ؛ أتْبَعَه بأنْ نهَى أصحابَه المؤمِنينَ أن يَسلُكوا مِثلَ طَريقتِهم[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم فيما بيْنَكم، فلا تَتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وفي المخاطَبينَ بهذه الآيةِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ، والثَّاني: أنَّه خِطابٌ للمنافِقين، والمعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بألسِنَتِهم، وقيل: آمَنوا بزَعمِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، =

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾.

أي: وتَسارُّوا الحديثَ فيما بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ، واجتِنابِ المحَرَّماتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعذابِه وِقايةً بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فهو الَّذي إليه تُجمَعونَ فيُجازيكم على أقوالِكم وأعمالِكم[٢].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شدَّد اللهُ سُبحانَه في أمرِ النَّجوى المذمومةِ، وكان لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ النِّفاقِ، فكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه يَحدُثُ عنها ضَرَرٌ لأهلِ الدِّينِ؛ بيَّنَ أنَّ ضَرَرَها

= ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢).

إنَّما يعودُ عليهم(١).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

أي: إنَّما المُناجاةُ الَّتي نهَى الله عنها مِن تزيينِ الشَّيطانِ للمُتناجِينَ مِن أجْلِ أن يُوقعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ(٢).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤).

قال الماوَرْدي: (وفي قولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وجْهانِ:

أحدُهما: ما كان يَتناجى به اليهودُ والمنافقون من الأراجيفِ بالمسلمينَ.

الثَّاني: أنَّها الأحلامُ الَّتي يَراها الإنسانُ في مَنامِه فتَحزُنُه). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٩١).

وقال ابن عطية: (واختلَف النَّاسُ في النَّجْوى الَّتي هي مِنَ الشَّيطانِ الَّتي أخبر عنها في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: أراد: إنَّما النَّجْوى في الإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ من الشَّيطانِ. وقال قَتادةُ وغيرُه: الإشارةُ إلى نَجوى المنافِقينَ واليهودِ. وقال عبدُ الله بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: الإشارةُ إلى نجوى قومٍ مِن المسلمينَ كانوا يَقصدون مُناجاةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وليس لهم حاجةٌ ولا ضرورةٌ إلى ذلك، وإنَّما كانوا يُريدون التَّبجُّحَ بذلك، وكان المسلمون يَظُنُّون أنَّ تلك النَّجوى في إخبارٍ بعَدُوٍّ قاصِدٍ أو نحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مُناجاةُ المنافِقين بعضِهم بعضًا بالإثم والعُدوانِ -وزاد بعضُ المفسِّرينَ اليهودَ أيضًا-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٧).

قال السعدي: (أي: تناجي أعداءِ المؤمنينَ بالمؤمنينَ، بالمَكرِ والخديعةِ، وطَلَبِ السُّوءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: النَّجوى بالإثمِ والعُدوانِ مِن الشَّيطانِ؛ لِيَحزُنَ الَّذين آمنوا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٨).

وسلَّم: ((إذا كُنتُم ثلاثةً، فلا يَتناجى اثنانِ دونَ صاحِبِهما؛ فإنَّ ذلك يَحزُنُه))[(١)].

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس الشَّيطانُ بضارِّ المؤمِنينَ بأيِّ ضَرَرٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فإنَّ اللهَ يَكفيهم شَرَّ أعدائِهم ومَكْرِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ ويَثِقوا به؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على اللهِ كفاه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٩٠)، ومسلمٌ (٢١٨٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن عطية: (أمَرَ بتوكُّلِ المؤمنينَ عليه تبارَك وتعالى، وهذا كلُّه يقوِّي أنَّ التَّناجيَ الَّذي مِن الشَّيطانِ إنَّما هو الَّذي وقَعَ منه للمؤمنينَ خَوفٌ؛ وللخَوفِ اللَّاحِقِ للقُلوبِ في هذا قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا يَتناجى اثنانِ دونَ الثَّالِثِ»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يَتناجَوا بالبرِّ -وهو اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحَقٍّ لله ولعبادِه- والتَّقوى؛ فالمؤمِنُ يمتَثِلُ هذا الأمرَ الإلهيَّ، فلا تجِدُه مُناجيًا ومتحَدِّثًا إلَّا بما يُقَرِّبُه من الله، ويُباعِدُه مِن سَخَطِه، والفاجِرُ يتهاوَنُ بأمرِ اللهِ، ويُناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، كالمنافِقينَ الَّذين هذا دأْبُهم وحالُهم مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

٢- الحُزنُ يُضعِفُ القلبَ، ويُوهِنُ العَزْمَ، ويَضُرُّ الإرادةَ، ولا شَيءَ أحَبُّ إلى الشَّيطانِ مِن حُزنِ المؤمِنِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالحُزنُ مَرَضٌ مِن أمراضِ القَلبِ يَمنَعُه مِن نُهوضِه وسَيرِه وتَشميرِه[(٢)]، ولم يأتِ الحُزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو منفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨] في غيرِ موضعٍ، وقولِه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمنفيُّ كقولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[(٣)] [البقرة: ٣٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الله تعالى وَعَد المؤمنينَ بالكفايةِ والنَّصرِ على الأعداءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠).

قال ابن تيمية: (لم يأمُرِ الله به [أي: الحزنِ] ولا رسولُه، بل قد نهَى عنه في مواضعَ، وإنْ تعلَّق بأمرِ الدِّينِ... وذلك لأنَّه لا يجلِبُ منفعةً، ولا يدفعُ مضرَّةً، فلا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمُرُ الله به، نَعمْ لا يأثمُ صاحبُه إذا لم يقترِنْ بحزنِه محرَّمٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فأعداءُ اللهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ مهما تناجَوا ومَكَروا، فإنَّ ضَرَرَ ذلك عائدٌ إلى أنفُسِهم، ولا يضُرُّ المؤمنينَ إلَّا شَيءٌ قَدَّرَه اللهُ وقَضاه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليَعتَمِدوا عليه، ويَثِقوا بوَعدِه؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على اللهِ كفاه، وتولَّى أمرَ دينِه ودُنياه[1].

٤- قَولُه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه: تنبيهٌ وتهديدٌ جاءَ عَقِيبَ تحليلٍ وتحريمٍ، وناسَب ذِكرُ الحشْرِ؛ إذ فيه يَظهَرُ مَن أطاع وعصَى[2]. وفي إجراءِ الوَصفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وتِلك الصِّلةِ ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ المرجِعَ إلى اللهِ؛ ليُعِدَّ النَّاسُ ما استطاعوا مِن الطَّاعةِ لذلك اللِّقاءِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ فيه تحريمُ النَّجوى، وهو تحدُّثُ الاثنَينِ سِرًّا بحَضْرةِ ثالثٍ[4]؛ لأنَّها توجِبُ إيحاشًا، وكَسْرَ القلبِ[5]، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كانوا ثلاثةٌ، فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ الثَّالثِ))[6]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كنتُم ثلاثةً فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

قال العراقي: (مَحَلُّ النَّهْيِ عن تَناجي اثنَيْنِ دونَ ثالثٍ إذا كان ذلك الثَّالثُ معَهما في ابتداءِ النَّجْوَى، فأمَّا إذا انْفَرَدَ اثنانِ فتَناجَيا ثمَّ جاء ثالثٌ في أثناءِ تناجيهما فليس عليهما قَطْعُ التَّناجي). ((طرح التثريب)) (٨/ ١٤٣).

قال الزرقاني: (وفي معنَى التَّناجي ما لو تَحدَّثا بلِسانٍ لا يُفْهَمُ). ((شرح الزرقاني على الموطأ)) (٤/ ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((فصول الآداب ومكارم الأخلاق المشروعة)) لابن عَقِيل الحنبلي (ص: ٤٦).

(٦) رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) من حديث عبدِ الله بن عُمرَ رضيَ الله عنهما.

الآخَرِ حتَّى تَختَلِطوا بالنَّاسِ مِن أجْلِ أن يُحزِنَه))[١]، ففي هذا النَّهيُ عن تَناجي اثنَينِ بحضَرةِ ثالثٍ، وكذا ثلاثةٍ وأكثَرَ بحَضرةِ واحدٍ، وهو نهيُ تحريمٍ، فيَحرُمُ على الجماعةِ المُناجاةُ دونَ واحدٍ منهم إلَّا أن يَأذَنَ، أمَّا اذا كانوا أربعةً فتَناجى اثنانِ دونَ اثنَينِ فلا بأسَ بالإجماعِ[٢]، فإذا كثُر النَّاسُ فلا بأسِ أن يَتناجى منهم اثنانِ وأكثَرُ[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَدخُلُ فيه قَولُ بَعضِ النَّاسِ لبَعضٍ: (صباحُ الخَيرِ)، ونحوَه، مُعرِضًا عن السَّلامِ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أنَّه إذا زال هذا السَّبَبُ، وقال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنَّ الشَّيطانَ يُريدُ مِن بني آدمَ أنْ يكونوا دائمًا على قَلَقٍ وعلى حُزْنٍ[٦]، وأنَّ كلَّ مَن حاول إدخالَ الحُزْنِ على أخيه المُسلمِ فإنَّه شَبيهٌ بالشَّيطانِ الَّذي يريدُ إدخالَ الأحزانِ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) من حديث عبدِ الله بن مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٢٦).

قال القرطبي: (وقد اختُلف في ردِّ السَّلام على أهلِ الذِّمَّة هل هو واجبٌ كالرَّدِّ على المسلمينَ، وإليه ذَهَب ابنُ عبَّاسٍ والشَّعبيُّ وقَتادةُ؛ للأمرِ بذلك. وذَهَب مالكٌ فيما روى عنه أشهَبُ وابنُ وهبٍ إلى أنَّ ذلك ليس بواجبٍ، فإنْ رَدَدْت فقُلْ: عليك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٣).

وكلامُ ابنِ القيِّم إذا قال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه: أوفَقُ لمعنى الآيةِ.

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ١٠٤).

على المؤمنينَ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف لا يَضُرُّهم ذلك ولا يَحْزُنُهم إلَّا بإذنِ اللهِ؟

الجوابُ: أنَّهم كانوا يُوهِمونَ المؤمنينَ في نَجواهم وتفاخُرِهم أنَّ غُزاتَهم غُلِبوا، وأنَّ أقارِبَهم قُتِلوا، فقال تعالى: لا يَضُرُّهم الشَّيطانُ والحُزنُ بذلك الموهِمِ إلَّا بإذنِ الله تعالى، أي: بمشيئتِه، وهو أن يَقضِيَ الموتَ على أقارِبِهم، والغَلَبَةَ على الغُزاةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَرِيَّةِ في إخبارِه عنِ الشَّيطانِ بإدخالِه الحُزنَ والضَّرَرَ على المؤمِنينَ، وزوالِ ضَرَرِه عنهم إلَّا بإذنِ اللهِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ وحْدَه، وإفرادُ الله بالتَّوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وَصف -وهو الإيمانُ-، فدلَّ ذلك على أنَّه كُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ على اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ الاستِفهامُ تَعجيبيٌّ، مُرادٌ به تَوبيخُهم حينَ يَسمَعونه[١].

- والتَّعريفُ في (النَّجوى) تَعريفُ العَهدِ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ في نوعٍ خاصٍّ مِن النَّجوى، وهي النَّجوى الَّتي تَحزُنُ الَّذين آمَنوا، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّهيُ عن جِنسِ النَّجوى في أوَّلِ الأمرِ يعُمُّ كلَّ نَجوى بمَرأًى مِن النَّاسِ؛ سدًّا للذَّريعةِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿نُهُوا﴾، وعُدِلَ عن صِيغةِ الماضي المُناسِبةِ للعطْفِ؛ لسِرٍّ لطيفٍ، وهو استحضارُ صُورةِ العَودِ وتَجدُّده وتَجْسيده، فصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَعُودُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، أي: يُكرِّرونَ العَودَ بحيثُ يُريدونَ بذلك العِصيانَ، وقِلَّةَ الاكتراثِ بالنَّهيِ؛ فإنَّهم لو عادوا إلى النَّجوى مرَّةً أو مرَّتينِ لاحتَمَلَ حالُهم أنَّهم نَسُوا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨).

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ عَودتَهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها أعظَمُ مِن ابتداءِ النَّجوى؛ لأنَّ ابتداءَها كان إثمًا لِمَا اشتَمَلَتْ عليه نَجْواهم مِن نيَّاتٍ سَيِّئةٍ نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلمينَ، فأمَّا عَودتُهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها، فقد زادوا بها تَمرُّدًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومُشاقَّةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا اقتَضاهُ استمرارُ المنافقين على نَجْواهم[1].

- و﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ هو النَّجوَى؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِ النَّجوى إلى الموصولِ وصِلتِه؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّعليلِ لِما بعْدَها مِن الوعيدِ بقولِه: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾، على ما في الصِّلةِ مِن التَّسجيلِ على سَفَهِهم[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: يَتناجَون مُلابِسينَ الإثمَ والعُدوانَ ومَعصيةَ الرَّسولِ[3].

- وجاء قولُه: ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ بعُنوانِ الرِّسالةِ بيْنَ الخِطابَينِ المُتوجِّهينِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾-؛ لزِيادةِ تَشنيعِهم، واستعظامِ مَعصيتِهم[4].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (لولا) للتَّحضيضِ، أي: هلَّا يُعذِّبُنا اللهُ بسَببِ كَلامِنا الَّذي نَتناجى به مِن ذَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحْوِ ذلك! أي: يَقولون ما معناهُ: لو كان محمَّدٌ نَبيًّا لَعذَّبَنا اللهُ بما نَقولُه مِن السُّوءِ فيه ومِن الذَّمِّ، وهو ما لخَّصَه اللهُ مِن قولِهم بكلمةِ ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩).

فإنَّ (لولا) للتَّحضيضِ مُستعمَلةٌ كِنايةً عن جَحْدِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لو كان نَبيًّا لغَضِبَ اللهُ علينا، فلَعذَّبَنا الآنَ بسَببِ قَولِنا له[١].

- قولُه: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ ردٌّ على كَلامِهم، أي: كافِيهم مِن العذابِ جهنَّمُ؛ فإنَّه عذابٌ. وأصلُ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَصْلَون بها، فضُمِّن معْنى يَذوقُونها أو يُحِسُّونها، وقد تكرَّرَ هذا الاستِعمالُ في القرآنِ الكريم[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تفريعٌ على الوعيدِ بشأْنِ ذمِّ جهنَّمَ[٣].

- وأتى بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ لِما فيه مِن معنَى التَّعقيبِ، أي: بئسَ المصيرُ ما صاروا إليه، وهو جَهنَّمُ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قيل: هو خِطابٌ للمنافِقين الَّذين يُظهِرونَ الإيمانَ، فعامَلَهم اللهُ بما أظْهَروه، وناداهم بوصْفِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كما قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ومنه ما حكاهُ اللهُ عن المشركين: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: يا أيُّها الَّذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ بزعْمِه، ونبَّهَهم إلى تَدارُكِ حالِهم بالإقلاعِ عن آثارِ النِّفاقِ، على عادةِ القرآنِ مِن تَعقيبِ التَّخويفِ بالتَّرغيبِ، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ ذلك أنَّ المنافقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

كانوا يَعمَلون بعمَلِ أهلِ الإيمانِ إذا لَقُوا الَّذين آمَنوا، فإذا رَجَعوا إلى قَومِهم غلَبَ عليهم الكفرُ، فكانوا في بَعضِ أحوالِهم مُقاربينَ الإيمانَ بسَببِ مُخالطتِهم للمؤمنينَ، ويَكونُ قولُه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ تنبيهًا على ما يجِبُ عليهم إنْ كانوا مُتناجِينَ لا مَحالةَ. ويجوزُ أنْ تكونَ خِطابًا للمؤمنينَ الخُلَّصِ؛ بأنْ وجَّهَ اللهُ الخطابَ إليهم تَعليمًا لهم بما يَحسُنُ مِن التَّناجي، وما يَقبُحُ منه بمُناسَبةِ ذَمِّ تَناجي المنافِقين؛ فلذلك ابتُدِئَ بالنَّهيِ عن مِثلِ تَناجي المنافِقين، وإنْ كان لا يَصدُرُ مِثلُه مِن المؤمنينَ؛ تَعريضًا بالمنافِقين، مِثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ويَكونَ المَقصودُ مِن الكلامِ هو قولَه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ تَعليمًا للمؤمنينَ[(١)].

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ بديعٌ، حيثُ نَهى المؤمنينَ أنْ يكونَ تَناجِيهم مِثلَ تَناجي الكُفَّارِ، وبدَأَ بالإثمِ؛ لعُمومِه، ثمَّ بالعُدوانِ؛ لعَظَمتِه في النُّفوسِ؛ إذ هي ظُلاماتُ العِبادِ، ثمَّ ترَقَّى إلى ما هو أعظَمُ، وهو مَعصيةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا طعْنٌ على المنافِقين؛ إذ كان تَناجيهم في ذلك[(٢)].

- والتَّقييدُ بـ ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّه لا يَنبغي التَّناجي مُطلقًا، ولكنَّهم لَمَّا اعْتادوا التَّناجيَ حُذِّروا مِن غَوائلِه، وإلَّا فإنَّ التَّقييدَ مُستغنًى عنه بقولِه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣).

شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ تَسليةٌ للمؤمنينَ، وتأنيسٌ لنُفوسِهم يُزالُ به ما يَلحَقُهم مِن الحُزْنِ لمُشاهَدةِ نَجْوى المنافِقين لاختلافِ مَذاهبِ نُفوسِهم إذا رَأَوُا المُتناجينَ في عَديدِ الظُّنونِ والتَّخوُّفاتِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ اقتَضَتْه مُناسَبةُ النَّهيِ عن النَّجوى، على أنَّها قدْ تكونُ تَعليلًا لتأْكيدِ النَّهيِ عن النَّجوى[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: نَجْوى المنافِقين الَّذين يَتناجَون بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والحصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: قصْرُ النَّجوى على الكَونِ مِن الشَّيطانِ، أي: جائيةٌ؛ لأنَّ الأغراضَ الَّتي يَتناجَون فيها مِن أكبَرِ ما يُوَسوِسُ الشَّيطانُ لأهلِ الضَّلالةِ بأنْ يَفعَلوه؛ ليَحزُنَ الَّذين آمَنوا بما يَتطرَّقُهم مِن خَواطِرِ الشَّرِّ بالنَّجوى، وهذه العِلَّةُ ليستْ قَيدًا في الحصْرِ؛ فإنَّ للشَّيطانِ عِللًا أُخرى؛ مِثْلَ إلْقاءِ المُتناجينَ في الضَّلالةِ، والاستِعانةِ بهم على إلْقاءِ الفِتنةِ، وغيرِ ذلك مِن الأغراضِ الشَّيطانيَّةِ. وقدْ خُصَّت هذه العِلَّةُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَسليةُ المؤمنينَ وتَصبيرُهم على أذَى المنافِقينَ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾؛ ليَطمئِنَّ المؤمنونَ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهم مِن ضُرِّ الشَّيطانِ، وهذا نحوٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٣] [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].

- ووُقوعُ ﴿شَيْـًٔا﴾ وهو نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ عُمومَ نفْيِ كلِّ ضُرٍّ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

الشَّيطانِ، أي: انْتَفى كلُّ شَيءٍ مِن ضُرِّ الشَّيطانِ عن المؤمنينَ؛ فيَشملُ ضُرَّ النَّجوى وضُرَّ غيرِها(١).

- والاستِثناءُ في قولِه تعالَى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مِن عُمومِ ﴿شَيْـًٔا﴾ الواقعِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: إلَّا ضُرًّا مُلابِسًا لإذْنِ اللهِ في أنْ يُسلِّطَ عليهم الشَّيطانُ ضُرَّه فيهم، أي: ضُرَّ وَسوستِه؛ ولهذا ذُيِّلَ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا تَوكَّلوا على اللهِ توكُّلًا حقًّا بأنِ استَفْرَغوا وُسْعَهم في التَّحرُّزِ مِن كَيدِ الشَّيطانِ، واستَعانوا باللهِ على تَيسيرِ ذلك لهم، فإنَّ اللهَ يَحفَظُهم مِن كَيدِ الشيطانِ؛ قال تَعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ويَجوزُ أنْ يكونَ عُمومُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مُرادًا به الخُصوصُ، أي: ليس بضارِّهم شَيئًا ممَّا يُوهِمُه تَناجي المنافِقين مِن هَزيمةٍ أو قتْلٍ، إلَّا بتَقديرِ اللهِ حُصولَ هَزيمةٍ أو قتْلٍ، والمعْنى: أنَّ التَّناجيَ يُوهِمُ الَّذين آمَنوا ما ليس واقعًا، فأعْلَمَهم اللهُ ألَّا يَحزَنوا بالنَّجوى؛ لأنَّ الأُمورَ تَجْري على ما قدَّرَه اللهُ في نفْسِ الأمْرِ حتَّى تَأتيَهم الأخبارُ الصَّادقةُ(٢).

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمَدلولِ هذا المُتعلَّقِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦).

الآيات (١١-١٣)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا
قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ
لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ تَفَسَّحُواْ ﴾: أي: تَوسَّعُوا، وأصلُ (فسح): يدُلُّ على سَعةٍ واتِّساعٍ[١].

﴿ ٱنشُزُواْ ﴾: أي: قُومُوا وارتَفِعوا عن أماكِنِكم، وأصلُ (نشز): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وعُلُوٍّ[٢].

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾: أي: أخِفتُم وخَشِيتُم، والإشْفاقُ: الخَوفُ والحَذَرُ مِن وُقوعِ المكروهِ، والشَّفَقةُ: رِقَّةُ القَلبِ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن الفارس (٥/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢) و(٢٣/ ٣٦٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مرشدًا عبادَه إلى بعضِ آدابِ المجالسِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قِيلَ لكم: توسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم، يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ، وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك؛ يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً، واللهُ بما تَعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم تأديبًا لهم، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ تعالى: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك؛ ذلك خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- وأطهَرُ، فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ بكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: أخِفتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟ فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ، وأعطُوا الزَّكاةَ، وأطيعوا اللهَ ورَسولَه، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهَى عبادَه المؤمِنينَ عَمَّا يكونُ سَبَبًا للتَّباغُضِ والتَّنافُرِ؛ أمَرَهم

الآنَ بما يَصيرُ سببًا لزيادةِ المحبَّةِ والمودَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ يحيُّونَه بما لم يحَيِّه به اللهُ، وذمَّهم على ذلك؛ وَصَل به الأمرَ بتحسينِ الأدَبِ في مجالَسةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حتَّى لا يُضَيِّقوا عليه المجلِسَ، وأمَرَ المسلِمينَ بالتَّعاطُفِ والتَّآلُفِ حتَّى يَفسَحَ بَعضُهم لبعضٍ، حتَّى يتمَكَّنوا مِن الاستماعِ مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّظَرِ إليه[٢].

وأيضًا لَمَّا نهى سُبحانَه عن التَّناجي والسِّرارِ، عُلِم منه الجلوسُ مع الملأِ؛ فذكَرَ جلَّ وعلا آدابَه بعْدَه، بقولِه عزَّ مِن قائلٍ[٣]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قيلَ لكم: توَسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم؛ فإنَّكم إن فعَلْتُم ذلك يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

قال ابن الجوزي: (في المرادِ بالمجلسِ هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه مجلسُ الحربِ ومقاعدُ القتالِ، كان الرَّجُلُ يأتي القَومَ في الصَّفِّ، فيقولُ لهم: توَسَّعوا، فيأبَوْن عليه؛ لِحرصِهم على القتالِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ، وأبي العاليةِ، والقُرَظيِّ.

والثَّاني: أنَّه مَجلِسُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، قاله مجاهدٌ. وقال قَتادةُ: كان هذا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ومَن حَوْلَه خاصَّةً.

والثَّالثُ: مجالِسُ الذِّكرِ كلُّها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مجلِسُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشريُّ، والنسفي، والخازن، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهَى أن يُقامَ الرَّجُلُ مِن مَجلِسِه، ويَجلِسَ فيه آخَرُ، ولكِنْ تَفَسَّحوا وتوسَّعوا))، وكان ابنُ عُمَرَ يَكرَهُ أن يقومَ الرَّجُلُ مِن مجلِسِه ثمَّ يَجلِسَ مَكانَه[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

أي: وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك[2].

= والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٢).

وقال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَر المؤمنينَ أن يَتفَسَّحوا في المَجلِسِ، ولم يَخْصُصْ بذلك مَجلِسَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم دونَ مَجلِس القتالِ، وكِلا المَوضعَينِ يُقالُ له مَجلِسٌ، فذلك على جميعِ المَجالِسِ مِن مَجالِسِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَجالِسِ القِتالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨).

وقال ابن جُزَي: (اختلَفوا هل هي مَقصورةٌ على مَجلسِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ أو هي عامَّةٌ في جميعِ المَجالِسِ؟ فقال قومٌ: إنَّها مخصوصةٌ، ويدُلُّ على ذلك قِراءةُ ﴿المَجلِسِ﴾ بالإفرادِ [قرأ عاصمٌ بألفٍ على الجمعِ، والباقونَ بغيرِ ألفٍ. «النشر» لابن الجزري «٢/ ٣٨٥»]، وذهَب الجمهورُ إلى أنَّها عامَّةٌ، ويدُلُّ على ذلك قراءةُ ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ بالجَمعِ، وهذا هو الأصَحُّ، ويكونُ المجلِسُ بالإفرادِ على هذا للجنسِ، والتَّفسيحُ المأمورُ به هو التَّوسُّعُ دونَ القيامِ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يُقِمْ أحدٌ [أحدًا] مِن مَجلِسِه ثمَّ يَجلِس الرَّجُلُ فيه، ولكنْ تَفسَّحوا وتَوسَّعوا»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٣).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ في الآيةِ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَجلِسٍ اجتمَع المُسلِمونَ فيه للخَيرِ والأجرِ؛ سواءٌ كان مَجلِسَ حربٍ، أو ذِكْرٍ، أو مَجلِسَ يومِ الجُمُعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٧).

وقال ابن عطيَّة: (قال جمهورُ أهلِ العِلمِ: السَّببُ مَجلِسُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والحُكمُ في سائرِ المجالِسِ الَّتي هي للطَّاعاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٧٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال الماوَرْدي: (﴿... وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: معناه: وإذا قيل لكم: انهَضوا إلى القتالِ فانهَضوا، قاله الحسَنُ. الثَّاني: إذا دُعيتُم إلى الخَيرِ فأجيبوا، قاله =

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

أي: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً[١].

= قَتادةُ. الثَّالثُ: إذا نُوديَ للصَّلاةِ فاسعَوْا إليها، قاله مُقاتِلُ بنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: أنَّهم كانوا إذا جلَسوا في بيتِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أطالوا؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ منهم هو الآخِرَ عهدًا به، فأمَرَهم اللهُ أن يَنشُزوا إذا قيل لهم: انشُزوا، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٢).

قال القاسمي: (ولا تَنافيَ بيْن هذه الأقوالِ؛ لأنَّ كُلًّا منها تفسيرٌ لِلَّفظِ العامِّ ببعضِ أفرادِه وما يَصدُقُ عليه؛ إشارةً إلى تَناوُلِه لذلك، لا أنَّ أحَدَها هو المرادُ دونَ غيرِه، فذلك ما لا يُتوَهَّمُ. وقد كثُر مِثلُ ذلك في تفاسيرِ السَّلفِ لكثيرٍ مِن الآيِ، وكلُّه ممَّا لا اختِلافَ فيه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٣).

وقال الثعلبي: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: وإذا قيل لكم: انهضَوا إلى الصَّلاةِ والجِهادِ والذِّكرِ وعمَلِ الخَيرِ -أيَّ حقٍّ كان- فانشُزُوا ولا تُقَصِّروا). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٠).

وممَّن اختار العُمومَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨، ٤٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٦).

قال البقاعي: (لَمَّا كانت التَّوسِعةُ يَكفي فيها التَّزَحزُحُ مع دوامِ الجلوسِ تارةً، وأُخرى تدعو الحاجةُ فيها إلى القيامِ للتَّحَوُّلِ مِن مكانٍ إلى آخَرَ؛ قال:... ﴿انشُزُوا﴾ أي: ارتَفِعوا وانهَضوا إلى الموضِعِ الَّذي تُؤمَرونَ به أو يقتضيه الحالُ للتَّوسعةِ أو غيرِها مِن الأوامِرِ، كالصَّلاةِ، أو الجهادِ، وغيرِهما؛ ﴿فَانشُزُوا﴾ أي: فارتَفِعوا وانهَضوا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وقال ابن عاشور: (ذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تفسيحٌ مِن قُعودٍ... وهذا الحُكمُ إذا عَسُرَ التَّفسيحُ واشتَدَّ الزِّحامُ والتَّراصُّ؛ فإنَّ لأصحابِ المقاعِدِ الحَقَّ المستقِرَّ في أن يَستَمِرُّوا قاعِدينَ لا يُقامُ أحدٌ لغَيرِه، وذلك إذا كان المَقومُ لأجْلِه أَولى بالمكانِ مِن الَّذي أُقيمَ له؛ بسَبَبٍ مِن أسبابِ الأَوَّليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن رجب: (قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مَسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يَرفَعُ بهذا الكِتابِ أقوامًا، ويَضَعُ به آخَرينَ))(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا تَخفَى عليه أعمالُ العِبادِ ونيَّاتُهم، فيَعلَمُ المُطيعَ مِن العاصي، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ رفْعَ الدَّرَجاتِ ومَن لا يَستَحِقُّ ذلك(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

اتَّفَق العُلَماءُ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بالآيةِ الَّتي تَليها(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

= وقال ابنُ كثير: (أي: لا تعتَقِدوا أنَّه إذا فَسَح أحدٌ منكم لأخيه إذا أقبَلَ، أو إذا أُمِرَ بالخُروجِ فخرَجَ؛ أن يكونَ ذلك نقصًا في حقِّه، بل هو رفعةٌ ومَزيَّةٌ عندَ اللهِ، واللهُ تعالى لا يُضيعُ ذلك له، بل يَجزيه بها في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّ مَن تواضَعَ لأمرِ اللهِ رَفَع اللهُ قَدْرَه، ونَشَر ذِكْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨).

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٦).

أي: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك(١).

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

أي: تقديمُ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- مِن تَرْكِها، وأطهَرُ لقُلوبِكم(٢).

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم؛ فلا يَشُقُّ عليهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٣).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: إنَّهم نُهُوا عن المُناجاةِ حتَّى يتصَدَّقوا، فلم يُناجِهِ أحدٌ إلَّا عليُّ ابنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ تَصَدَّقَ بدينارٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥).

قال القاسمي: (﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: لأنفُسِكم؛ لِما فيه مِن مُضاعَفةِ الأجرِ والثَّوابِ، والقيامِ بحقِّ الإخاءِ، بالعَودِ على ذَوي المَسْكَنةِ بالمواساةِ والإغناءِ. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ أي: لأنفُسِكم مِن رَذيلةِ البخلِ والشُّحِّ، ومِن حُبِّ المالِ وإيثارِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تأديبًا لهم وتعليمًا، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ هذا التَّعظيمَ ﴿خَيْرٌ﴾ للمؤمنينَ ﴿وَأَطْهَرُ﴾، أي: بذلك يَكثُرُ خيرُكم وأجرُكم، وتحصُلُ لكم الطَّهارةُ مِن الأدناسِ، الَّتي مِن جملتِها ترْكُ احترامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم والأدبِ معه بكثرةِ المُناجاةِ الَّتي لا ثمرةَ تحتَها، فإنَّه إذا أمر بالصَّدقةِ بيْن يدَيْ مُناجاتِه صار هذا ميزانًا لِمَن كان حريصًا على الخَيرِ والعِلمِ، فلا يُبالي بالصَّدقةِ، ومن لم يكُنْ له حِرصٌ ولا رَغبةٌ في الخَيرِ، وإنَّما مقصودُه مجرَّدُ =

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ ختمُ الآيةِ على التَّخفيفِ، وكان قد يَدَّعي مُدَّعُونَ عَدَمَ الوِجدانِ كَذِبًا، فيَحصُلُ لهم حَرَجٌ، وكان اللهُ تعالى شديدَ العِنايةِ بنَجاةِ هذه الأُمَّةِ؛ دَلَّ على لُطفِه بهم بنَسْخِه بعد فَرْضِه[1].

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

أي: أخِفْتُم وخَشِيتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ[2]؟

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

= كثرةِ الكلامِ؛ فيَنكَفُّ بذلك عن الَّذي يشُقُّ على الرَّسولِ، هذا في الواجِدِ للصَّدقةِ، وأمَّا الَّذي لا يجِدُ الصَّدقةَ فإنَّ اللهَ لم يُضيِّقْ عليه الأمرَ، بل عفا عنه وسامَحه، وأباح له المُناجاةَ بدونِ تقديمِ صدقةٍ لا يَقدِرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أيْ: أبَخِلْتُم بالصَّدقةِ؟ وقيل: خِفْتُم، والإشفاقُ: الخوفُ مِن المكروهِ. أيْ: خِفْتُم وبَخِلْتُم بالصَّدقةِ وشقَّ عليكم ﴿أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣).

وقال ابن جرير: (أصلُ الإشفاقِ في كلامِ العَرَبِ: الخوفُ والحَذَرُ، ومعناه في هذا الموضِعِ: أخَشِيتُم بتقديمِ الصَّدَقةِ الفاقةَ والفقرَ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: أخِفْتُم مِن استمرارِ هذا الحُكمِ عليكم مِن وُجوبِ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩).

وقال أبو السعود: (أيْ: أخِفْتُم الفقرَ مِن تقديمِ الصَّدقاتِ؟ أو: أخِفْتُم التَّقديمَ لِما يَعِدُكُم الشَّيطانُ عليه مِن الفقرِ؟). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١).

أي: فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ الواجِبةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطُوا الزَّكاةَ المفروضةَ في أموالِكم إلى مُستَحِقِّيها[١].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهْيِهما[٢].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بجَميعِ أعمالِكم، فيَعلَمُ بواطِنَها كما يَعلَمُ ظواهِرَها، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليها[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن وَسَّع على عبادِ اللهِ أبوابَ الخَيرِ والرَّاحةِ، وَسَّع اللهُ عليه خَيراتِ الدُّنيا والآخرةِ، ولا يَنبغي للعاقِلِ أن يُقَيِّدَ الآيةَ بالتَّفَسُّحِ في المجلِسِ، بل المرادُ منه إيصالُ الخَيرِ إلى المسلِمِ، وإدخالُ السُّرورِ في قَلْبِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نَسَخَ اللهُ ذلك الحُكمَ، وهذا خِطابٌ لِمَن وَجَد ما يتصَدَّقُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ولذلك قال عليه السَّلامُ: ((واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه))[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ هذا تأديبٌ مِن اللهِ لعبادِه المؤمِنينَ إذا اجتَمَعوا في مجلِسٍ مِن مجالِسِ مُجتَمَعاتِهم، واحتاج بَعضُهم أو بَعضُ القادمينَ عليهم للتَّفَسُّحِ له في المجلِسِ؛ فإنَّ مِن الأدَبِ أن يَفسَحوا له؛ تحصيلًا لهذا المقصودِ[٢]. فالآيةُ فيها استِحبابُ التَّفَسُّحِ في مجالسِ العِلمِ والذِّكرِ والحَربِ، وكُلِّ مَجلِسِ طاعةٍ، والنَّهيُ عن إقامةِ شَخصٍ ويجلِسَ مكانَه، ولكِنْ يَتفَسَّحُ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ مَن عَمِل بهذا القُرآنِ تَصديقًا بأخبارِه، وتنفيذًا لأوامِرِه، واجتِنابًا لِنواهيه، واهتِداءً بهَدْيِه، وتخَلُّقًا بما جاء به مِن أخلاقٍ، وكُلُّها أخلاقٌ فاضِلةٌ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُه به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وذلك لأنَّ هذا القُرآنَ هو أصلُ العِلمِ، ومَنبَعُ العِلمِ، وكُلُّ العِلمِ[٤].

٤- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الرِّفعةَ عندَ اللهِ تعالى بالعِلمِ والإيمانِ، لا بالسَّبْقِ إلى صدورِ المجالِسِ[٥].

٥- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى رَفَع المؤمِنَ على مَن ليس بمؤمِنٍ، والعالِمَ على مَن ليس بعالِمٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) مطوَّلًا مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فيه فَضيلةُ العِلمِ، وأنَّ زِينتَه وثَمرتَه التَّأدُّبُ بآدابِه، والعَمَلُ بمُقتَضاه[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ في إدْخالِ الَّذين أُوتوا العِلمَ في حُكمِ رفْعِ المَنزِلةِ بسَببِ امتثالِ الأوامرِ مع الَّذين آمَنوا، ثمَّ في إخْراجِهم عنهم والعطْفِ عليهم- إيذانٌ بأنَّ العمَلَ الواحدَ تَتفاوَتُ دَرجةُ فاعِلِه بحسَبِ التَّخلِّي عن العِلمِ والتَّحلِّي به إلى غاياتٍ بَعيدةٍ، وأنَّ العمَلَ مع عُلوِّ رُتبتِه يَكتسِبُ مِن العِلمِ المقرونِ به مِن الرِّفعةِ ما لا يَكتسِبُه إذا انفَرَدَ عنه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ حَثٌّ على تحقيقِ الإيمانِ، وعلى طَلَبِ العلمِ؛ لأنَّ اللهَ يَرْفَعُ أهلَ العلمِ، وفي هذا يقولُ الشَّاعرُ:

العِلمُ يَرْفَعُ بَيتًا لا عِمادَ لَه ... والجَهلُ يَهْدِمُ بيتَ العِزِّ والشَّرَفِ[٣]

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يَعمَلَ بما يُسخِطُ اللهَ تعالى، فلا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ، لا بالقَولِ، ولا بالفِعلِ، ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ به، واحذرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[٤] [آل عمران: ٢٨].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ دليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يقولَ للجماعةِ الَّذين عنده «انْشُزُوا، اخرُجوا بارَكَ اللهُ فيكم، انتهى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شغلُكم» ونحوَ ذلك، ولا حياءَ في ذلك ولا غَضاضةَ عليه، وينبغي للإنسانِ أنْ يُخَفِّفَ الجلوسَ عندَ النَّاسِ ما استطاعَ، إلَّا إذا عَلِمَ مِن صاحبِه أنَّه يُحِبُّ أنْ تبقى عندَه، فلا بأسَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يُستَفادُ منه أنَّ تَفَسُّحَ المسلمينَ بَعضِهم لبَعضٍ في المجالِسِ مَحمودٌ مأمورٌ به وُجوبًا أو نَدْبًا؛ لأنَّه مِن المكارِمِ والإرفاقِ، فهو مِن مُكَمِّلاتِ واجِبِ التَّحابِّ بيْن المسلِمينَ، وإن كان فيه كُلفةٌ على صاحِبِ البُقعةِ يُضايقُه فيها غَيرُه، فهي كُلفةٌ غيرُ مُعتبَرةٍ إذا قُوبِلَت بمَصلحةِ التَّحابِّ وفوائِدِه، وذلك ما لم يُفْضِ إلى شِدَّةِ مُضايَقةٍ ومَضَرَّةٍ، أو إلى تفويتِ مَصلَحةٍ مِن سَماعٍ أو نحوِه، مِثلُ مجالِسِ العِلمِ والحديثِ، وصُفوفِ الصَّلاةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أفهَمَ لَفظُ التَّفَسُّحِ أنَّه تجنُّبٌ للمُضايَقةِ والمُراصَّةِ، بحيثُ يَفُوتُ المقصودُ مِن حُضورِ ذلك المجلِسِ، أو يَحصُلُ ألَمٌ للجالِسينَ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وعْدٌ بالجزاءِ على الامتِثالِ لأمْرِ التَّفسُّحِ مِن جِنسِ الفِعلِ؛ إذ جُعِلَت تَوسعةُ اللهِ على المُمتثِلِ جَزاءً على امتثالِه الَّذي هو إفساحُه لغيرِه، فضَميرُ ﴿لَكُمۡ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باعتِبارِ أنَّ الَّذين يَفسَحون همْ مِن جُملةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ الحُكمَ مُشاعٌ بيْن جَميعِ الأُمَّةِ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجزاءُ للَّذين تَعلَّقَ بهم الأمْرُ تعلُّقًا إلْزاميًّا[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾. قولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾ يَشملُ ما إذا قاله الدَّاخِلُ، أو قاله مَن يُديرُ المجلِسَ؛ ولهذا تَجِدُ أنَّ الفِعلَ هو «قيل»، ولم يُذْكَرِ القائلُ؛ لِيَشملَ هذا وهذا، فمثلًا: إذا كان المجلسُ له مديرٌ يُجَلِّسُ النَّاسَ وقال لبعضِهم: تَوَسَّعوا لفُلانٍ يَجْلِسْ، فلْيَتَوَسَّعوا، أو أنَّ رجُلًا دَخَلَ والمجلسُ مُكْتَظٌّ بالجالِسينَ، فقال: تَوَسَّعوا؛ فلْيَتَوَسَّعوا[٢].

٥- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ لَمَّا كان النُّشوزُ ارتفاعًا عن المكانِ الَّذي كان به، كان جَزاؤُه مِن جنسِه[٣].

٦- أفضَلُ ما اكتسَبَتْه النُّفوسُ وحَصَّلَته القُلوبُ، ونال به العَبدُ الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخِرةِ: هو العِلمُ والإيمانُ؛ ولهذا قَرَن بيْنَهما سُبحانَه في قَولِه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾، وقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾[الروم: ٥٦]، وهؤلاء هم خُلاصةُ الوُجودِ ولُبُّه، والمؤهَّلونَ للمراتِبِ العاليةِ[٤].

٧- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ قال قومٌ: معناه: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ العُلَماءَ منكم دَرَجاتٍ على غَيرِهم؛ فلذلك أَمَر بالتَّفَسُّحِ من أجْلِهم، ففيه دليلٌ على رفْعِ العُلَماءِ في المجالِسِ، والتَّفَسُّحِ لهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

المجالِسِ الرَّفيعةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ خَصَّ سُبحانَه رفْعَه بالأقدارِ والدَّرَجاتِ الَّذين أُوتوا العِلمَ والإيمانَ، وهم الَّذين استَشهدَ بهم في قَولِه تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأَخْبَرَ أنَّهم هم الَّذين يَرون ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ هو الحقَّ، بقَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، فدلَّ على أنَّ تَعَلُّمَ الحُجَّةِ والقيامَ بها يَرفَعُ دَرَجاتِ مَن يَرْفَعُها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالعِلمِ. فرَفْعُ الدَّرَجاتِ والأقدارِ على قَدْرِ مُعامَلةِ القُلوبِ بالعِلمِ والإيمانِ، فكم ممَّن يَختِمُ القرآنَ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتَينِ، وآخَرَ لا ينامُ اللَّيلَ، وآخرَ لا يُفْطِرُ، وغيرُهم أقَلُّ عبادةً منهم، وأَرْفَعُ قَدْرًا في قُلوبِ الأُمَّةِ[٢]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ لم يُعَيِّنْ عزَّ وجلَّ الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ هذه الدَّرَجاتِ بحَسَبِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ والعِلمِ، كلَّما قَوِيَ الإيمانُ وكُلَّما كثُرَ العِلمُ، وانتَفَعَ الإنسانُ به، ونَفَعَ غيرَه- كان أكثَرَ درَجاتٍ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما ازداد طاعةً للهِ وانقيادًا لِأمْرِه، ازداد رِفعةً[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٤٠).

أنَّ الجزاءَ على قَدْرِ قيمةِ المَجْزِيِّ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ تفضيلُ العِلمِ على العبادةِ؛ فقولُه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ[٢].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ مَنسوخٌ بالآيةِ الَّتي بَعْدَها؛ ففيه دليلٌ على جوازِ النَّسخِ بلا بَدَلٍ، ووُقوعِه، خلافًا لِمَن أبى ذلك[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ تنبيهٌ وإشارةٌ أنه إذا استُحِبَّتِ الصَّدقةُ بيْن يَدَيْ مُناجاةِ المخلوقِ، فاستِحبابُها بيْن يَدَيْ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (١/ ٦)، ((شرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي ومعه حاشية السعد والجرجاني)) (٣/ ٢٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ القيِّم -بعد أن ذكر أنَّ الأحكامَ المنسوخةَ لم تبطُلْ بالكُلِّيَّةِ، بل لها بقاءٌ بوجْهٍ-: (نَسخُ وُجوبِ الصَّدَقةِ بيْنَ يَدَيْ مُناجاةِ الرَّسولِ لم يَبطُلْ حُكمُه بالكُلِّيَّةِ، بل نُسِخَ وُجوبُه، وبَقِيَ استِحبابُه والنَّدبُ إليه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٣٣).

وقال أبو يعلى الفرَّاءُ: (الصَّدقةُ عندَ مُناجاةِ الرَّسولِ كانت واجبةً بقولِه تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، فنُسِخ ذلك الوُجوبُ إلى جَوازِ تَركِها وجوازِ فِعلِها بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...﴾). ((العدة في أصول الفقه)) (٣/ ٧٨٤).

وقال الشنقيطي: (وُجوب تقديمِ الصَّدقةِ أمامَ المُناجاةِ لَمَّا نُسِخ بقيَ استِحبابُ الصَّدقةِ ونَدْبُها، بدلًا مِن الوُجوبِ المنسوخِ كما هو ظاهرٌ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٤٨).

مُناجاةِ اللهِ عندَ الصَّلَواتِ والدُّعاءِ: أَولى[(١)].

١٥- قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ التَّعبيرُ بأفعَلَ؛ لأنَّهم مُطَهَّرون قَبْلَه بالإيمانِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فُصِلَ بيْنَ آياتِ الأحكامِ المُتعلِّقةِ بالنَّجوى بهذه الآيةِ؛ مُراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بيْنَ مَضمونِ هذه الآيةِ ومَضمونِ الَّتي بعْدَها في أنَّهما يَجمَعُهما غرَضُ التَّأدُّبِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك المُراعاةُ أَولى مِن مُراعاةِ اتِّحادِ سِياقِ الأحكامِ؛ ففي هذه الآيةِ أدَبٌ في مَجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والآيةُ الَّتي بعْدَها تَتعلَّقُ بالأدَبِ في مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُخِّرت تلك عن آياتِ النَّجوى العامَّةِ؛ إيذانًا بفضْلِها دونَ النَّجوى الَّتي تَضمَّنَتها الآياتُ السَّابقةُ، فاتِّحادُ الجِنسِ في النَّجوى هو مُسوِّغُ الانتِقالِ مِن النَّوعِ الأوَّلِ إلى النَّوعِ الثَّاني، والإيماءُ إلى تَميُّزِها بالفضْلِ هو الَّذي اقْتَضى الفصلَ بيْن النَّوعَين بآيةِ أدَبِ المجلسِ النَّبويِّ، وأيضًا قد كان للمنافِقين نيَّةُ مَكْرٍ في قَضيَّةِ المجلسِ كما كان لهم نيَّةُ مَكرٍ في النَّجوى، وهذا ممَّا أنشَأَ مُناسَبةَ الانتِقالِ مِن الكلامِ على النَّجوى إلى ذِكرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ النَّبويِّ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٣).

وقال ابن القيِّم: (كان بَعضُ السَّلَفِ الصَّالحِ يتصَدَّقُ بيْن يدَي الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمكَنَه، ويتأوَّلُ هذه الأولويَّةَ، ورأيتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ يَفعَلُه ويَتحرَّاه ما أمكَنَه، وفاوَضْتُه فيه، فذكَرَ لي هذا التَّنبيهَ والإشارةَ). ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨١).

الشَّريفِ(١).

- قولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ حُذِفَ فاعِلُ القولِ؛ لظُهورِه، أي: إذا قال لكم الرَّسولُ: تفسَّحوا، فافْسَحوا؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُكم على ذلك(٢). أو: إذا قال لكم قائلٌ كائنًا مَن كان(٣).

- وابتُدِئت الآيةُ بالأمْرِ بالتَّفسُّحِ؛ لأنَّ إقامةَ النَّاسِ مِن المجالسِ يكونُ لطلَبِ التَّفسيحِ، فإناطةُ الحكْمِ إيماءٌ إلى عِلةِ الحكْمِ(٤).

- والتَّفسُّحُ: التَّوسُّعُ، ومادَّةُ التَّفعُّلِ هنا للتَّكَلُّفِ، أي: يُكلَّفُ أنْ يَجعَلَ فُسحةً في المكانِ(٥).

- وتَعريفُ (المَجالسِ) يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ العهْدِ، وهو مَجلسُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكم ذلك؛ لأنَّ أمْرَه لا يكونُ إلَّا لمُراعاةِ حقٍّ راجحٍ على غيرِه، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعريفُ المجالسِ تَعريفَ الجِنسِ(٦).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَتطلَّبُ النَّاسُ الإفساحَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن مَكانٍ ورِزقٍ، أو جنَّةٍ عرْضُها السُّمواتُ والأرضُ على حسَبِ النِّيَّاتِ، وتَقديرُ الجزاءِ مَوكولٌ إلى إرادةِ اللهِ تعالَى(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦، ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

- وقولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾، و﴿ٱنشُزُواْ﴾ أمْرٌ مِن: نَشَزَ؛ إذا نهَضَ مِن مكانِه، والنُّشوزُ: أخَصُّ مِن التَّفسيحِ مِن وجْهٍ؛ فهو مِن عطْفِ الأخَصِّ مِن وجْهٍ على الأعمِّ منه للاهتمام بالمعطوفِ؛ لأنَّ القِيامَ مِن المجلسِ أقْوى مِن التَّفسيحِ مِن قُعودٍ؛ فذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تفسيحٌ مِن قُعودٍ[1].

- قولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ الجزاءُ برفْعِ الدَّرجاتِ هنا مُناسِبٌ للعمَلِ؛ لأنَّ المأمورَ به تَفسيحُ المجالِسِ؛ كيْلَا يَتنافَسوا في القُرْبِ مِن المكانِ الرَّفيعِ حوْلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَتضايَقوا، وذلك لا يَليقُ بآدابِ المجلسِ الَّتي مِن أوَّلِها تَفادي إزعاجِ المُجالِسينَ وتَضييقِ صُفوفِهم، واجتنابُ ما يُكدِّرُ صَفاءَهم، ويُنغِّصُ بالَهُم. ولَمَّا كان المُمتثِلُ لذلك الأمْرِ يَخفِضُ نفْسَه عمَّا يُتنافَسُ فيه مِن الرِّفعةِ امتثالًا وتَواضُعًا؛ جُوزِيَ على تَواضُعِه برفْعِ الدَّرجاتِ، ثمَّ لَمَّا علِمَ أنَّ أهلَ العِلمِ بحيث يَسْتوجبونَ عِندَ أنفُسِهم وعِندَ النَّاسِ ارتفاعَ مَجالِسِهم، خصَّهم بالذِّكرِ عندَ الجَزاءِ؛ لِيَسهُلَ عليهم ترْكُ ما لهم مِن الرِّفعةِ في المجلِسِ تَواضعًا للهِ تعالَى، وفي هذا التَّخصيصِ إلْماعٌ إلى فضْلِ العِلمِ[2].

- وعطْفُ (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) عطْفُ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ غِشْيانَ مَجلسِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو لطلَبِ العِلمِ مِن مَواعظِه وتَعليمِه، أي: والَّذين أُوتوا العِلمَ منكم أيُّها المؤمِنون؛ لأنَّ الَّذين أُوتوا العِلمَ قد يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٤).

الأمرُ لأحدٍ بالقِيامِ مِن المَجلِسِ مِن أجْلِهم، أي: مِن أجْلِ إجْلاسِهم، وذلك رفْعٌ لدَرَجاتِهم في الدُّنيا، ولأنَّهم إذا تَمكَّنوا من مَجلِسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان تَمكُّنُهم أجمَعَ للفَهمِ، وأنْفى للمَلَلِ، وذلك أدْعى لإطالتِهم الجلوسَ، وازديادِهم التَّلقِّيَ، وتَوفيرِ مُستنبَطاتِ أفْهامِهم فيما يُلْقى إليهم مِن العِلمِ؛ فإقامةُ الجالسينَ في المَجلِسِ مِن أجْلِ إجلاسِ الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن رفْعِ دَرَجاتِهم في الدُّنيا. ويَجوزُ أنَّ بعضًا مِن الَّذين أُمِروا بالقِيامِ كان مِن أهلِ العِلمِ؛ فأُقيمَ مِن أجلِ رُجْحانِ فَضيلةِ البَدْريِّينَ عليه، فيَكونُ في الوعْدِ للَّذي أُقِيمَ مِن مَكانِه برفْعِ الدَّرَجاتِ استئناسٌ له بأنَّ اللهَ رافعٌ دَرجتَه[(١)].

وقيل: رُوعِيَ في هذا التَّركيبِ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ مَن يَشهَدُ مَجلِسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المؤمنينَ أحدُ رجُلَينِ: عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ، وعالِمٌ عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ والاستِنباطِ والتَّعليمِ، فأراد اللهُ سُبحانَه وتعالَى مدْحَ الفريقَين، وتَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ مِن حيث لا يَلزَمُ منه نقْصُه، أتى بالعامِّ وعطَفَ عليه الخاصَّ، وأبرَزَهما في مَعرِضِ الجُملتَينِ، فيَكونُ مِن بابِ عطفِ التَّقديرِ لا الانسحابِ؛ فالدَّرجاتُ ظرْفٌ للفِعلِ المُقدَّرِ، ويُضمَرُ للمذكورِ أحطُّ منه ممَّا ناسَبَ المقامَ، مثل: يَرفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكم بالنَّصرِ وحُسْنِ الذِّكرِ في الدُّنيا، وإيوائِهم غُرَفَ الجِنانِ في الآخرةِ، ويَرفَعِ العُلماءَ منهم خاصَّةً دَرَجاتٍ؛ بما جَمَعوا بيْن العِلمِ والعمَلِ[(٢)].

- وضَميرُ ﴿مِنكُمْ﴾ خِطابٌ للَّذين نُودوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ، أي: يَرفَعِ اللهُ دَرَجاتِ الَّذين امْتَثَلوا، وقَرينةُ هذا التَّقديرِ هي جَعلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧، ٢٨٨).

الفِعلِ ﴿يَرۡفَعِ﴾ جَزاءً للأمرِ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ فإنَّ الجزاءَ مُسبَّبٌ عمَّا رُتِّبَ عليه بقولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الَّذين آمَنوا مِن المؤمنينَ، والتَّغايُرُ بيْن معْنى الوصفِ ومعْنى الموصوفِ بتَغايُرِ المُقدَّرِ، وإن كان لَفظُ الوصْفِ ولَفظُ الموصوفِ مُترادفَينِ في الظَّاهرِ، فآلَ الكلامُ إلى تَقديرِ: يَرفَعِ اللهُ الَّذين اسْتَجابوا للأمْرِ بالنُّشوزِ إذا كانوا مِن المؤمنينَ، أي: دونَ مَن يضُمُّه المجلسُ مِن المنافقين، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: يَرفَعِ اللهُ النَّاشِزينَ منكم، فاستُحْضِروا بالمَوصولِ بصِلةِ الإيمانِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ رفْعِ الدَّرجاتِ مِن أجْلِ امتثالِهم أمْرَ القائلِ ﴿ٱنشُزُواْ﴾، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنْ كان لإيمانِهم، وأنَّ ذلك الامتثالَ مِن إيمانِهم ليس لنفاقٍ، أو لصاحبِه امتعاضٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنْواعِها مِن درَجاتِ الدُّنيا ودرَجاتِ الآخرةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تَذييلٌ، أي: اللهُ عليمٌ بأعمالِكم، ومُختلِفِ نِيَّاتِكم مِن الامتثالِ، كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُكْلَمُ[٣] أحدٌ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ بمَن يُكلَمُ في سَبيلِه ...))[٤] الحديثَ[٥].

- وقُدِّمَ الجارُّ ومَدخولُه وإنْ كان عِلمُه سُبحانَه بالأشياءِ كلِّها على حدٍّ سواءٍ؛ تنبيهًا على مَزيدِ الاعتِناءِ بالأعمالِ، لا سيَّما الباطنةِ مِن الإيمانِ والعِلمِ اللَّذَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٠).

(٣) أي: يُجْرَحُ؛ مِنَ الكَلْمِ: وهو الجُرْحُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٨٠٣)، ومسلمٌ (١٨٧٦) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

هُما الرُّوحُ الأعظَمُ؛ لأنَّ المَقامَ لنُزولِ الإنسانِ عن مكانِه بالتَّفسُّحِ والانخفاضِ والارتفاعِ، ولا يَخفَى ما في ذلك مِن حَظِّ النفْسِ الحامِلِ على الجريِ مع الدَّسائسِ؛ فكان جديرًا بمَزيدِ التَّرهيبِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به إلى ذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّجوى، وهو مِن أحوالِها المحمودةِ، والمُناسَبةُ هي قولُه تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]؛ فهذه الصَّدقةُ شرَعَها اللهُ تعالى وجعَلَ سبَبَها مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فذُكِرَت عقِبَ آيِ النَّجوى؛ لاستِيفاءِ أنواعِ النَّجوى مِن مَحمودٍ ومَذمومٍ(٢).

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ تَعريفٌ بحِكمةِ الأمْرِ بالصَّدقةِ قبْلَ نَجوى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَرغَبَ فيها الرَّاغِبون(٣).

- واستِفادةُ أنَّ غيرَ الواجِدِ لا حرَجَ عليه في النَّجوى بدونِ صَدقةٍ، حاصلةٌ بدَلالةِ الفَحْوى؛ لأنَّه لا يَترُكُ مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ إرادةَ مُناجاتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيست عبَثًا، بلْ لتَحصيلِ عِلمٍ مِن أُمورِ الدِّينِ. وأمَّا قولُه: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فهو في مُقابَلةِ ما فات غيرَ الواجِدِ ما يَتصدَّقُ به

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٥).

مِن تَزكيةِ النَّفْسِ؛ إشعارًا له بأنَّ رَحمةَ اللهِ تَنفَعُه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾ الاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، مُستعمَلٌ في اللَّومِ على تَجهُّمِ تلك الصَّدقةِ مع ما فيها مِن فَوائدَ لنفْعِ الفُقراءِ[٢]. أو الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ[٣].

- و(إذ) ظَرفيَّةٌ مُفيدةٌ للتَّعليلِ، أي: فحِينَ لم تَفعَلوا فأقيموا الصَّلاةَ، و(فاءُ) ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ[٤].

- وما تَتعلَّقُ به (إذ) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، تَقديرُه: خفَّفْنا عنكم، وأعفَيْناكم مِن أنْ تُقدِّموا صَدقةً قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

- و(الفاءُ) في ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عاطِفةٌ على الكلامِ المُقدَّرِ: وحافِظوا على التَّكاليفِ الأُخرى، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وطاعةِ اللهِ ورسولِه، أي: فذلك لا تَسامُحَ فيه؛ قِيل لهم ذلك لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم كلَّما ثَقُلَ عليهم فِعلٌ ممَّا كُلِّفوا به يُعْفَون منه. وفِعلُ ﴿فَأَقِيمُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥، ٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٦، ٤٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فِعلُ ﴿وَءَاتُوا۟ ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وهو كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن التَّفريطِ في طاعةِ اللهِ ورَسولِه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٤-١٩)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَوَلَّوْا﴾: أصلُ (ولي) يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[(١)].

﴿أَيْمَانَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[(٢)].

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾: أي: غَلَب واستَولَى، وأصلُ (حوذ): يدُلُّ على الخِفَّةِ والسُّرعةِ[١].

﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أي: جُنْدُه وأتْباعُه وطائِفَتُه، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ من كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شناعةَ حالِ المنافِقين، وسوءَ عاقبتِهم: ألمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين تولَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وما هؤلاء المنافِقونَ مِن أهلِ دينِكم، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ، ويَحلِفونَ لكم كَاذِبينَ وهم يَعلَمونَ كَذِبَهم، هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً.

اتَّخذ المنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، فصَدُّوا عن اتِّباعِ الحَقِّ؛ فلهم عَذابٌ مُذِلٌّ لهم. لن تُغْنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئًا مِن عذابِ اللهِ، أولئك أهلُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا، يومَ يَبعَثُهم اللهُ فيَحلِفونَ له كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما كانوا يَحلِفونَ لكم في الدُّنيا كَذِبًا، ويَظُنُّونَ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى، ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سببَ انغماسِ المنافِقينَ في نِفاقِهم، فيقولُ: استولَى عليهم الشَّيطانُ حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، ولم يَعمَلوا بطاعَتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦).

أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وجُندُه، ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وجُندَه هم الخاسِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بإحاطةِ عِلمِه؛ ردعًا لِمَن يَغتَرُّ بطولِ حِلمِه- دلَّ على ذلك باطِّلاعِه على نِفاقِ المنافِقين، الَّذي هو أبطَنُ الأشياءِ[١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين توَلَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، فيَنصَحونَ لهم ويُناصِرونَهم[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٢، ٥٥٣).

قال ابن تيميَّة: (هم المنافقونَ الَّذين توَلَّوُا اليهودَ، باتِّفاقِ أهلِ التَّفسيرِ، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ عليه). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٧٧، ٧٨).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن شَناعةِ حالِ المنافِقينَ الَّذين يَتولَّون الكافِرين مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم ممَّن غَضِبَ اللهُ عليهم، ونالوا مِن لَعنةِ الله أوفى نصيبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال الشنقيطي: (المراد إنكارُ الله على المنافِقينَ تَوَلِّيَهم القَومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهم اليهودُ والكفَّارُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

أي: ليس المنافِقونَ في الحقيقةِ مِن أهلِ دينِكم -أيُّها المؤمِنونَ-، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (ليسوا مِن المؤمِنينَ ولا مِن الكافِرينَ، فليسوا مؤمنينَ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ باطِنَهم مع الكُفَّارِ، ولا مع الكُفَّارِ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ ظاهِرَهم مع المؤمنينَ، وهذا وصْفُهم الَّذي نعَتَهم اللهُ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مَّا هُم﴾ يعودُ على المنافِقين: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال أبو حيَّان: (الضَّمير في ﴿مَّا هُم﴾ عائدٌ على الَّذين توَلَّوْا، وهم المنافِقون، أي: ليسوا منكم أيُّها المؤمنونَ، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ليسوا مِن الَّذين توَلَّوْهم، وهم اليهودُ. و﴿مَّا هُم﴾ استئنافُ إخبارٍ بأنَّهم مُذَبْذَبون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... وقال ابنُ عطيَّة: يحتملُ تأويلًا آخَرَ، وهو أن يكونَ قولُه: ﴿مَّا هُم﴾ يريدُ به اليهودَ، وقولُه: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريدُ به المنافِقين، فيَجيءُ فِعلُ المنافِقينَ على هذا التَّأويلِ أخَسَّ؛ لأنَّهم توَلَّوْا مغضوبًا عليهم، ليسوا مِن أنفُسِهم فيَلزَمَهم ذِمامُهم، ولا مِن القَومِ المُحِقِّينَ فتكونَ الموالاةُ صوابًا. انتهى. والظَّاهرُ التَّأويلُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الَّذين توَلَّوْا هم المُحَدَّثُ عنهم، والضَّميرُ في ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ عليهم، فتَتَناسَقُ الضَّمائرُ لهم ولا تختلِفُ. وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ استِئنافًا، وجاز أن يكونَ حالًا مِن ضميرِ ﴿تَوَلَّوْا﴾. وعلى احتمالِ ابنِ عطيَّةَ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ صِفةً لقَومٍ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٠).

وقال السمين الحلبي عن الاحتمالِ الَّذي ذكره ابنُ عطيَّة: (فيه تنافُر الضَّمائرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ في =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ عليكم رجُلٌ يَنظُرُ بعَينِ شَيطانٍ، أو بعينَيْ شَيطانٍ. قال: فدخَلَ رجُلٌ أزرَقُ، فقال له[١]: عَلامَ تَسُبُّني أوْ تَشْتُمُني؟ قال: فجعَل يَحْلِفُ، قال: فنزَلَت هذه الآيةُ الَّتي في المجادَلةِ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤] والآيةُ الأُخرى))[٢].

= ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٧٣).

(١) ورد في بعضِ الرِّواياتِ: ((فقال: يا محمَّدُ، عَلامَ سبَبْتَني -أو شتَمْتَني)) قال أحمد شاكر: («محمَّد» خطأٌ ينافي السِّياقَ؛ فإنَّ الَّذي نُسِب إليه السَّبُّ والشَّتمُ هو هذا المنافِقُ الأزرقُ، ورسولُ الله يَسألُه ويَتَّهِمُه، وهو يَحلِفُ كاذبًا يَتبرَّأُ مِن التُّهمةِ..، فالظَّاهرُ أنَّ الخطأَ بهذه الزِّيادةِ مِن بعضِ رُواةِ المُسنَدِ أو ناسخيه). ((مسند أحمد)) بتحقيق أحمد شاكر (٢/ ٥٤٣). ويُنظر: ((مسند أحمد)) بتحقق شعيب الأرناؤوط (٤/ ٤٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٢١٤٧)، والبَزَّارُ (٥٠١٠)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٨) (١٢٣٠٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيح). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٨)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج =

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: وهم يَحلِفونَ للمُؤمِنينَ على الكَذِبِ في دعوى الإيمانِ، أو غيرِ ذلك، وهم يَعلَمونَ أنَّهم كاذِبونَ فيما حَلَفوا عليه[(١)]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن حالِ المنافِقينَ؛ أتبَعَه الإخبارَ عن مآلِهم[(٢)].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا[(٣)].

= ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨). ويُنظر: ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) للوادعي (ص: ٢٠٥).

ويُنظر روايةٌ أخرى لهذا الحديث (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (جزاءُ هؤلاء الخَونةِ الفَجَرةِ الكَذَبة: أنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عذابًا شديدًا، لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُعلَمُ وَصفُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ بعَذابِهم علَّله بما دَلَّ على أنَّه واقِعٌ في أتَمِّ مواقِعِه، فقال مؤكِّدًا؛ تقبيحًا على مَن كان يَستَحسِنُ أفعالَهم(١):

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: قد أعدَّ اللهُ لهم عذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً مُتكَرِّرةً أصَرُّوا عليها، حتَّى صارت دَيدَنًا لهم وطَبعًا وجِبِلَّةً(٢).

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: جَعَل المنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، وافتِضاحِ نِفاقِهم، فيتَّقونَ بذلك القتلَ، ويَدفَعونَ عن أنفُسِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم، فصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن اتِّباعِ الحَقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

قال ابن جرير: (فالمنافِقونَ يَصُدُّونَ المؤمنينَ عن سبيلِ اللهِ فيهم بأيْمانِهم إنَّهم مؤمنونَ، =

﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: فلهؤلاء المنافِقينَ عَذابٌ مُذِلٌّ لهم(١).

= وإنَّهم منهم، فيَحولونَ بذلك بيْنَهم وبيْنَ قَتْلِهم، ويَمتَنِعونَ به ممَّا يَمتَنِعُ منه أهلُ الإيمانِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (اتَّقَوا بالأيْمانِ الكاذبةِ، فظَنَّ كثيرٌ ممَّن لا يَعرِفُ حقيقةَ أمْرِهم صِدْقَهم، فاغتَرَّ بهم، فحَصَل بهذا صَدٌّ عن سبيلِ اللهِ لبَعضِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال ابن عاشور في قوله ﴿جُنَّةٗ﴾: (أي: وقايةً مِن شُعورِ المسلمينَ بهم؛ لِيَتمَكَّنوا مِن صَدِّ كثيرٍ ممَّن يريدُ الدُّخولَ في الإسلامِ عن الدُّخولِ فيه؛ لأنَّهم يختَلِقونَ أُكذوباتٍ يَنسُبونَها إلى الإسلامِ والمسلمينَ... و«صَدُّوا» يجوزُ أن يكونَ مُتعَدِّيًا، وحُذِفَ مفعولُه؛ لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ، أي: الإسلامِ، بالتَّثبيطِ، وإلصاقِ التُّهَمِ والنَّقائصِ بالدِّينِ. ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ قاصِرًا، أي: فصَدُّوا هم عن سَبيلِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩، ٥٠).

وذهب السَّعدي إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ، أي: صَدُّوا أنفُسَهم، وصَدُّوا غيرَهم عن سبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

واستظهر الشنقيطي أنَّ المرادَ أنَّهم صَدُّوا غيرَهم ممَّن أطاعَهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحَملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحَملِ على التَّأكيدِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّهم صدُّوا غيْرَهم: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

قال القرطبي: (﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ في الدُّنيا بالقَتلِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤).

قيل: لهم عذابٌ مُهينٌ في مُقابَلةِ ما امتَهَنوا مِن الحَلِفِ باسمِ اللهِ العظيمِ في الأيْمانِ الكاذِبةِ الحانثةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقيل: جزاءً بما طلبوا بذلك الصَّدِّ إعزازَ أنفُسِهم، وإهانةَ أهلِ الإسلامِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

وقيل: لأنَّهم استكبَروا عن الإيمانِ باللهِ، والانقيادِ لآياتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. =

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها مناسبةٌ لقولِ الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المجادلة: ١٦]، فكما لمْ تَقِهم أيمانُهم العذابَ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شَيئًا يومَ القيامةِ[١]، فأرشد اللهُ تعالى إلى أنَّ ما ظنُّوه مُنجيًا لهم مِن عذابِه مِن المالِ والأولادِ ليس بنافِعٍ لهم حينَئذٍ، فقال[٢]:

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾.

أي: لن تُغنيَ عن المنافِقينَ بأيِّ وجهٍ مِن الوُجوهِ أموالُهم، فيَفتَدوا بها مِن عذابِ اللهِ، ولا أولادُهم، فيُنقِذوهم منه[٣].

= يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

قال السعدي: (فلا تَدفَعُ عنهم شيئًا مِن العذابِ، ولا تُحصِّلُ لهم قِسطًا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال ابن عاشور: (كان المنافِقونَ مِن أهلِ الثَّراءِ بالمدينةِ، وكان ثراؤُهم مِن أسبابِ إعراضِهم عن قَبولِ الإسلامِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ سيادةٍ، فلم يَرضَوا أن يَصيروا في طَبَقةِ عُمومِ النَّاسِ. وكان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ مُهَيَّأً لأن يُملِّكوه على المدينةِ قُبَيلَ إسلامِ الأنصارِ، فكانوا يَفخَرونَ على المسلمينَ بوَفرةِ الأموالِ، وكثرةِ العَشائرِ، وذلك في السَّنةِ الأولى من الهِجرةِ، ومِن ذلك قولُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يريد بالأعَزِّ فريقَه، وبالأذَلِّ فَريقَ المسلمينَ، فآذنَهم اللهُ بأنَّ أموالَهم وأولادَهم لا تُغْني =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ النَّارِ الَّذين هم لها مُلازِمونَ، وفيها ماكِثونَ، ومنها لا يُخرَجونَ[1].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا في ظِلِّ حُجرتِه، قد كاد يَقلِصُ[2] عنه، فقال لأصحابِه: يجيئُكم رجُلٌ يَنظُرُ إليكم بعَينِ شَيطانٍ، فإذا رأيتُموه فلا تكَلِّموه، فجاء رجُلٌ أزرَقُ، فلمَّا رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعاه، فقال: عَلامَ تَشتُمني أنت وأصحابُك؟! قال: كما أنتَ حتَّى آتيَك بهم، فذهب فجاءَ بهم، فجعلوا يَحلِفونَ باللهِ ما قالوا، وما فَعَلوا، وأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[3].

= عنهم ممَّا توعَّدَهم اللهُ به من المذَلَّةِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخِرةِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يَقلِصُ أي: يرتَفِعُ ويَذهَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٧٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكمُ (٣٧٩٥).
صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ مسلمٍ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الصارم المسلول)) =

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾.

أي: يومَ يَبعَثُ اللهُ أولئك المنافِقينَ مِن قُبورِهم أحياءً، فيَحلِفونَ لله كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما يَحلِفونَ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- في الدُّنيا كَذِبًا(١)!

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾.

أي: ويَظُنُّ المنافِقونَ يومَ القيامةِ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يُعتدُّ به فيَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى(٢).

= (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٧٨)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحَسَّن إسنادَه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قيل: قولُه: ﴿ يَوْمَ ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن اختاره: جلالُ الدين المحلي، والشربيني، والقِنَّوْجي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

وقيل: الآيةُ مُتعلِّقةٌ بما قبْلَها، أي: هم أصحابُ النَّارِ أو ماكِثونَ فيها وخالِدونَ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أو ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرفٌ لإظهارِ التَّعذيبِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

قال ابن جرير: (يظُنُّونَ أنَّهم في أيْمانِهم وحَلِفِهم باللهِ كاذِبينَ: على شَيءٍ مِن الحَقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١).

وقال ابن كثير: (أي: يَحلِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّهم كانوا على الهدى والاستقامةِ، كما كانوا يحلِفونَ للنَّاسِ في الدُّنيا؛ لأنَّ مَن عاش على شَيءٍ مات عليه وبُعِثَ عليه، ويَعتَقِدونَ أنَّ =

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ حَقًّا؛ فقد بَلَغوا في الكَذِبِ حَدًّا لم يَبلُغْه غَيرُهم(١).

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان هذا الانهماكُ فيما لا يُغْني ممَّا يَحصُلُ لسامِعِه غايةُ العَجَبِ مِن وُقوعِ عاقِلٍ فيه مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، فَضلًا عن مُلازَمتِه؛ أخبَرَ عن الحامِلِ لهم عليه، فقال(٢):

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾.

أي: غَلَب عليهم الشَّيطانُ فتمَلَّكهم واستولى على قُلوبِهم حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، فلم يَعمَلوا بطاعتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه، ويَقِفوا عندَ حُدودِه(٣).

= ذلك يَنفَعُهم عندَ الله كما كان ينفَعُهم عندَ النَّاسِ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال السعدي: (ويحسَبونَ في حَلِفِهم هذا أنَّهم على شيءٍ؛ لأنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم وعقائِدَهم الباطِلةَ لم تَزَل تَرسَخُ في أذهانِهم شيئًا فشيئًا، حتَّى غرَّتْهم وظنُّوا أنَّهم على شَيءٍ يُعتَدُّ به، ويُعلَّقُ عليه الثَّوابُ، وهم كاذِبون في ذلك، ومِن المعلومِ أنَّ الكَذِبَ لا يَروجُ على عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤، ٥٥).

قال الشوكاني: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامِرَه والعَمَلَ بطاعَتِه، فلم يَذْكُروا شَيئًا مِن ذلك. =

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدوٍ لا تُقامُ فيهم الصَّلاةُ إلَّا قد استَحوذَ عليهم الشَّيطانُ، فعليك بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكُلُ الذِّئبُ القاصيةَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾.

أي: أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وأنصارُه وجُندُه وطائِفتُه[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وأنصارَه وجُندَه هم الهالِكونَ، الَّذين خَسِروا دينَهم ودُنياهم وأنفُسَهم وأهْلِيهم[٣].

= وقيل: زَواجِرَه في النَّهْيِ عن معاصيه، وقيل: لم يَذْكُروه بقُلوبِهم ولا بألسِنَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ أن يَذكُروه بالإخلاصِ له). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (استَحوذَ على قلوبِهم الشَّيطانُ حتَّى أنْساهم أن يَذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ، وكذلك يَصنَعُ بمَنِ استَحوَذَ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

وقال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه أنساهم توحيدَ الله بكلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّه إليه بالعبادةِ. والَّذي لا يَتذَكَّرُ شيئًا لا يَتوجَّهُ إلى واجِباتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٤٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٨٤٧)، وأحمدُ (٢١٧١٠).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢١٠١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٨٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٣٧٩٦)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٨٢)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٤٧)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ المرادُ إنكارُ اللهِ على المنافِقينَ تولِّيَهم القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهذا الإنكارُ يدُلُّ على شِدَّةِ مَنعِ ذلك التَّوَلِّي[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أنَّ مِن علاماتِ النِّفاقِ محبَّةَ أعداءِ الإسلامِ وأئمَّةِ الكُفرِ، ومَدْحَهم، ونَشْرَ آرائِهم المخالفةِ للإسلامِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمِنينَ بالأَيْمانِ الكاذبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفَروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لَمْ يتكَلَّموا بكَلِمةِ الكُفرِ، وذلك دليلٌ على أنَّهم يُقتَلونَ إذا ثَبَتَ ذلك عليهم بالبيِّنَةِ؛ لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استتابةٍ.

الثَّاني: أنَّه قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادِلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنَةٌ عادلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨٠).

يمكِنُه أنْ يَجْتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مخروقةٌ.

الثَّالثُ: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكذبُ والإنكارُ، ومعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لم تَقُمِ البَيِّنةُ بخِلافِه؛ ولذلك لم يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ قَولِ الجاحِظِ: إنَّ الخَبَرَ الكَذِبَ هو الَّذي يكونُ مخالِفًا للمُخبَرِ عنه مع أنَّ المُخبِرَ يَعلَمُ المخالَفةَ؛ وذلك أنَّه لو كان كما زَعَم لم يكُنْ لِقَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فائدةٌ، بل يكونُ تَكرارًا صِرْفًا[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والجَهميَّة؛ مُنْكِري صفاتِ اللهِ، في إخبارِه عن نفْسِه بالغَضَبِ[3]، فالغضبُ صفةٌ فِعليَّةٌ خَبَريَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).
وقال ابن حجر بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في قَبولِ تَوبةِ الزِّنديقِ -وهو الَّذي يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ غيرَه-: (ومِن حُجَّةِ مَنِ اسْتتابهم قولُه تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ فدَلَّ على أنَّ إظهارَ الأيْمانِ يُحَصِّنُ مِن القَتلِ، وكلُّهم أجمَعوا على أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظَّاهِرِ، واللهُ يَتولَّى السَّرائرَ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قُدامة (٩/ ٦)، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيميَّة (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٧).
قال ابنُ عاشور: (توهَّمَ الجاحِظُ أنَّ ماهيَّةَ الكَذِبِ تتقوَّمُ مِن عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِعِ وللاعتقادِ معًا، وسرى هذا التَّقوُّمُ إلى ماهيَّةِ الصِّدقِ، فجَعَل قِوامَها المطابَقةَ للخارجِ والاعتقادِ معًا، ومن هنا أثبت الواسِطةَ بيْنَ الصِّدقِ والكَذِبِ، وقريبٌ منه قولُ الرَّاغِبِ، ويُشبِهُ أن يكونَ الخِلافُ لَفظيًّا، ومحَلُّ بَسْطِه في عِلْمَيِ الأصولِ والبلاغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٤١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما فائِدةُ الإخبارِ عنهم بذلك؟

الجَوابُ: فائدتُه بيانُ ذَمِّهم بارتِكابِهم اليَمينَ الغَمُوسَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أنَّ مِن شأنِ النَّفْسِ المجادَلةَ بالباطِلِ، حتَّى إنَّه يومَ القيامةِ تريدُ أنْ تدفَعَ عن نفْسِها وتجادِلَ اللهَ بالباطِلِ[٣]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا يقتَضي توَغُّلَهم في النِّفاقِ ومُرونتَهم عليه، وأنَّه باقٍ في أرواحِهم بعد بَعْثِهم؛ لأنَّ نُفوسَهم خرَجَت مِن عالَمِ الدُّنيا متخَلِّقةً به؛ فإنَّ النُّفوسَ إنَّما تَكتسِبُ تَزكيةً أو خُبْثًا في عالَمِ التَّكليفِ، وحِكمةُ إيجادِ النُّفوسِ في الدُّنيا هي تَزكيتُها وتَصفيةُ أكْدارِها؛ لتَخلُصَ إلى عالَمِ الخُلودِ طاهرةً، فإنْ هي سَلَكَت مَسلكَ التَّزكيةِ تَخلَّصَت إلى عالَمِ الخُلودِ زَكيَّةً، ويَزيدُها اللهُ زَكاءً وارْتياضًا يومَ البعثِ، وإنِ انغمَسَت مدَّةَ الحياةِ في حَمْأةِ النَّقائصِ وصَلْصالِ الرَّذائلِ، جاءت يومَ القيامةِ على ما كانتْ عليه تَشويهًا لحالِها؛ لتكونَ مَهزلةً لأهْلِ المَحشرِ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢، ٥٣).

كلَّ كافرٍ مُلْحِدٍ فاجرٍ، فهو مِن أولياءِ الشَّيطانِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذه حالةٌ أُخرى مِن أحوالِ أهلِ النِّفاقِ؛ هي تولِّيهم اليهودَ مع أنَّهم لَيسوا مِن أهلِ مِلَّتِهم؛ لأنَّ المنافِقينَ مِن أهلِ الشِّركِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي سِيقتْ فيه آياتُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا﴾ [المجادلة: ٥] بعْدَ أنْ فُصِلَ بمُستطْرَداتٍ كَثيرةٍ بعْدَه(٢).

- وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقِينَ الَّذين كانوا يَتَّخِذون اليهودَ أولياءَ، ويُناصِحونهم، ويُفْشُون إليهم بأسرارِ المؤمنينَ(٣).

- والهمزةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للاستِفهامِ التَّعجُّبيِّ، ووجْهُ التَّعجيبِ مِن حالِهم أنَّهم تولَّوا قَومًا مِن غيرِ جِنسِهم، ولَيسوا في دِينِهم، ما حمَلَهم على تولِّيهم إلَّا اشتراكُ الفريقَينِ في عَداوةِ الإسلامِ والمسلمينَ(٤). وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ(٥).

- وضَميرُ ﴿مَّا هُم﴾ يَعودُ إلى ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾، وهمُ المنافِقون؛ وجُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ حالٌ مِن ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾، أي: ما هم مُسلِمون ولا يَهودُ. وقيل: يَعودُ الضَّميرُ إلى ﴿قَوْمًا﴾، وهم اليَهودُ؛ فتَكونَ جُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، أي: قومًا لَيسوا مُسلِمينَ ولا مُشرِكين، بلْ هم يَهودُ. وكذلك ضَميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٥، ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٦).

﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ الأمْرَينِ على التَّعاكُسِ، وقيل: كِلا الاحتِمالينِ واقعٌ ومُرادٌ على طَريقةِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: الَّذي يَصلُحُ لاحتِمالِ معنيَين)؛ تَكثيرًا للمَعاني مع الإيجازِ، فيُفيدُ التَّعجيبَ مِن حالِ المنافِقِينَ أنْ يَتولَّوا قَومًا أجانبَ عنهم على قَومٍ همْ أيضًا أجانبُ عنهم، على أنَّهم إنْ كان يُفرِّقُ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ اختِلافُ الدِّينِ، فإنَّ الَّذي يُفرِّقُ بيْنهم وبيْن اليهودِ اختلافُ الدِّينِ واختلافُ النَّسَبِ؛ لأنَّ المنافِقين مِن أهلِ يَثرِبَ عرَبٌ، ويُفيدُ بالاحتِمالِ الآخَرِ الإخبارَ عن المنافِقين بأنَّ إسلامَهم ليس صادقًا، أي: ما همْ منكم أيُّها المسلِمونَ، وهو المقصودُ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ على هذا الاحتِمالِ احتِراسًا[١] وتتْميمًا[٢] لحِكايةِ حالِهم، وعلى هذا الاحتِمالِ يَكونُ ذمُّ المنافقين أشَدَّ؛ لأنَّه يدُلُّ على حَماقتِهم؛ إذ جَعَلوا لهم أولياءَ مَن لَيسوا على دِينِهم، فهمْ لا يُوثَقُ بوِلايتِهم، وأضْمَروا بُغضَ المسلمينَ، فلم يُصادِفوا الدِّينَ الحقَّ[٣].

- وقولُه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، وجِيءَ به مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِه، ولاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ في حِينِ حَلِفِهم على الكذِبِ؛ للتَّنصُّلِ ممَّا فَعَلوه[٤].

- وقولُه: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾، مُفيدةٌ لكَمالِ شَناعةِ ما فَعَلُوا[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تعليلٌ لإعدادِ العذابِ الشَّديدِ لهم، أي: إنَّهم عَمِلوا فيما مَضَى أعمالًا سيِّئةً مُتطاوِلةً مُتكرِّرةً، كما يُؤذِنُ به المضارعُ مِن قولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة: ١٤]؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ أنْ يَقولَ: ما ألْجَأهم إلى الحَلِفِ على الكذِبِ؟ فأُجيبَ بأنَّ ذلك لقَضاءِ مآرِبِهم، وزِيادةِ مَكْرِهم. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ الجُملةُ خبرًا ثانيًا لـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[المجادلة: ١٥]، وتكونَ داخلةً في التَّعليلِ[2].

- وفِعلُ (صَدُّوا) يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّيًا، وحُذِفَ مَفعولُه لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الفِعلُ قاصِرًا (لازمًا)، أي: فصَدُّوا هُمْ عن سَبيلِ اللهِ. ومَجيءُ فِعلِ ﴿فَصَدُّوا﴾ ماضيًا مُفرَّعًا على ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، مع أنَّ أيْمانَهم حصَلَت بعْدَ أنْ صَدُّوا عن سَبيلِ اللهِ على كِلا المعنيَينِ؛ مُراعًى فيه التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

- وفُرِّعَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على قولِه: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ ما

= حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٠).

اتَّخذوا مِن أيْمانِهم جُنَّةً سَببٌ مِن أسبابِ العَذابِ يَقْتضي مُضاعَفةَ العذابِ[١].

- وقد وُصِفَ العذابُ أوَّلَ مرَّةٍ بشَديدٍ -في قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥]-، وهو الَّذي يُجازَون به على تَولِّيهم قومًا غضِبَ اللهُ عليهم وحَلِفِهم على الكذِبِ. ووُصِفَ عَذابُهم ثانيًا بأنَّه ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّه جَزاءٌ على صدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وهذا معْنَى شَديدِ العذابِ مِن أجْلِ عَظيمِ الجُرْمِ، وإنَّما وعدَهم اللهُ العذابَ المُهينَ المُخزيَ؛ لكُفرِهم وصَدِّهم، كقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فهو وَعيدٌ ثانٍ بوَصفٍ آخَرَ لعذابِهم، فكان العَذابُ مُناسِبًا للمَقصدَينِ في كفرِهم، وهو عَذابٌ واحدٌ فيه الوصْفانِ. وكُرِّرَ ذِكرُه إبلاغًا في الإنذارِ والوعيدِ؛ فإنَّه مَقامُ تَكريرٍ، مع تَحسينِه باختِلافِ الوصْفَينِ، وقيلَ: الأوَّلُ عذابُ القبرِ، وهذا عذابُ الآخِرةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه إقحامُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المعطوفِ ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ على المَنفيِّ؛ لتَوكيدِ انتفاءِ الإغناءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لأنَّهم أصحابُ النارِ، أي: حقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١).

عليهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ، أيْ: مُلازِمُوها ومُقارِنُوها؛ إذ قد تقرَّرَ مِن قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥] ومِن قولِه: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المجادلة: ١٦] أنَّهم لا مَحيصَ لهم عن النَّارِ، فكيف تُغْني عنهم أموالُهم وأولادُهم شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟! فاسمُ الإشارةِ في مِثلِ هذا الموقعِ يُنبِّهُ على أنَّ المشارَ إليه صار جديرًا بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأخبارِ الَّتي أُخبِرَ بها عنه قبْلَ اسمِ الإشارةِ[(١)].

- وجاء قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بغيرِ فاءٍ، موافَقةً للجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وموافقةً لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾[(٢)] [المجادلة: ٢٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾[(٣)].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لِفعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليومِ، وتَهويلًا عليهم[(٤)].

- وحَلِفُهم للهِ في الآخرةِ إشارةٌ إلى ما حكاهُ اللهُ عنْهم في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ في صِفةِ الحَلِفِ، وهي قولُهم: إنَّهم غيرُ مشركين، وفي كَونِه حَلِفًا على الكذبِ وهم يَعلَمون؛ ولذلك سمَّاه تعالى فِتنةً في قولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤، ٥٢).

تعالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] [الأنعام: ٢٣].

- وحُذِفَت صِفةُ ﴿شَىْءٍ﴾؛ لظُهورِ معْناها مِن المَقامِ، أي: على شَيءٍ نافعٍ[2].

- وخُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وهو تَذييلٌ جامعٌ لحالِ كَذِبِهم الَّذي ذكَرَه اللهُ بقولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ [المجادلة: ١٤]، فالمرادُ أنَّ كذِبَهم عليكم لا يُماثِلُه كذِبٌ، حتَّى قُصِرَت صِفةُ الكاذبِ عليهم بضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتدادِ بكذِبِ غيرِهم، وأُكِّدَ ذلك بحرْفِ التَّوكيدِ توكيدًا لمُفادِ الحصْرِ الادِّعائيِّ، وهو أنَّ كذِبَ غيرِهم كَلا كَذِبٍ في جانبِ كَذِبِهم، وبأداةِ الاستِفتاحِ المُقتضيةِ استِمالةَ السَّمْعِ لخبَرِهم؛ لتَحقيقِ تمكُّنِ صِفةِ الكذِبِ منهم، حتَّى إنَّه يُلازِمُهم يومَ البعثِ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سِيقَ مِن وصْفِهم بانحصارِ صِفةِ الكذِبِ فيهم، يُثيرُ سُؤالَ السَّامعِ أنْ يَطلُبَ السَّببَ الَّذي بلَغَ بهم إلى هذا الحالِ الفظيعِ، فيُجابُ بأنَّه استِحواذُ الشَّيطانِ عليهم، وامتلاكُه زِمامَ أنفُسِهم يُصرِّفُها كيف يُريدُ، وهل يَرْضى الشَّيطانُ إلَّا بأشَدِّ الفسادِ والغَوايةِ[5]؟!

- والاستِحواذُ: الاستِيلاءُ والغلَبُ، وهو استِفعالٌ مِن حاذَ حَوذًا؛ إذا حاطَ شَيئًا وصرَّفَه كيف يُريدُ. يقال: حاذَ العِيرَ؛ إذا جمَعَها وساقَها غالبًا لها، فاشتَقُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٤).

منه (استَفعَلَ) للَّذي يَسْتولي بتَدبيرٍ ومُعالَجةٍ؛ ولذلك لا يُقال: (استَحْوذَ) إلَّا في استيلاءِ العاقلِ؛ لأنَّه يَتطلَّبُ وَسائلَ استيلاءٍ. والسِّينُ والتاءُ للمُبالَغةِ في الغلَبِ، مِثْلها في (استجابَ)[١].

- والذِّكرُ يُطلَقُ على نُطقِ اللِّسانِ باسمٍ أو كَلامٍ، وهو هنا مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه، أي: مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو العِبادةُ والطاعةُ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّه أنْساهم تَوحيدَ اللهِ بكَلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّهِ إليه بالعِبادةِ، والَّذي لا يَتذكَّرُ شَيئًا لا يَتوجَّهُ إلى واجباتِه[٢].

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ نَتيجةٌ وفَذْلَكةٌ[٣] لقولِ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ فإنَّ الاستِحواذَ يَقْتضي أنَّه صيَّرَهم مِن أتْباعِه[٤].

- وجِيءَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لزِيادةِ تَمييزِهم؛ لئلَّا يُتردَّدَ في أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ[٥].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّفرُّعِ والتَّسبُّبِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فإنَّ حِزبَ الشَّيطانِ هم الخاسِرون؛ ولذلك عُدِلَ عن ذلك إلى حرْفِ الاستِفتاحِ تَنبيهًا على أهمِّيَّةِ مَضمونِها، وأنَّه ممَّا يَحِقُّ العِنايةُ باستِحضارِه في الأذهانِ؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ مِن الاندماجِ فيهم، والتَّلبُّسِ بمِثلِ أحوالِهم المذكورةِ آنفًا. وزِيدَ هذا التَّحذيرُ اهتمامًا بتأْكيدِ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) وبصِيغةِ القصْرِ؛ إذ لا يَتردَّدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أحدٌ في أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ خاسِرون؛ فإنَّ ذلك مِن القَضايا المُسلَّمةِ بيْن البشَرِ؛ فلذلك لم تكُنْ هذه المُؤكِّداتُ لرَدِّ الإنكارِ، بلْ لتَحذيرِ المسلِمينَ أنْ تَغُرَّهم حَبائلُ الشَّيطانِ، وتَرُوقَ في أنظارِهم بَزَّةُ المنافِقِين، وتَخدَعَهم أيْمانُهم الكاذبةُ(١).

- وإظهارُ كَلمةِ ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ دونَ ضَميرِ (هُمْ)؛ لزِيادةِ التَّصريحِ، ولِتَكونَ الجُملةُ صالحةً للتَّمثُّلِ بها، مُستقِلَّةً بدَلالتِها(٢).

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) أفاد القصْرَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ(٣)؛ للمُبالَغةِ في مِقدارِ خُسرانِهم، وأنَّه لا خُسرانَ أشَدُّ منه، فكأنَّ كلَّ خُسرانٍ غَيرِه عدَمٌ، فيُدَّعى أنَّ وصْفَ الخاسرِ مَقصورٌ عليهم(٤).

- في تَصديرِ جُملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بحرْفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ، وإظهارِ المُضافَينِ معًا في مَوقعِ الإضمارِ، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ مِنْ فُنونِ التَّأكيدِ ما لا يَخْفَى(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾: أي: الأذِلَّاءِ الصَّاغِرينَ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ والاستِكانةِ[1].

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾: أي: قضَى اللهُ وخطَّ في أمِّ الكِتابِ، وأصل (كتب): يدُلُّ على جمْعِ شَيءٍ إلى شيءٍ[2].

﴿ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾: العَشيرةُ: أهلُ الرَّجُلِ الَّذين يَتكثَّرُ بهم، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُداخَلةٍ ومُخالَطةٍ[3].

﴿ حِزۡبُ ٱللَّهِ ﴾: أي: أنصارُ اللهِ وجُندُه، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تجَمُّعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليّ:

يقولُ تعالى مبينًا سُنَّةً مِن سُنَنِه في خَلقِه: إنَّ الَّذين يُعادونَ ويُشاقُّونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ، قضى اللهُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبَةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عزيزٌ.

ثُمَّ يخبِرُ تعالى عن صفةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ مبيِّنًا حُسنَ عاقبتِهم: لا تَجِدُ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ حُدودَ اللهِ ورَسولِه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم، أولئك أثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، وقوَّاهم بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَدِه، وإحسانِه، ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم، ورَضُوا عنه، أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، ألَا إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه هم الفائِزونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ الشَّديدةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

كما قال الله تبارك وتعالى عن اليهودِ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أي: قضى اللهُ وقدَّر تقديرًا ثابتًا لا يتخَلَّفُ ولا يتبدَّلُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ على مَن خالَفَ الحَقَّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).
قال ابن تيميَّة: (الغَلَبةُ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهرِ، فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عدُوِّه، ومَن لم يُؤمَرْ بالحربِ أُهلِكَ عَدُوُّه. وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن قال: إنَّ الغَلَبةَ للمحارِبِ بالنَّصرِ، ولغيرِ المحارِبِ بالحُجَّةِ، فعُلِمَ أنَّ هؤلاء المحادِّينَ مُحارَبونَ مغلوبونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥).
وقال ابن كثير: (أي: قد حَكَم وكَتَب في كتابِه الأوَّلِ وقدَرِه الَّذي لا يُخالَفُ، ولا يُمانَعُ، ولا يُبدَّلُ: بأنَّ النُّصرةَ له ولكتابِه ورُسُلِه، وعبادِه المؤمنينَ؛ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٩٣).

ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَويٌّ فلا يُعجِزُه الانتِصارُ مِمَّن حادَّه ورُسُلَه، عزيزٌ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ؛ فهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ[1].

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: لا يُمكِنُ أن تَجِدَ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ، ويُؤمِنونَ باليَومِ الآخِرِ، ومع ذلك يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ وعادَى اللهَ ورَسولَه[2].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٦).

ذكر ابن عاشور أنَّ هذه الآيةَ رُوِيَ فيها أقوالٌ في سببِ نُزولِها، ثمَّ قال: (وليس يَلزَمُ أن يكونَ للآيةِ سببُ نُزولٍ؛ فإنَّ ظاهِرَها أنَّها مُتَّصِلةُ المعنى بما قبْلَها وما بَعْدَها مِن ذمِّ المنافِقِينَ وموالاتِهم اليهودَ، فما ذُكِر فيها مِن قصصٍ لسببِ نُزولِها فإنَّما هو أمثلةٌ لِمُقتضى حكمِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: لا يَجتَمِعُ الإيمانُ باللهِ وباليَومِ الآخِرِ مع موادَّةِ مَن حادَّ اللهَ ورَسولَه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ أو أبناءَهم أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والِدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

أي: أولئك قرَّر وأثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، فلا يَشُكُّونَ ولا يَرتَدُّونَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).
قال الرازي: (المرادُ أنَّ المَيلَ إلى هؤلاء أعظَمُ أنواعِ الميلِ، ومع هذا فيَجِبُ أن يكونَ هذا الميلُ مَغلوبًا مطروحًا بسَبَبِ الدِّينِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٩).
وقال البِقاعي: (مدارُ ذلك على أنَّ الإنسانَ يَقطَعُ رَجاءَه مِن غيرِ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ كذلك لم يكُنْ مُخلِصًا في إيمانِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٨).

(٢) رواه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٧).
قال ابن عاشور: (كتابةُ الإيمانِ في القلوبِ نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وهي التَّقديرُ الثَّابتُ الَّذي لا تتخَلَّفُ آثارُه، أي: هم المؤمنونَ حَقًّا، الَّذين =

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعدَ أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))(١).

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾.

أي: وقَوَّاهم اللهُ بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَددِه، وإحسانِه سُبحانَه(٢).

= زَيَّن اللهُ الإيمانَ في قُلوبِهم، فاتَّبَعوا كمالَه، وسَلَكوا شُعَبَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) رواه البخاريُّ (١٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٣).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾: برحمةٍ منه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وقال: (كذلك قال المفسِّرونَ). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩).

وقيل: المرادُ: بنُورِ الإيمانِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٨).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: معناه: بهُدًى ولُطفٍ ونورٍ وتوفيقٍ إلهيٍّ ينقَدِحُ من القُرآنِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وعن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ: ((أنَّه سَمِعَ حَسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ يَستَشهِدُ أبا هُرَيرةَ: أَنشُدُكَ اللهَ[1]، هل سَمِعتَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا حسَّانُ، أَجِبْ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ[2]؟ ....

= ابن جزي)) (٢/ ٣٥٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوَّاهم وشَدَّدَهم، وأعانهم وشَجَّعهم، وعَظَّمَهم وشَرَّفَهم ﴿بِرُوحٍ﴾ أي: نُورٍ شَريفٍ جِدًّا يَفهَمونَ به ما أُودِعَ في كتابِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُنوزِ العِلمِ والعَمَلِ، فهو لقُلوبِهم كالرُّوحِ للأبدانِ، فلا يَفعَلونَ شَيئًا مِن أحوالِ أهلِ الجاهليَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٩).

وقيل: أيَّدَهم بنَصرٍ منه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وذكَرَ ابنُ القيِّم أنَّ الرُّوحَ هنا هي القُوَّةُ والثَّباتُ والنُّصرةُ الَّتي يُؤَيِّدُ بها مَن شاءَ مِن عبادِهِ المُؤمنينَ. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وقال السعدي: (قوَّاهم اللهُ برُوحٍ منه، أي: بوَحْيِه، ومَعونتِه، ومَدَدِه الإلهيِّ، وإحسانِه الرَّبَّانيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٦).

وقيل: المرادُ بالرُّوحِ هنا: بكتابٍ أنزَله فيه حياةٌ لهم. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّه القرآنُ وحُجَجُه: الربيعُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: المعنى: أيَّدَهم بجبريلَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(١) أَنشُدُكَ اللهَ أي: أسألُك باللهِ، وأُقسِمُ عليك به. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٥٣).

(٢) برُوحِ القُدُسِ: أي: بجِبْريلَ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه كان يأتي الأنبياءَ بما فيه حياةُ القُلوبِ، فهو =

قال أبو هُريرةَ: نَعَمْ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اهجُوا[٢] قُرَيشًا؛ فإنَّه أشَدُّ عليها مِن رَشْقٍ بالنَّبْلِ. قالت عائِشةُ: فسَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لحسَّانٍ: إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ[٣] عن اللهِ ورَسولِه))[٤].

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وهم ماكِثونَ في تلك الجنَّاتِ أبدًا[٥].

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم فلا يَسخَطُ عليهم أبَدًا، ورَضُوا هم عن اللهِ بما أعطاهم مِن الكراماتِ، وإجزالِ المثوباتِ، وإدخالِ الجنَّاتِ[٦].

= كالمبدأِ لحياةِ القَلْبِ، كما أنَّ الرُّوحَ مَبدَأٌ لحياةِ الجَسدِ، والقُدُس: صِفةٌ للرُّوحِ، وإنَّما أُضيفَ إليه؛ لأنَّه مجبولٌ على الطَّهارةِ والنَّزاهةِ عن العيوبِ. وقيل: القُدُسُ بمعنى: المقَدَّسِ، وهو اللهُ، وإضافةُ الرُّوحُ إليه للتَّشريفِ. ثمَّ تأييدُه: إمدادُه له بالجوابِ، وإلهامُه لِما هو الحَقُّ والصَّوابُ. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠١٥).

(١) رواه البخاري (٦١٥٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) اهجُوا أي: اشتِمْهم، يقال: هَجاهُ هِجاءً: إذا شتَمَه بالشِّعْرِ، وعَدَّدَ فيه مَعايِبَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٧٩).

(٣) نَافَحْتَ: أي: دافَعْتَ، يُريدُ بمُنافَحتِه هِجاءَ المشْرِكين، ومُجاوَبَتَهم على أشْعارِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن =

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.

أي: أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، وجُندُه وطائِفتُه[(١)].

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ألَا[(٢)] إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه وجُندَه وطائفتَه: هم وَحْدَهم دونَ غيرِهم الفائِزونَ الظَّافِرونَ، وهم في النَّعيمِ باقُونَ ماكِثونَ[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ زَجْرٌ عن التَّوَدُّدِ إلى مَن كان على غيرِ دِينِ الإسلامِ، والتَّحَبُّبِ إليه، والموالاةِ له؛ إذْ في ذلك ذَهابُ العَداوةِ، وانغِراسُ المحبَّةِ لِمَن يُعادي اللهَ جلَّ جلالُه، أَلَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه سمَّاهم أعداءَه؟! حيثُ يقولُ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، وكقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] إلى آخرِ الآيةِ[(٤)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه أنَّه لا يكونُ العَبدُ مُؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقيقةً إلَّا كان عامِلًا على مُقتَضى الإيمانِ ولَوازِمِه؛ مِن محبَّةِ مَن قام بالإيمانِ ومُوالاتِه، وبُغْضِ مَن

= عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).

(٢) قال الزجاج: (﴿أَلَا﴾ كَلِمةُ تنبيهٍ وتوكيدٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

لم يَقُمْ به ومُعاداتِه، ولو كان أقرَبَ النَّاسِ إليه، وأمَّا مَن يَزعُمُ أنَّه يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وهو مع ذلك مُوادٌّ لأعداءِ الله، مُحِبٌّ لِمَن ترَكَ الإيمانَ وراءَ ظَهرِه؛ فإنَّ هذا إيمانٌ زَعْميٌّ لا حقيقةَ له، فإنَّ كُلَّ أمرٍ لا بدَّ له مِن بُرهانٍ يُصَدِّقُه، فمُجَرَّدُ الدَّعوى لا تُفيدُ شَيئًا، ولا يُصَدَّقُ صاحِبُها(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أخَذَ العُلَماءُ منه أنَّ أهلَ الإيمانِ الكامِلِ لا يُوادُّونَ مَن فيه معنًى مِن محادَّةِ اللهِ ورَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بخَرقِ سِياجِ شَريعتِه عَمدًا، والاستِخفافِ بحُرُماتِ الإسلامِ، وهؤلاء مِثلُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ في الأعمالِ مِن كُلِّ ما يُؤذِنُ بقِلَّةِ اكتِراثِ مُرتَكِبِه بالدِّينِ، ويُنبِئُ عن ضَعفِ احترامِه للدِّينِ، مِثلُ المتجاهِرينَ بالكبائِرِ والفواحِشِ، السَّاخِرينَ مِن الزَّواجِرِ والمواعِظِ، ومِثلُ أهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ في الاعتقادِ، ممَّن يُؤذِنُ حالُهم بالإعراضِ عن أدِلَّةِ الاعتِقادِ الحَقِّ، وإيثارِ الهوى النَّفسيِّ والعَصَبيَّةِ على أدِلَّةِ الاعتقادِ الإسلاميِّ الحَقِّ(٢).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عن سَهلِ بنِ عبدِ الله التُّسْتَري أنَّه قال: (مَن صَحَّح إيمانَه وأخلَصَ توحيدَه، فإنَّه لا يأنَسُ إلى مُبتَدِعٍ ولا يُجالِسُه، ولا يُؤاكِلُه ولا يُشارِبُه، ولا يُصاحِبُه، ويُظهِرُ له مِن نَفْسِه العداوةَ والبَغضاءَ، ومَن داهَنَ مُبتَدِعًا سَلَبَه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩، ٦٠).

والعبدُ يجتمعُ فيه سببُ الولايةِ وسَبَبُ العداوةِ، والحبُّ والبغضُ؛ فيكونُ مَحبوبًا مِن وجهٍ مَبْغوضًا مِن وجهٍ، فالحبُّ والبغضُ بحَسَبِ ما فيه مِن خِصالِ الخَيرِ والشَّرِّ؛ فمَن كان مؤمنًا وجبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان كافرًا وجبتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فُجورٌ أُعطيَ مِن الموالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٢٢٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٤٧).

تعالى حلاوةَ السُّنَنِ، ومَن تحَبَّب إلى مُبتَدِعٍ يَطلُبُ عِزَّ الدُّنيا أو عَرَضًا منها، أذَلَّه اللهُ تعالى بذلك العِزِّ، وأفقَرَه بذلك الغِنى، ومَن ضَحِكَ إلى مُبتَدِعٍ نَزَع اللهُ تعالى نورَ الإيمانِ مِن قَلْبِه، ومَن لم يُصَدِّقْ فلْيُجَرِّبْ). انتهى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ هذا وعدٌ ووَعيدٌ؛ وعيدٌ لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه بالكُفرِ والمعاصي، أنَّه مَخذولٌ مذلولٌ، لا عاقِبةَ له حميدةٌ، ولا رايةَ له منصورةٌ. ووَعدٌ لِمَن آمَنَ به، وبرُسُلِه، واتَّبَع ما جاء به المُرسَلونَ، فصار مِن حِزبِ اللهِ المُفلِحينَ، أنَّ لهم الفَتحَ والنَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا وَعدٌ لا يُخلَفُ ولا يُغَيَّرُ؛ فإنَّه مِن الصَّادِقِ القويِّ العزيزِ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ يُريدُه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ أنَّه ما مِن إنسانٍ يُحَادُّ اللهَ ورسولَه إلَّا أذَلَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، ويكونُ إذلالُه بقَدْرِ ما حَصَلَ منه مِن المُحَادَّةِ؛ جزاءً وِفاقًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٩).

ويُشرعُ الهَجرُ وفي دائرةِ ضوابطِه الشَّرعيَّةِ المَبنيَّةِ على رعايةِ المصالحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ، وهذا ممَّا يَختلِفُ باختلافِ البدعةِ نفْسِها، واختلافِ مُبتَدِعِها، واختلافِ أحوالِ الهاجِرينَ، واختلافِ المكانِ والقوَّةِ والضَّعفِ، والقِلَّةِ والكَثرةِ إلى غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الاختلافِ والاعتبارِ الَّتي يَرعاها الشَّرعُ، وميزانُها للمُسلِمِ الَّذي به تَنضبطُ المَشروعيَّةُ هو: مدى تحقُّقِ المَقاصِدِ الشَّرعيَّةِ مِن الهَجرِ: مِن الزَّجْرِ، والتَّأديبِ، ورجوعِ العامَّةِ، وتحجيمِ المُبتدِعِ وبدعتِه. يُنظر: ((هجر المبتدع)) لبكر أبو زيد (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

قال ابن عاشور: (الَّذي يحادُّ الله ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إن كان مُتجاهِرًا بذلك مُعلِنًا به، أو متجاهِرًا بسوءِ معاملةِ المسلمينَ لأجْلِ إسلامِهم، لا لِمُوجبِ عداوةٍ دنيويَّةٍ؛ فالواجبُ =

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ الأذَلُّ أبلغُ مِن الذَّليلِ، ولا يكونُ أذلَّ حتَّى يخافَ على نفْسِه ومالِه إن أظهَر المحادَّةَ؛ لأنَّه إن كان دمُه ومالُه معصومًا لا يُستباحُ، فليس بأذَلَّ، وقد جعَل المحادِّينَ في الأذَلِّينَ، فلا يكونُ لهم عهدٌ؛ إذ العهدُ يُنافي الذِّلَّةَ، والأذلُّ هو الَّذي ليس له قوَّةٌ يمتنعُ بها ممَّن أراده بسوءٍ، فإذا كان له مِن المسلمينَ عهدٌ يجبُ عليهم به نصرُه ومنعُه فليس بأذلَّ؛ فثبَت أنَّ المحادَّ لله ولرسولِه لا يكونُ له عهدٌ يعصِمُه، والمؤذِي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادٌّ، فالمؤذِي للنَّبيِّ ليس له عهدٌ يعصمُ دمَه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أنَّ المؤذيَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كافرٌ حلالُ الدَّم، ولو كان مُؤمنًا معصومًا لَمْ يكن أَذَلَّ! لقَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقَولِه: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٥]، والمؤمنُ لا يُكْبَتُ كما كُبِتَ مُكَذِّبو الرُّسُلِ قَطُّ، ولأنَّه قد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآيةَ، فإذا كان مَن يُوادُّ المُحَادَّ ليس بمؤمنٍ، فكيف بالمُحَادِّ نَفْسِه[٢]؟!

= على المسلمينَ إظهارُ عداوتِه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، ولم يُرخِّصْ في معاملتِهم بالحسنى إلَّا لاتِّقاءِ شرِّهم إن كان لهم بأسٌ، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وأمَّا مَن عدا هذا الصنفَ فهو الكافرُ الممسكُ شرَّه عن المسلمينَ، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومن هذا الصنفِ أهلُ الذِّمَّةِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أنَّ كلَّ حزبٍ يُحاربُ اللهَ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى يَهْزِمُه(١).

٦- قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ دلَّت هذه الآيةُ الكريمةُ، وأمثالُها مِن الآيِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]؛ أنَّه لن يُقتَلَ نَبيٌّ في جِهادٍ قَطُّ؛ لأنَّ المقتولَ ليس بغالِبٍ؛ لأنَّ القَتلَ قِسمٌ مُقابِلٌ للغَلَبةِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقد نفَى عن المنصورِ كَونَه مَغلوبًا نَفيًا باتًّا في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فالرُّسُلُ الَّذينَ جاء في القُرآنِ أنَّهم قُتِلوا، كقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ليسوا مقتولينَ في جِهادٍ.

فالرُّسلُ قِسْمانِ: قِسمٌ أُمِروا بالقتالِ في سبيلِ الله، وقِسمٌ أُمِروا بالصَّبرِ والكفِّ عن النَّاسِ، فالَّذين أُمِروا بالقتالِ وعَدَهم اللهُ بالنَّصرِ والغَلَبةِ في الآياتِ المذكورةِ، والَّذين أُمِروا بالكفِّ والصَّبرِ هم الَّذين قُتِلوا لِيَزيدَ اللهُ رفْعَ دَرَجاتِهم العَلِيَّةِ بقَتْلِهم مَظلومينَ، وهذا الجمعُ مفهومٌ مِن الآياتِ؛ لأنَّ النَّصرَ والغَلَبةَ فيه الدَّلالةُ بالالتِزامِ على جِهادٍ ومُقاتَلةٍ.

ولا يَرِدُ على هذا الجمعِ قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ [آل

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٤٠٢).

عمران: ١٤٦]؛ أمَّا على قِراءةِ ﴿قَـٰتَلَ﴾ بصيغةِ الماضي مِن (فاعَلَ) فالأمرُ واضحٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿قُتِلَ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ[١] فنائبُ الفاعلِ قولُه: ﴿رِبِّيُّونَ﴾، لا ضميرُ ﴿نَّبِيٍّ﴾، وتَطَرُّقُ الاحتِمالِ يَرُدُّ الاستِدلالَ، وأمَّا على القولِ بأنَّ غَلَبةَ الرُّسلِ ونُصرتَهم بالحُجَّةِ والبُرهانِ، فلا إشكالَ في الآيةِ[٢].

٧- إنَّ لَفْظَ «الكتابةِ» يدُلُّ على اللُّزومِ والثُّبوتِ؛ إمَّا شَرْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أو قَدَرًا، كقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٣].

٨- الكتابةُ قِسمانِ: كتابةٌ شرعيَّةٌ، وهذه لا يَلْزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ -أي حصولُه في الواقعِ مِن كلِّ أحدٍ- مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والكتابةُ الثَّانيةُ: كتابةٌ كَونيَّةٌ، وهذه يَلزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقَولِه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٤]، فالكتابةُ الكونيَّةُ كتابةٌ بمعنى القدرِ، والكتابةُ الشَّرعيَّةُ كتابةٌ بمعنى الأمرِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ في الكتابِ السَّابقِ الَّذي لا يُؤمِنونَ به أصلًا، ولا يُقِرُّون به بَتَّةً[٦]!

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ والبصريَّان، وقرأ الباقونَ: ﴿قَـٰتَلَ﴾. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المُحادَّةَ مغالَبةٌ ومعاداةٌ حتَّى يكونَ أحدُ المُتَحادَّينِ غالبًا والآخرُ مَغلوبًا، وهذا إنَّما يكونُ بيْن أهلِ الحربِ لا أهلِ السِّلْمِ؛ فعُلِمَ أنَّ المُحادَّ ليس بمُسالمٍ، والغلبةَ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهْرِ؛ فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عَدُوِّه، ومَن لَمْ يُؤْمَرْ بالحربِ أُهْلِكَ عَدُوُّه[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه لا يوجدُ مؤمنٌ يُوَادُّ كافِرًا؛ فمَن وادَّ الكفَّارَ فليس بمؤمنٍ، والمشابهةُ الظَّاهِرةُ مَظِنَّةُ المُوادَّةِ، فتكونُ مُحرَّمةً[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ مُوادَّةَ عَدُوِّ اللهِ تُنافي محبَّةَ الله، فأَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ المؤمنَ الَّذي لا بُدَّ أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه ممَّا سِواهما -كما في الحَديثِ المتَّفَقِ عليه: ((لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[٣]- لا تَجِدُه مُوادًّا لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّ هذا جَمْعٌ بيْن ضِدَّيْنِ لا يجتَمِعانِ، ومحبوبُ اللهِ ومحبوبُ مُعاديه لا يجتَمِعانِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه إذا كان بمُوادَّةِ المُحادِّ لا يكونُ المرءُ مُؤمِنًا، فأَلَّا يكونَ مؤمِنًا إذا حادَّ بطريقِ الأَولى والأَحرى[٥].

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥)، ومسلمٌ (٤٤) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٠٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ، وحُبٍّ للهِ ولرَسولِه، وتعظيمٍ: لا بُدَّ أنْ يَظْهَرَ على الجوارحِ، وكذلك بالعَكسِ؛ ولهذا يُستَدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهِرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلبُ))[(١)]، وكما قال مَن قال مِن السَّلفِ لِمَن رآه يَعبَثُ في الصَّلاةِ[(٢)]: «لو خَشَعَ قَلْبُ هذا لَخَشَعَتْ جوارحُه»[(٣)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ الرَّجُلَ إذا كان يُوالي أعداءَ اللهِ بقَلبِه، كان ذلك دليلًا على أنَّ قلْبَه ليس فيه الإيمانُ الواجبُ[(٤)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ شُعَبَ الإيمانِ قد تتلازَمُ عندَ القوَّةِ ولا تتلازمُ عندَ الضَّعفِ، فإذا قَوِيَ ما في القَلبِ مِن التَّصديقِ والمعرفةِ والمحَبَّةِ للهِ ورَسولِه، أوْجَبَ بُغْضَ أعداءِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقد تحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّتُهم لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافرًا، كما

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) مطوَّلًا مِن حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما.

(٢) وهو مرويٌّ عن حُذَيفةَ وابنِ المُسيِّبِ، ورُوِيَ مرسَلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٣٧).

وأثرُ (حذيفة) أخرجه المروزيُّ في ((تعظيم قدر الصلاة)) (١٥٠).

وأثرُ (ابن المسَيِّبِ) أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (١١٨٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ (٣٣٠١)، وابنُ أبي شَيْبَةَ (٦٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧).

حَصَلَ مِن حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المشركينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنْزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾(١) [الممتحنة: ١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أنَّ المحبَّةَ الدِّينيَّةَ لا تجوزُ بيْن المؤمنِ والكافرِ(٢).

١٨- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ مالِكٌ -رَحِمَه اللهُ- مِن هذه الآيةِ على مُعاداةِ القَدَريَّةِ وتَرْكِ مُجالَستِهم، وفي معنى أهلِ القَدَرِ جَميعُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ(٣).

١٩- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ به مَن مَنَع تعزيةَ الكافِرِ(٤).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أنَّ مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ(٥)، وأنَّ ما يَحصُلُ في القُلوبِ مِن الهُدى والنُّورِ والإيمانِ، هو مِن اللهِ تعالى بفَضْلِه ورَحمتِه(٦).

٢١- إنَّ إضافةَ الرُّوحِ إلى اللهِ تعالى لا تدُلُّ على أنَّها صِفتُه، فَضلًا أنْ يكونَ هو اللهَ. وجبريلُ يُسمَّى رُوحَ اللهِ، والمسيحُ اسمُه رُوحُ اللهِ، والمضافُ إلى اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٣٩).
(٦) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

إذا كان ذاتًا قائِمةً بنَفْسِها فهو إضافةُ مملوكٍ إلى مالكٍ؛ كبَيْتِ اللهِ، وناقةِ اللهِ، ورُوحِ اللهِ، ليس المرادُ به بيتًا يَسكُنُه، ولا ناقةً يَركَبُها، ولا رُوحًا قائِمةً به، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢][1]، فما يُنزِلُه اللهُ في قُلوبِ أنبيائه ممَّا تحيا به قلوبُهم مِن الإيمانِ الخالصِ يُسَمِّيه رُوحًا، وهو ما يُؤيِّدُ اللهُ به المؤمِنينَ مِن عبادِه[2].

٢٢- الرِّضا باللهِ هو أصلُ الرِّضا عنه، والرِّضا عنه هي ثمرةُ الرِّضا به، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنَّ الرِّضا به مُتعَلِّقٌ بأسمائِه وصفاتِه، وأمَّا الرِّضا عنه فهو متعلِّقٌ بثَوابِه وجزائِه، فهو رضا العبدِ بما يَفعَلُه به ويُعطيه إيَّاه؛ ولهذا لم يَجِئْ إلَّا في الثَّوابِ والجزاءِ[3].

٢٣- في قَولِه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ سِرٌّ بديعٌ، وهو أنَّه لَمَّا سَخِطوا على القرائِبِ والعَشائِرِ في اللهِ، عَوَّضَهم اللهُ بالرِّضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، والفوزِ العظيمِ، والفَضلِ العَميمِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما قبْلَه مِن خُسرانِ حزْبِ الشَّيطانِ[5].

- ومَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ المنافِقين يُشبِهُ مَوقعَ آيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٥]؛ فالَّذين يُحادُّون اللهَ ورسولَه المُتقدِّمُ ذِكرُهم هم المشرِكون المُعلِنون بالمُحادَّةِ، وأمَّا المُحادُّون المذكورونَ في هذه الآيةِ فهمُ المُسِرُّون للمُحادَّةِ المُتظاهِرون بالمُوالاةِ، وهم المنافِقون؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ بيَّنَتْ شَيئًا مِن الخُسرانِ الَّذي قُضِيَ به على حزْبِ الشَّيطانِ الَّذي هُمْ في مُقدِّمتِه، وبهذا تَكتسِبُ هذه الجُملةُ معْنَى بدَلِ البعضِ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ لأنَّ الخُسرانَ يكونُ في الدُّنيا والآخرةِ، وخُسرانُ الدُّنيا أنواعٌ، أشَدُّها على النَّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ، والمعْنى: أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ في الأذَلِّينَ والمَغلوبين[١].

- واستِحضارُ المنافِقين بصِلةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، فمُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقال: إنَّهم -أي: حِزبَ الشَّيطانِ- في الأذَلِّينَ؛ فأُخرِجَ الكلامُ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهِرِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لإفادةِ مَدلولِ الصِّلةِ أنَّهم أعداءٌ للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإفادةِ المَوصولِ تَعليلَ الحكْمِ الواردِ بعْدَه، وهو كَونُهم أذَلِّينَ؛ لأنَّهم أعداءُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهمْ أعداءُ اللهِ القادرِ على كلِّ شَيءٍ، فعَدُوُّه لا يكونُ عزيزًا[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ): تَنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحكْمِ؛ بسَببِ الوَصْفِ الَّذي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- ومُفادُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في): أنَّهم كائنون في زُمرةِ القومِ الموصوفينَ بأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

أذَلُّونَ، أي: شَديدو المَذلَّةِ؛ ليَتصوَّرَهم السَّامعُ في كلِّ جَماعةٍ يَرى أنَّهم أذَلُّون، فيَكونُ هذا النَّظمُ أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: أولئك همُ الأذَلُّون(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ استِئنافٌ واردٌ لتَعليلِ كونِهمْ في الأذلِّينَ، أي: لأنَّ اللهَ أراد أنْ يكونَ رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غالبًا لأعدائِه، وذلك مِن آثارِ قُدرةِ الله الَّتي لا يَغلِبُها شَيءٌ، وقد كتَبَ لجَميعِ رُسلِه الغَلَبَةَ على أعدائِهم، فغلَبَتُهم مِن غَلَبَةِ اللهِ؛ إذ قُدرةُ اللهِ تَتعلَّقُ بالأشياءِ على وَفْقِ إرادتِه، وإرادةُ اللهِ لا يُغيِّرُها شَيءٌ(٢).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّهديدِ، فالمُرادُ: الغَلَبةُ بالقوَّةِ، وأمَّا الغَلَبةُ بالحُجَّةِ فأمْرٌ مَعلومٌ(٣).

- وجُملةُ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ﴾ مُذْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضَرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ فهي مُؤكَّدةٌ بلامِ القسَمِ والنُّونِ وبالضَّميرِ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُغالِبُ الغالِبَ مَغلوبٌ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦، ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ يُثيرُ تَشويقًا إلى مَعرفةِ حالِ هؤلاء القومِ وما سيُساقُ في شأنِهم مِن حُكْمٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ منه أمْرُه بإبلاغِ المسلمينَ أنَّ مُوادَّةَ مَن يُعلَمُ أنَّه مُحادٌّ اللهِ ورسولِه، هي ممَّا يُنافي الإيمانَ؛ ليَكُفَّ عنها مَن عَسى أنْ يكونَ مُتلبِّسًا بها، فالكلامُ مِن قِبَلِ الكِنايةِ عن السَّعيِ في نفْيِ وِجدانِ قومٍ هذه صِفتُهم، مِن قَبيلِ قولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا، أي: لا تَحضُرْ هنا[١].

وقيل: إنَّ هذا مِن بابِ تَنزيلِ الموجودِ الكائنِ مَنزلةَ المَعدومِ الَّذي لا يُمكِنُ تَصوُّرُه إلَّا في خِزانةِ الخَيالِ؛ فقد خُيِّلَ أنَّ مِن المُمتنِعِ المُحالِ أنْ تَجِدَ قَومًا مؤمنينَ يُوادُّون المشركين، والغرَضُ منه أنَّه لا يَنْبغي أنْ يكونَ ذلك، وحقُّه أنْ يَمتنعَ، ولا يُوجَدَ بحالٍ؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عنه، والزَّجرِ عن مُلابَستِه، والتَّصلُّبِ في مُجانَبةِ أعداءِ اللهِ. وزاد ذلك تأكيدًا بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾، وبقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، وبمُقابَلةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾، فلا تجدُ شيئًا أدخلَ في الإخلاصِ مِن مُوالاةِ أولياءِ اللهِ ومُعاداةِ أعدائِه، بلْ هو الإخلاصُ بعَينِه[٢].

- والمُوادَّةُ أصْلُها: حُصولُ المَوَدَّةِ في جانبَينِ، والنَّهيُ هنا إنَّما هو عن مَودَّةِ المؤمنِ الكافرينَ، لا عن مُقابَلةِ الكافرِ المؤمنينَ بالمَودَّةِ، وإنَّما جِيءَ بِصيغةِ المُفاعَلةِ هنا اعتبارًا بأنَّ شأْنَ الوُدِّ أنْ يَجلِبَ وُدًّا من المَودودِ للوادِّ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) للدرويش (١٠/ ٣٠).

أنْ تكونَ المُفاعَلةُ كِنايةً عن كَونِ الوُدِّ صادقًا؛ لأنَّ الوادَّ الصَّادقَ يُقابِلُه المَودودُ بمِثلِه، ويُعرَفُ ذلك بشَواهِدِ المُعامَلةِ، وقَرينةُ الكِنايةِ تَوجيهُ نفْيِ وِجدانِ الموصوفِ بذلك إلى القَومِ الَّذين يُؤمِنون باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يَقُلِ اللهُ هنا: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أحوالِ القلْبِ، فلا تُتصوَّرُ معها التَّقيَّةُ، بخِلافِ قولِه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾[1] [آل عمران: ٢٨].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ رُوعِيَ فيه تَرتيبٌ عَجيبٌ؛ فقد بدَأَ أوَّلًا بالآباءِ؛ لأنَّهم أدْعى إلى الاهتمامِ بهم؛ لوُجوبِ إخلاصِ الطَّاعةِ لهم، ومع ذلك نَهاهم عن مُوادَّتِهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥]، وثنَّى بالأبناءِ؛ لأنَّهم أعلَقُ بحَبَّاتِ القلوبِ، ثمَّ ثلَّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّهم هم المَثابةُ عندَ الحاجةِ، والنَّاصرُ عندَ نُشوبِ الأزماتِ، ثمَّ ربَّعَ بالعشيرةِ؛ لأنَّها المُستغاثُ في الشَّدائدِ، وهي المَوئلُ والمَفزَعُ في النَّوائبِ، وهم المُسرِعون إلى النَّجدةِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ مُبالَغةٌ في نِهايةِ الأحوالِ الَّتي قد يُقدِمُ فيها المرْءُ على التَّرخُّصِ فيما نُهِيَ عنه بعِلَّةِ قُربِ القَرابةِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

- وجُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ الأوصافَ السَّابقةَ ووُقوعَها عقِبَ ما وُصِفَ به المنافِقون مِن مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابقًا وآنِفًا، وما توَعَّدَهم اللهُ به أنَّه أعَدَّ لهم عَذابًا شديدًا ولهم عَذابٌ مُهينٌ، وأنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ، وأنَّهم الخاسِرون؛ ممَّا يَستشرِفُ بعْدَه السَّامعُ إلى ما سيُخبَرُ به عن المتَّصِفينَ بضِدِّ ذلك، وهم المؤمِنونَ الَّذين لا يُوادُّون مَن حادَّ اللهَ ورسولَه(١).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الَّذينَ لا يُوادُّونهم وإنْ كانوا أقرَبَ النَّاسِ إليهم وأمَسَّ رُحمًا، وما فيه مِن معْنى البُعدِ؛ لرِفعةِ دَرَجتِهم في الفضلِ(٢).

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مُذْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ وذلك بِذكْرِ القُلوبِ وإثباتِ الإيمانِ فيها، ثمَّ التَّوفيقِ بتأْييدِهم برُوحٍ مِن اللهِ، وإدخالِهم دارَ النَّعيمِ والخُلدِ المُقيمِ، ثم حُلولِ الرِّضوانِ، ورِضوانٌ مِن اللهِ أكبَرُ، وتَسميتِهم بحِزبِ اللهِ، ووَسْمِهم بسِمَةِ حَقيقةِ الفلاحِ والفوزِ بالمَباغي(٣).

- قولُه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ التأْييدُ: التَّقويةُ والنَّصرُ، أي: إنَّ تأْييدَ اللهِ إيَّاهم قد حصَلَ وتقرَّرَ بالإتيانِ بفِعلِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على الحصولِ وعلى التَّحقُّقِ والدَّوامِ، فهو مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٠، ٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

- قولُه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ(١).

- وقولُه: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بَيانٌ لابتِهاجِهم بما أُوتُوه عاجِلًا وآجِلًا(٢).

- ورِضا اللهِ عنهم حاصلٌ مِن الماضي ومُحقَّقُ الدَّوامِ؛ فهو مِثْلُ الماضي في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾، ورِضاهم عن ربِّهم كذلك حاصِلٌ في الدُّنيا بثَباتِهم على الدِّينِ ومُعاداةِ أعدائِه، وحاصلٌ في المُستقبَلِ بنَوالِ رِضا اللهِ عنهم ونَوالِ نَعيمِ الخُلودِ(٣).

- وتَحوَّلَ التَّعبيرُ مِن الماضي في قولِه: ﴿كَتَبَ﴾ ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ إلى المضارِعِ في قولِه: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾؛ لأنَّه الأصلُ في الاستِقبالِ. وقد استُغنِيَ عن إفادةِ التَّحقيقِ بما تَقدَّمَه مِن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾(٤).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ تَشريفٌ لهُمْ ببَيانِ اختِصاصِهم بِهِ عزَّ وجلَّ(٥).

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِهم بالفوزِ بسَعادةِ الدَّارَينِ، والفوزِ بسَعادةِ النَّشأتَينِ. وحرْفُ التَّنبيهِ يَحصُلُ منه تَنبيهُ المسلمينَ إلى فضْلِهم، وتَنبيهُ مَن يَسمَعُ ذلك مِن المنافِقين إلى ما حَبَا اللهُ به المسلمينَ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ؛ لعلَّ المنافقين يَغبِطونهم فيُخلِصونَ الإسلامَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

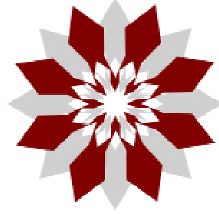
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

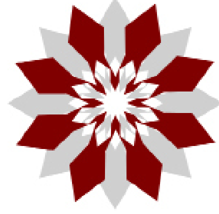
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

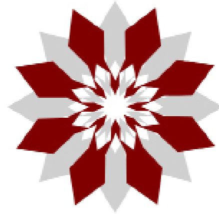
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

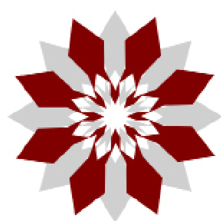
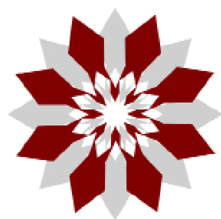
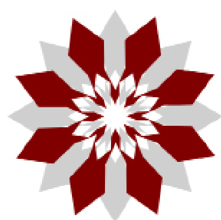
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).







تَفْسِيرُ
سُورَةِ الحَشْرِ

سورةُ الحَشْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

١- سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحَشْرِ)(١).

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلْتُ لابنِ عبَّاسٍ: ... سورةُ الحَشْرِ، قال: نزَلتْ في بَني النَّضيرِ)(٢).

٢- سُمِّيتْ أيضًا بسورةِ بَني النَّضيرِ.

فعن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ أيضًا في روايةٍ، قال: (قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: سورةُ الحَشْرِ. قال: قُلْ: سورةُ بني النَّضيرِ)(٣).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحَشْرِ مَدَنيَّةٌ(٤)، ....

(١) سُمِّيَت سورةَ الحَشْرِ؛ لوُقوعِ لَفظِ الحَشْرِ فيها، ولكَونِها ذُكِرَ فيها حَشْرُ بَني النَّضيرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٠٢٩).

قال ابنُ حَجَرٍ: (كأنَّه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] كَرِه تسميتَها بالحَشْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وإنَّما المرادُ به هنا إخراجُ بني النَّضيرِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ابنُ جُبَيرٍ سَمَّاها باسمِها المشهورِ، وابنُ عبَّاسٍ يُسَمِّيها سورةَ بني النَّضيرِ، ولعَلَّه لم يَبلُغْه تسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاها «سورةَ الحَشْرِ»؛ لأنَّ ظاهِرَ كَلامِه أنَّه يرى تسميتَها «سورةَ بني النَّضيرِ»؛ لِقَولِه لابنِ جُبَيرٍ: «قُلْ: بني النَّضيرِ»، وتأوَّلَ ابنُ حَجَرٍ كلامَ ابنِ عباسٍ على أنَّه كَرِهَ تَسميتَها بـ «الحَشْرِ»؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ بالحَشْرِ يومُ القيامةِ. وهذا تأوُّلٌ بعيدٌ. وأحسَنُ مِن هذا أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ أراد أنَّ لها اسمَينِ، وأنَّ الأمرَ في قَولِه: «قُلْ» للتَّخييرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير =

ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورة:

١- الحديثُ عن غزوةِ بَني النَّضيرِ، ونصْرِ الله لعِبادِه المؤمنينَ، وخِذْلانِه للضَّالِّينَ[٢].

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن أسماءِ الله تعالى الحسنى، وصِفاتِه العُلى[٣].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت سورةُ الحَشْرِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به، وإظهارِ عِزَّتِه وحِكْمتِه في تَصريفِ الأُمورِ.

٢- الحديثُ عن غزوةِ بني النَّضير، وما يَسَّرَ اللهُ تعالى مِن إجلائِهم، مع ما كانوا عليه مِن المَنَعةِ والحُصُونِ والعُدَّةِ.

٣- الحديثُ عن تقسيمِ أموالِ بني النَّضير، وعن حِكمةِ اللهِ تعالى في إرشادِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى هذا التَّقسيمِ (أحكام الفيءِ).

٤- الثَّناءُ على المهاجِرينَ والأنصارِ.

= الزمخشري)) (٤/ ٤٩٨).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

٥- كَشْفُ دخائِلِ المنافِقينَ الَّذين تحالَفوا مع اليَهودِ ضِدَّ المؤمِنينَ، وذِكْرُ جانبٍ مِن أقوالِهم الكاذِبةِ، ووُعودِهم الخادِعةِ.

٦- وَصفُ بني النَّضيرِ والمنافقينَ بالجُبْنِ، وتفَرُّقِ الكَلِمةِ، وتنظيرُ حالِ تغريرِ المنافِقينَ لليَهودِ بتغريرِ الشَّيطانِ للَّذين يَكفُرونَ باللهِ، وتنَصُّله منهم يومَ القيامةِ.

٧- توجيهُ الأمرِ للمُؤمِنينَ بتَقْوى اللهِ، ونهيُهم عن التَّشَبُّهِ بالفاسِقينَ عن أمرِ اللهِ، والتَّذكيرُ بتفاوُتِ حالِ الفريقَينِ.

٨- بيانُ عَظَمةِ القُرآنِ وجلالَتِه، واقتضائِه خُشوعَ أهلِه.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بذِكرِ جانبٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالى وصِفاتِه.



الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سَبَّحَ﴾: أي: نَزَّهَ وبَرَّأَ مِن كلِّ عَيبٍ، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[1].

﴿دِيَارِهِمْ﴾: أي: مَنازِلِهم، والدَّارُ: المَنزِلُ؛ اعتِبارًا بدوَرانِها الَّذي لها بالحائطِ، ثمَّ تُسمَّى البلدةُ دارًا، والدُّنيا كلُّها دارًا، والدَّارُ أيضًا: القبيلةُ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيْه[2].

﴿الْحَشْرِ﴾: أي: الجَمعِ والجلاءِ والإخراجِ، وأصلُ الحشرِ: الجمعُ مع سَوقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشْرٌ، وقيل: الحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها، وأصلُ (حشر): السَّوقُ والبَعْثُ والانْبِعاثُ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٤١٣).

﴿حُصُونُهُم﴾: الحصونُ جمْعُ حِصْنٍ، وهو كلُّ مَوضِعٍ حَصينٍ لا يوصَلُ إلى جَوفِه، وأصلُ (حصن): الحِفظُ والحِياطةُ والحِرزُ[١].

﴿لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾: أي: لم يَظُنُّوا، ولم يَخطُرْ ببالِهم، ويَحتسِبُ مُبالَغةٌ في الحِسبانِ، أي: الظَّنِّ، يُقالُ: حَسِبتُ كذا حِسبانًا في معنى ظَنَنْت، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ، ومنه الحِسْبانُ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِن الأمورِ الكائِنَةِ[٢].

﴿وَقَذَفَ﴾: أي: ألْقى، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّمي والطَّرحِ[٣].

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الخوفَ والهَلَع والجَزَعَ، وقيل: الرُّعب هو الخَوفُ الَّذي يَملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ (رعب) هنا: الخَوفُ[٤].

﴿فَاعْتَبِرُوا﴾: أي: فاتَّعِظوا، والاعتِبارُ والعِبْرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن مَعرِفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((روح المعاني)) للخلوتي (٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٣/ ٢٣).

وقال ابن فارس: (كأنَّه قال: انظُروا إلى مَن فعَل ما فعَل، فعُوقِب بما عُوقِب به، فتجَنَّبوا مِثلَ صَنيعِهم؛ لئلَّا يَنزِلَ بكم مِثلُ ما نزَل بأولئك). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢١٠).

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: أي: الإخلاءَ، والخُروجَ مِن الوَطنِ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على الكَشفِ الظَّاهِرِ[1].

﴿شَآقُّواْ﴾: أي: حَاربُوا وخَالَفُوا، وصارُوا فِي شِقٍّ غيرِ شِقِّه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بالإخبارِ بأنَّه نزَّه اللهَ تعالى عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المخلوقاتِ، واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

ثمَّ بيَّن الله تعالى جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على المؤمنينَ، حيثُ نصَرهم على أعدائِهم، فقال: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم حَولَ المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ، ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم، وظَنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَمنَعُهم مِن بأسِ اللهِ، فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

قال الماوَرْدي: (الفرقُ بيْنَ الجَلاءِ والإخراجِ -وإن كان معناهما في الإبعادِ واحدًا- من وجهَين؛ أحدُهما: أنَّ الجَلاءَ ما كان مع الأهلِ والولدِ، والإخراجَ قد يكونُ مع بقاءِ الأهلِ والولدِ. الثَّاني: أنَّ الجَلاءَ لا يكونُ إلَّا لجماعةٍ، والإخراجَ يكونُ لجماعةٍ ولواحدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

وأَلْقَى في قُلوبِهم الخَوفَ، يُخْرِبونَ مَساكِنَهم بأيديهم، وهم الَّذين ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها؛ فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائِرِ والعقولِ والأفهامِ بعاقِبةِ أولئك اليَهودِ.

ولولا أنْ كَتَبَ اللهُ وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم، لَعذَّبَهم في الدُّنيا، ولهم عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ، وإنَّما استَحَقُّوا الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما، ومَن يُخالِفِ اللهَ ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجميعُ ما في الأرضِ مِن المخلوقاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن شَيءٍ يُسبِّحُ له ويُمَجِّدُه ويُقَدِّسُه، ويُصَلِّي له ويوَحِّدُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

وقال ابن جرير: (يَعْني بقولِه جَلَّ ثَناؤُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: صَلَّى لله، وسَجَد له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦).

ويُنظر ما تقدَّم في أوَّل سورة الحديد (ص: ١٢).

قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يمتَنعُ عليه شَيءٌ، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] بيَّن بعضَ آثارِ عِزَّتِه، وأحكامِ حِكمتِه(٢)، ودلَّ عليهما بدَليلٍ شُهوديٍّ مِن أنَّه أنفَذَ ما كَتَب مِن أنَّه يَغلِبُ هو ورسُلُه، ومِن أنَّه كَبَت الَّذين حادُّوه، وخَيَّب ظَنَّ الَّذين نافقوا، فتوَلَّوُا اليهودَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لِيَعتَزُّوا بهم، فأذَلَّ اليَهودَ وطَرَدَهم مِن مَهبِطِ الوَحيِ، وأخزَى المنافِقينَ الَّذين جَعَلوهم مَحَطَّ اعتمادِهم، ومَوضِعَ وَلايتِهم ووِدادِهم(٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم حَولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦-٤٩٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٦-٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦، ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

قال الرازي: (قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثَرينَ أنَّ هذا أوَّلُ حشرِ أهلِ الكتابِ، أي: أوَّلُ مرَّةٍ حُشِروا وأُخرِجوا مِن جزيرةِ العرَبِ، لم يُصِبْهم هذا الذُّلُّ قبْلَ ذلك؛ لأنَّهم كانوا أهلَ مَنَعةٍ وعزٍّ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠١، ٥٠٢).

وقال السعدي: (وكان إخراجُهم منها [أي: المدينةِ] أوَّلَ حشرٍ وجَلاءٍ كتَبَه اللهُ عليهم على يدِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فجُلوا إلى خَيْبرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

وقال الشوكاني: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ هؤلاء المذكورينَ في الآيةِ هم بنو النَّضيرِ، ولم يخالِفْ في ذلك إلَّا الحسَنُ البصريُّ فقال: هم بنو قُرَيْظةَ، وهو غلَطٌ؛ فإنَّ بني قُرَيظةَ ما حُشِروا، بل قُتِلوا بحُكم سعدِ بنِ مُعاذٍ لَمَّا رضُوا بحُكمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

وقال ابنُ القيِّم: (زعَم محمَّدُ بنُ شِهابٍ الزُّهْريُّ أنَّ غزوةَ بني النَّضيرِ كانت بعدَ بدرٍ بسِتَّةِ أشهرٍ، وهذا وهمٌ منه أو غلَطٌ عليه، بل الَّذي لا شكَّ فيه أنَّها كانت بعدَ أُحُدٍ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٢٣). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٠٧)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٤)، ((إمتاع الأسماع)) للمقريزي (٨/ ٣٥٩).

وقال البقاعي: (مَن زَعَم أنَّ شيئًا ممَّا في هذه السُّورةِ نُسِخَ بشَيءٍ مِمَّا في سورةِ الأنفالِ، فقد أخطَأَ؛ لأنَّ الأنفالَ نَزَلت في بَدْرٍ، وهي قبْلَ هذه بمدَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣٤).

ونقَلَ ابنُ عطيَّةَ الاتِّفاقَ على أنَّ الحشرَ: الجمْعُ والتَّوجيهُ إلى ناحيةٍ ما. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ في معناه أربعةُ أقوالٍ:

أحدها: أنَّه حشْرُ القيامةِ، أي: خُروجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، والقيامُ مِن القُبورِ آخِرُه...

الثَّاني: أنَّ المعنى: لأوَّلِ مَوضِعِ الحَشرِ، وهو الشَّامُ؛ وذلك أنَّ أكثَرَ بَني النَّضيرِ خرَجوا إلى الشَّامِ...

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: الحشرُ في الدُّنيا الَّذي هو الجَلاءُ والإخراجُ، فإخراجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، وإخراجُ أهلِ خَيْبرَ آخِرُه.

الرَّابعُ: أنَّ معناه: إخراجُهم مِن ديارِهم لأوَّلِ ما حَشر لِقتالِهم؛ لأنَّه أوَّلُ قتالٍ قاتَلَهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧). =

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنَّه سأل ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما عن سورةِ الحَشرِ، قال: (نزَلَت في بَني النَّضيرِ)(١).

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾.

أي: ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم، ويَترُكوا لكم أموالَهم حينَ حاصَرْتُم حُصونَهم المنيعةَ(٢).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وظنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَحميهم مِن بأسِ اللهِ، فتتعَذَّرُ هزيمتُهم(٣).

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم(٤).

= فعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ أرضُ المَحشَرِ -وهي الشَّامُ- فتَكونُ الأَوَّليَّةُ مَكانيَّةً، أي: لأوَّلِ مكانٍ مِن أرضِ المَحشَرِ، وهي أرضُ الشَّام، وأوائلُه خَيْبَرُ وأَذْرِعاتٍ.

وعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ: الجمعُ، فقد حَشَدَ الرَّسولُ لقتالِهم، وهو أوَّلُ قِتالٍ قاتَلَهم: فتكونُ الأَوَّليَّةُ زمانيَّةً، وتَقتَضي حشرًا بعْدَه. يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال الشوكاني: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: أتاهم أمْرُ اللهِ مِن حيث لم يَخطُرْ ببالِهم أنَّه يأتيهم أمْرُه مِن تلك الجهةِ، وهو أنَّه سُبحانَه أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بقِتالِهم وإجلائِهم، وكانوا لا يَظُنُّون ذلك. وقيل: هو قَتْلُ رئيسِهم كعبِ بنِ الأشرَفِ، قاله ابنُ جُرَيجٍ والسُّدِّيُّ وأبو صالحٍ؛ فإنَّ قتْلَه أضعَفَ شَوكتَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

أي: وألْقى اللهُ تعالى في قُلوبِهم الخَوفَ والهَلَعَ حينَ حاصَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[(٢)]))[(٣)].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

= وقال السعدي: (قال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: مِن الأمرِ والبابِ الَّذي لم يَخطُرْ ببالِهم أن يُؤْتَوا منه، وهو أنَّه تعالى «قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (حَصَلَ الرُّعبُ في قلوبِهم دَفعةً دونَ سابِقِ تأمُّلٍ، ولا حُصولِ سَبَبٍ للرُّعبِ... والمعنى: وجَعَلَ اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم، فأسرعوا بالاستِسلامِ. وقذْفُ الرُّعبِ في قلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يحتَسِبوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) أي: نَصَرني اللهُ بإلقاءِ الخَوفِ في قُلوبِ أعدائي مِن مَسيرَةِ شَهرٍ، يَعْني: بيْني وبيْنَهم مِن سائرِ نواحي المَدينةِ وجَميعِ جِهاتِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (١/ ١٧٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءةُ ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ بالتَّشديدِ، أي: يُهَدِّمون[١].

٢- قراءة ﴿يُخۡرِبُونَ﴾ بالتَّخفيفِ. قيل: بمعنَى التَّركِ والتَّعطيلِ، أي: يَترُكون بُيوتَهم ويُعطِّلونها، تقولُ: أخرَبْتُ المكانَ، إذا خرَجْتَ عنه وترَكْتَه. وقيل: بمعنى الهدمِ، فيَجري ذلك مَجرى أكرَمتُ وكرَّمْتُ، وكذلك خرَّبتُ وأخرَبتُ[٢].

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: هم جَعَلوا مَساكِنَهم خرابًا بأيديهم، وهم مَن ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها[٣].

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).
قال ابنُ جُزَي: (أمَّا إخرابُ المؤمنينَ فهو هدمُ أسوارِ الحُصونِ لِيَدخُلوها، وأسنَدَ ذلك إلى الكُفَّارِ في قولِه: ﴿يُخۡرِبُونَ﴾؛ لأنَّه كان بسَبَبِ كُفرِهم وغَدرِهم، وأمَّا إخرابُ الكُفَّارِ لِبُيوتِهم فلثلاثةِ مَقاصِدَ؛ أحدُها: حاجتُهم إلى الخَشَبِ والحِجارةِ؛ لِيَسُدُّوا بها أفواه الأزِقَّة، ويحَصِّنوا ما خَرَّبه المسلِمون مِن الأسوارِ. والثَّاني: لِيَحمِلوا معهم ما أعجبَهم مِن الخَشَبِ والسَّواري وغيرِ ذلك. والثَّالثُ: ألَّا تَبقى مساكِنُهم مَبنيَّةً للمُسلِمينَ، فهَدَموها شُحًّا عليها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

أي: فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائِرِ والعقولِ والأفهامِ بما أحلَّ اللهُ بهؤلاء اليَهودِ فلم تمنَعْهم قوَّتُهم، ولا حصَّنَتْهم حُصونُهم، وتفكَّروا في عاقِبةِ مَن خالَفَ أمْرَ اللهِ، وخالَف رسولَه؛ فإنَّ في هذا مُعتبَرًا[١].

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ قضى وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم إلى بلادٍ أُخرى لَعذَّبَهم في الدُّنيا[٢].

﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: ولهم مع جَلائِهم في الدُّنيا عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (الاعتبارُ: النَّظرُ في دَلالةِ الأشياءِ على لَوازِمِها وعواقِبِها وأسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٢). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ١٠٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٥٩)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٢٨-٣٠).

وقال القرطبي: (ومِن جملةِ الاعتِبارِ هنا أنَّهم اعتصَموا بالحُصونِ مِن الله، فأنزَلهم اللهُ منها. ومِن وُجوهِه: أنَّه سلَّط عليهم مَن كان يَنصرُهم. ومِن وُجوهِه أيضًا: أنَّهم هدَموا أموالَهم بأيديهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

وقولُه: ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: يا أصحابَ العقولِ والألبابِ. وقيل: يا مَن عايَنَ ذلك ببصَرِه، فهو جمْعٌ للبصرِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٤، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

قال ابن القيِّم: (التَّعذيبُ في الدُّنيا هو القِتالُ والإهلاكُ). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بما نالهم في الدُّنيا، ويَنالُهم في الآخِرةِ؛ عَلَّلَه بقَولِه[1]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: إنَّما استَحَقَّ يَهودُ بَني النَّضيرِ الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما[2].

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ اللهَ في أمرِه ونَهْيِه ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى، تَذكيرٌ للمؤمنينَ بتَسبيحِهم للهِ تَسبيحَ شُكْرٍ على ما أنالَهُم مِن فتْحِ بِلادِ بني النَّضيرِ، فكأنَّه قال: سبِّحوا للهِ كما سبَّح له ما في السَّمواتِ والأرضِ[4].

= كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (جَعَل سَبَبَ استحقاقِهم العذابَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخرة: هو مُشاقَّة اللهِ ورسولِه، والمؤذي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُشاقٌّ للهِ ورَسولِه...، والعذابُ هنا هو الإهلاكُ بعذابٍ مِن عندِه أو بأيدينا، وإلَّا فقد أصابهم ما دونَ ذلك مِن ذَهابِ الأموالِ، وفِراقِ الأوطانِ). ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ هو الخَوفُ الشَّديدُ الَّذي هو جُندُ اللهِ الأكبَرُ، الَّذي لا يَنفَعُ معه عَدَدٌ ولا عُدَّةٌ، ولا قوَّةٌ ولا شِدَّةٌ، فالأمرُ الَّذي يحتَسِبونَه ويَظُنُّونَ أنَّ الخَلَلَ يَدخُلُ عليهم منه إن دخَل: هو الحُصونُ الَّتي تحصَّنوا بها، واطمأنَّت نُفوسُهم إليها، ومَن وَثِقَ بغيرِ اللهِ فهو مخذولٌ، ومَن رَكَن إلى غيرِ اللهِ فهو عليه وَبالٌ[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يدُلُّ على الأمرِ بالاعتِبارِ، وهو اعتِبارُ النَّظيرِ بنَظيرِه، وقياسُ الشَّيءِ على مِثْلِه، والتَّفَكُّرُ فيما تضَمَّنَتْه الأحكامُ مِن المعاني والحِكَمِ الَّتي هي محَلُّ العَقلِ والفِكرةِ، وبذلك يَزدادُ العَقلُ، وتتنوَّرُ البصيرةُ، ويَزدادُ الإيمانُ، ويَحصُلُ الفَهمُ الحقيقيُّ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ لهم حَشرًا وجَلاءً غَيرَ هذا؛ فقد وقع حينَ أجلاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيبَرَ، ثمَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه أخرَجَ بَقيَّتَهم منها[3]. وهذا بِناءً على أنَّ الأوَّليَّةَ زمانيَّةٌ، وأنَّه أوَّلُ حشرٍ وجَلاءٍ كتبه اللهُ عليهم.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ تعالى ذلك؛ تعظيمًا لهذه النِّعمةِ؛ فإنَّ النِّعمةَ إذا ورَدَت على المرءِ والظَّنُّ بخِلافِه، تكونُ أعظَمَ؛ فالمسلِمونَ ما ظَنُّوا أنَّهم يَصِلونَ إلى مُرادِهم في خروجِ هؤلاءِ اليَهودِ، فيَتخَلَّصونَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

مِن ضَرَرِ مَكايِدِهم، فلمَّا تيسَّرَ لهم ذلك كان وَقْعُ هذه النِّعمةِ أعظَمَ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأمورَ كُلَّها لله؛ وذلك لأنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّ وُقوعَ ذلك الرُّعبِ في قُلوبِهم كان مِنَ اللهِ، ودلَّت على أنَّ ذلك الرُّعبَ صار سَبَبًا في إقدامِهم على بعضِ الأفعالِ، وبالجُملةِ فالفِعلُ لا يحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ داعيةٍ مُتأكِّدةٍ في القَلبِ، وحُصولُ تلك الدَّاعيةِ لا يكونُ إلَّا مِنَ اللهِ؛ فكانت الأفعالُ بأسْرِها مُسنَدةً إلى اللهِ تعالى بهذا الطَّريقِ[٢].

٤- الإتيانُ والمجيءُ مِنَ اللهِ تعالى نوعانِ: مُطلَقٌ، ومُقَيَّدٌ؛ فإذا كان مجيءَ رَحمتِه أو عذابِه كان مُقيَّدًا... النَّوعُ الثَّاني: المجيءُ والإتيانُ المُطلَقُ، كقَولِه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا لا يكونُ إلَّا مجيئَه سُبحانَه... ومِنَ المجيءِ المقيَّدِ قَولُه: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فلمَّا قَيَّده بالمفعولِ -وهو البُنيانُ- وبالمجرورِ -وهو القواعِدُ- دَلَّ ذلك على مجيءِ ما بَيَّنَه، وهذا يُشبِهُ قَولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، فهذا مجيءٌ مُقَيَّدٌ لِقَومٍ مخصوصينَ قد أوقَعَ بهم بَأْسَه، وعَلِمَ السَّامِعون أنَّ جُنودَه مِنَ الملائكةِ والمسلِمينَ أَتَوهم، فكان في هذا السِّياقِ ما يدُلُّ على المرادِ، على أنَّه لا يمتَنِعُ في الآيتَينِ أن يكونَ الإتيانُ على حقيقتِه، ويكونَ ذلك دُنُوًّا ممَّن يريدُ إهلاكَهم بغَضَبِه وانتِقامِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٠٣).

كما يَدنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ مِنَ الحُجَّاجِ برَحمتِه ومَغفرتِه[١]، ولا يَلزَمُ مِن هذا الدُّنُوِّ والإتيانِ المُلاصَقةُ والمُخالَطةُ، بل يأتي هؤلاءِ برَحمتِه وفَضْلِه، وهؤلاء بانتِقامِه وعُقوبتِه، وهو فَوقَ عَرْشِه؛ إذ لا يكونُ الرَّبُّ إلَّا فوقَ كُلِّ شَيءٍ، ففَوقيَّتُه وعُلُوُّه مِن لَوازِمِ ذاتِه، ولا تناقُضَ بيْن نُزولِه ودُنُوِّه، وهبوطِه ومجيئِه، وإتيانِه وعُلُوِّه؛ لإحاطتِه وسَعَتِه وعَظَمتِه، وأنَّ السَّمَواتِ والأرضَ في قَبْضَتِه، وأنَّه مع كَونِه الظَّاهِرَ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، فهو الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ مَنطوقُه أنَّ الرُّعبَ سَبَبٌ مِن أسبابِ هزيمةِ اليَهودِ، ومفهومُ المُخالَفةِ يدُلُّ على أنَّ العَكسَ بالعَكسِ، أي: أنَّ الطُّمَأنينةَ -وهي ضِدُّ الرُّعبِ- سَبَبٌ مِن أسبابِ النَّصرِ، وهو ضِدُّ الهزيمةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حُجَّةٌ في إخرابِ بلادِ العَدُوِّ للنِّكايةِ[٤] أثناءَ الحِصارِ.

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن قيل: كيف قال:

---

(١) قال ابن تيميَّة: (الرَّبُّ سُبْحانَه إذا وَصَفَه رَسولُه صلَّى الله عليه وسَلَّم بأنَّه يَنزِلُ إلى سماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيلةٍ، وأنَّه يَدْنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ إلى الحُجَّاجِ، وأنَّه كَلَّم موسَى في الوادي الأيمَنِ في البُقْعةِ المُبارَكةِ مِن الشَّجَرةِ، وأنَّه استوَى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ...: لم يَلْزَمْ مِن ذلك أن تكونَ هذه الأفعالُ مِن جِنْسِ ما نُشاهِدُه مِن نُزولِ هذه الأعيانِ المشهودةِ حتَّى يُقالَ: ذلك يَستَلزِمُ تَفريغَ مكانٍ وشَغْلَ آخَرَ! فإنَّ نُزولَ الرُّوحِ وصُعودَها لا يَستَلزِمُ ذلك، فكيف برَبِّ العالَمينَ؟! وكذلك الملائكةُ لهم صعودٌ ونُزولٌ مِن هذا الجنسِ. فلا يجوزُ نَفْيُ ما أثْبَته اللهُ ورَسولُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، ولا يجوزُ تَمثيلُ ذلك بصِفاتِ المخلوقاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولا يُتصَوَّرُ أن يُخرِبوا بُيوتَهم بأيدي المؤمِنينَ؟

فالجوابُ: إنَّما أضاف إليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين ألجؤُوا المؤمِنينَ إلى التَّخريبِ، وحَمَلوهم على ذلك؛ بسَبَبِ امتِناعِهم عن الإيمانِ وكُفرِهم، ونَقْضِهم العهدَ وغَدرِهم، فكأنَّهم كلَّفوهم إيَّاه، وأمَرُوهم به[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فيه أنَّ الاعتبارَ أحدُ قوانينِ الشَّرعِ، ومَن لم يَعتَبِرْ بغَيرِه، اعتَبَرَ به غيرُه[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ استُدِلَّ به على حُجِّيَّةِ القياسِ، وأنَّه فَرضُ كفايةٍ على المجتَهِدينَ؛ لأنَّ الاعتبارَ: قياسُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أنَّه سُبحانَه كما يُنْكِرُ التَّسويةَ بيْنَ المُختَلِفاتِ، فهو يُسَوِّي بيْن المُتماثِلاتِ[٤]، فالشَّارعُ حكيمٌ لا يُفرِّقُ بيْنَ متماثِلَينِ إلَّا لاختِصاصِ أحدِهما بما يُوجِبُ الاختِصاصَ، ولا يُسوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ غيرِ مُتساوِيَينِ، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾، والاعتبارُ إنَّما يكونُ إذا سَوَّى بيْن المتماثِلَينِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٢٧).

١١- الاعتبارُ والقياسُ نَوعانِ: قياسُ الطَّردِ، وقياسُ العَكسِ؛ فقياسُ الطَّردِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه حتَّى يُجعَلَ حُكمُه مِثلَ حُكْمِه. وقياسُ العَكسِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَقيضِه حتَّى يُعلَمَ أنَّ حُكمَه نَقيضُ حُكمِه. وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يتناوَلُ الأمْرَينِ؛ فيَعتَبِرُ العاقِلُ بتعذيبِ اللهِ لِمَن كَذَّب رُسُلَه، كما فَعَل ببَني النَّضيرِ؛ حتَّى يَرغَبَ في نقيضِ ذلك، ويَرهَبَ مِن نظيرِ ذلك، فيَستَعمِل قياسَ الطَّردِ في الرَّهبةِ، وقياسَ العَكسِ في الرَّغبةِ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ حُجَّةٌ في الكِتابةِ القَدَريَّةِ على مَن يُنْكِرُها(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وُجوبُ قَتلِ سابِّ اللهِ ورسولِه، وانتقاضُ عَهْدِه؛ لأنَّ التَّعذيبَ في الدُّنيا هو القتالُ والإهلاكُ، ثمَّ عَلَّلَ ذلك بالمُشَاقَّةِ، وأَخَّرَ عنهم ذلك التَّعذيبَ؛ لِمَا سَبَق مِن كتابةِ الجَلاءِ عليهم، فمَن وُجِدَتْ منه المُشَاقَّةُ مِن غَيرِهم ممَّن لَمْ يُكْتَبْ عليه الجَلاءُ، استحَقَّ عذابَ الدُّنيا الَّذي أَخَّرَه عن أولئك(٣).

١٤- إن قيل: إنَّ (لولا) تُفيدُ انتِفاءَ الشَّيءِ لِثُبوتِ غيرِه، فيَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُ التَّعذيبِ في الدُّنيا، لكنَّ الجَلاءَ نَوعٌ مِن أنواعِ التَّعذيبِ، فإذًا يَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُه، وهو محالٌ!

والجوابُ: أنَّ معناه: ولولا أن كتَبَ اللهُ عليهم الجَلاءَ لَعَذَّبهم في الدُّنيا بالقتلِ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٤).

كما فعَل بإخوانِهم بَني قُرَيْظةَ[١]. فـ(لولا) حرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تُفيدُ امتِناعَ جوابِها مِن أجْلِ وُجودِ شَرْطِها، أي: وُجودُ تقديرِ اللهِ جَلاءَهم سببٌ لانتِفاءِ تعذيبِ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا بعذابٍ آخَرَ، فلو لم يُعاقِبْهم اللهُ بالجَلاءِ لَعاقَبَهم بالقتلِ والأَسْرِ؛ لأنَّهم استَحَقُّوا العِقابَ، فالمُرادُ بالتَّعذيبِ: الألَمُ المحسوسُ بالأبدانِ بالقتلِ والجرحِ والأسْرِ والإهانةِ، وإلَّا فإنَّ الإخراجَ مِن الدِّيارِ نَكْبةٌ ومُصيبةٌ، لكنَّها لا تُدرَكُ بالحِسِّ، وإنَّما تُدرَكُ بالوِجْدانِ[٢].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أوقَعَ ما أوقَعَه ببَني النَّضيرِ مِن إخراجِهم من ديارِهم، وتخريبِ بُيوتِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورَسولَه، وأنَّ المُشاقَّةَ المذكورةَ هي عِلَّةُ العُقوبةِ الحاصِلةِ بهم، ولا شكَّ أنَّ مُشاقَّةَ اللهِ ورَسولِه من أعظَمِ أسبابِ الهَلاكِ[٣].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيه سؤالٌ: لو كانت المُشاقَّةُ عِلَّةً لهذا التَّخريبِ لَوَجَب أن يُقالَ: أيْنَما حَصَلت هذه المُشاقَّةُ حصَل التَّخريبُ، ومعلومٌ أنَّه ليس كذلك؟

الجوابُ: أنَّ هذا أحَدُ ما يدُلُّ على أنَّ تخصيصَ العِلَّةِ المنصوصةِ لا يَقدَحُ في صِحَّتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية محمد سالم (٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥).

قال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ تؤيِّدُ قولَ مَن قال إنَّ النَّقضَ [أي: تخلُّفَ حُكم العلَّةِ عنها] في فنِّ الأصولِ تخصيصٌ للعلَّةِ مُطلَقًا، لا نقْضٌ لها، وعزاه في «مراقي السعود» للأكثَرينَ). =

١٧- شَرْعُ اللهِ وقَدَرُه ووَحْيُه وثوابُه وعِقابُه كلُّه قائمٌ على أصلِ إلحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، واعتِبارِ المِثْلِ بالمِثْلِ؛ ولهذا يَذْكُرُ الشَّارعُ العِلَلَ والأوصافَ المؤثِّرةَ، والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعَلُّقِ الحُكْمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقَوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢]، وقَوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقَوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦]، وقَوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، وقَوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[1] [فصلت: ٢٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى تَعريضٌ بأولئك الَّذين نزَلَت السُّورةُ فيهم بأنَّهم أصابَهُم ما أصابَهُم لتَكبُّرِهم عن تَسبيحِ اللهِ حقَّ تَسبيحِه بتَصديقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ أعْرَضوا عن النَّظَرِ في دَلائلِ رِسالتِه، أو كابَروا في مَعرفتِها[2].

= ((آداب البحث والمناظرة)) (ص: ٢٩٩). ويُنظر: ((نثر الورود شرح مراقي السعود)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

- وأيضًا فافتِتاحُ السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهه مُؤذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتَضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأْنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشركون، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتْبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى، وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانت هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ(١).

- قال تعالى في أوَّلِ سُورةِ (الحديد): ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وهاهنا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ فاتحةَ سُورةِ الحديدِ تَضمَّنَت الاستِدلالَ على عَظَمةِ اللهِ تعالى وصِفاتِه وانفرادِه بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فكان دَليلُ ذلك هو مَجموعَ ما احتَوَت عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن أصنافِ الموجوداتِ، فجُمِعَ ذلك كلُّه في اسمٍ واحدٍ هو (ما) المَوصولةُ، الَّتي صِلَتُها قولُه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وأمَّا فاتحةُ سُورةِ الحَشرِ فقدْ سِيقَت للتَّذكيرِ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على المسلِمينَ في حادثةٍ أرْضيَّةٍ، وهي خِذلانُ بَني النَّضيرِ؛ فناسَبَ فيها أنْ يُخَصَّ أهلُ الأرضِ باسمٍ مَوصولٍ خاصٍّ بهم، وهي (ما) المَوصولةُ الثَّانيةُ الَّتي صِلَتُها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٢).

أو كُرِّرَ الموصولُ هاهنا؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والتَّنبيهِ على استِقلالِ كلٍّ مِن الفَريقينِ بالتَّسبيحِ(٣).

- وأُوثِرَ هنا الإخبارُ عن ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بفِعلِ المُضيِّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٤، ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

لأنَّ المُخبَرَ عنه تَسبيحُ شُكْرٍ عن نِعمةٍ مَضَت قبْلَ نُزولِ السُّورةِ، وهي نِعمةُ إخراجِ أهلِ النَّضيرِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾

- يَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ إلى آخِرِها استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لقَصْدِ إجراءِ هذا التَّمجيدِ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِما يَتضمَّنُه مِن باهِرِ تَقديرِه، ولِما يُؤذِنُ به ذلك مِن التَّعريضِ بوُجوبِ شُكْرِه على ذلك الإخراجِ العجيبِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ عِلَّةً لِما تَضمَّنَه الخبرُ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن التَّذكيرِ للمؤمنينَ، والتَّعريضِ بأهلِ الكِتابِ والمُنافِقين الَّذين هُمْ فَريقانِ ممَّا في الأرضِ؛ فإنَّ القِصَّةَ الَّتي تَضمَّنَتها فاتحةُ السُّورةِ مِن أهمِّ أحوالِهما. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]؛ لأنَّ هذا التَّسخيرَ العظيمَ مِن آثارِ عِزِّه وحِكمتِه، وعلى كلِّ الوُجوهِ فهو تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على المسلمينَ، وإيماءٌ إلى أنْ يَشكُروا اللهَ على ذلك، وتَمهيدٌ للمقصودِ مِن السُّورةِ، وهو قِسمةُ أمْوالِ بني النَّضيرِ[2].

- والضَّميرُ (هو) راجِعٌ إلى اللهِ تعالَى بذلك العُنوانِ؛ إمَّا بِناءً على كَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه تَعالى بهما -﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾- مع مُساعدةٍ تامَّةٍ مِن المَقامِ، أو على جَعْلِ الضَّميرِ مُعبَّرًا به عن اسمِ الإشارةِ، كأنَّه قيلَ: ذلك المنْعوتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

بالعِزَّةِ والحِكمةِ الَّذي أخْرَجَ... إلخ؛ ففيهِ إشعارٌ بأنَّ في الإخراجِ حِكمةً باهرةً[١].

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ بالضَّميرِ والمَوصولِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ يُفيدُ قصْرَ صِفةِ إخراجِ الَّذين كَفَروا مِن دِيارِهم عليه تعالَى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بسَعْيِ المؤمنينَ في ذلك الإخراجِ، ومُعالجتِهم بَعضَ أسبابِه، كتَخريبِ دِيارِ بَني النَّضيرِ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ التَّعليلِ لجُملةِ القصْرِ[٣].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بنو النَّضيرِ، ووُسِمُوا بالَّذين كَفَروا؛ لأنَّهم كَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-؛ تَسجيلًا عليهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ[٤].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُرادَ بأهلِ الكِتابِ هنا خُصوصُ اليهودِ، أي: الَّذين كَفَروا بِرسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-، وهمْ أهلُ الكِتابِ، وأراد بهم اليهودَ، فوُصِفوا بـ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُشرِكون بمكَّةَ، أو بَقيَّةُ المشركين بالمدينةِ، فيُظَنَّ أنَّ الكلامَ وَعيدٌ[٥].

- قولُه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، أي: كائنينَ من أهلِ الكتابِ، وصحَّتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥، ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٧).

الإضافةُ إليهم؛ لأنَّهم كانوا ببَرِّيَّةٍ لا عُمْرانَ فيها، فبَنَوْا فيها وأنْشَؤوا[١].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي الَّتي تَدخُلُ على أوَّلِ الزَّمانِ المَجعولِ ظَرْفًا لعَملٍ، وهي بمعْنى (عندَ)، فالمعْنى: أنَّه أخرَجَهم عِندَ مَبدَأِ الحشْرِ المُقدَّرِ لهم، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يُخرَجوا من جَميعِ دِيارِهم في بلادِ العرَبِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ تَعريفُ العهْدِ[٢].

- ونظْمُ جُملةِ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ على هذا النَّظمِ دونَ أنْ يُقالَ: (وظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعتُهم)؛ لِيَكونَ الابتِداءُ بضَميرِهم؛ لأنَّه سيَعقُبُه إسنادُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ إليه، فيَكونُ الابتداءُ بضَميرِهم مُشيرًا إلى اغترارِهم بأنفُسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعةٍ، وأنَّ مَنَعةَ حُصونِهم هي مِن شُؤونِ عِزَّتِهم، ففيه تقديمُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ -وهو وصْفٌ- على ﴿حُصُونُهُم﴾ وهو اسمٌ، والاسمُ -بحسَبِ الظَّاهرِ- أَوْلى بأنْ يُجعَلَ في مَرتبةِ المبتدأِ، ويُجعَلَ الوصْفُ خَبَرًا عنه؛ فعُدِلَ عن ذلك، وقُدِّم الخبرُ على المُبتدَأِ دليلًا على فَرطِ وُثوقِهم بحصانتِها ومَنْعِها إيَّاهم، وفي تصييرِ ضميرِهم اسمًا لـ(أنَّ)، وإسنادِ الجملةِ إليه دليلٌ على اعتقادِهم في أنفُسِهم أنَّهم في عزَّةٍ ومَنَعةٍ، وليس ذلك في قولِك: (وظنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم)[٣].

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ الأصلُ: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)؛ لقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩، ٧٠).

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾، بناءً على قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليُطابِقَ ما قبْلَه بإيقاعِ النَّاصبةِ للفِعلِ بعْدَها، فخُولِفَ ليُؤذِنَ بأنَّ ظنَّ المؤمنينَ كان على الرَّجاءِ والطَّمَعِ، وظَنَّهم على العِلمِ واليقينِ، فعُلِمَ مِن التَّأسيسِ أنَّ بِناءَ أمْرِه على الجزْمِ والثُّبوتِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّانيةِ (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم) نظَرًا إلى كَلامِ أوساطِ النَّاسِ، ثمَّ لَمَّا أُرِيدَ مَزيدُ التَّوكيدِ قِيل: (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعَتُهم)؛ لإرادةِ الثُّبوتِ في الدَّرجةِ الثَّانيةِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّالثةِ: (ظَنُّوا أنَّه مانِعَتُهم حُصونُهم)؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، وأنْ ليس لحُصونِهم صِفةٌ سِوى المنْعِ، وأنَّه لا بُدَّ منه، ثمَّ في المَرتبةِ الرابعةِ: (ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)؛ ليَتقوَّى الحُكمُ لإفادةِ تَكثيرِ الإسنادِ، وإنْ لم يُرَدْ ما ذُكِرَ فما بالُ التَّرتيبِ لم يُترَكْ على أصْلِه؛ وهو: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)[(١)]؟!

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ تفريعٌ على مَجموعِ جُملتَيْ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اللَّتينِ هما تَعليلٌ للقصْرِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ الاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسبانِ -أي: الظَّنِّ- أي: مِن مَكانٍ لم يَظُنُّوه؛ لأنَّهم قَصَروا استعِدادَهم على التَّحصُّنِ والمَنَعةِ، ولم يَعلَموا أنَّ قُوَّةَ اللهِ فوقَ قُوَّتِهم[(٣)].

- قولُه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قذْفُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّعبِ في قُلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يَحتَسِبوا؛ فتَخصيصُه بالذِّكرِ للتَّعجيبِ مِن صُنْعِ اللهِ، وعطْفُه على ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتِمامِ[(١)].

- والقذْفُ: الرَّميُ باليدِ بقُوَّةٍ، وهو مُعبَّرٌ به عن الحُصولِ العاجلِ، أي: حصَلَ الرُّعبُ في قُلوبِهم دَفْعةً دونَ سابقِ تأمُّلٍ ولا حُصولِ سَببٍ للرُّعبِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ بفِعلِ القذْفِ في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾[(٢)] [آل عمران: ١٥١].

- وجُملةُ ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ المُضافِ إليه ﴿قُلُوبِهِمُ﴾؛ لأنَّ المُضافَ جُزْءٌ مِن المُضافِ إليه، فلا يَمنَعُ مَجيءَ الحالِ منه، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن اختلالِ أُمورِهم؛ فإنَّهم وإنْ خرَّبوا بُيوتَهم باختيارِهم، لكنْ داعي التَّخريبِ قَهْريٌّ[(٣)].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ونُودِيَ أُولو الأبصارِ بهذه الصِّلةِ؛ ليُشيرَ إلى أنَّ العِبرةَ بحالِ بَني النَّضيرِ واضحةٌ مَكشوفةٌ لكلِّ ذي بصَرٍ ممَّن شاهَدَ ذلك، ولكلِّ ذي بصَرٍ يَرى مَواقعَ دِيارِهم بعْدَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فتَكونَ له عِبرةً قُدْرةُ اللهِ على إخْراجِهم، وتَسليطِ المسلِمينَ عليهم مِن غيرِ قِتالٍ، وفي انتصارِ الحقِّ على الباطلِ، وانتصارِ أهلِ اليَقينِ على المُذَبْذَبينَ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٢).

عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ ناشِئةٌ عن جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحشر: ٢]؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: أخْرَجَهم اللهُ مِن قَريتِهم؛ عِقابًا لهم على كُفْرِهم وتَكذيبِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استِئنافٌ غيرُ مُتعلِّقٍ بجَوابِ (لولا)؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّهُم إنْ نَجَوا مِن عَذابِ الدُّنيا بكِتابةِ الجَلاءِ لا نَجاةَ لهم مِن عَذابِ الآخرةِ[2]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ﴾ الآيةَ، أو على جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الحشر: ٢]، وليس عطفًا على جَوابِ (لولا)؛ فإنَّ عَذابَ النارِ حاقٌّ عليهم، وليس مُنتفيًا، والمَقصودُ الاحتراسُ مِن توهُّمِ أنَّ الجَلاءَ بدَلٌ مِن عَذابِ الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخِرةِ[3].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عُطِفَ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على اسمِ الجلالةِ؛ لقصْدِ تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعلَموا أنَّ طاعتَه طاعةُ اللهِ؛ لأنَّه إنَّما يَدْعو إلى ما أمَرَه اللهُ بتَبليغِه، ولم يُعطَفِ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجُملةِ الثَّانيةِ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾؛ استِغناءً بما عُلِمَ مِن الجُملةِ الأُولى[4]، وأيضًا اقتُصِر على ذِكرِ مُشاقَّتِه تعالَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).

لتَضمُّنِها لمُشاقَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وليُوافِقَ قولَه تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ تُركَ الإدغامُ على حالِه؛ قيل: لأنَّهم ما أظهَروا مُعاداةً، وإنَّما كان ما فَعَلوا مكرًا ومُساترَةً، وذلك أخَفُّ مِن المُجاهَرةِ، وأُظهِرَ في (الأنفالِ) -يعني في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ١٣]-؛ لقوَّةِ أمرِ المُجاهِرينَ. ولم يُعَدْ ذِكرُ الرَّسولِ؛ تفخيمًا له بإفهامِ أنَّ مُشاقَقتَه مُشاقَقةٌ للهِ مِن غَيرِ مَثْنويَّةٍ أصلًا، وإشارةً إلى أنَّهم بالَغوا في إخفاءِ مُشاقَقتِهم، فلم يَظهَرْ عليها غيرُ اللهِ، فلمْ يَحصُلْ منهم في ذلك مُفاعَلةٌ بيْنَهم وبيْنَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه لم يَمكُرْ بهم، وإنَّما جاهَرَهم حينَ أَعلَمَه الله بمَكرِهم، بخِلافِ ما تقدَّمَ في (الأنفالِ)؛ فإنَّ المَقامَ اقتضَى هناك الذِّكرَ؛ لأنَّهم مَكَروا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخفى أمرَ هِجرتِه، وأعمَلَ الحِيلةَ في الخلاصِ مِن مَكرِهم على حسَبِ ما أمَرَه الله به، فحصلَتِ المُفاعَلةُ في تَحيُّزِ كلٍّ مِن الفَريقَينِ إلى شِقٍّ غَيرِ شِقِّ الآخَرِ خُفْيَةً(٢).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تَذْييلٌ، أي: شَديدُ العِقابِ لكلِّ مَن يُشاقِقُه مِن هؤلاء وغيرِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٤، ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إمَّا نفْسُ الجزاءِ قد حُذِفَ منه العائدُ إلى (مَنْ)، أي: شَديدُ العِقابِ له، أو تَعليلٌ للجزاءِ المحذوفِ، أي: وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ يُعاقِبْه اللهُ؛ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العقابِ، وأيًّا ما كانَ فالشَّرطيَّةُ تَكمِلةٌ لِما قبْلَها، وتَقريرٌ لمَضمونِه، وتَحقيقٌ للسَّببيَّةِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، كأنَّه قِيلَ: ذلك الَّذي حاقَ بهم مِن العِقابِ العاجِلِ والآجِلِ بسَببِ مُشاقَّتِهم للهِ تَعالى ورَسولِه، وكلُّ مَن يُشاقِّ اللهِ كائنًا مَن كان فلهُ بسَببِ ذلكَ عِقابٌ شديدٌ؛ فإذَنْ لهم عِقابٌ شديدٌ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٥).

الآيات (٥-٧)

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ
(٥) وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ
رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ
وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لِّينَةٍ﴾: اللِّينةُ: النَّخلةُ ما لم تكُنْ عَجوةً أو بَرْنيَّةً[1]. وقيل: هي النَّخلةُ مِن غَيرِ استثناءٍ. وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَلِيُخْزِىَ﴾: أي: ولِيُذِلَّ، والخِزيُ: أن يَلحَقَ الرَّجُلَ انكسارٌ مِن غيرِه، وهو ضربٌ مِن الاستِخفافِ، وأصل (خزو) هنا: يدُلُّ على الإبعادِ[3].

﴿أَفَآءَ﴾: أي: رجَعَه ورَدَّه مِن الكُفَّارِ. والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ[4].

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾: أي: أسرَعْتُم، والإيجافُ: الإسراعُ في السَّيرِ، وقد أوجَفَ

(١) البَرْنِيُّ: نَوعٌ مِن أَجْوَدِ التَّمْرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠).

دابَّتَه يُوجِفُها إيجافًا: إذا حَثَّها على السُّرعةِ[(١)].

﴿رِكَابٍ﴾: أي: إِبِلٍ، واحِدتُها راحِلةٌ، ولا واحِدَ لها مِن لَفظِها، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[(٢)].

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِعِ بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[(٣)].

﴿دُولَةَۢ﴾: الدُّولَةُ: اسمٌ للشَّيءِ الَّذي يَتداوَلُه القَومُ بَيْنَهم، وأصلُ (دول): يدُلُّ على تحَوُّلِ شَيءٍ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مطمئِنًا المؤمنينَ الَّذين شاركوا في إجلاءِ بَني النَّضيرِ وقطْعِ نخيلِهم: ما قطَعْتُم -أيُّها المُسلِمونَ- مِن نخلةٍ في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُموها قائِمةً على جُذوعِها: فإنَّما هو بإذنِ اللهِ تعالى؛ فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم، ولِيُذِلَّ اللهُ الخارِجينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مَن انتقَلَت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فيقولُ: وما ردَّه اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

رَسوله مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما أسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبِلًا؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، ولكِنَّ اللهَ سَلَّط رَسولَه عليهم، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُكمَ الفَيءِ الَّذي أفاءَه على المسلمينَ، فيقولُ: ما ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه، ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولليتامى، ولأهلِ الحاجةِ، وللغَريبِ المسافِرِ المُحتاجِ للمالِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ.

وما آتاكم رَسولُ اللهِ فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتَهوا، وخافُوا اللهَ، واحذَروا سَخَطَه بفِعلِ ما أمَرَكم به، وتَركِ ما نهاكم عنه، إنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ سُبحانَه على عِزَّتِه وحِكمتِه بما فَعَل ببَني النَّضيرِ الَّذين يقولونَ: إنَّهم أشجَعُ النَّاسِ، وأشَدُّهم شَكيمةً، بما لهم مِن الأصالةِ والاصطفاءِ على العالَمينَ، مع التَّأييدِ بالكِتابِ والحِكمةِ، وخَتَم بأنَّ مَن شاقَّ رَسولَه فقد شاقَّه، ومَن شاقَّه فقد شدَّدَ عِقابَه- أتْبَعَه ببيانِ ما عاقَبَهم به مِن قَطعِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِنَخْلِهم الَّذي هو أعزُّ عليهم مِن أبكارِهم،

وهم يَنظُرونَ إليه، لا يُغنُونَ شَيئًا، ولا مَنعةَ لَدَيهم[(١)].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حرَّق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخلَ بني النَّضيرِ وقَطَعَ، وهي البُوَيرةُ، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾))[(٢)].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما قطَعْتُم مِن نخلةٍ -أيُّها المُسلِمونَ- في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُم قَطْعَها، فبَقِيَت قائمةً على جُذوعِها: إنَّما هو بإذْنِ اللهِ تعالى، فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣١)، ومسلم (١٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦، ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجوةَ والبَرْنيَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ أهلِ المدينةِ، وأئمَّةِ اللُّغةِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (٢/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجْوةَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ويَزيدُ بنُ رُومانَ، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٠). =

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: ولِيُذِلَّ اللهُ ويُهِينَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المخالِفينَ لأمْرِه ونَهْيِه مِن يهودِ بني النَّضيرِ، بما يَصنَعُه المُسلِمونَ في نَخْلِهم، وهم عاجِزونَ عن رَدِّهم واستِنقاذِه منهم[1].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ ما أُخِذَ مِن أموالِ بَني النَّضيرِ، بعْدَ بَيانِ ما حلَّ بأنفُسِهم مِن العذابِ العاجِلِ والآجِلِ، وما فُعِلَ بدِيارِهم ونَخيلِهم مِن التَّخريبِ

= وقيل: اللِّينةُ اسمٌ للنَّخلةِ مِن غيرِ أن تختصَّ بنَوعٍ دونَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ، والرَّاغبُ -وزاد الراغِبُ أنَّها النَّخلةُ النَّاعِمةُ-، والسعديُّ، ونَسَب الشربيني هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ، وعطيَّةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل في اللِّينةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٦).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الإذْنَ في هذه الآيةِ إذْنٌ دينيٌّ، فمعنى قولِه: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمْرِه ورِضاه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

وقال السعدي: (أخبَرَ تعالى أنَّ قطْعَ النَّخيلِ إن قطَعوه، أو إبقاءَهم إيَّاه إن أبقَوْه؛ أنَّه بإذْنِه تعالى، وأمْرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ اللهَ هو الَّذي أذِنَ لنا، وإذا أذِن اللهُ بشَيءٍ صار حلالًا، حتَّى وإن كان جِنسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨).

والقطْعِ[(١)].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

أي: والَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما حرَّكتُم وأسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبِلًا، ولا قَطَعْتُم مِن أجْلِه مَسافةً؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، فلم يَحصُلْ لكم كبيرُ مَشَقَّةٍ في أخْذِ أموالِهم[(٢)].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨، ٧٩).

قال السعدي: (تعريفُ الفَيءِ في اصطِلاحِ الفُقَهاءِ: هو ما أُخِذَ مِن مالِ الكُفَّارِ بحَقٍّ مِن غيرِ قِتالٍ، كهذا المالِ الَّذي فَرُّوا وترَكوه خوفًا مِن المسلمينَ، وسُمِّيَ فَيئًا؛ لأنَّه رَجَع مِن الكُفَّارِ الَّذين هم غيرُ مُستحِقِّينَ له، إلى المسلمينَ الَّذين لهم الحَقُّ الأوفَرُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

ويُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (٢/ ٥٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (قال أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ: لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّ الآيةَ الأُولى خاصَّةٌ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: هذه الآيةُ الأُولى مِن الآيتَينِ المذكورتَينِ في هذه السُّورةِ خاصَّةٌ بأموالِ بَني النَّضيرِ، وعلى أنَّها خاصَّةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَضَعُها حيث يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٠). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٣).

وقال ابنُ كثير: (كلُّ مالٍ أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بغيرِ قِتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، كأموالِ بَني النَّضيرِ هذه، فإنَّها ممَّا لم يُوجِفِ المسلمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، أي: لم يُقاتِلوا الأعداءَ فيها بالمبارَزةِ والمُصاوَلةِ، بل نَزَل أولئك مِن الرُّعبِ الَّذي ألقى اللهُ في قُلوبِهم مِن هَيبةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأفاءه اللهُ على رَسولِه؛ ولهذا تصَرَّف فيه كما شاء، فرَدَّه على المسلمينَ في وُجوهِ البِرِّ والمصالحِ الَّتي ذكَرَها الله عزَّ وجلَّ في هذه الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: فما هو مِن حَقِّكم، أو لا تَسألوا قِسْمَتَه؛ لأنَّكم لم تَنالوه بقِتالِكم، ولكِنَّ اللهَ أعطاه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مشَقَّةٍ ولا نَصَبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

أي: إنَّ ما خَوَّلَه اللهُ لِرَسولِه مِن أموالِ بَني النَّضيرِ شَيءٌ لم تَحصُلوا عليه بالقِتالِ والغَلَبةِ، ولكِنْ سَلَّط اللهُ رَسولَه عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يُسَلِّطُ رُسُلَه على أعدائِهم؛ فالرَّسولُ أحَقُّ به، والأمرُ فيه مُفَوَّضٌ إليه[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ بالغةٍ تامَّةٍ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كما سَلَّط رَسولَه على يَهودِ بَني النَّضيرِ؛ فلا يُعجِزُه أحدٌ، ولا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ[2].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَزَع اللهُ سُبحانَه أموالَهم مِن أيدي الجَيشِ؛ بيَّنَ مَصرِفَ غَيرِها مِمَّا كان مِثْلَها، بأنْ فَتَح له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغَيرِ قِتالٍ، فقال مستأنِفًا جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هل يَعُمُّ هذا الحُكمُ كُلَّ فَيءٍ يكونُ بعدَ بني النَّضيرِ[3]؟

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: الَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

قال البقاعي: (﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾ أي: له هذه السُّنَّةُ في كُلِّ زَمَنٍ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بجَعلِ ما آتاهم سُبحانَه مِن الهَيبةِ رُعبًا في قُلوبِ أعدائِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه محمَّدٍ يَصرِفُه ويُقَسِّمُه[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).
قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ اشترَكَ معَ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما تَضمَّنتْ شيئًا أفاءَه اللَّهُ على رسولِه، واقْتَضَتْ الآيةُ السابقةُ أنَّه حاصِلٌ بغيرِ قِتالٍ؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، وعريَتْ هذه الآيةُ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ عن ذِكْرِ حصولِه لِقتالٍ أو لغيرِ قِتالٍ؛ وقد قال تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ...﴾ [الأنفال: ٤١]، فاقتضى أنَّه حاصِلٌ بقتالٍ، فنشأَ الخلافُ في هذه الآيةِ مِنْ هاهُنا، فمِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بالآيةِ التي سبقتها -وهو مالُ الصُّلْحِ كُلُّه ونحوُه-، ومِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ، والَّذينَ قالوا: إنَّها مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ اختلَفوا: هل هي مَنْسوخَةٌ أو مُحْكَمةٌ؟ يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٤).
قال ابن جُزَي: (الصَّحيحُ أنَّه لا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ وبيْن آيةِ الأنفالِ؛ فإنَّ آيةَ الأنفالِ في حُكمِ الغنيمةِ الَّتي تؤخَذُ بالقتالِ وإيجافِ الخَيلِ والرِّكابِ، فهذا يُخرَجُ منه الخُمُسُ ويُقسَمُ باقيه على الغانمينَ، وأمَّا هذه الآيةُ ففي حُكمِ الفَيءِ، وهو ما يؤخَذُ مِن أموالِ الكفَّارِ مِن غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، وإذا كان كذلك فكلٌّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ في معنًى غيرِ معنَى الأخرى، ولها حُكمٌ غيرُ حُكمِ الأخرى، فلا تَعارُضَ بيْنَهما ولا نَسْخَ، وانظُرْ كيف ذُكِر هنا لفظُ الفَيءِ، وفي الأنفالِ لفظُ الغَنيمةِ، وقد تقرَّر في الفِقهِ الفرقُ بيْن الفَيءِ والغَنيمةِ، وأنَّ حُكْمَهما مُختلِفٌ. قال أبو محمَّدٍ ابنُ الفَرَسِ: وهو قولُ الجمهورِ، وبه قال مالكٌ وجميعُ أصحابِه، وهو أظهرُ الأقوالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٨٩).
وقال الشنقيطي: (بيَّن [الله تعالى] في سورةِ الحشرِ أنَّ ما أفاء الله على رسولِه مِن غيرِ إيجافِ المسلمينَ عليه الخيلَ والرِّكابَ، أنَّه لا يُخمَّسُ، ومصارفُه التي بيَّن أنَّه يُصرَفُ فيها كمصارفِ خُمسِ الغَنيمةِ...، وذلك في قولِه تعالى في فيءِ بني النَّضيرِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الآية [٦]، ثمَّ بيَّن شمولَ الحكمِ لكُلِّ ما أفاء الله على رسولِه مِن جميعِ القُرَى بقولِه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٤).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (جُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، كقَولِ مالِكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهذا قَولُ السَّلَفِ قاطبةً... والصَّوابُ قَولُ الجمهورِ؛ فإنَّ السُّنَنَ الثَّابتةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت أموالُ بَني النَّضيرِ مِمَّا أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِمَّا لم يُوجِفِ المسلِمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانت لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً، وكان يُنفِقُ على أهلِه نَفَقةَ سَنَتِه، ثمَّ يَجعَلُ ما بَقِيَ في السِّلاحِ والكُراعِ[١] عُدَّةً في سَبيلِ اللهِ)[٢].

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّن تَحرُمُ عليهم الصَّدقةُ[٣].

= عليه وسلَّم وخُلَفائِه تَقتَضي أنَّهم لم يَخْمُسوا فَيئًا قطُّ ...). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ١٠٧-١١١). ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٤/ ٨١، ٨٢، ١٦٨، ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١-٢١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٣).

وقد اختلَف العلماءُ في تخميسِ الفَيءِ؛ فذهبَتِ الحنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيُّ في القديم وأحمدُ في روايةٍ إلى أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، وإنَّما كلُّه لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَن ذُكِروا معه. وذهب الشَّافِعيُّ في الجديدِ ومحمَّدٌ من الحنفيَّةِ وهو روايةٌ عن أحمدَ إلى أنَّ الفَيءَ يُخمسُ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٢/ ٢٣٠).

(١) الكُراع: الخَيْل. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: ذَوي قَراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم قد مُنِعوا الصَّدقةَ، فَجُعِلَ لهم حقٌّ في الفَيءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم بَنو هاشمٍ وبَنو المُطَّلِبِ: النَّحَّاسُ، والثعلبي، والواحدي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال السعدي: (وإنَّما دخَل بَنو المُطَّلِبِ في خُمسِ الخُمسِ مع بَني هاشمٍ، ولم يَدخُلْ بقيَّةُ بَني عبدِ مَنافٍ؛ لأنَّهم شارَكوا بَني هاشمٍ في دُخولِهم الشِّعبَ، حينَ تعاقَدَتْ قُرَيشٌ على هَجرِهم =

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: ولليَتامى الَّذين مات آباؤُهم وهم دونَ سِنِّ البُلوغِ(١).

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: ولأهلِ الحاجةِ والفاقةِ(٢).

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللغَريبِ المسافِرِ المُنقَطِعِ، المُحتاجِ للمالِ في غيرِ مَعصيةِ اللهِ(٣).

= وعداوتِهم، فنصَروا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، بخِلافِ غيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الشنقيطي: في قوله تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]: (أمَّا ذَوو القُربى: فهم بنو هاشمٍ، وبنو المطَّلبِ على أظهرِ الأقوالِ دليلًا، وإليه ذهَب الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وأبو ثورٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، ومسلمُ بنُ خالدٍ...

عن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ، قال: مشيتُ أنا وعثمانُ بنُ عفَّانَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقُلْنا: يا رسولَ الله أعطيْتَ بني المطَّلبِ وتركْتَنا، ونحن وهم منكَ بمنزلةٍ واحدةٍ، فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بنو المطَّلبِ، وبنو هاشمٍ شيءٌ واحدٌ»... فبهذا الذي بيَّنَّا يتَّضِحُ أنَّ الصَّحيحَ أنَّ المرادَ بذي القُربَى في الآيةِ: بنو هاشمٍ، وبنو المطَّلبِ دونَ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ. ووجهُه أنَّ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ عادَوا الهاشميينَ، وظاهَروا عليهم قريشًا، فصاروا كالأباعدِ منهم؛ للعداوةِ، وعدمِ النُّصرةِ...

بهذا الحديثِ الصَّحيحِ الذي ذكَرنا: يتَّضِحُ عدمُ صحَّةِ قولِ مَن قال بأنَّهم بنو هاشمٍ فقط، وقولُ مَن قال: إنَّهم قريشٌ كلُّهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾.

أي: أَمَرْنا بصَرفِ مالِ الفَيءِ في هذه الأصنافِ السَّابِقةِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ خاصًّا للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ والضُّعَفاءِ[١].

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾.

أي: وما أعطاكم رَسولُ اللهِ مِن أموالِ الفَيءِ أو غيرِ ذلك، فخُذوه[٢].

﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾.

أي: وما نهاكم رَسولُ اللهِ عنه، كأخْذِ الغُلولِ وغيرِ ذلك، فانتَهوا عنه[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه كان يحَدِّثُ أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما نَهيتُكم عنه فاجتَنِبوه، وما أمَرتُكم به فافعَلوا منه ما استَطعتُم؛ فإنَّما أهلَكَ الَّذين مِن قَبْلِكم كَثرةُ مَسائِلِهم، واختِلافُهم على أنبيائِهم))[٤].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

أي: وخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بفِعلِ ما أمَرَكم به ورَسولُه، وتَركِ ما نهاكم عنه ورَسولُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦، ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ شديدٌ عِقابُه لِمَن يَعصي اللهَ ورَسولَه، ويخالِفُ أمْرَهما ونَهْيَهما[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أمَرَ اللهُ بالقاعِدةِ الكُلِّيَّةِ والأصلِ العامِّ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وهذا شامِلٌ لأُصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ ظاهِرِه وباطِنِه، وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ يتعَيَّنُ على العِبادِ الأخْذُ به واتِّباعُه، ولا تَحِلُّ مُخالَفتُه، وأنَّ نَصَّ الرَّسولِ على حُكمِ الشَّيءِ كنَصِّ اللهِ تعالى، لا رُخصةَ لأحدٍ، ولا عُذرَ له في تَرْكِه، ولا يجوزُ تقديمُ قَولِ أحَدٍ على قَولِه، ثمَّ أمَرَ بتَقْواه الَّتي بها عِمارةُ القُلوبِ والأرواحِ، والدُّنيا والآخِرةِ، وبها السَّعادةُ الدَّائِمةُ والفَوزُ العظيمُ، وبإضاعتِها الشَّقاءُ الأبديُّ، والعذابُ السَّرْمَديُّ، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَن تَرَكَ التَّقوى، وآثَرَ اتِّباعَ الهوى[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ خُصَّت اللِّينةُ بالقَطْعِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: واتَّقوا عِقابَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ، أي: لِمَن خالَفَ أمْرَه، واقتَحَم نَهْيَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

الجوابُ: إن كانت مِنَ الألوانِ فلِيَستَبْقوا لأنفُسِهم العَجوةَ والبَرْنيَّةَ، وإن كانت من كِرامِ النَّخلِ فلِيَكونَ غَيظُ اليهودِ أشَدَّ وأشَقَّ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ استَدَلَّ بعضُ الفقهاءِ بهذه الآيةِ على أنَّ كُلَّ مُجتَهِدٍ مُصيبٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠١).

وقال ابنُ حجر: (قال السُّهَيلي: في تخصيصِها بالذِّكرِ إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي يجوزُ قَطْعُه من شَجَرِ العَدُوِّ ما لا يكونُ مُعَدًّا للاقتياتِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتاتونَ العَجْوةَ والبَرْنِيَّ دونَ اللِّينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٣٣). ويُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٨).

قال ابنُ العربي: (ورُوِيَ أنَّه كان بعضُ النَّاسِ يَقطَعُ، وبَعضُهم لا يَقطَعُ، فصَوَّبَ اللهُ الفريقَين، وخَلَّص الطَّائفتَين، فظَنَّ عندَ ذلك بعضُ النَّاسِ أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مُصيبٌ يخرجُ من ذلك، وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان معهم، ولا اجتهادَ مع حُضورِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما يدُلُّ على اجتهادِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما لم ينزِلْ عليه؛ أخذًا بعُمومِ الإذايةِ للكُفَّارِ، ودُخولًا في الإذنِ للكُلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياحِ والبَوارِ، وذلك قَولُه: ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢١١).

وقال الشوكاني -بعدَ أن ذكَرَ قولَه صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهَدَ ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حكَمَ فاجتهَدَ ثمَّ أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢)]-: (فهذا الحديثُ يُفيدُك أنَّ الحقَّ واحدٌ، وأنَّ بعضَ المُجتَهِدينَ يُوافِقُه، فيُقالُ له: مُصيبٌ، ويَستَحِقُّ أجرَينِ، وبعضَ المُجتَهِدينَ يُخالِفُه، ويُقالُ له: مُخْطِئٌ، واستِحقاقُه الأجرَ لا يَستلزِمُ كَوْنَه مُصيبًا، وإطلاقُ اسمِ الخَطأِ عليه لا يَستَلزِمُ ألَّا يكونَ له أجرٌ، فمَنْ قال: كُلُّ مُجتَهِدٍ مُصيبٌ، وجَعَل الحقَّ مُتَعدِّدًا بتَعَدُّدِ المُجتَهِدينَ، فقد أخطأ خطأً بَيِّنًا، وخالَفَ الصَّوابَ مُخالَفةً ظاهِرةً).

ثمَّ قال: (وأمَّا استِدلالُهم بمِثلِ قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فهو خارِجٌ عن محلِّ النِّزاعِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه قد صَرَّح في هذه الآيةِ بأنَّ ما وقَعَ منهم مِنَ القَطْعِ والتَّركِ هو بإذْنِه عزَّ وجَلَّ، فأفادَ ذلك أنَّ حُكْمَه في هذه الحادِثةِ بخُصوصِها هو كلُّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، وليس النِّزاعُ إلَّا فيما لم يَرِدِ النَّصُّ فيه «بأنَّه سُبحانَه يُريدُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، أو أنَّ حُكْمَه على التَّخْييرِ بيْنَ أُمورٍ يَختارُ المُكَلَّفُ ما شاء منها، كالواجِبِ المُخيَّرِ، =

٣- قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دلَّت الآيةُ على جوازِ إفسادِ أموالِ أهلِ الحَرْبِ على أيِّ حالٍ كان، مُثمِرًا كان أو لا، بالتَّحريقِ والتَّغريقِ والهَدْمِ وغَيْرِه[١] إذا دَعَت إليه المصلحةُ المتعَيِّنةُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَطْعِ الشَّجَرِ المُثمِرِ وغيرِ المثمِرِ في بلادِ العَدُوِّ، ودليلٌ على أنَّ النَّاسَ فيه بالخِيارِ؛ إنْ شاؤُوا قَطَعوا، وإنْ شاؤُوا تَرَكوا، والاختيارُ القَطْعُ كما قَطَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخْلَ بَني النَّضيرِ، والآيةُ نازِلةٌ فيهم[٣]. وذلك حالَ الحِصارِ إذا اقتَضَتْه مصلحةُ القتالِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَجعلونَ الإذْنَ بمعنى العِلْمِ؛ إذْ لو لم يَكُنِ الإذْنُ إطلاقًا، ما عُلِمَ أنَّ قَطْعَ الشَّجَرةِ مُباحٌ أو غيرُ مباحٍ. أَلَا ترى أنَّ عِلْمَه سُبحانَه محيطٌ

= أو أنَّ حُكْمَه يَجِبُ على الكلِّ، حتَّى يَفعَلَه البعضُ فيَسقُطَ عن الباقِينَ، كفُرُوضِ الكفاياتِ، فتَدَبَّرْ هذا وافْهَمْهُ حقَّ فَهْمِه). ((إرشاد الفحول)) (٢/ ٢٣٢-٢٣٤).

وسُئِل شيخُ الإسلامِ: هل كلُّ مُجتَهِدٍ مصيبٌ؟ أو المصيبُ واحدٌ والباقي مُخطِئون؟

فأجاب: (... لفظُ الخطأِ قد يُرادُ به الإثمُ، وقد يُرادُ به عدَمُ العِلمِ؛ فإن أُريدَ الأوَّلُ فكلُّ مُجتهِدٍ اتَّقى اللهَ ما استطاع فهو مصيبٌ؛ فإنَّه مطيعٌ لله، ليس بآثمٍ ولا مذمومٍ. وإن أُريدَ الثَّاني فقد يُخَصُّ بعضُ المُجتَهِدينَ بعِلمٍ خَفِيَ على غيره، ويكونُ ذلك عِلمًا بحقيقةِ الأمرِ لو اطَّلَع عليه الآخَرُ لَوَجَب عليه اتِّباعُهُ؛ لكنْ سقَط عنه وُجوبُ اتِّباعِه لعجزِه عنه، وله أجرٌ على اجتِهادِه، ولكنِ الواصلُ إلى الصَّوابِ له أجرانِ...). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ١٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

بالمحظورِ والمُباحِ معًا؟! وليس كلُّ ما أحاط بفِعلِه عِلْمُه جاز لِفاعِلِه فِعْلُه دونَ إطلاقِه؛ فقد دلَّ هذا بغيرِ إشكالٍ على أنَّ إعدادَ الإذْنِ عِلْمًا خَطَأٌ لا يُشَكُّ فيه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ إذا أَذِنَ بشَيءٍ صار حلالًا، وحتَّى وإنْ كان جِنْسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا؛ فقَطْعُ النَّخيلِ أو إحراقُ النَّخيلِ إضاعةُ مالٍ لا شكَّ، لكنْ إذا أَذِنَ اللهُ به صار قُرْبَةً؛ فاللهُ تعالى أَذِنَ لنَبيِّه بأنْ يُحَرِّقَ النَّخيلَ ويَقطَعَه، ثمَّ قال: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ فخِزْيُ الفاسِقين أمرٌ مطلوبٌ للشَّرعِ حتَّى وإنْ ضاع به المالُ، فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ اللهَ أباح له أنْ يَفْعَلَ، وأنَّ مِن فوائدِه إذلالَ الفاسِقين، يعني: الكافِرين[2].

٧- الإذْنُ على قِسمَين: إذْنٍ كَونيٍّ -وهو ما يَتعلَّقُ بالمخلوقاتِ، والتَّقديراتِ-؛ وإذْنٍ شرعيٍّ -وهو ما يتعلَّقُ بالتَّشريعاتِ[3]-، فمِنَ الإذْنِ الشَّرعيِّ الدِّينيِّ قَولُه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومن الإذنِ الكَونيِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4] [البقرة: ١٠٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُمِّيَ الفَيءُ فَيئًا؛ لأنَّ اللهَ أفاءَه على المُسلِمينَ، أي: رَدَّه عليهم مِن الكُفَّارِ؛ فإنَّ الأصلَ أنَّ اللهَ تعالى إنَّما خَلَقَ الأموالَ إعانةً على عبادتِه؛ لأنَّه إنَّما خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتِه، فالكافِرونَ به أباح أنفُسَهم الَّتي لَمْ يَعبُدوه بها، وأموالَهم الَّتي لم يَستَعينوا بها على عبادتِه؛ لعبادِه المؤمِنينَ الَّذين

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) لابن تيمية (ص: ٤٧).

يَعبُدونَه، وأفاء إليهم ما يَستَحِقُّونَه، كما يُعادُ على الرَّجُلِ ما غُصِبَ مِن ميراثِه، وإنْ لم يكُنْ قَبَضَه قَبْلَ ذلك[1]. فالآيةُ فيها إشعارٌ بأنَّ الفَيءَ كان حَقيقًا بأنْ يكونَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنَّما وقَعَ في أيْديهِم بغَيرِ حقٍّ، فرَجَعَه اللهُ تَعالى إلى مُستحِقِّه[2].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفَيءَ: ما أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بلا قتالٍ وإيجافِ خَيلٍ ورِكابٍ، ومنه ما جَلَوا عنه خَوفًا. والغنيمةُ: ما أُخِذَ منهم بقِتالٍ، خِلافًا لِمَن زَعَم أنَّهما بمعنًى واحِدٍ، أو فرَّقَ بيْنَهما بغيرِ ذلك[3].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدُلُّ على أنَّ إيجافَ الخَيلِ والرِّكابِ، وقَصْدَ العَدُوِّ إلى الأماكِنِ الشَّاسِعةِ: له وَقعٌ كَبيرٌ في النُّفوسِ، ورُعبٌ عَظيمٌ[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أضاف سُبحانَه الأرضَ إلى الرَّسولِ؛ إشارةً إلى أنَّ كلَّ قريةٍ يُفيئُها اللهُ على أُمَّتِه إلى يوم القيامةِ فهي مُضافةٌ إلى الرَّسولِ غيرُ مختصَّةٍ بالغانمينَ، والإمامُ يقومُ مقامَ الرَّسولِ في قِسْمَتِها بالاجتِهادِ، يدُلُّ على ذلك أنَّه جعَلَها لثلاثةِ أصنافٍ: المهاجرينَ، والأنصارِ، ومَن جاء بعدَهم مِن المسلِمينَ، وهذا لا يمكنُ في المنقولاتِ قَطعًا؛ لأنَّ المنقولاتِ تُستهلَكُ ويَخْتَصُّ بها مَن يأخُذُها؛ فلا يُمكِنُ اشتِراكُ جميعِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

المسلمينَ فيه[١].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ بَدا مِن هذا التَّعليلِ: أنَّ مِن مَقاصِدِ الشَّريعةِ أن يكونَ المالُ دُولةً بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ، على نِظامٍ مُحكَمٍ في انتِقالِه مِن كُلِّ مالٍ لم يَسبِقْ عليه مِلكٌ لأحَدٍ؛ مِثلُ: المَواتِ، والفَيءِ، واللُّقَطاتِ، والرِّكازِ، أو كان جُزءًا مُعَيَّنًا؛ مِثلُ: الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، وتخميسِ المغانمِ، والخَراجِ، والمواريثِ، وعُقودِ المعامَلاتِ الَّتي بيْن جانِبَي مالٍ وعمَلٍ؛ مِثلُ: القِراضِ، والمُغارَسةِ، والمُساقاةِ، وفي الأموالِ الَّتي يَظفَرُ بها الظَّافِرُ بدُونِ عَمَلٍ وسَعيٍ، مِثلُ: الفَيءِ، والرِّكازِ، وما ألقاه البَحرُ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ إضافةُ الأموالِ الشَّرعيَّةِ إلى اللهِ والرَّسولِ؛ لأنَّ العبدَ الرَّسولَ لا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ ربِّه، ولا يُعطي مَن يشاءُ ويَحرِمُ مَن يشاءُ، وأمَّا النَّبيُّ المَلِكُ فإنَّه يَفعَلُ ما فَرَضَ اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّمَ اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الوِلايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويَختارُ مِن غيرِ إثمٍ عليه، كما في قَولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣] [ص: ٣٩].

١٤- قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر: ١٠] فأخبَرَ أنَّ ما أفاء اللهُ على رَسولِه بجُملتِه هو لِمَن ذُكِرَ في هذه الآياتِ، ولم يَخُصَّ منه خُمُسَه بالمذكورينَ في آيةِ الخُمسِ، بل عَمَّمَ وأَطْلَقَ واستَوعبَ، ويُصرَفُ على المصارفِ الخاصَّةِ، وهم أهلُ الخُمسِ، ثمَّ على

(١) يُنظر: ((الاستخراج لأحكام الخراج)) لابن رجب (ص: ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١).

المصارفِ العامَّةِ، وهم المهاجِرون والأنصارُ، وأتْباعُهم إلى يوم الدِّينِ[١]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فتخصيصُ هؤلاء بالذِّكْرِ هو للاعتناءِ بهم، لا لاختصاصِهم بالمالِ؛ ولهذا قال: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: لا تتداوَلونَه وتَحرِمونَ الفُقراءَ، ولو كان مختصًّا بالفُقراءِ لم يكُنْ للأغنياءِ، فضلًا عن أنْ يكونَ دُولةً[٢]!

١٥- إنَّ اللهَ تعالى قال في الخُمُسِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فاستفتَحَ الكلامَ بأنْ نَسَبَه إلى نَفْسِه، ثمَّ ذَكَر أهْلَه بَعْدُ، وكذلك قال في الفَيءِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ﴾ [الحشر: ٧]، فنَسَبَه جَلَّ ثناؤُه إلى نَفْسِه، ثمَّ اقتَصَّ ذِكرَ أهلِه، فصار فيهما الخِيارُ إلى الإمامِ في كُلِّ شَيءٍ يُرادُ اللهُ به، فكان أقرَبَ إليه، ثمَّ ذَكَر الصَّدَقةَ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ولم يَقُلْ: لله، ولِكذا ولِكذا، فأوجَبَها لهم، ولم يجعَلْ لأحدٍ فيها خيارًا أن يَصرِفَها عن أهلِها إلى مَن سِواهم، ومعنى هذا أنَّ الصَّدَقةَ إنَّما هي مِن أموالِ المُسلِمينَ خاصَّةً، فحُكمُها أن تُؤخَذَ مِن أغنيائِهم، فتُرَدَّ في فُقَرائِهم، فلا يجوزُ منها نَفلٌ ولا عَطاءٌ، فهذه مِن أموالِ المُسلِمينَ، وذاك مِن أموالِ أهلِ الكُفْرِ؛ فافترَق حُكمُ الخُمُسِ والصَّدَقةِ لِما ذَكَرْنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).

قال السيوطي: (قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ استدَلَّ بها مَن قال: إنَّ الفَيءَ لا يُصرَفُ منه شيءٌ للمُعَدينَ للقتالِ، بل يُصرَفُ أربعةُ أخماسِ خُمُسِه إلى الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، ويُصرَفُ الخُمسُ والأخماسُ الأربعةُ الباقيةُ الَّتي كانت لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مصالحِ المُسلمينَ). ((الإكليل)) (ص: ٢٥٨).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في حُكمِ تخميسِ الفَيءِ (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((الأموال)) للقاسم بن سلام (ص: ٤١١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ أحكامَ القُرآنِ يُرشِدُ سُبحانَه فيها إلى مَدارِكِها وعِلَلِها، وكقَولِه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأمَرَ سُبحانَه نَبيَّه أنْ يَذْكُرَ لهم عِلَّةَ الحُكْمِ قبْلَ الحُكْمِ[(١)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ الوَقفَ على الأغنياءِ باطِلٌ[(٢)]؛ فقد أخْبَرَ سُبحانَه أنَّه شَرَعَ ما ذَكَرَه؛ لئلَّا يكونَ الفَيءُ مُتداوَلًا بيْنَ الأغنياءِ دونَ الفُقراءِ، فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يَكْرَهُ هذا ويَنهى عنه ويَذُمُّه، فمَن جَعَلَ الوقفَ للأغنياءِ فقط فقد جَعَلَ المالَ دُولةً بيْنَ الأغنياءِ، فيتداوَلونَه بطنًا بعدَ بطنٍ دونَ الفُقَراءِ، وهذا مُضادٌّ للهِ في أمْرِه ودِينِه؛ فلا يجوزُ ذلك[(٣)].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ هذا عامٌّ يَدخُلُ فيه قِسمةُ ما أفاء اللهُ، والغنائِمِ، وغَيرِها، حتَّى إنَّه قد استُدِلَّ بهذا العُمومِ على تحريمِ الخَمرِ، وحُكمِ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٤).

(٢) وهو مذهبُ الحنفيَّةِ، والحنابلةِ، خلافًا للمالكيَّةِ والشافعيَّةِ، على تفصيلٍ لدى بعضِ هذه المذاهبِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤١).

أمَّا تحريمُ الخَمرِ فعن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما: ((أنَّهما شَهِدا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه نهى عن الدُّبَّاءِ، والحَنْتَم، والمُزَفَّتِ، والنَّقيرِ، ثمَّ تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذهِ الآيةَ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾)). أخرجه النسائيُّ (٥٦٤٣)، وقال الألبانيُّ: (صحيحٌ دونَ تِلاوةِ الآيةِ، وكأنَّها مُدْرَجةٌ).

وأمَّا حُكمُ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: ((لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ والمُستَوشِماتِ، والمُتنَمِّصاتِ، والمُتفَلِّجاتِ للحُسنِ، المُغيِّراتِ خَلْقَ اللهِ تعالى، ما لي لا ألعَنُ مَن لعَنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وهو في كتابِ اللهِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾)). =

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ ما أَمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ الآيةَ وإن كانت في الغنائِمِ، فجَميعُ أوامِرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونواهيه داخِلٌ فيها[١].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فيه وُجوبُ امتِثالِ أوامِرِه ونواهيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال العُلَماءُ: وكُلُّ ما ثبَتَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه في القُرآنِ؛ مِن هذه الآيةِ[٢].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ سُنَّةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصدرُ تَشريعٍ[٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ صِيغةَ النَّهيِ عندَ الإطلاقِ تَقتَضي تحريمَ المنهيِّ عنه وفَسادَه؛ فالأمرُ بالانتِهاءِ عمَّا نهى عنه يَقتَضي وُجوبَ الانتِهاءِ، ومِن لازِمِ ذلك تحريمُ الفِعلِ[٤]، ولأنَّ استِحبابَ الانتِهاءِ معلومٌ بنَفْسِ النَّهيِ، فلا بدَّ أنْ يُفيدَ هذا الخِطابُ فائدةً زائدةً على جميعِ أنواعِ الاستِحبابِ، وهي وجوبُ الانتهاءِ[٥].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ هذه الآيةُ جامِعةٌ للأمرِ باتِّباعِ ما يَصدُرُ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولٍ وفِعلٍ، فيَندَرِجُ فيها جميعُ أدِلَّةِ السُّنَّةِ[٦].

= أخرجه البُخاريُّ (٥٩٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل)) لابن تيمية (٢/ ٥٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم هو القاسِمُ للفَيءِ والمَغانِمِ، ولو كانت مَقسومةً محدودةً كالفرائضِ لم يكُنْ للرَّسولِ أمرٌ فيها ولا نهيٌ(١).

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ عطْفُ الأمْرِ بالتَّقْوى على الأمْرِ بالأخْذِ بالأوامرِ وتَرْكِ المَنهيَّاتِ، يدُلُّ على أنَّ التَّقوى هي امتثالُ الأمْرِ واجتنابُ النَّهيِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ أُفْضِيَ به إلى المَقصدِ مِن السُّورةِ عن أحكامِ أمْوالِ بَني النَّضيرِ(٣).

- وإيثارُ (لِينةٍ) على (نَخلةٍ)؛ لأنَّه أخفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لَفظُ (نَخلةٍ) مُفرَدًا في القرآنِ، وإنَّما ورَدَ النَّخلُ اسمَ جمْعٍ(٤).

- قولُه: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بيانٌ لإبهامِ (ما) في قولِه: ﴿مَا قَطَعْتُم﴾(٥).

- وجِيءَ بالحالِ في قولِه: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ لتَصويرِ هَيئتِها وحُسْنِها، وتَعلَّقَ ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ بـ ﴿قَآئِمَةً﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَصويرِ حُسْنِها، ووَصْفُها بأنَّها قائمةٌ على أُصولِها هو بتَقديرِ: قائمةً فُروعُها على أُصولِها؛

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

لظُهورِ أنَّ أصْلَ النَّخلةِ بَعضُها. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تَرْكَ القطْعِ أَولى[١].

- قولُه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عِلَّةٌ لمَحذوفٍ، أي: وفعَلْتُم، أو وأَذِنَ لكمْ في القطْعِ؛ ليَجْزِيَهم على فِسقِهم بما غاظَهم منه[٢].

- وعطْفُ ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مِن عطْفِ العِلَّةِ على السَّببِ، وهو ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ السَّببَ في معْنى العِلَّةِ[٣].

- والمرادُ بالفاسِقينَ في قولِه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يَهودُ النَّضيرِ، وعُدِل عن الإتيانِ بضَميرِ أهلِ الكِتابِ كما أُتِيَ بضَمائرِهم مِن قبْلُ ومِن بَعْدُ إلى التَّعبيرِ عنهم بوَصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنَّ الوصْفَ المُشتقَّ يُؤذِنُ بسَببِ ما اشتُقَّ منه في ثُبوتِ الحكْمِ، أي: ليَجْزِيَهم مِن أجْلِ الفِسقِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ عطْفًا على جُملةِ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: ٥] الآيةَ؛ فتَكونَ امتِنانًا وتَكملةً لمَصارِفِ أموالِ بَني النَّضيرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضِ على الغرَضِ؛ للانتِقالِ إلى التَّعريفِ بمَصيرِ أموالِ بَني النَّضيرِ؛ لئلَّا يَختلِفَ رِجالُ المسلِمينَ في قِسمتِها، ولبَيانِ أنَّ ما فعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِسمةِ أموالِ بَني النَّضيرِ هو عدْلٌ إنْ كانتِ الآيةُ نزَلَت بعْدَ القِسمةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَهُ هنا بواوِ العطفِ، وقاله بعْدُ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ بحَذْفِها؛ لأنَّه مُستأنَفٌ عمَّا قبْلَه(١).

- قولُه: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ هو بصَريحِه امتِنانٌ على المسلمينَ بأنَّ اللهَ ساقَ لهم أموالَ بَني النَّضيرِ دونَ قِتالٍ، ويُفيدُ مع ذلك كِنايةً بأنْ يُقصَدَ بالإخبارِ عنه بأنَّهم لم يُوجِفوا عليه لازِمُ الخَبرِ؛ وهو أنَّه ليس لهم سَببُ حقٍّ فيه، والمعْنى: فما هو مِن حقِّكم، أو لا تَسْأَلوا قِسمتَه؛ لأنَّكم لم تَنالُوه بقِتالِكم، ولكنَّ اللهَ أعطاهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مَشقَّةٍ ولا نصَبٍ(٢).

- وحرْفُ (على) في قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ للتَّعليلِ، وليس لتَعديةِ ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ معْنى الإيجافِ لا يَتعدَّى إلى الفَيءِ بحرْفِ الجرِّ، أو مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ هو مَصدرُ ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾، أي: إيجافًا لأجْلِه(٣).

- و(مِن) في ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾ صِلةٌ داخلةٌ على النَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ؛ للاستِغراقِ، ومَدخولُ (مِنْ) في معْنى المفعولِ به لـ﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾، أي: ما سُقْتُم خيلًا ولا رِكابًا(٤).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استِدراكٌ على النَّفيِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ لرفْعِ توهُّمِ أنَّه لا حقَّ فيه لأحدٍ، والمرادُ: أنَّ اللهَ سلَّطَ عليه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالرَّسولُ أحقُّ به. وهذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

التَّركيبُ يُفيدُ قصْرًا مَعنويًّا، كأنَّه قِيل: فما سلَّطَكم اللهُ عليهم، ولكنْ سلَّطَ عليهم رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

- وفيه إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ التَّقديرَ: ولكنَّ اللهَ سلَّطَ عليهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ، وكان هذا بمَنزلةِ التَّذييلِ لعُمومِه، وهو دالٌّ على المُقدَّرِ. وعُمومُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لشُمولِ أنَّه يُسلِّطُ رُسلَه على المُقاتِلينَ، ويُسلِّطُهم على غيرِ المُقاتِلينَ، والمعْنى: وما أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو بتَسليطِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، وإلْقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ؛ فأغْنى التَّذييلُ عن المَحذوفِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذه الآيةُ ابتداءُ كلامٍ، أي: على الاستِئنافِ الابتدائيِّ، وقُصِدَ منها حُكْمٌ غيرُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَتْه الآيةُ الَّتي قبْلَها؛ فمَضمونُ الآيةِ الَّتي قبْلَها أموالُ بَني النَّضيرِ خاصَّةً، ومَضمونُ هذه الآيةِ إخبارٌ عن حُكْمِ الأَفْياءِ الَّتي حصَلَت عندَ فتحِ قُرًى أُخرى بعْدَ غَزوةِ بَني النَّضيرِ؛ مِثل قُرَيْظَةَ سَنةَ خمْسٍ، وفَدَكٍ سَنةَ سَبْعٍ، ونحوِهما، فعيَّنَتْه هذه الآيةُ للأصنافِ المذكورةِ فيها، ولا حقَّ في ذلك لأهلِ الجَيشِ أيضًا، وهو الَّذي يَقْتضيهِ تَغييرُ أُسلوبِ التَّعبيرِ بقولِه هنا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ قال في الَّتي قبْلَها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ [الحشر: ٦]؛ فإنَّ ضَميرَ ﴿مِنْهُمْ﴾ راجعٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الحشر: ٢]، وهم بَنو النَّضيرِ لا مَحالةَ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

ويَجوزُ جَعْلُ هذه الآيةِ تَكملةً وبيانًا للآيةِ الَّتي قبْلَها، أي: بَيانًا للإجمالِ الواقعِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ﴾ الآيةَ [الحشر: ٦]؛ لأنَّ الآيةَ الَّتي قبْلَها اقتَصَرَت على الإعلامِ بأنَّ أهلَ الجَيشِ لا حقَّ لهم فيه، ولم تُبيِّنْ مُستحِقَّه، وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦] أنَّه مالٌ للهِ تَعالى يَضَعُه حيث شاءَ على يَدِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقدْ بيَّنَ اللهُ له مُستحقِّيه مِن غيرِ أهلِ الجيشِ، فمَوقعُ هذه الآيةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقعُ عطْفِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَت[1].

- وعلى أنَّ هذه الآيةَ بَيانٌ للآيةِ الَّتي قبْلَها فإعادةُ عَينِ العبارةِ الأُولى لزِيادةِ التَّقريرِ، ووَضْعُ ﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَوضعَ ضَميرِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ للإشعارِ بشُمولِ ما -في قولِه ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾- لِعقاراتِهم[2].

- وتَقييدُ الفَيءِ بفَيءِ القُرى جَرى على الغالِبِ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا تُفتَحَ إلَّا القُرى؛ لأنَّ أهلَها يُحاصَرون فيَسْتسلِمون ويُعطُون ما بأيْديهم إذا اشتدَّ عليهم الحصارُ، فأمَّا النَّازِلون بالبوادي فلا يُغلَبون إلَّا بعْدَ إيجافٍ وقتالٍ؛ فليس لقَيدِ ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَفهومٌ[3].

- والتَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ تَعريفُ العهدِ، وهي قُرًى مَعروفةٌ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠، ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٢، ٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٢).

- وقولُه: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ...﴾ تَعليلٌ لِما اقتضاهُ لامُ التَّمليكِ مِن جَعْلِه مِلْكًا لأصنافٍ كثيرةِ الأفرادِ، أي: جَعَلْناه مَقسومًا على هؤلاء؛ مِن أجْلِ ألَّا يكونَ الفَيءُ دُولةً بيْن الأغنياءِ مِن المسلِمينَ، أي: لئلَّا يَتداوَلَه الأغنياءُ، ولا يَنالَ أهْلَ الحاجةِ نَصيبٌ منه(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ اعتِراضٌ ذُيِّلَ به حُكْمُ فَيْءِ بَني النَّضيرِ؛ إذ هو أمْرٌ بالأخْذِ بكلِّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقصْدُ مِن هذا التَّذييلِ إزالةُ ما في نُفوسِ بَعضِ الجيشِ مِن حَزازةِ حِرمانِهم ممَّا أفاءَ اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أرضِ النَّضيرِ(٢).

- والإيتاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن تَبليغِ الأمْرِ إليهم؛ جَعَلَ تَشريعَه وتَبليغَه كإيتاءِ شَيءٍ بأيْديهم، وعُبِّرَ بالأخْذِ عن قَبولِ الأمْرِ والرِّضا به والعمَلِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وهو تَتْميمٌ لنَوعَيِ التَّشريعِ(٣).

- وقد جاءَ هذا التَّذييلُ على هذه الآيةِ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ هذا التَّكليفَ لا هَوادةَ فيه، وأنَّه مُلزِمٌ للأُمَّةِ سرًّا وعلَنًا، وأنَّ مَن خالَفَ شَيئًا منه يَتوجَّهُ إليه هذا الإنذارُ الشَّديدُ؛ لأنَّ معصيتَه معصيةٌ للهِ، وطاعتَه مِن طاعةِ اللهِ؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٤) [النساء: ٨٠].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦، ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢).

الآيات (٨-١٠)

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾: أي: توَطَّنوا المدينةَ، واتَّخذوها مَوطِنًا، والتَّبَوُّءُ: التَّمَكُّنُ والاستِقرارُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيْه[1].

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: أي: يُقَدِّمونَ المحاويجَ على حاجةِ أنفُسِهم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[2].

﴿خَصَاصَةٌ﴾: أي: حاجةٌ وفَقرٌ، قيل: الخَصاصةُ مأخوذةٌ مِن خَصاصِ البَيتِ، وهي الفُرَجُ الَّتي تَكونُ فيه، وقيل: إنَّها مأخوذةٌ مِن الاختِصاصِ، وهو الانفرادُ بالأمرِ، فالخَصاصةُ: الانفرادُ بالحاجةِ، وأصلُ (خصص): يدُلُّ على فُرْجةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢) و(٢/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، =

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[(١)].

﴿غِلًّا﴾: أي: حِقدًا وحَسَدًا وبُغضًا، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ...﴾

قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه بدَلُ كُلٍّ من كُلٍّ مِنْ (لِذي القُرْبَى) وما عُطِف عليه في قَولِه تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، فكأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاء الفُقراءَ المهاجِرينَ. الثَّاني: أنَّه في محَلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لِمُبتَدَأٍ محذوفٍ، أي: ولكِنِ الفَيْءُ للفُقَراءِ. الثَّالِثُ: أنَّه مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا للفُقَراءِ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: مَعطوفٌ على ﴿الدَّارَ﴾ مَنصوبٌ مِثله، على تضمينِ ﴿تَبَوَّءُوا﴾ معنى «لَزِموا»؛ لأنَّ الإيمانَ لا يُتَبَوَّأُ. والثَّاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: واعتَقَدوا أو أَلِفوا. الثَّالِثُ: أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿الدَّارَ﴾ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والأصلُ: دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦). ويُنظر ما سيأتي: (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٣).

الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: معَ الإيمانِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُثْني اللهُ تعالى على المهاجِرينَ الَّذينَ فارَقوا أموالَهم وديارَهم، مِن أجْلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ، فيقولُ: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ، يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه، ويَنصُرونَ اللهَ ورسولَه، أولئك هم الصَّادِقونَ.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على الأنصارِ ويُبيِّنُ فضائلَهم، فيقولُ: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم: يُحِبُّونَ المُهاجِرينَ إليهم، ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم حَسَدًا مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ، ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وشدَّةُ حاجةٍ، ومَن وقاه اللهُ مِن شدَّةِ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى مِن اللَّاحِقينَ مَن هو مؤتَمٌّ بهم، وسائرٌ على طريقِهم، فيقولُ: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا من بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في الدِّينِ، الَّذين تقَدَّموا في الإيمانِ به، ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ من أهلِ الإيمانِ بك، رَبَّنا إنَّك رؤوفٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نزَع اللهُ سُبحانَه أموالَ الفَيءِ وما كانت عليه في الجاهِليَّةِ، وبَيَّنَ مَصرِفَ الفَيءِ مِن القُرى، وتهَدَّدَ في المُخالَفةِ في ذلك لصعوبتِه على النُّفوسِ، فكان ذلك جديرًا بالتَّقَبُّلِ بعدَ أن أفهَمَ أنَّ أموالَ بني النَّضيرِ لِمَن سلَّطَه عليهم، وهو رَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان مِن المعلومِ مِن حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإيثارُ على نَفْسِه، والقناعةُ بما دونَ الكَفَافِ- بيَّنَ المَصرِفَ فيها بعدَ كفايتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَيانَ ذلك هو المقصودُ الأعظَمُ(١).

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

أي: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مَكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ(٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال الشوكاني: (قَولُه: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ قيل: هو بدَلٌ مِن «لِذِي الْقُرْبَى» وما عُطِفَ عليه، ولا يَصِحُّ أن يكونَ بدلًا مِنَ الرَّسولِ وما بَعْدَه؛ لئلَّا يَستَلزِمَ وصْفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالفَقرِ.

وقيل: التَّقديرُ: كي لا يكونَ دُولةً، ولكِنْ يكونُ للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: اعجَبوا للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: واللهُ شديدُ العِقابِ؛ للفُقَراءِ، أي: شديدُ العِقابِ للكُفَّارِ؛ بسَبَبِ الفُقَراءِ.

وقيل: هو عَطفٌ على ما مضى بتقديرِ الواوِ، كما تقولُ: المالُ لزَيدٍ لِعَمرٍو لبَكرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨، ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩). =

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

أي: وهم يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه يَحُلُّ عليهم حينَ خَرَجوا إلى دارِ الهِجرةِ(1).

= قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكينِ الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢).

وممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكينِ وابنِ السَّبيلِ: ابنُ عطيَّة، وتبعه الثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤٠٨).

وممَّن اختار أنَّه بدَلٌ من الأصنافِ الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، يعني: كأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاءِ الفُقَراءَ والمهاجِرينَ الَّذين مِن صِفَتِهم كذا وكذا: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

وممَّن اختار أنَّه بَدَلٌ من (للَّهِ وللرَّسُولِ) وما عُطِفَ عليهما في قَولِه تعالى: ﴿... فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [الحشر: ٧] عدَا ذَوِي القُرْبى؛ لئلَّا يَختَصَّ بفَقيرِهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (قولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: وللفُقراءِ، رجع إلى أوَّلِ الآيةِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، وللفُقراءِ المُهاجِرينَ الَّذين أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٨).

وقيل: كيلا يكونَ ما أفاء اللهُ على رسوله دُولةً بيْنَ الأغنياءِ منكم، ولكنْ يكونُ للفُقراءِ المُهاجِرينَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: ويَنصُرونَ دينَ اللهِ الَّذي بَعَث به رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

أي: أولئك العالُو الرُّتبةِ هم الصَّادِقونَ حقًّا في إيمانِهم باللهِ تعالى، وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا مَدَح اللهُ تعالى المهاجِرينَ، وأعطاهم فطابت نُفوسُ الأنصارِ بذلك، وكانوا في كُلِّ حالٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غايةِ الطَّاعةِ له، مهما شاء فَعَل، ومهما أراد منهم صار إليه ووَصَل؛ أتْبَعَه مَدْحَهم؛ جَبرًا لهم، وشُكرًا لصَنيعِهم(٣).

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

قال الألوسي: (﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ فهي حالٌ مُقَدَّرةٌ، أي: ناوينَ لنُصرةِ اللهِ تعالى ورسولِه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم، أو مُقارِنةٌ؛ فإنَّ خُروجَهم مِن بَينِ الكُفَّارِ مُراغِمينَ لهم مُهاجِرينَ إلى المدينةِ: نُصرةٌ، وأيُّ نُصرةٍ؟!). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

أي: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم- يُحِبُّونَ الَّذين هاجَروا إليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أجمَع أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ المرادَ بهم الأنصارُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠).

وقال القرطبي: (لا خِلافَ أنَّ الَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ هم الأنصارُ الَّذين استوطَنوا المدينةَ قبْلَ المُهاجِرينَ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠).

واختلَف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ومعنى كَونِهم تبَوَّؤُوا الإيمانَ مِن قبْلِ المُهاجِرينَ.

قال ابن عادل: (وفي قولِه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ستَّةُ أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى لَزِموا، فيصِحُّ عطفُ الإيمانِ عليه؛ إذ الإيمانُ لا يُتَبَوَّأُ.

الثَّاني: أنَّه منصوبٌ بمُقَدَّرٍ، أي: واعتقَدوا، أو وأَلِفوا، أو وأَحَبُّوا، أو وأخلَصوا.

الثَّالثُ: أنَّه يُتجوَّزُ في الإيمانِ، فيُجعَلُ اختِلاطُه بهم وثَباتُهم عليه كالمكانِ المُحيطِ بهم، فكأنَّهم نزَلوه...

الرَّابعُ: أن يكونَ الأصلُ: دارَ الهجرةِ، ودارَ الإيمانِ، فأقامَ لامَ التَّعريفِ في الدَّارِ مُقامَ المُضافِ إليه، وحذَفَ المُضافَ من دارِ الإيمانِ، ووضَعَ المُضافَ إليه مَقامَه.

الخامسُ: أن يكونَ سمَّى المدينةَ؛ لأنَّها دارُ الهِجرةِ، ومكانُ ظُهورِ الإيمانِ.

السَّادسُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: مع الإيمانِ معًا). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٤). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٥).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنَى: لَزِموا، فقولُه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ولابَسوه وصَحِبوه وخصُّوه بالصُّحبةِ، ولَزِموه لُزومًا هو كلُزومِ المَنزِلِ الَّذي لا غِنَى لِنازِلِه عنه-: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٨).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ -أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ تقديرُه: واعتقَدوا الايمانَ، أو أخلَصوه، أو آثَروه-: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠). =

= قال الواحدي: (تقديرُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ من قَبْلِهم والإيمانَ؛ لأنَّ الأنصارَ لم يؤمِنوا قبْلَ المُهاجِرينَ، وعطفُ الإيمانِ على الدَّارِ في الظَّاهرِ لا في المعنى؛ لأنَّ الإيمانَ ليس بمكانٍ يُتبَوَّأُ، والتَّقديرُ: وآثَروا الإيمانَ، أو اعتقَدوا الإيمانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧٣).

وممَّن اختار معنَى الوجهِ الثَّالثِ في الجملةِ -أي: أنَّهم لَزِموا المدينةَ والإيمانَ، واتَّخَذوهما مَبَاءةً، وتمَكَّنوا فيهما أشدَّ تمكُّنٍ، على تنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المكانِ-: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩).

قال ابن جُزَي: (المعنى: أنَّهم جعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لِتَمكُّنِهم فيه، كما جعَلوا المدينةَ كذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

أمَّا الوَجهانِ الرَّابعُ والخامسُ فقال فيهما السمينُ الحلبي: (قال هذَينِ الوجهَينِ الزَّمخشريُّ، وليس فيه إلَّا قيامُ «أل» مَقامَ المُضافِ إليه، وهو مَحَلُّ نَظَرٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٤).

وقال الألوسي في الوجهِ الرَّابع: (ولا يخفى ما فيه مِن التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ)، وقال في الوجهِ الخامسِ: (وهو كما ترى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

وممَّن اختار الوجهَ السَّادسَ: -أي: أنَّهم تبَوَّؤوا الدَّارَ مع الإيمانِ، فجَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ، فبهذا الاقتِرانِ يَصِحُّ معنى قَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾-: ابنُ عطية، واستحسَنه ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

قال ابنُ جُزَي معلِّلًا هذا الوجهَ: (لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سبَقوهم بالإيمانِ، لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: سكَنوا دارَ الهِجرةِ مِن قَبلِ المُهاجِرينَ، وآمَنوا قبْلَ إيمانِ كثيرٍ منهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

وقال الثعلبيُّ والبغويُّ والخازنُ: نظْمُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ مِن قبْلِهم، أي: مِن قبْلِ قُدومِ المُهاجِرينَ عليهم وقد آمَنوا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وأمَّا قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فقيل: معناه: مِن قبْلِ المُهاجِرينَ. وقيل: معناه: مِن قبْلِ هِجرتِهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥).

ممَّن اختارَ الأوَّلَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قالت الأنصارُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اقسِمْ بَيْنَنا وبيْنَ إخوانِنا النَّخيلَ، قال: لا. فقالوا: تَكفُونا المَؤُونةَ، ونَشْرَكُكم في الثَّمَرةِ، قالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا))[١].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأنصارَ إلى أن يُقطِعَ[٢] لهم البَحْرينِ، فقالوا: لا، إلَّا أن تُقْطِعَ لإخوانِنا من المهاجِرينَ مِثْلَها، قال: إمَّا لا[٣]، فاصبِروا حتَّى تَلْقَوني؛ فإنَّه سيُصيبُكم بَعْدي أَثَرةٌ[٤]))[٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال المهاجِرونَ: يا رَسولَ اللهِ، ما رَأَيْنا مِثلَ

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وممَّن اختارَ الثَّاني: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢).

ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨).

وقال الشوكاني: (ومعنى ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: من قبلِ هجرةِ المهاجرينَ، فلا بدَّ من تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الأنصارَ إنَّما آمَنوا بعدَ إيمانِ المهاجِرينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

وقال الألوسي: (الكلامُ بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: مِن قَبلِ هِجرتِهم، فنِهايةُ ما يلزَمُ سَبقُ إيمانِ الأنصارِ على هِجرةِ المُهاجِرينَ، ولا يلزمُ منه سبقُ إيمانِهم على إيمانِهم ليُقالَ: إنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(١) رواه البخاري (٢٣٢٥).

(٢) يُقْطِعَ: أي: يُعْطيَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ١٥٤).

(٣) أي: إن كنتُم لا تُريدونَ أو لا تَقْبَلونَ إيثاري لكم، فأُدغِمَ النُّونُ في الميم، وحُذِف فِعلُ الشَّرطِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٥/ ٢٨٠)، ((اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح)) للبرماوي (١٠/ ٣٥٨).

(٤) أَثَرةً: أي: استئثارًا لغَيرِكم عليكم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٤).

(٥) رواه البخاري (٣٧٩٤).

قَومٍ قَدِمْنا عليهم أحسَنَ مُواساةً في قليلٍ، ولا أحسَنَ بَذْلًا في كثيرٍ، لقد كَفَونا المَؤُونةَ[(١)]، وأشرَكُونا في المَهْنَأِ[(٢)]، حتَّى لقد حَسِبْنا أن يَذهَبوا بالأجْرِ كُلِّه! قال: لا، ما أَثنيتُم عليهم، ودَعوتُم اللهَ لهم))[(٣)].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قَدِمَ علينا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، وآخَى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَيْنَه وبيْنَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ، وكان كثيرَ المالِ، فقال سَعدٌ: قد عَلِمَتِ الأنصارُ أنِّي مِن أكثَرِها مالًا، سأَقسِمُ مالي بيْني وبيْنَك شَطرَينِ، ولي امرأتانِ فانظُرْ أعجَبَهما إليك، فأُطَلِّقُها، حتَّى إذا حلَّت تزَوَّجْتَها! فقال عبدُ الرَّحمنِ: بارك اللهُ لك في أهلِك)[(٤)].

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾.

أي: ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم أيَّ حَسَدٍ مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ[(٥)].

---

(١) أي: تَحمَّلوا عنَّا مَشَقَّةَ الخِدمةِ في عِمارةِ الدُّورِ والنَّخيلِ مِن سَقيٍ وإصلاحٍ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٣/ ٥٢٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠١٢).

(٢) المَهْنَأ: كلُّ ما يأتيكَ مِنَ المالِ مِن غيرِ تَعَبٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٣/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه مِن طرقٍ: أبو داودَ (٤٨١٢) مختصَرًا، والترمذيُّ (٢٤٨٧)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٩)، وأحمدُ (١٣٠٧٥) واللَّفظُ له.
قال الترمذي: (صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٧)، وقال ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٢٧): (على شرطِ الصَّحيحَين). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (٣٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٩، ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبَعَث إلى نسائِه فقُلْنَ: ما مَعَنا إلَّا الماءُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟ فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ: أنا، فانطلَقَ به إلى امرأتِه، فقال: أكرِمي ضَيفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: ما عِندَنا إلَّا قوتُ صِبياني، فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأَصْبِحي[1] سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أرادوا عَشاءً، فهَيَّأَت طَعامَها، وأصبَحَت سِراجَها، ونوَّمَت صِبيانَها، ثمَّ قامت كأنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأطفَأَتْه! فجعَلَا يُريانِه أنَّهما يأكُلانِ، فباتا طاوِيَينِ[2]! فلمَّا أصبَحَ غَدَا إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ضَحِكَ اللهُ اللَّيلةَ، أو عَجِبَ من فِعالِكما! فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ

= عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال ابنُ تيميَّة: (أي: ممَّا أُوتيَ إخوانُهم المهاجِرونَ. قال المفسِّرونَ: لا يجِدونَ في صُدورِهم حاجةً، أي: حَسَدًا وغَيظًا مِمَّا أُوتيَ المُهاجِرونَ. ثمَّ قال بعضُهم: مِن مالِ الفَيءِ. وقيل: مِن الفَضلِ والتَّقَدُّمِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١١٩).

وممَّن قال بالأوَّلِ -أي مِن مالِ الفيءِ-: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال القرطبي: (يعني لا يحسُدونَ المهاجِرينَ على ما خُصُّوا به مِن مالِ الفيءِ وغيرِه، كذلك قال النَّاسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي ما فضَّلهم الله به مِن المنزلةِ والشَّرفِ، وخصَّهم به مِن الفضائلِ والمناقبِ-: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(١) أي: أوقِديه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

(٢) طاوِيَينِ: أي: بغَيرِ عَشاءٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾))[(١)].

﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾.

أي: ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجِينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وحاجةٌ شَديدةٌ لذلك[(٢)].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَدَقةِ أفضَلُ؟ قال: ((جُهْدُ المُقِلِّ[(٣)]، وابدَأْ بمَنْ تَعُولُ[(٤)]))[(٥)].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمَه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٩٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).

قال الشوكاني: (المعنى: ويُقَدِّمون المُهاجِرينَ على أنفُسِهم في حُظوظِ الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

وقال البِقاعي: (يُوقِعونَ الأَثَرةَ -وهي اختيارُ الأشياءِ الحَسَنةِ- لِغَيرِهم؛ تخصيصًا لهم بها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٠).

(٣) جُهْدُ المُقِلِّ: أي: بَذْلُ الفَقيرِ؛ لأنَّه يكونُ بجُهدٍ ومَشَقَّةٍ لقِلَّةِ مالِه. يُنظر: ((تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة)) للبيضاوي (٢/ ٥٩٤).

(٤) بمَن تَعُولُ: أي: بمَن تَلزَمُك نَفَقتُه. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعَزيزي (١/ ٢٥٧).

(٥) أخرجه أبو داودَ (١٦٧٧)، وأحمدُ (٨٧٠٢).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٣٣٤٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٧)، وقال ابنُ حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٢/ ٣٠٣): (أصلُه في الصَّحيح). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٨٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٧٧).

الظَّافِرونَ[(١)].

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم، حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم[(٢)]))[(٣)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ، أمَرَهم بالبُخلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

قال ابن سِيْدَه: (الشُّحُّ: حِرصُ النَّفْسِ على ما ملَكَت، وبُخْلُها به). ((المحكم)) (٢/ ٤٨٩).

وقال العُلَيمي: (شُحُّ النَّفْسِ: هو كثرةُ الطَّمَعِ، وضَبطُها على المالِ، والرَّغبةُ فيه، وامتِدادُ الأمَلِ، وهو فَقرٌ لا يُذهِبُه غِنى المالِ، بل يَزيدُه، وهو داعيةُ كُلِّ خُلُقٍ سُوءٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الفَرقُ بيْنَ الشُّحِّ والبُخلِ: أنَّ الشُّحَّ هو شِدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحفاءُ في طَلَبِه، والاستِقصاءُ في تحصيلِه، وجَشَعُ النَّفْسِ عليه، والبُخلُ مَنْعُ إنفاقِه بعدَ حُصولِه، وحُبُّه وإمساكُه؛ فهو شحيحٌ قبْلَ حُصولِه، بخيلٌ بعدَ حُصولِه، فالبُخلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ فقد أطاع شُحَّه، ومَن لم يَبخَلْ فقد عصى شُحَّه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٣٣).

وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ. وقيل: البخلُ: هو المنعُ مِن مالِ نفْسِه، والشُّحُّ: هو بُخلُ الرَّجُلِ من مالِ غيرِه. وقيل: إنَّهما مُترادِفانِ. يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٧٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٠)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) استحَلُّوا مَحارِمَهم: أي: جَعَلوا المُحرَّمَ عليهم مِن وَطْءِ نسائِهم حلالًا. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عبدٍ أبدًا))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أنْ تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفَقْرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتَّى إذا بلَغَتِ الحُلْقومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، ألَا وقد كان لفُلانٍ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثْنى اللهُ سُبحانَه وتعالى على المُهاجِرينَ والأنصارِ -رَضِيَ اللهُ عنهم- بما هم أهلُه؛ عقَّب التَّابِعينَ لهم بإحسانٍ ما يُوجِبُ لهم الثَّناءَ[٤].

---

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥١٧٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(٢) أخرجه مطوَّلًا النسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٣٢٥١).

صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط بطُرُقِه وشواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٣) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣).

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في دينِ اللهِ، الَّذين تقَدَّموا في الإيمانِ به[(١)].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣).

قيل: المرادُ: عُمومُ المؤمِنينَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ إلى يوم القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجُملة: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، واستظهره الشَّوكانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، وإليه ذهب ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١، ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

غيرَ أنَّ القُرطبيَّ وابنَ كثيرٍ نَصَّا على أنَّ المرادَ: التَّابِعونَ بإحسانٍ إلى يومِ القيامةِ. والبِقاعي والشوكانيُّ وابنُ عاشور أدخَلوا الصَّحابةَ المتأخِّرَ إسلامُهم، فآمَنوا بعدَ انقِطاعِ الهِجرةِ بالفَتحِ، وبعدَ إيمانِ الأنصارِ الَّذين أسلَموا بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ بقيَّةَ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

قال الثعالبي: (قال جمهورُ العُلماءِ: أراد مَنْ يجيءُ مِن التَّابعينَ وغيرِهم إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤١١).

وقيل: الَّذين جاؤوا مِن بَعدِهم هم المهاجِرونَ يَستَغفِرونَ لإخوانِهم مِن الأنصارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ: مَن عدا المهاجِرينَ والأنصارَ مِنَ الصَّحابةِ، كالَّذين أسلَموا يومَ فَتحِ مكَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١).

أي: ولا تَجعَلْ في قُلوبنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ مِن أهلِ الإيمانِ بك[١].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: رَبَّنا إنَّك ذو رأفةٍ ورَحمةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ؛ فحقيقٌ أن تُجيبَ دُعاءَنا[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ دلَّ على كمالِ صدقِهم فيما ادَّعَوه مِن الإيمانِ باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيثُ نابَذوا مَن عاداهما، وهو القَريبُ الصَّافي نسبًا ودارًا، وأَوْلَوا أولياءَهما مَن كانوا، وإن بَعُدَت دارُهم، وشَطَّ مَزارُهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ مبنى الدِّينِ على إقامةِ البَيِّناتِ بالثَّباتِ عندَ الابتلاءاتِ، على أنَّ العَونَ قد يأتي على قدرِ البلاءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد خصَّ المهاجرينَ مما أذِنَ فيه مِن أموالِ بني النَّضيرِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ حاثٍّ على حُسنِ الإخاءِ، مُحَذِّرٍ مِن الحَسَدِ والاستياءِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فيه مَدحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤٠).

الإيثارِ في حُظوظِ النَّفسِ والدُّنيا[(١)].

٤- الإيثارُ على النَّفْسِ مِن مَحامِدِ الأخلاقِ، وزَكِيَّاتِ الأعمالِ، وذلك أن يَترُكَ حظَّه لِحَظِّ غيرِه؛ اعتِمادًا على صحَّةِ اليقينِ، وإصابةً لِعَينِ التَّوكُّلِ، وتحمُّلًا للمَشَقَّةِ في عَونِ الأخِ في الله على المحبَّةِ مِن أجْلِه، وهو ثابتٌ مِن فِعلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن خُلُقِه المَرْضيِّ، وهكذا كان الصَّحابةُ، فمِنَ النَّاسِ مَن يَعمَلُ العملَ أو يَكتسِبُ الشَّيءَ فيكونُ فيه وكيلًا على التَّفرقةِ على خَلقِ الله بحسَبِ ما قدَر، ولا يَدَّخِرُ لِنَفْسِه من ذلك شيئًا، بل لا يجعلُ مِن ذلك حظًّا لنفْسِه مِن الحُظوظِ؛ إمَّا لعدَمِ تذَكُّرِه لنفْسِه؛ لِاطِّراحِ حظِّها حتَّى يَصيرَ مِن قَبيلِ ما يُنسى، وإمَّا قوَّة يقينٍ بالله؛ لأنَّه عالِمٌ به، وبيَدِه مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو حَسْبُه فلا يُخيبُه، أو عدم التِفاتٍ إلى حظِّه يقينًا بأنَّ رِزقَه على الله، فهو النَّاظرُ له بأحسَنَ ممَّا يَنظُرُ لِنَفْسِه، أو أنَفَة مِن الالتِفاتِ إلى حظِّه مع حقِّ الله تعالى، أو لغيرِ ذلك مِن المقاصِدِ الواردةِ على أصحابِ الأحوالِ، وفي مِثلِ هؤلاء جاء: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(٢)].

٥- مَن مَلَكَ نَفْسَه وقَهَرَها ودانَها، عَزَّ بذلك؛ لأنَّه انتصرَ على أشدِّ أعدائِه، وقَهَرَه وأسَرَه وكُفِيَ شَرَّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحَصَرَ سُبحانَه الفلاحَ في وقايةِ شُحِّ نَفْسِه، وتَطَلُّعِها إلى ما مُنِعَتْ منه، وحِرْصِها على ما يَضيرُها ممَّا تَشتَهيه مِن عُلُوٍّ وتَرَفُّعٍ، ومالٍ وجاهٍ، وأهلٍ ومَسكَنٍ، ومأكلٍ ومَشرَبٍ ومَلْبَسٍ، وغيرِ ذلك؛ فإنَّها تَتطَلَّعُ إلى ذلك كلِّه وتَشتَهيه، وهو عينُ هلاكِها، ومنه يَنشَأُ البَغيُ والحَسَدُ والحِقدُ، فمَن وُقِيَ شُحَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٢١) و (٣/ ٦٦).

نفْسِه فقد قَهرها، وقَصَرها على ما أُبيحَ لها وأُذِنَ لها فيه، وذلك عينُ الفَلاحِ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تحريمُ الشُّحِّ، فدَلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لم يُوقَ شُحَّ نفْسِه فلا فَلاحَ له[(٢)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن فضائلِ الإيمانِ: أنَّ المؤمِنينَ يَنتَفِعُ بعضُهم ببَعضٍ، ويَدعو بعضُهم لبَعضٍ؛ بسبَبِ المُشارَكةِ في الإيمانِ المُقتَضي لعَقدِ الأُخُوَّةِ بيْنَ المُؤمِنينَ، الَّتي مِن فُروعِها أن يَدعوَ بَعضُهم لبَعضٍ، وأن يُحِبَّ بَعضُهم بعضًا[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فمدَحَ اللهُ المُهاجِرينَ والأنصارَ بستَّةِ أوصافٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ هِجرةَ هؤلاء المُهاجِرينَ ما كانت مِن أجْلِ الدُّنيا، بل كانت مِن أجْلِ ابتِغاءِ مَرضاتِ الله. والثَّاني: أنَّهم كانوا ناصِرينَ لدينِ الله ورسولِه. والثَّالثُ: أنَّهم كانوا صادِقينَ قولًا وفِعلًا. والرَّابعُ: أنَّ الأنصارَ كانوا يُحِبُّون مَن هاجَرَ إليهم. والخامسُ: أنَّهم كانوا يُسَرُّون إذا حصَل شَيءٌ للمُهاجِرينَ. والسَّادسُ: أنَّهم كانوا يُقَدِّمونهم على أنفُسِهم مع احتياجِهم. وهذه الأوصافُ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

السِّتَّةُ تدُلُّ على كمالِ الإيمانِ، ومَنِ اعتقَد في حقِّهم غيرَ هذا فهو مُخطئٌ[(١)]؛ ففي هذه الآياتِ ذَكَر اللهُ تعالى أصحابَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأثْنى عليهم، فهذا الآنَ حُجَّةٌ على كلِّ مَن سَبَّ واحِدًا منهم أو تَنَقَّصَه، ودليلٌ على أنَّ مَن أتى في أصحابِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خِلافَ الجَميلِ؛ أنَّه رادٌّ على اللهِ تعالى، وغيرُ راضٍ لدِينِه -جَلَّ وتعالى- بما رَضِيَه هو له بنَصِّ القرآنِ الَّذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الصَّحابةَ جميعَهم عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِن المُبتَدِعةِ[(٣)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وصَفَهم بالفَقرِ؛ لأنَّهم كانوا عندَ نُزولِ السُّورةِ كذلك[(٤)].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تمسَّك بَعضُ العُلَماءِ بهذه الآيةِ على إمامةِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، فقال: هؤلاءِ الفُقَراءُ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ كانوا يقولونَ لأبي بَكرٍ: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، واللهُ يَشهَدُ على كَونِهم صادقِينَ؛ فوَجَب أن يَكونوا صادِقِينَ في قَولِهم: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، ومتى كان الأمرُ كذلك وجَبَ الجَزمُ بصِحَّةِ إمامتِه[(٥)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ

(١) يُنظر: ((إظهار الحق)) لمحمد رحمت الله الهندي (٣/ ٩٣٥).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧، ٥٠٨).

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أَسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلم قد أَخَذَه مِن المُسلمينَ بطَريقِ الاغتنامِ ونحوِه ممَّا لا يَمْلِكُ به مُسلِمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِينِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كان يَمْلِكُه. ووَجهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ أنَّ المُسلمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَنِ استَولى عليها في الجاهِليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحَدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيلَ للنَّبيِّ يومَ الفتحِ: أينَ تَنزِلُ في دارِك بمكَّةَ؟ فقال: ((وهل تَرَك عَقيلٌ مِن رِباعٍ أو دورٍ))[(١)]؟! وسأله المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استولى عليها بعدَ إسلامِه[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثُبوتُ فَضلِ المهاجِرينَ؛ لِمَا اشتملتْ عليه مِن أوصافِهم الجَميلةِ، وشهادةِ اللهِ تعالى لهم بالصِّدْقِ[(٣)]، واعلَمْ أنَّه ليس في المهاجِرينَ مُنافِقٌ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائلِ الأنصارِ؛ لأنَّ أحدًا لم يُهاجِرْ إلَّا باختيارِه، والكافِرُ بمكَّةَ لم يكُنْ يَختارُ الهِجرةَ ومُفارَقةَ وَطَنِه وأهلِه لِنَصْرِ عدوِّه، وإنَّما يَختارُها الَّذين وَصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٥٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٩).

وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ المهاجِرينَ أفضَلُ مِن الأنصارِ؛ لأنَّ اللهَ قدَّمَهم بالذِّكرِ، وأخبَرَ أنَّ الأنصارَ لا يَجِدونَ في صُدورِهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا؛ فدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى آتاهم ما لم يُؤتِ الأنصارَ ولا غيرَهم، ولأنَّهم جَمَعوا بينَ النُّصْرةِ والهِجْرةِ[(٢)]؛ فقد هاجَروا أوطانَهم وأموالَهم وأهلِيهم إلى اللهِ ورَسولِه، ونَصَروا اللهَ ورَسولَه، قال اللهُ تعالى في وَصفِ المهاجِرينَ: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، فنَصَّ على الهِجرةِ، ونَصَّ على النُّصرةِ؛ فهم رَضِيَ اللهُ عنهم أفضلُ مِن الأنصارِ، وهذا مِن حيثُ الجِنسُ[(٣)].

٨- إنْ قيلَ: كيف قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، وإنَّما تُتَبَوَّأُ الدَّارُ، أي: تُسكَنُ، ولا يُتَبَوَّأُ الإيمانُ؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ معناه: تبَوَّؤا الدَّارَ، وأخلَصوا الإيمانَ، فهو كقَولِك: عَلَفْتُها تِبنًا وماءً بارِدًا. تقديرُه: علَفْتُها تِبنًا، وسَقَيتُها ماءً بارِدًا.

الثَّاني: أنَّ المعنى: أنَّهم جَعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لتمَكُّنِهم فيه، كما جَعَلوا المدينةَ كذلك.

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٢).

فإنْ قيل: قَولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يَقتضي أنَّ الأنصارَ سَبَقوا المهاجِرينَ بنُزولِ المدينةِ وبالإيمانِ، فأمَّا سَبْقُهم لهم بنزولِ المدينةِ فلا شَكَّ فيه؛ لأنَّها كانت بلَدَهم، وأمَّا سَبْقُهم لهم بالإيمانِ فمُشكِلٌ؛ لأنَّ أكثَرَ المهاجِرينَ أسلَمَ قبْلَ الأنصارِ؟

فالجوابُ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه أراد بقَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن قَبلِ هِجْرَتِهم.

والآخَرُ: أنَّه أراد: تبَوَّؤا الدَّارَ مع الإيمانِ معًا، أي: جَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ؛ لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سَبَقوهم بالإيمانِ لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه، وهذا الوَجهُ أحسَنُ؛ لأنَّه جوابٌ عن هذا السُّؤالِ، وعن السُّؤالِ الأوَّلِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ مفعولًا معه، لم يَلزَمِ السُّؤالُ الأوَّلُ؛ إذ لا يَلزَمُ إلَّا إذا كان الإيمانُ مَعطوفًا على الدَّارِ[١].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أخبَرَ عنهم بأنَّهم يَبذُلونَ ما عِندَهم مِنَ الخَيرِ مع الحاجةِ، وأنَّهم لا يَكرَهونَ ما أُنعِمَ به على إخوانِهم، وضِدُّ الأوَّلِ البُخلُ، وضِدُّ الثَّاني الحَسَدُ؛ ولهذا كان البُخلُ والحَسَدُ مِن نَوعٍ واحِدٍ؛ فإنَّ الحاسِدَ يَكرَهُ عَطاءَ غَيرِه، والباخِلَ لا يُحِبُّ عَطاءَ نَفْسِه[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ في ذِكرِ الدَّارِ -وهي المدينةُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٣٤).

مع ذِكرِ الإيمانِ: إيماءٌ إلى فَضيلةِ المدينةِ، بحيث جَعَل تبوُّءَهم المدينةَ قَرينَ الثَّناءِ عليهم بالإيمانِ[١].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا ثناءٌ عليهم بما تقرَّر في نُفوسِهم مِن أُخُوَّةِ الإسلامِ؛ إذ أحَبُّوا المهاجِرينَ، وشأنُ القبائِلِ أن يتحَرَّجوا مِن الَّذين يُهاجِرونَ إلى ديارِهم لِمُضايقتِهم[٢].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وهذا المقامُ أعلى مِن حالِ الَّذين وَصَف اللهُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقَولِه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فإنَّ هؤلاءِ يتصَدَّقونَ وهم يُحِبُّونَ ما تصَدَّقوا به، وقد لا يكونُ لهم حاجةٌ إليه، ولا ضرورةٌ به، وهؤلاء آثَروا على أنفُسِهم مع خَصاصتِهم وحاجتِهم إلى ما أنفَقوه. ومِن هذا المقامِ تَصَدُّقُ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه بجَميعِ مالِه. وهكذا الماءُ الَّذي عُرِضَ على عِكْرِمةَ وأصحابِه يومَ اليَرموكِ، فكُلٌّ منهم يأمُرُ بدَفعِه إلى صاحِبِه، وهو جَريحٌ مُثقَلٌ أحوَجُ ما يكونُ إلى الماءِ، فرَدَّه الآخَرُ إلى الثَّالِثِ، فما وَصَل إلى الثَّالثِ حتَّى ماتوا عن آخِرِهم، ولم يَشرَبْه أحدٌ منهم، رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم[٣]!

١٣- التَّصَدُّقُ بجميعِ المالِ يختلِفُ باختلافِ الأحوالِ؛ فمَن كان قويًّا على ذلك يَعلَمُ مِن نَفْسِه الصَّبرَ لم يُمنَعْ، وعليه يَتنزَّلُ فِعْلُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، وإيثارُ الأنصارِ على أنْفُسِهم المهاجِرينَ ولو كان بهم خَصاصةٌ؛ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ومَن لم يكُنْ كذلك فلا، وعليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١).

يَتنَزَّلُ حديثُ: ((لا صَدَقةَ إلَّا عن ظَهْرِ غِنًى))(١). فالأنصارُ الَّذين أثْنى اللهُ تعالى عليهم بالإيثارِ على أنفُسِهم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فكان الإيثارُ فيهم أفضَلَ مِن الإمساكِ، والإمساكُ لِمن لا يَصبِرُ، ويتعَرَّضُ للمسألةِ: أَولى مِن الإيثارِ(٢).

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ذِكرُ النَّفْسِ دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ النَّزاهةِ مِن الرَّذائِلِ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا طَهُرَت كان القَلبُ أطهَرَ(٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه غريزةٌ فيها، وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ إشارةٌ إلى إمكانِ إزالةِ ذلك(٤).

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ مِن شأنِ مَن جاء مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ أن يَذكُرَ السَّابِقينَ -وهم المهاجِرونَ والأنصارُ- بالدُّعاءِ والرَّحمةِ، فمَن لم يكُنْ كذلك، بل ذَكَرَهم بسُوءٍ؛ كان خارِجًا من جملةِ أقسامِ المؤمِنينَ بحَسَبِ نَصِّ هذه الآيةِ(٥)، ومَن كان في قَلْبِه غِلٌّ على

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥٧٤).
والحديث أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغةِ الجزمِ قبْلَ حديث (٢٧٥٠)، وأخرجه موصولًا أحمدُ (٧١٥٥) من حديثِ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه.
صحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٢٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٠).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

أحَدٍ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، فليس ممَّن عَنَى اللهُ تعالى بهذه الآيةِ[(١)].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقًّا على المسلِمينَ أن يَذكُروا سَلَفَهم بخَيرٍ، وأنَّ حَقًّا عليهم محبَّةُ المهاجِرينَ والأنصارِ، وتَعظيمُهم[(٢)].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه دليلٌ على وُجوبِ محبَّةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم؛ لأنَّه جَعَل لِمَن بَعْدَهم حَظًّا في الفَيءِ ما أقاموا على محَبَّتِهم ومُوالاتِهم والاستِغفارِ لهم، ومَن أبغَضَهم أو واحِدًا منهم، أو اعتَقَد فيه شَرًّا، أنَّه لا حَقَّ له في الفَيءِ[(٣)]، فالفَيءُ إنَّما حَصَلَ بجِهادِ المهاجِرينَ والأنصارِ وإيمانِهم وهِجرتِهم ونُصرتِهم؛ فالمتأخِّرونَ إنَّما يَتناوَلونَه مُخلَفًا عن أولئك، مُشَبَّهًا بتَناوُلِ الوارثِ ميراثَ أبيه، فإنْ لم يكُنْ مُواليًا له لَمْ يَسْتَحِقَّ الميراثَ، فلا يَرِثُ المسلمَ الكافِرُ، فمَن لَمْ يَستغفِرْ لأولئك بل كان

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧).

عن مالِكِ بنِ أنَسٍ، قال: (مَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس له في الفَيءِ حَقٌّ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ الآيةَ، هؤلاء أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين هاجَروا معه، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الآيةَ، هؤلاءِ الأنصارُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قال مالِكٌ: فاستثنى اللهُ عزَّ وجَلَّ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآيَةَ، فالفَيءُ لهؤلاء الثَّلاثةِ؛ فمَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس هو من هؤلاء الثَّلاثةِ، ولا حَقَّ له في الفَيءِ). ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١٣١١١).

مُبغِضًا لهم، خَرَجَ عن الوَصفِ الَّذي وَصَفَ اللهُ به أهلَ الفيءِ، حتَّى يكونَ قلْبُه مُسلِمًا لهم، ولِسانُه داعيًا لهم[(١)]، فمَن كان له في أحدٍ مِن الصَّحابةِ قولٌ سَيِّئٌ أو بُغْضٌ، فلا حَظَّ له في الفَيءِ أخْذًا مِن هذه الآيةِ[(٢)]، ولأنَّهم سألوا اللهَ أنْ يَتخلَّوا مِن هذا الغِلِّ الَّذي يكونُ في القلوبِ، وهذا يَقتَضي وُجوبَ المحبَّةِ[(٣)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ للغيرِ إذا كان المَدْعوُّ له مُسلِمًا فإنَّه يَنتَفِعُ به[(٤)]، وهذا هو المشروعُ في حقِّ الأمواتِ؛ أنْ نَدعوَ اللهَ لهم بالمَغفرةِ والرَّحمةِ وما يَنفعُهم مِن الدُّعاءِ[(٥)]. والآيةُ فيها دَلالةٌ على انتِفاعِ الميِّتِ بدُعاءِ غَيرِ وَلَدِه له[(٦)].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الحَثُّ على الدُّعاءِ والتَّرَضِّي عن الصَّحابةِ، وتَصفيةِ القُلوبِ مِن بُغضِ أحَدٍ مِنهم[(٧)]، فالاستِغفارُ للمُهاجِرينَ والأنصارِ، وطهارةُ القَلبِ مِن الغِلِّ لهم: أمرٌ يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه، ويُثني على فاعِلِه، كما أنَّه قد أمَرَ بذلك رسولَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩][(٨)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٨) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٤).

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصَف اللهُ مَنْ بَعْدَ الصَّحابةِ بالإيمانِ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دليلٌ على المُشارَكةِ في الإيمانِ، وأنَّهم تابعونَ للصَّحابةِ في عقائِدِ الإيمانِ وأُصولِه، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، الَّذين لا يَصدُقُ هذا الوَصفُ التَّامُّ إلَّا عليهم، ووصَفَهم بالإقرارِ بالذُّنوبِ، والاستِغفارِ منها، واستِغفارِ بَعضِهم لبَعضٍ، واجتِهادِهم في إزالةِ الغِلِّ والحِقدِ عن قُلوبِهم لإخوانِهم المؤمِنينَ؛ لأنَّ دُعاءَهم بذلك مُستلزِمٌ لِما ذكَرْنا، ومتضَمِّنٌ لمحَبَّةِ بَعضِهم بَعضًا، وأن يُحِبَّ أحَدُهم لأخيه ما يُحِبُّ لِنَفسِه، وأن يَنصَحَ له حاضِرًا وغائِبًا، حيًّا ومَيِّتًا، ودلَّت الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هذا مِن جملةِ حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم لبَعضٍ[1].

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الصَّحيحَ مِن أقوالِ العُلَماءِ قِسمةُ المنقولِ، وإبقاءُ العَقَارِ والأرضِ شَملًا: -أي: عامَّةً شاملةً- بيْن المُسلِمينَ أجمَعينَ، كما فَعَل عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه، إلَّا أن يجتَهِدَ الوالي فيُنفِذَ أمرًا فيَمضي عَمَلُه فيه؛ لاختِلافِ النَّاسِ عليه- وأنَّ هذه الآيةَ قاضيةٌ بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن الفَيءِ وجعَلَه لثَلاثِ طوائِفَ: المهاجِرينَ والأنصارِ -وهم معلومون-، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ فهي عامَّةٌ في جميعِ التَّابِعينَ والآتينَ بَعْدَهم إلى يومِ الدِّينِ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في خَلقِ الأفعالِ؛ إذْ مُحالٌ أنْ يَدْعوه بما هو مُنكَرٌ عِندَه -على زعمِهم-

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢).

في صِفاتِه، فيُثْنيَ به عليهم(١)!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «للَّذين سَبَقونا بالإيمانِ»؛ لِيَشمَلَ هؤلاء السَّابقِين وغَيرَهم إلى يوم القيامةِ(٢).

٢٥- إنْ قِيل: كيف وُصِفَ الأوَّلون بالمُهاجَرةِ وابتِغاءِ الفضْلِ والنُّصرةِ والصِّدقِ، والأنصارُ بالرُّسوخ في الإيمانِ ومَحبَّةِ الإيواءِ والسَّخاوةِ البالغةِ حدَّها، والفَلاح في الآجِلِ، واقتُصِرَ في مدْحِ هؤلاء على قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾؟

فالجوابُ: كَفى بذلك بهم مَدْحًا؛ أنْ يُوفِّقَهم إلى الدُّعاءِ لأولئك السَّادةِ الكِرامِ، ويَمنَحَهم مَحبَّتَهم، ويُدخِلَهم في زُمْرتِهم بأُخوَّةِ الإسلامِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ بدَلٌ ممَّا يَصلُحُ أنْ يكونَ بَدلًا منه مِن أسماءِ الأصنافِ المُتقدِّمةِ الَّتي دخَلَت عليها اللَّامُ مُباشرةً وعطْفًا في قولِه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ -على قولٍ-. وأوَّلُ فائدةٍ في هذا البدَلِ التَّنبيهُ على أنَّ ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ مِن أهلِ القُرى المَعْنيَّةِ في الآيةِ لا يَجْري قَسْمُه على ما جَرى عليه قَسْمُ أموالِ بَني النَّضيرِ، فكأنَّه قِيل: ولِذي القُربى والْيَتامى والمساكينِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

لأنَّ الجَعلَ عندَهم بمعنَى الخَلقِ، فإمَّا أن يَرجِعوا عن القولِ بخَلقِ القرآنِ، وإمَّا أن يُقِرُّوا بخَلقِ الأفعالِ. يُنظر: ((النكت)) للقصاب (١/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٣).

وابنِ السَّبيلِ، للفُقراءِ منهم لا مُطلقًا -على قولٍ-، يَدخُلُ في ذلك المهاجِرونَ والأنصارُ والَّذين آمَنوا بعْدَهم. وأُعيدَ اللامُ مع البدَلِ لرَبْطِه بالمُبدَلِ منه؛ لانفِصالِ ما بيْنَهما بطُولِ الكلامِ مِن تَعليلٍ وتَذييلٍ وتَحذيرٍ، ولإفادةِ التَّأكيدِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ابتدائيَّةً، على حذْفِ المُبتدأِ، والتَّقديرُ: (ما أفاء اللهُ على رسولِه للمُهاجِرينَ الفُقراءِ ...) إلى آخِرِ ما عُطِفَ عليه، فتَكونَ هذه مَصارِفَ أُخرى للْفَيءِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً بحذْفِ حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ التَّعدادِ، كأنَّه قيل: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ إلى آخِرِه، ثمَّ قيل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾؛ فعلى هذَينِ القولَينِ يَنتفِي كونُها قَيْدًا للجُملةِ الَّتي قبْلَها[1].

- ووُصِفَ المهاجِرون بـ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ إعطاءَهُم مُراعًى فيه جَبْرُ ما نُكِبوا به مِن ضَياعِ الأموالِ والدِّيارِ، ومُراعًى فيه إخلاصُهم الإيمانَ، وأنَّهم مُكرِّرُون نصْرَ دِينِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُيِّلَ بقولِه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ حالٌ مُقيِّدةٌ لإخراجِهم، وُصِفوا أوَّلًا بما يدُلُّ على استِحقاقِهم للْفَيءِ مِن الإخراجِ مِن الدِّيارِ والأموالِ، وقُيِّدَ ذلك ثانيًا بما يوجِبُ تَفخيمَ شأْنِهم ويُؤكِّدُه[3].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ لتَعظيمِ شأْنِ المهاجِرين، وللتَّنبيهِ على أنَّ استِحقاقَهم وصْفَ الصَّادِقينَ مِن أجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧ - ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨).

مِن الصِّفاتِ؛ وهي أنَّهم أُخرِجوا مِن دِيارِهم وأمْوالِهم، وابتِغاؤهم فضْلًا مِن اللهِ ورِضوانًا، ونصْرُهم اللهَ ورسولَه؛ فإنَّ الأعمالَ الخالصةَ فيما عُمِلَت مِن أجْلِه يَشهَدُ للإخلاصِ فيها ما يَلحَقُ عامِلَها مِن مَشاقَّ وأذًى وإضرارٍ، فيَستطيعُ أنْ يَخلُصَ منها لو تَرَكَ ما عَمِلَه مِن أجْلِها أو قصَّرَ فيه[1].

- وجُملةُ ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ مُفيدةٌ القصْرَ مِن أجْلِ ضَميرِ الفصْلِ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[2]؛ للمُبالَغةِ في وصْفِ المهاجِرين بالصِّدقِ الكاملِ، كأنَّ صِدقَ غَيرِهم ليس صِدقًا في جانبِ صِدقِهم[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ تَعريفُ (الدَّارِ) هنا للعهْدِ؛ لأنَّ المُرادَ بالدَّارِ المدينةُ، والمعْنى: الَّذين همْ أصحابُ الدَّارِ، وهذا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[4].

- وعلى القولِ بأنَّ الواوَ في ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ للمعيَّةِ، و(الإيمانَ) مَفعولٌ معه، فهو يُفيدُ الثَّناءَ عليهم بأنَّ دارَ الهجرةِ دارُهم آوَوا إليها المهاجِرينَ؛ لأنَّها دارُ مُؤمنينَ، لا يُماثِلُها يَومَئذٍ غيرُها[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ أُرِيدَ بالوِجدانِ الإدراكُ العقليُّ، وكُنِّيَ بانتِفاءِ وِجدانِ الحاجةِ عن انتِفاءِ وُجودِها؛ لأنَّها لو كانت مَوجودةً لأدْرَكُوها في نُفوسِهم؛ فتَكونُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا﴾ ابتدائيَّةً، أي: مأْرَبًا أو رَغبةً ناشئةً مِن فَيْءٍ أُعطِيَه المُهاجِرونَ. ويَجوزُ وجْهٌ آخَرُ بأنْ يُحمَلَ لَفظُ (حاجة) على أنَّه اسمُ مَصدرِ الاحتياجِ؛ فإنَّ الحاجةَ بهذا المعْنى يصِحُّ وُقوعُها في الصُّدورِ؛ لأنَّها مِن الوِجدانيَّاتِ والانفعالاتِ، ومعْنى نفْيِ وِجدانِ الاحتياجِ في صُدورِهم أنَّهم لفرْطِ حُبِّهم للمُهاجِرينَ صاروا لا يُخامِرُ نُفوسَهم أنَّهم مُفتقِرون إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرونَ، أي: فهُمْ أغنياءُ عمَّا يُؤتاهُ المهاجِرونَ، فلا تَستشرِفُ نُفوسُهم إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرون، بلْهَ أنْ يَتطلَّبُوه، وتَكونَ (مِن) في قولِه تعالى: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا﴾ للتَّعليلِ، أي: حاجةً لأجْلِ ما أُوتِيَه المهاجِرون، أو ابتدائيَّةً، أي: حاجةً ناشئةً عمَّا أُوتِيَه المهاجِرون؛ فيُفيدَ انتفاءَ وِجدانِ الحاجةِ في نُفوسِهم وانتفاءَ أسبابِ ذلك الوِجدانِ ومَناشِئِه المُعتادةِ في النَّاسِ تَبَعًا للمُنافَسةِ والغِبطةِ، وقد دلَّ انتفاءُ أسبابِ الحاجةِ على مُتعلَّقِ ﴿حَاجَةً﴾ المَحذوفِ؛ إذِ التَّقديرُ: ولا يَجدون في نُفوسِهم حاجةً لشَيءٍ أُوتِيَه المهاجِرون[1].

- قولُه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثارُ: تَرجيحُ شَيءٍ على غَيرِه بمَكرُمةٍ أو مَنفعةٍ، والمعْنى: يُؤثِرون على أنفُسِهم في ذلك اختيارًا منهم، وهذا أعْلى دَرَجةً ممَّا أفادَه قولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾؛ فلذلك عُقِّبَ به، ولم يُذكَرْ مَفعولُ (يُؤْثِرُونَ)؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا﴾ عليه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٣).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وتَذييلُ الكلامِ بذِكرِ فضْلِ مَن يُوقَونَ شُحَّ أنفُسِهم بعْدَ قولِه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يُشيرُ إلى أنَّ إيثارَهم على أنفُسِهم حتَّى في حالةِ الخَصاصةِ، هو سَلامةٌ من شُحِّ الأنفُسِ، فكأنَّه قِيل: لسَلامتِهم مِن شُحِّ الأنفُسِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ لتَعظيمِ هذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ[2].

- وصِيغةُ القصْرِ المُؤدَّاةُ بضَميرِ الفصْلِ (همْ) للمُبالَغةِ؛ لكثرةِ الفَلاحِ الَّذي يَترتَّبُ على وِقايةِ شُحِّ النَّفْسِ، حتَّى كأنَّ جِنسَ المُفلِحِ مَقصورٌ على ذلك المُوقَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ المَجيءُ مُستعمَلٌ للطُّروءِ والمَصيرِ إلى حالةٍ تُماثِلُ حالَ الأنصارِ والمهاجرينَ، وهي حالةُ الإسلامِ، فكأنَّهم أَتَوا إلى مَكانٍ لإقامتِهم. وإنَّما صِيغَ ﴿جَآءُو﴾ بصِيغةِ الماضي تَغليبًا؛ لأنَّ مِن العرَبِ وغيرِهم مَن أسْلَموا بعْدَ الهجرةِ، فكأنَّه قيل: الَّذين جاؤوا ويَجيئون، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ، والمقصودُ مِن هذا زِيادةُ دفْعِ إيهامِ أنْ يَختَصَّ المهاجِرون بما أفاء اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ القُرى كما اختَصَّهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفَيءِ بني النَّضيرِ(١).

- قولُه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، أي: مُبالِغٌ في الرَّأفةِ والرَّحمةِ، فحَقيقٌ بأنْ تُجيبَ دُعاءَنا(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

الآيات (١١-١٣)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ(١).

﴿رَهْبَةً﴾: أي: خَوفًا وخَشيةً، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ تعالى عن المنافِقينَ، حينَ بعَثوا إلى يهودِ بَني النَّضيرِ يَعِدونهم النَّصرَ من أنفُسِهم، فيقولُ تعالى: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ من يَهودِ بني النَّضيرِ: لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن ديارِكم لَنَخرُجَنَّ معكم مِن المدينة، ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما قالوا!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

لَئِنْ أُخرِجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ، ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرونهم، ولَئِنْ نَصَروهم -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَيَفِرُّون ويَهرُبونَ مُنهَزِمينَ، ثمَّ لا يُنصَرونَ.

لَخوفُهم منكم -أيُّها المؤمنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ المنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذُكِر ما حلَّ ببَني النَّضيرِ وما اتَّصَلَ به مِن بَيانِ أسبابِه، ثمَّ بَيانِ مَصارِفِ فَيئِهم وفَيءِ ما يُفتَحُ مِن القُرى بعْدَ ذلك؛ أُعقِبَ بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ مع بَني النَّضيرِ وتَغريرِهم بالوُعودِ الكاذبةِ؛ ليَعلَمَ المُسلِمون أنَّ النِّفاقَ سَجيَّةٌ في أولئك، لا يَتخلَّون عنه ولو في جانبِ قومٍ هُمُ الَّذين يَوَدُّون أنْ يَظهَروا على المسلِمينَ[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾.

أي: ألم يَنْتَهِ علمُك -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ مِن يَهودِ بني النَّضيرِ: نُقسِمُ باللهِ لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن دياركم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

لَنخرُجَنَّ معكم مِن المدينةِ[1]؟

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

أي: ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ويَدْعونا إلى تَركِ نُصرتِكم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨، ٩٩).

قال الشوكاني: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له. والَّذين نافَقوا هم: عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ وأصحابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بأهلِ الكتابِ هنا: يهودُ بني النَّضيرِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٥).

وقيل: المرادُ: يَهودُ بَني قُرَيظةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وعلى هذا القولِ يكون المُنافِقونَ قد قالوا لهم ذلك بعدَ أن أُجليَ بَنو النَّضيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

قال مقاتل: (﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ لئن أخرَجكم محمَّدٌ مِن المدينةِ كما أخرَج أهلَ النَّضيرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ: يهودُ بني قُرَيظةَ والنَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زَمَنين)) (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

أي: ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، فنُعينُكم على قِتالِهم(١).

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما وَعَدوا به يهودَ بَني النَّضيرِ(٢).

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شَهِدَ اللهُ تعالى على كَذِبِ المنافِقينَ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أتْبَعَه بالتَّفصيلِ(٣).

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾.

أي: لَئِنْ أُخرِجَ يَهودُ بني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ الَّذين وَعَدوهم الخُروجَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال ابنُ كثير: (أي: لَكاذِبونَ فيما وَعَدوهم به؛ إمَّا أنَّهم قالوا لهم قولًا مِن نِيَّتِهم ألَّا يَفُوا لهم به، وإمَّا أنَّهم لا يَقَعُ منهم الَّذي قالوه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال الشوكاني: (﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وقد كان الأمرُ كذلك؛ فإنَّ المنافِقينَ لم يَخرُجوا مع مَن أُخرِجَ مِن اليهودِ، وهم بَنو النَّضيرِ ومَن معهم، ولم يَنصُروا مَن قُوتِلَ مِن اليَهودِ، وهم بَنو قُرَيْظةَ وأهلُ خَيْبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣). =

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾.

أي: ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرُهم المنافِقونَ ولا يُقاتِلونَ معهم كما وَعَدوهم[(١)].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾.

أي: ولَئِنْ نَصَرهم المُنافِقونَ -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَفَرَّ المنافِقونَ وهَرَبوا مُنهَزِمينَ[(٢)].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ لا يُنصَرُ الكفَّارُ مِن بَعدِ ذلك[(٣)].

= وقال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿أُخْرِجُوا۟﴾ و﴿قُوتِلُوا۟﴾ عائدانِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الحشر: ١١]، أي: الَّذين لم يُخْرَجوا ولَمَّا يُقاتَلوا، وهم قُرَيظةُ وخَيبرُ، أمَّا بنو النَّضيرِ فقد أُخرِجوا قبْلَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فهم غيرُ مَعنيِّينَ بهذا الخبَرِ المستقبَلِ. والمعنى: لَئِنْ أُخرِجَ بَقيَّةُ اليهودِ في المستقبَلِ لا يَخرُجونَ معهم، ولَئِنْ قُوتِلوا في المستقبَلِ لا يَنصُرونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

قيل: المرادُ: لا يُنصَرُ بنو النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ. وهذا المعنى جوَّزه الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ ولا اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البِقاعي، والشربيني. =

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن ذِكرِ وَهْنِ المنافِقينَ في القِتالِ تشديدَ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنفُسِ المؤمنينَ؛ حتَّى لا يَرهَبوهم، ولا يَخشَوا مُسانَدتَهم لأهلِ حَربِ المُسلِمينَ؛ أحلافِ المنافِقينَ مِن اليهودِ- أعقَبَ ذلك بإعلامِ المؤمنينَ بأنَّهم يَخشَونَ المُسلِمينَ خَشيةً شَديدةً، وُصِفت شِدَّتُها بأنَّها أشَدُّ مِن خَشيتِهم اللهَ تعالَى[(١)].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الخَوفَ الكامِنَ في صُدورِهم منكم -أيُّها المؤمِنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى[(٢)]!

= يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٢).

قال البقاعي: (لَمَّا كان مِن عادةِ العَرَبِ الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، بَيَّنَ أنَّهم لا كَرَّةَ لهم بعدَ هذه الفَرَّةِ وإن طال المَدى، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يتجَدَّدُ لفريقَيهم ولا لواحدٍ منهما نُصرةٌ في وقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد صَدَق سُبحانَه؛ لم يَزَلِ المنافِقونَ واليهودُ في الذُّلِّ، ولا يَزالونَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿صُدُورِهِم﴾ قيل: عائدٌ إلى بني النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥).
وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمينُ الحلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٨).
وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: خَوفُهم مِن المسلِمينَ أعظَمُ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه؛ فيُدرِكوا أنَّه هو وَحْدَه مَنْ يَنبَغي أن يُخشَى(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ دليلٌ على أنَّ سَجايا المنافِقينَ مَجبولةٌ على مُنافَقةِ أوليائِهم وأعدائِهم معًا! فهو تنبيهٌ بَيِّنٌ أنَّ الاستِنامةَ إلى وُدِّ مَن ليس يَتَّقي، والمُعَوَّلَ على وَلايتِه: ليس مِن فِعْلِ ذوي التَّحصيلِ، ولا يُغتَرُّ به مِن خليلٍ، ويؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلو كانت خُلَّتُهم في الدُّنيا مُستقيمةً لَكانوا بها مُحسِنينَ، والإحسانُ لا يعودُ سَيِّئًا فيَضمَحِلَّ، كما لم تَضمَحِلَّ خُلَّةُ المتَّقينَ، وكانت في الدُّنيا والآخِرةِ مُتَّصِلةً لهم غيرَ مُنقَطِعةٍ بهم(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ إنَّما الفِقهُ كُلُّ الفِقهِ أن يكونَ خَوفُ الخالِقِ ورَجاؤُه ومَحَبَّتُه مُقَدَّمةً

= ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفِقهُ: فَهمُ المعاني الخفيَّةِ... ذلك أنَّهم تَبِعوا دواعيَ الخَوفِ المشاهَدِ، وذَهِلوا عن الخَوفِ المُغيَّبِ عن أبصارِهم، وهو خَوفُ اللهِ؛ فكان ذلك من قِلَّةِ فَهمِهم للخَفِيَّاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

على غَيرِها، وغَيرُها تبَعًا لها(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَقولُ: (خَوِّفِ المنافِقَ بالنَّاسِ، والمؤمِنَ باللهِ جلَّ وعزَّ)(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم. ووَجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القُلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ، فكأنَّ هذا المضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في سورةِ (المنافِقونَ): ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(٣) [المنافقون: ١].

٢- قولُه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لَمَّا كان قولُهم ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ كلامًا يَقضي عليه سامِعُه بالصِّدقِ مِن حيثُ كَونُه مُؤكَّدًا مع كونِه مُبتدَأً من غيرِ سؤالٍ فيه؛ بيَّن حالَه سُبحانَه بقولِه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾، أي: يقولون ذلك والحالُ أنَّ المحيطَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا يَشهَدُ بما يَعلمُ مِن بواطِنِهم في عالَمِ الغَيبِ. ولَمَّا كان بعضُ مَن يَسمَعُ قولَهم هذا يُنكِرُ أنْ لا يُطابِقَه الواقِعُ، وكان إخلافُهم فيه مُتحقِّقًا في عِلمِ اللهِ؛ أطْلَق عليه ما لا يُطلَقُ إلَّا على ما كشَفَ الواقِعُ عن أنَّه غيرُ مُطابِقٍ، فقال تَشجيعًا للمؤمنينَ على قِتالِهم مؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: المنافِقون ﴿لَكَاذِبُونَ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ...﴾ هذا مِن أعظمِ دَلائلِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بمُغيَّبٍ بعيدٍ عن العادةِ بشَهادةِ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فحَقَّقه اللهُ عن قريبٍ[١]، ففيه دَليلٌ على صِحَّةِ النبُوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالغَيبِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؟

الجوابُ: أنَّ المعنى على الفَرضِ والتَّقديرِ، أي: ولَئِنْ نَصَروهم فَرضًا وتقديرًا، كقَولِه تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٣] [الزمر: ٦٥].

وقيل: قَولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: طائعينَ. وقَولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: مُكرَهينَ.

وقيل: قولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أَي: لا يَدومون على نَصرِهم. وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: نَصَروهم في الابتِداءِ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ، بأنَّ اللهَ أوقَعَ الرُّعبَ منهم في نُفوسِ عَدُوِّهم، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ عُلِّقَ قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿أَشَدُّ﴾ لَزِمَ ثُبوتُ الخَوفِ لله، وهو مُحالٌ، أو بـ (الرَّهبةِ)، لَزِمَ كَونُ المؤمنينَ أشَدَّ خَوفًا مِن المذكورينَ، وليس مُرادًا؟

الجوابُ: الرَّهبةُ مَصدَرُ (رُهِبَ) بالبناءِ للمفعولِ هنا -على مذهبِ مَن يُجيزُ جعْلَ المصدرِ مَبنيًّا للمفعولِ- فالمعنى: أشَدُّ مَرهوبيَّةً، يعني: أنَّكم في صُدورِهم أَهيَبُ مِن كَونِ اللهِ تعالى فيها، ونظيرُه قولُك: (زَيدٌ أشَدُّ ضَربًا في الدَّارِ مِن عَمرٍو)، يعني: مَضروبيَّةً[١].

فإنْ قيل: كيفَ يستقيمُ التَّفضيلُ وهم ما كانوا يَرهبونَ الله؛ لأنَّهم لو رهبوه لتركوا النِّفاقَ والكُفرَ؟

قيل: رَهبَتُهم في السِّرِّ منكم أشَدُّ مِن رَهبتِهم مِنَ اللهِ تعالى الَّتي يُظهِرونَها لكم، وكانوا يُظهِرونَ للمُؤمِنينَ رَهبةً شَديدةً مِنَ اللهِ تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[٣].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ...﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقينَ الَّذين طمَّعوا إخوانَهم مِن أهلِ الكِتابِ في نُصرتِهم وموالاتِهم

(١) يُنظر: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

على المؤمنينَ، فبُنِيَ على نفْيِ العِلمِ بحالِهم كِنايةً عن التَّحريضِ على إيقاعِ هذا العِلمِ، كأنَّه يقولُ: تأمَّلِ الَّذين نافَقوا في حالِ مَقالتِهم لإخوانِهم، ولا تَترُكِ النَّظَرَ في ذلك؛ فإنَّه حالٌ عَجيبٌ[(١)]. وقيل: هو تعجُّبٌ مِن اغترارِ اليهودِ بما وعَدَهم المُنافِقونَ مِن النَّصرِ، مع عِلمِهم بأنَّهم لا يَعتقدون دِينًا ولا كِتابًا[(٢)].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...﴾ استئنافٌ لبَيانِ المُتعجَّبِ منهُ، وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ للدَّلالةِ على استِمرارِ قَولِهم، وتَكرُّرِ ذلك منهم، أي: يَقولون ذلك مُؤكِّدينه ومُكرِّرينَه لا على سَبيلِ البَداءِ أو الخاطرِ المَعدولِ عنه، أو لاستِحضارِ صُورتِه. وهذه الجُملةُ في مَوضعِ المفعولِ الثَّاني، والتَّقديرُ: ألَمْ تَرَهُم قائِلينَ...[(٣)].

- والمرادُ بإخوانِهم بَنو النَّضيرِ، وإنَّما وصَفَهم بالإخُوَّةِ لهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّحِدين في الكُفْرِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

- وفي وصْفِ إخوانِهم بأنَّهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ جانبَ الأُخوَّةِ بيْنَهم هو الكفْرُ، إلَّا أنَّ كُفرَ المنافِقينَ كُفْرُ الشِّركِ، وكُفْرَ إخوانِهم كُفْرُ أهلِ الكتابِ، وهو الكفْرُ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٥)].

- وإنَّما وَعَدوهم بالخُروجِ معهم بقولِه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

﴿نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ ليَطْمَئِنُّوا لنُصرتِهم؛ فهو كِنايةٌ عن النَّصرِ، وإلَّا فإنَّهم لا يَرضَون أنْ يُفارِقوا بِلادَهم(١).

- وجُملةُ ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾؛ فهي مِن المَقولِ لا مِن المُقسَم عليه، وقد أُعرِيَت عن المُؤكِّدِ؛ لأنَّ بَني النَّضيرِ يَعلَمون أنَّ المنافِقين لا يُطيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ؛ فكان المُنافِقون في غُنْيةٍ عن تَحقيقِ هذا الخبَرِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿فِيكُمْ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، أي: في ضُرِّكم؛ إذ لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّهم لا يُطِيعون مَن يَدْعُوهم إلى مُوالاةِ إخوانِهم(٣).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أعلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم كاذِبونَ في ذلك بعدَما أعْلَمه بما أقْسَموا عليه؛ تطمينًا لخاطِرِه؛ لئلَّا يَتوجَّسَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خِيفةً مِن بأسِ المنافِقينَ، وسمَّى اللهُ الخبرَ شهادةً؛ لأنَّه خبرٌ عن يَقينٍ بمنزلةِ الشَّهادةِ الَّتي لا يَتجازَفُ المخبِرُ في شأنِها(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وهذا تأكيدٌ مِن اللهِ تعالَى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم لنْ يَضُرُّوه شيئًا؛ لكَيْلَا يَعبأَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٠).

بما بَلَغَه من مَقالتِهم(١).

- وقد سُلِكَ في هذا البيانِ طَريقُ الإطنابِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] جمَعَ ما في هاتَينِ الجُملتَين، فجاء بَيانُه بطَريقةِ الإطنابِ؛ لزِيادةِ تَقريرِ كَذِبِهم(٢).

- وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ارتِقاءٌ في تَكذيبِهم على ما وَعَدوا به إخوانَهم، والواوُ واوُ الحالِ، وليست واوَ العطْفِ(٣).

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ انتِفاءَ النَّصرِ أعظَمُ رُتبةً في تأْييسِ أهلِ الكتابِ مِن الانتفاعِ بإعانةِ المنافِقِين، فهو أقْوى مِن انهزامِ المنافِقينَ إذا جاؤوا لإعانةِ أهْلِ الكتابِ في القتالِ، والمقصودُ تَثبيتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وتأْمينُهم مِن بأْسِ أعدائِهم(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ إنَّ خَشيةَ جَميعِ الخلْقِ مِن اللهِ أعظَمُ خَشيةً، فإذا بلَغَت الخشيةُ في قلْبِ أحدٍ أنْ تكونَ أعظَمَ مِن خَشيةِ اللهِ، فذلك مُنتهَى الخشيةِ. والمقصودُ تَشديدُ نُفوسِ المسلِمينَ؛ ليَعلَموا أنَّ عدُوَّهم مُرْهَبٌ منهم، وذلك ممَّا يَزيدُ المسلِمينَ إقدامًا في مُحاربتِهم؛ إذ ليس سِياقُ الكلامِ للتَّسجيلِ على المنافِقين واليهودِ قلَّةَ رَهْبَتِهم للهِ، بلْ إعلامُ المسلِمينَ بأنَّهم أرهَبُ لهم مِن كلِّ أعظَمِ الرَّهَباتِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

- قولُه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تَركيبٌ غَريبُ النَّسْجِ بَديعُه! والمألوفُ في أداءِ مِثلِ هذا المعْنى أنْ يُقالَ: (لَرَهْبَتُهم منكم في صُدورِهم أشدُّ مِن رَهبتِهم مِن اللهِ)؛ فحُوِّلَ عن هذا النَّسجِ إلى النَّسجِ الَّذي حُبِكَ عليه في الآيةِ؛ لِيَتأتَّى الابتداءُ بضَميرِ المسلِمينَ اهتمامًا به، ولِيَكونَ مُتعلِّقُ الرَّهبةِ ذَواتِ المسلِمينَ؛ لتَوقُّعِ بَطْشِهم، وليأتِيَ التَّمييزُ المُحوَّلُ عن الفاعِلِ -على قولٍ-؛ لِما فيه مِن خُصوصيَّةِ الإجمالِ مع التَّفصيلِ، ولِيَتأتَّى حذْفُ المُضافِ في تَركيبِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: مِن رَهبةِ اللهِ؛ لأنَّ حَذْفَه لا يَحسُنُ إلَّا إذا كان مَوقعُه مُتَّصلًا بلَفظِ (رَهْبة)؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (لَرَهْبتُهم أشدُّ مِن اللهِ)؛ فاليهودُ والمنافِقون مِن شأْنِهم أنْ يَخشَوا اللهَ؛ أمَّا اليهودُ فلأنَّهم أهلُ دِينٍ، فهمْ يَخافون اللهَ ويَحذَرون عِقابَ الدُّنيا وعِقابَ الآخرةِ، وأمَّا المنافِقون فهُمْ مُشرِكون، وهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ تعالَى هو الإلهُ الأعظَمُ، وأنَّه أَولى الموجوداتِ بأنْ يُخْشَى؛ لأنَّه ربُّ الجميعِ، وهمْ لا يُثبِتون البعثَ والجزاءَ، فخَشْيتُهم اللهَ قاصرةٌ على خَشيةِ عَذابِ الدُّنيا مِن خسْفٍ وقحْطٍ واستِئصالٍ، ونحوِ ذلك، وليس وراءَ ذلك خَشيةٌ[(١)].

- ووَجْهُ وَصْفِ الرَّهبةِ بأنَّها ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ الإشارةُ إلى أنَّها رهبةٌ جِدُّ خَفيَّةٍ، أي: إنَّهم يَتظاهَرون بالاستِعدادِ لحرْبِ المسلِمينَ، ويَتطاوَلون بالشَّجاعةِ لِيَرهَبَهم المسلِمون، وما همْ بتلك المَثابةِ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم، فليس قولُه: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ وصْفًا كاشفًا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٢، ١٠٣).

ويُنظر ما تقدم: (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣). =

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لَمَّا حصَلَت البِشارةُ مِن الخبَرِ عن الرُّعبِ الَّذي في قُلوبِهم، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى مَذمَّةِ هؤلاء الأعداءِ مِن جَرَّاءِ كَونِهم أخوفَ للنَّاسِ منهم للهِ تعالَى؛ بأنَّ ذلك مِن قِلَّةِ فِقهِ نُفوسِهم، ولو فَقِهُوا لَكانوا أخوفَ للهِ منهم للنَّاسِ، فنَظَروا فيما يُخلِّصُهم مِن عِقابِ التَّفريطِ في النَّظرِ في دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَلِموا صِدقَه، فنَجَوْا مِن عَواقبِ كُفْرِهم به في الدُّنيا والآخِرةِ، فكانت رَهبتُهم مِن المسلمينَ هذه الرَّهبةَ مُصيبةً عليهم، وفائدةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ ومُبيَّنِه[1].

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكورِ مِن قولِه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، واجتلابُ اسمِ الإشارةِ ليَتميَّزَ الأمرُ المحكومُ عليه أتمَّ تَمييزٍ؛

= والصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

لغَرابتِه[١].

- والإتيانُ بلَفظِ ﴿قَوۡمٞ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن أنَّ عَدَمَ فِقهِ أنفُسِهم أمْرٌ عُرِفوا به جميعًا، وصار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، لا يَخْلو عنه أحدٌ منهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٤-١٧)

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ
تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ
خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: أي: مُحكَمةٍ مُمتَنِعةٍ بالأسوارِ والخنادقِ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[1].

﴿جُدُرِۭ﴾: أي: حيطانٍ وأسوارٍ، إلَّا أنَّ الحائِطَ يُقالُ اعتبارًا بالإحاطةِ بالمكانِ، والجِدارَ يُقالُ اعتبارًا بالنُّتوءِ والارتِفاعِ[2].

﴿بَأۡسُهُم﴾: أي: عداوتُهم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما شابَهَها[3].

﴿شَتَّىٰ﴾: أي: مُختَلِفةٌ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ[4].

﴿وَبَالَ﴾: الوبالُ: الجزاءُ والثِّقلُ والعاقِبةُ، وأيضًا: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ فِي شَيءٍ وتجَمُّعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُحاطةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ، عداوتُهم بيْنَهم شَديدةٌ، تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ، والحَقُّ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم!

ثمَّ يقولُ تعالى ضاربًا المثَلَ؛ تثبيتًا للمؤمنينَ، وتهوينًا مِن شأنِ أعدائِهم: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ الَّذين مِن قَبلِهم مِن يَهودِ بني قَيْنُقاعَ وكُفَّارِ قُرَيشٍ، قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ، نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ شَديدٌ في الآخِرةِ.

ويَضرِبُ مثلًا آخَرَ فيقولُ: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، ومثلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم؛ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ قال للإنسانِ: اكفُرْ باللهِ، فلمَّا كَفَرَ الإنسانُ باللهِ تبَرَّأَ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه، وقال له: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ! فكان آخِرَ أمْرِهما أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا، وذلك جزاءُ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤)﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى برَهْبَتِهم؛ دلَّ عليها بقولِه[١]:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

أي: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُمَنَّعةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ وحِيطانٍ، فلا يَبرُزونَ لِقتالِكم؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم، وخَوفِهم منكم[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ عائِدٌ إلى يَهودِ بَني النَّضيرِ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى اليَهودِ، وممن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لِبَني النَّضيرِ وجميعِ اليَهودِ، وهذا قَولُ جماعةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ والمنافِقونَ: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥١).

قال ابن عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ بذلك: اليهودَ والمنافِقينَ؛ لأنَّ دُخولَ المنافِقينَ في قَولِه =

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أي: عداوةُ بَعضِهم لِبَعضٍ عَداوةٌ شَديدةٌ[(١)].

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

أي: تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ على كَلِمةٍ واحِدةٍ، والحَقيقةُ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ،

= تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متمكِّنٌ بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ يجوزُ أن يكونَ بمعنى «كُلُّهم»، كقَولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٤٨]، فيكونَ للشُّمولِ، أي: كُلُّهم لا يُقاتِلونكم -اليهودُ والمنافِقونَ- إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ... إلخ. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى «مجتَمِعينَ»، أي: لا يقاتِلونَكم جُيوشًا كشأنِ جُيوشِ المتحالِفينَ؛ فإنَّ ذلك قتالُ مَن لا يَقبَعونَ في قُراهم، فيكونَ النَّفيُ مُنصَبًّا إلى هذا القَيدِ، أي: لا يَجتَمِعون على قِتالِكم اجتِماعَ الجُيوشِ، أي: لا يُهاجِمونَكم، ولكنْ يُقاتِلون قِتالَ دِفاعٍ في قُراهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ البأسَ الشَّديدَ الَّذي يُوصَفونَ به إنَّما هو بيْنَهم إذا اقتَتَلوا، ولو قاتَلوكم لم يَبْقَ لهم ذلك البأسُ والشِّدَّةُ؛ لأنَّ الشُّجاعَ يَجبُنُ، والعزيزَ يَذِلُّ، عندَ محاربةِ اللهِ ورَسولِه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

وقال الشوكاني: (﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضُهم غليظٌ فظٌّ على بعضٍ، وقُلوبُهم مُختَلِفةٌ، ونيَّاتُهم مُتبايِنةٌ. قال السُّدِّيُّ: المرادُ اختِلافُ قُلوبِهم، حيث لا يَتَّفِقون على أمرٍ واحِدٍ. وقال مجاهدٌ: بأسُهم بيْنَهم شديدٌ بالكلامِ والوعيدِ: لَيَفْعَلُنَّ كذا، والمعنى: أنَّهم إذا انفَرَدوا نَسَبوا أنفُسَهم إلى الشِّدَّةِ والبأسِ، وإذا لاقَوا عَدُوًّا ذَلُّوا وخَضَعوا وانهَزَموا. وقيل: المعنى: أنَّ بأْسَهم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ، وإنَّما ضَعفُهم بالنِّسبةِ إليكم؛ لِما قذَفَ اللهُ في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ. والأوَّلُ أَوْلى؛ لقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ اجتِماعَهم إنَّما هو في الظَّاهِرِ، مع تَخالُفِ قُلوبِهم في الباطنِ، وهذا التَّخالُفُ هو البأسُ الَّذي بيْنَهم، المَوصوفُ بالشِّدَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣).

وفي غايةِ التَّفَرُّقِ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: وُقوعُ مُعاداةِ بَعضِهم لبَعضٍ، وتَشَتُّتُ آرائِهم، وتَفَرُّقُ أهوائِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم؛ حيثُ وَقَعوا فيما يَعلَمونَ ضَرَرَه، وأهمَلوا النَّظَرَ في عواقِبِ الأُمورِ[٢].

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإخبارُ بعَدَمِ عَقلِهم دَعوى؛ دَلَّ عليها بأمرٍ مُشاهَدٍ، فقال[٣]:

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا﴾.

أي: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ يَهودِ بني قَينُقاعَ الَّذين عَذَّبَهم اللهُ بالجَلاءِ مِنَ المدينةِ، وكَمَثَلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ، وذلك قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بَني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشَتُّتِ في الرَّأيِ وصَرفِ البأسِ إلى المُشارِكِ في المصلحةِ، مِنَ الوَهْنِ والفَتِّ في ساعدِ الأُمَّةِ: مَعرِفةٌ مشهورةٌ بيْن العُقَلاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣). =

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَثَلُ المنافِقينَ واليهودِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء اليهودِ مِن بَني النَّضيرِ والمنافِقِينَ فيما اللهُ صانعٌ بهم، مِن إحلالِ عُقوبتِه بهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، يقولُ: كشَبَهِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المثَلَ مَضروبٌ لليهودِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والخازنُ، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: أي: مَثَلُ هؤلاء المنافِقِينَ كمَثَلِ مُنافِقِي الأُمَمِ الماضية. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٢).

واختُلِف في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ فقيل: المرادُ بالَّذينَ مِن قَبلِهم: يهودُ بَني قَينُقاعَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وقيل: المرادُ: كُفَّارُ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ، فقال: (أَولى الأقوالِ بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ مَثَّلَ هؤلاء الكُفَّارَ مِن أهلِ الكِتابِ مِمَّا هو مُذيقُهم مِن نَكالِه، بالَّذين مِن قَبْلِهم مِن مُكَذِّبي رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّذين أهلَكَهم بسَخَطِه، وأمْرُ بَني قَيْنُقاعَ ووَقْعةُ بَدرٍ كانا قبْلَ جلاءِ بني النَّضيرِ، وكُلُّ أولئك قد ذاقوا وَبالَ أَمْرِهم، ولم يَخْصُصِ اللهُ عزَّ وجَلَّ منهم بعضًا في تمثيلِ هؤلاء بهم =

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

أي: نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا(١).

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ شَديدُ الإيلامِ في الآخِرةِ(٢).

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الحشر: ١٥] كما يُفصِحُ عنه قَولُه في آخِرِه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ الآيةَ، أي: مَثَلُهم في تَسبيبِهم

= دونَ بَعضٍ، وكُلٌّ ذائِقٌ وَبالَ أمْرِه، فمَن قَرُبَت مُدَّتُه منهم قَبْلَهم، فهم مُمثَّلونَ بهم فيما عُنُوا به مِنَ المَثَلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠).

وقيل: هم بنو النَّضيرِ الذين أُجلوا مِن الحِجازِ إلى الشَّامِ، وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

قال ابنُ عاشور: (أي: حالُ أهلِ الكِتابِ الموعودينَ بنَصرِ المنافقينَ كحالِ الَّذين مِن قَبلِهم قريبًا. والمرادُ: أنَّ حالَهم المركَّبَةَ مِن التَّظاهُرِ بالبأسِ مع إضمارِ الخَوفِ مِن المسلمينَ، ومِن التَّفَرُّقِ بيْنَهم وبيْنَ إخوانِهم مِن أهلِ الكتابِ، ومِن خِذلانِ المنافِقينَ إيَّاهم عندَ الحاجةِ، ومِن أنَّهم لا يُقاتِلونَ المسلمينَ إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو مِن وَراءِ جُدُرٍ- كحالِ الَّذين كانوا مِن قَبلِهم في زمَنٍ قريبٍ، وهم بنو النَّضيرِ؛ فإنَّهم أظهَروا الاستِعدادَ للحَربِ وأَبَوُا الجَلاءَ، فلم يُحاربوا إلَّا في قَريتِهم؛ إذ حَصَّنوها وقَبَعوا فيها حتَّى أعياهم الحِصارُ فاضطُرُّوا إلى الجَلاءِ، ولم يَنفَعْهم المنافِقونَ ولا إخوانُهم مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

لأنفُسِهم عذابَ الآخِرةِ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ يُوَسْوِسُ للإنسانِ بأن يَكفُرَ، ثمَّ يَترُكُه ويَتبَرَّأُ منه، فلا ينتَفِعُ أحَدُهما بصاحِبِه، ويَقَعانِ معًا في النَّارِ؛ فجُملةُ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الحشر: ١٥]، أي: في الآخِرةِ[١].

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾.

أي: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، فما مِن شَيءٍ مِن ذلك فَعَلوا، ومثَلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم- كمَثَلِ الشَّيطانِ حينَ سوَّلَ للإنسانِ الكُفرَ بالرَّحمنِ، وزَيَّنَه له، ووَعَده وَعدًا حَسَنًا بالنَّصرِ أو نَحوِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

ممَّن قال في الجملة إنَّ المرادَ أنَّ اللهَ تعالى ضرَبَ مثَلًا للمنافِقينَ واليهودِ في تَخاذُلِهم، وتخلِّي بعضِهم عن بعضٍ، وعدَمِ الوفاءِ في نُصرتِهم: الثعلبيُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ مثَلُ المنافِقين في غُرورِهم لبَني النَّضِيرِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: المرادُ: مثَلُ اليهودِ معَ المنافِقينَ، واغترارِهم بهم حينَ وعَدوهم النَّصرَ. وممَّن اختاره: =

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾.

أي: فلمَّا كَفَر الإنسانُ باللهِ؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، وقَبولًا لتزيينِه، واغترارًا بوَعدِه- تبَرَّأ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه[1]!

= أبو حيَّان، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء المنافِقينَ الَّذين وعَدوا اليهودَ مِن النَّضيرِ النُّصْرةَ إن قُوتِلوا، أو الخروجَ معهم إنْ أُخرِجوا، ومَثَلُ النَّضيرِ في غُرورِهم إيَّاهم بإخلافِهم الوعدَ، وإسلامِهم إيَّاهم عندَ شدَّةِ حاجتِهم إليهم، وإلى نُصرتِهم إيَّاهم - كمَثَلِ الشَّيطانِ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٣).

وقال ابن عاشور: (حكى ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُهما مِن السَّلَفِ في هذه الآيةِ قِصَّةَ راهبٍ بحِكايةٍ مُختَلِفةٍ، جُعِلَت كأنَّها المرادُ مِن الإنسانِ في هذه الآيةِ، ذكَرَها ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ، وضَعَّف ابنُ عطيَّةَ أسانيدَها، فلئن كانوا ذكَروا القِصَّةَ فإنَّما أرادوا أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِما يقَعُ مِن الشَّيطانِ للإنسانِ، كما مالَ إليه ابنُ كثيرٍ، فالمعنى: إذ قال للإنسانِ في الدُّنيا: اكفُرْ، فلمَّا كَفَر ووافى القيامةَ على الكُفرِ، قال الشَّيطانُ يومَ القيامةِ: إنِّي بَريءٌ منك، أي: قال كُلُّ شَيطانٍ لقَرينِه مِنَ الإنسِ: إنِّي بريءٌ منك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابن عطية: (ذهَب مجاهدٌ وجمهورٌ مِن المتأوِّلينَ إلى أنَّ الشَّيطانَ والإنسانَ في هذه الآيةِ أسماءُ جِنسٍ؛ لأنَّ العُرفَ أن يَعمَلَ هذا شياطينُ بناسٍ، كما يُغْوي الشَّيطانُ الإنسانَ ثمَّ يَفِرُّ منه بعدَ أن يُوَرِّطَه، كذلك أغوى المنافِقونَ بَني النَّضيرِ، وحرَّضوهم على الثُّبوتِ، ووَعَدوهم النَّصرَ، فلمَّا نَشِبَ بَنو النَّضيرِ وكشَفوا عن وُجوهِهم ترَكَهم المُنافِقون في أسوأِ حالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال الألوسي: (الجُمهورُ على أنَّ المرادَ بالشَّيطانِ والإنسانِ الجِنسُ، فيكونُ التَّبَرِّي يومَ القيامةِ، وهو الأوفَقُ بظاهِرِ قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ...﴾ إلخ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُبيِّنًا سَبَبَ تبرُّئِه من الإنسانِ الَّذي أطاعه في الكُفرِ: إنِّي أخافُ اللهَ الَّذي أوجَدَ جميعَ الخلائقِ، وربَّاهم بنِعَمِه، فلا يُغْني أحَدٌ من خَلْقِه عن أحَدٍ شَيئًا إلَّا بإذْنِه؛ فليس لي قُدرةٌ على دَفعِ العذابِ عنك، أو جَلْبِ النَّفعِ لك[١].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابنُ عطية: (قولُ الشَّيطانِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، رياءٌ من قَولِه، وليست على ذلك عقيدتُه، ولا يَعرِفُ اللهَ حَقَّ مَعرفتِه، ولا يَحجُزُه خَوفُه عن سُوءٍ يُوقِعُ فيه ابنَ آدَمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال القرطبي: (ليس قَولُ الشَّيطانِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حقيقةً، إنَّما هو على وَجهِ التَّبَرُّؤِ مِن الإنسانِ؛ فهو تأكيدٌ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢).

وقال الشوكاني: (قال الشَّيطانُ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾. وهذا يكونُ منه يومَ القيامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

أي: فكان آخِرَ أمْرِ ذلك الشَّيطانِ والإنسانِ أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا[١].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ السَّيِّئةُ بالخُلودِ في النَّارِ هي جزاءُ كُلِّ مَن ظَلَم نَفْسَه بالكُفرِ باللهِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فيه تَربيةٌ للمُسلِمينَ؛ لِيَحذَروا مِن التَّخالُفِ والتَّدابُرِ، ويَعلَموا أنَّ الأُمَّةَ لا تكونُ ذاتَ بأسٍ على أعدائِها إلَّا إذا كانت متَّفِقةَ الضَّمائِرِ، يَرَونَ رأيًا مُتماثِلًا في أُصولِ مَصالِحِهما المُشترَكةِ، وإنِ اختَلَفت في خُصوصيَّاتِها الَّتي لا تَنقُضُ أُصولَ مَصالِحِها، ولا تُفَرِّقُ جامِعَتَها؛ وأنَّه لا يكفي في الاتِّحادِ تَوافُقُ الأقوالِ، ولا التَّوافُقُ على الأغراضِ، إلَّا أن تكونَ الضَّمائِرُ خالِصةً مِن الإحَنِ والعَداواتِ[٣]، فاجتِماعُ النُّفوسِ مع تنافُرِ القُلوبِ واختِلافِها: أصلُ كُلِّ فَسادٍ، ومُوجِبُ كُلِّ تَخاذُلٍ، ومُقتَضٍ لتجاسُرِ العَدُوِّ؛ واتِّفاقُ القُلوبِ، والاشتراكُ في الهِمَّةِ، والتَّساوي في القَصدِ: يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ، وكُلَّ سعادةٍ[٤].

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قال: (كذلك أهلُ الباطِلِ؛ مُختَلِفةٌ شَهادتُهم، مُختَلِفةٌ أهواؤُهم، مُختَلِفةٌ أعمالُهم، وهم مُجتَمِعونَ في عَداوةِ أهلِ الحَقِّ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

٣- أعظَمُ الأسبابِ في القَضاءِ على كِيانِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ هو اختِلافُ القُلوبِ؛ وذلك لاستِلزامِه الفَشَلَ، وذَهابَ القُوَّةِ والدَّولةِ، وسبَبُ هذا الدَّاءِ الَّذي عَمَّت به البلوى إنَّما هو ضَعفُ العَقلِ؛ كما بيَّن الله تعالى ذلك في قولِه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، ثمَّ ذَكَر العِلَّةَ لكَونِ قُلوبِهم شَتَّى بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ داءَ ضَعفِ العَقلِ الَّذي يُصيبُه فيُضعِفُه عن إدراكِ الحقائِقِ، وتمييزِ الحَقِّ مِن الباطِلِ، والنَّافِعِ مِن الضَّارِّ، والحَسَنِ مِن القَبيحِ: لا دواءَ له إلَّا إنارتُه بنُورِ الوَحيِ؛ لأنَّ نُورَ الوَحيِ يحيا به مَن كان مَيتًا، ويُضيءُ الطَّريقَ للمُتمَسِّكِ به[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أنَّه لا فائدةَ مِن اجتِماعِ الأبدانِ مع تَفَرُّقِ القلوبِ! الفائدةُ باجتماعِ القلوبِ وتآلُفِ القلوبِ ولو تباعدَتِ الأبدانُ، وكم مِن إنسانٍ يكونُ بيْنَك وبيْنَه مَوَدَّةٌ وصداقةٌ وهو بعيدٌ منك، وبعيدٌ عنك؟! وكم مِن إنسانٍ بالعكسِ؛ تَشعُرُ بأنَّه يُنافِقُك؛ وأنَّه لا يُكِنُّ لك المحَبَّةَ ولا الصَّداقةَ؛ ومع ذلك هو ملازِمٌ لك كمُلازَمةِ الظِّلِّ؟! فالشَّأنُ كلُّ الشَّأنِ بالقلوبِ[2]. قال الإمامُ أحمدُ: (إنَّ لي إخوانًا لا ألْقاهم إلاَّ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، أنا أوثقُ بمودَّتِهم ممَّن ألقَى كلَّ يومٍ)[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القِتالُ على الخَيلِ بالسِّلاحِ هو أعلى وأفضلُ مِن القِتالِ في الحُصونِ بالسِّلاحِ، فالحِصانُ خَيرٌ مِن الحُصونِ، ومَن لم يكُنْ قِتالُه إلَّا في الحُصونِ والجُدُرِ فهو مَذمومٌ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا عن عَجزٍ منهم لازمٍ لهم، دَفَعَه بقَولِه إعلامًا بأنَّه إنَّما هو مِن مُعجِزاتِ هذا الدِّينِ: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾، أي: إذا أداروا رأيًا، أو حاربَ بَعضُهم بعضًا -على قولٍ-؛ فجَرَّأَ المؤمِنينَ عليهم بأنَّ ما يَنظُرونَه مِن شِدَّتِهم وشَجاعتِهم إذا حارَبوا المُشرِكينَ، لا يُذكَرُ عندَ مُحاربَةِ المؤمِنينَ؛ كرامةً أكرَمَ اللهُ بها المؤمِنينَ، تتضَمَّنُ عَلَمًا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، تقويةً لإيمانِهم، وإعلاءً لشَأنِهم[(٢)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ذلك ونحنُ نراهم متَّفِقينَ؟

الجوابُ: أنَّ ظاهِرَ حالِهم حالُ اجتِماعٍ واتِّحادٍ، وهم في بواطِنِهم مُختَلِفونَ؛ فآراؤُهم غَيرُ مُتَّفِقةٍ، لا أُلْفةَ بيْنَهم؛ لأنَّ بيْنَهم إحَنًا وعَداواتٍ، فلا يَتعاضَدونَ، وهذا تقويةٌ للمؤمنينَ، وتَشجيعٌ لقُلوبِهم على قِتالِهم، والاستِخفافِ بجَماعتِهم[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ أنَّ اليهودَ ليسوا مجتَمِعينَ -وذلك على أنَّ الضَّميرَ يعودُ عليهم-؛ ولذلك هم أحزابٌ شتَّى، وحتَّى داخِلَ الحزبِ الواحدِ مُتفَرِّقونَ؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ أنْ يَجتَمِعوا وقد أَلْقَى اللهُ بيْنَهم العداوةَ والبَغضاءَ، لكنْ لاحِظْ أنَّ العَدُوَّينِ إذا كان لهما عدوٌّ ثالثٌ، اجتمَعا عليه لمقابلةِ العدوِّ الثَّالثِ؛ فاجتِماعُهم الآنَ ليس لأنَّهم مُتحابُّونَ مُتآلِفونَ أبدًا، ولا يمكِنُ

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

أنْ نُصَدِّقَ، واللهُ يقولُ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، لكِنَّهم اجتَمَعوا لِهَدَفٍ واحدٍ ومَصلَحةٍ واحِدةٍ ضِدَّ عَدُوٍّ واحدٍ للجَميعِ، وهذا الاجتِماعُ لا شَكَّ أنَّه اجتِماعٌ ظاهِريٌّ فقط، مَقصودٌ لغيرِه، وليس مَقصودًا لِذاتِه[١]، فقُلوبُهم ليست مُتوادَّةً مُتواليةً إلَّا ما دام الغَرَضُ الَّذي يَؤُمُّونَه مُشتَرَكًا بيْنَهم، ثمَّ يَتخَلَّى بَعضُهم عن بعضٍ، بخِلافِ المؤمِنِ؛ فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ، ويَنصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعَدَ الزَّمانُ[٢].

٥- العقلُ الصَّريحُ يُوجِبُ الاجتماعَ؛ فإنَّ الحَقَّ لا يَختلِفُ ولا يَتناقَضُ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ تَشَتُّتَ اليهودِ هو بسَبَبِ عَدَمِ العَقلِ، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، فالعَقلُ مدارُ الاجتماعِ، كما كان الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ الهوى مدارُ الاختِلافِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الشَّيطانَ يَخذُلُ الإنسانَ في المواطنِ التي يحتاجُ فيها إلى النَّصرِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٣).

- قولُه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۢ﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]؛ لأنَّ شِدَّةَ الرَّهبةِ مِن المسلمينَ تَشتمِلُ على شِدَّةِ التَّحصُّنِ لِقتالِهم إيَّاهم، أي: لا يَقدِرون على قِتالِكم إلَّا في هاتِه الأحوالِ(١).

- وهذا أيضًا كِنايةٌ عن مَصيرِهم إلى الهزيمةِ؛ إذ ما حُورِبَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلَّا ذَلُّوا، كما قال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه، وهذا إطْلاعٌ لهم على تَطمينٍ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، ودَخائلِ الأعداءِ(٢).

- قولُه: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾ استئنافٌ سِيقَ لبَيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مِن رَهبتِهم ليسَ لضَعْفِهم وجُبْنِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ بأْسَهُم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ -على قولٍ-، وإنَّما ضَعْفُهم وجُبْنُهم بالنِّسبةِ إليكم بما قذَفَ اللهُ تَعالَى في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ(٣). وقيل: هو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن أهلِ الكِتابِ وأنصارِهم بأنَّهم لا يُقاتِلون المسلِمينَ إلَّا في قُرًى مُحصَّنةٍ المُفيدَ أنَّهم لا يتَّفِقون على جَيشٍ واحدٍ مُتساندِين فيه؛ ممَّا يُثيرُ في نفْسِ السامعِ أنْ يَسأَلَ عن مُوجِبِ ذلك مع أنَّهم مُتَّفِقون على عَداوةِ المسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ بيْنهم بأسًا شديدًا وتَدابُرًا، فهمْ لا يَتَّفِقون(٤).

- وافتُتِحَ الكلامُ بكَلمةِ ﴿بَأۡسُهُم﴾؛ للاهتِمامِ بالإخبارِ عنه بأنَّه بيْنَهم، أي: مُتسلِّطٌ مِن بَعضِهم على بَعضٍ، وليس بأْسُهم على المسلمينَ، وفيه تَهكُّمٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٦).

- قولُه: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قيل: القلوبُ: العقولُ والأفكارُ، وإطلاقُ القلْبِ على العقلِ كَثيرٌ في اللُّغةِ؛ شُبِّهَت العقولُ المختلِفةُ مَقاصِدُها بالجماعاتِ المُتفرِّقينَ في جِهاتٍ في أنَّها لا تَتلاقى في مَكانٍ واحدٍ(١).

- وأُتيَ بلَفظِ القومِ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك مِن آثارِ ضَعْفِ عُقولِهم حتَّى صارَتْ عُقولُهم كالمَعدومةِ؛ فالمُرادُ: أنَّهم لا يَعقِلون المَعقِلَ الصَّحيحَ، وإسنادُ الحُكْمِ إلى عُنوانِ (قَوم) يُؤذِنُ بأنَّ ذلك الحُكمَ كالجِبِلَّةِ المُقوِّمةِ للقوميَّةِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، وفي الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]؛ ووَجْهُه: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: خَوفُهم منكم أشدُّ مِن خَوفِهم مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا، ولا يَعرِفون ما استتَرَ عنْهم منه، والفَقيهُ: مَن يَستدرِكُ مِن الكلامِ ظاهرَه الجَليَّ، وغامِضَه الخَفيَّ، بسُرعةِ فِطنتِه، وجَودةِ قَريحتِه، فلمَّا رَهِبوا النَّبيَّ ما لم يَرهَبوا اللهَ عزَّ ذِكرُه، صاروا كمَن يَعرِفُ ما يَشهَدُه، ويَجهَلُ ما يَغيبُ عنْه، ولو فَقِهوا لَعَلِموا أنَّ لِما ظَهَرَ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باطنًا، خَفِيَ عنهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ فلذلك وَصَفَهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وقال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشتُّتِ في الرَّأيِ، وصَرْفِ البأسِ إلى المُشارِكِ في المصلحةِ مِن الوهْنِ والْفَتِّ في ساعدِ الأُمَّةِ؛ مَعرِفةٌ مَشهورةٌ بيْن العُقلاءِ، فإهْمالُهم سُلوكَ ذلك جعَلَهم سواءً مع مَن لا عُقولَ لهم، فكانت هذه الحالةُ شِقْوةً لهم حصَلَت منها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٧).

سَعادةٌ للمسلمينَ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: مَثَلُهم[٢].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ حرْفُ (مِن) صِلةٌ؛ لتأْكيدِ ارتباطِ الظَّرفِ بعامِلِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ خَبرٌ ثانٍ للمُبتدأِ المُقدَّرِ مُبيِّنٌ لحالِهم، مُتضمِّنٌ لحالٍ أُخْرَى لليهودِ، وهي اغترارُهم بمُقابَلةِ المنافقينَ أوَّلًا وخَيبتُهم آخِرًا، وقد أُجْمِلَ في النَّظمِ الكريمِ، حيث أُسنِدَ كلٌّ مِن الخَبَرينِ إلى المقدَّرِ المضافِ إلى ضَميرِ الفَريقَينِ مِن غيرِ تَعيينِ ما أُسْنِدَ إليه بخُصوصِه؛ ثقةً بأنَّ السَّامعَ يَرُدُّ كلًّا مِن المَثَلَينِ إلى ما يُماثِلُه، كأنَّهُ قيلَ: مَثَلُ اليهودِ في حُلولِ العذابِ بهم كمَثَلِ الَّذينَ مِن قبْلِهم... إلخ، ومَثَلُ المنافِقينَ في إغرائِهم إيَّاهُم على القتالِ -حسَبَما نُقِلَ عنهُم- كمَثَلِ الشَّيطانِ...[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي الآيةِ إيجازُ حذْفٍ، حُذِفَ فيها مَعطوفاتٌ مُقدَّرةٌ بعْدَ شرْطِ (لَمَّا) هي داخلةٌ في الشَّرطِ؛ إذِ التَّقديرُ: فلمَّا كفَرَ واستَمرَّ على الكفْرِ، وجاء يومَ الحشْرِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٤-١٢٦٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).

واعتَذَرَ بأنَّ الشَّيطانَ أضَلَّه؛ قال الشَّيطانُ: إنِّي بَريءٌ منك... إلخ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَعليلٌ كاذِبٌ مِن الشَّيطانِ لبَراءتِه مِن مُتَّبِعِه؛ وإلَّا فهو لا يَخافُ اللهَ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن تَمامِ المَثَلِ، أي: كان عاقبةُ المُمثَّلِ بهما خُسرانَهما معًا، وكذلك تكونُ عاقبةُ الفريقَينِ المُمثَّلينِ أنَّهما خائبانِ فيما دبَّرَا وكادَا للمُسلمينَ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ، والإشارةُ بـ (ذلِك) إلى ما يدُلُّ عليه ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ مِن معْنى: فكانتْ عاقبتُهما سُوأى، والعاقبةُ السُّوأى جَزاءُ جَميعِ الظَّالِمينَ المُعتدينَ على اللهِ والمسلِمينَ، فكما كانتْ عاقبةُ الكافرِ وشَيطانِه عاقبةَ سُوءٍ، كذلك تكونُ عاقبةُ المُمثَّلَينِ بهما وقدِ اشتَرَكَا في ظُلمِ أهلِ الخَيرِ والهُدى[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ
١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿خَٰشِعٗا﴾: أي: مُتذَلِّلًا مُتواضِعًا، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[1].

﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾: أي: مُتَشَقِّقًا، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا نداءَه إلى المؤمنينَ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اتَّقُوا اللهَ، ولْيَنظُرْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه، واتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَ، ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه، فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، أولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ، أهلُ الجنَّةِ هم الفائِزونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى معظِّمًا لأمرِ القرآنِ، ومبيِّنًا عُلُوَّ قَدرِه: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرأيتَه خاضِعًا مُتذَلِّلًا مُتشَقِّقًا؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، وتلك الأمثالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفكَّرونَ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انْقَضى في هذه السُّورةِ وصْفُ المنافِقينَ واليهودِ، وَعَظَ المؤمنينَ بكلامٍ مُستأنَفٍ؛ لأنَّ الموعظةَ بعْدَ ذِكرِ المصيبةِ لها مَوقِعٌ في النَّفْسِ لرِقَّةِ القلوبِ، والحذَرِ ممَّا يُوجِبُ العذابَ[1].

وأيضًا هو انتِقالٌ مِن الامتنانِ على المسلِمينَ بما يسَّرَ اللهُ مِن فتْحِ قَريةِ بَني النَّضيرِ بدونِ قِتالٍ، وما أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منهم- إلى الأمرِ بتَقوى اللهِ؛ شُكرًا له على ما مَنَحَ وما وعَدَ مِن صادقِ الوعدِ؛ فإنَّ الشُّكرَ جَزاءُ العبدِ عن نِعمةِ ربِّه؛ إذ لا يَستطيعُ جَزاءً غيرَ ذلك، فأقبَلَ على خِطابِ الَّذين آمَنوا بالأمرِ بتَقوى اللهِ. ولَمَّا كان ما تَضمَّنَته السُّورةُ من تأْييدِ اللهِ إيَّاهم وفَيضِ نِعَمِه عليهم، كان مِن مَنافعِ الدُّنيا؛ أعْقَبَه بتَذكيرِهم بالإعدادِ للآخرةِ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، خافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه الدُّنيويَّ والأُخرويَّ، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾.

أي: ولْيتأمَّلْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه؛ فيَزدادَ مِنَ الحَسَناتِ، ويَتوبَ مِن السَّيِّئاتِ، ويَستَعِدَّ لِلقاءِ رَبِّه، ويُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أن يُحاسِبَه ربُّه(١)!

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: واجعَلوا بَيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ ظاهِرِها وباطِنِها، وسيُجازيكم عليها(٣).

ثُمَّ ضرَب لهم الأمثالَ تحذيرًا وإنذارًا، فقال(٤):

= (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

قال الرازي: (الغَدُ: يومُ القيامةِ، سمَّاه باليَومِ الَّذي يَلِي يَومَك؛ تقريبًا له). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١).

وقال البِقاعي: (﴿لِغَدٖ﴾ أي: لأجْلِ العَرضِ بعدَ الموتِ، أو في يومِ القيامةِ الَّذي هو في غايةِ القُربِ؛ لأنَّ هذه الدُّنيا كُلَّها يومٌ واحِدٌ يَجيءُ فيه ناسٌ ويذهَبُ آخَرونَ، والموتُ أو الآخرةُ غَدُه، لا بدَّ مِن كُلٍّ منهما، وكُلُّ ما لا بُدَّ منه فهو في غايةِ القُربِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٥٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه؛ فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، فلم يُقَدِّموا لها خَيرًا يَنفَعُها، أو أمرًا يُصلِحُها، فضَيَّعوها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨-٣٥٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٠، ١٠٣، ١٠٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٨١)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

قال ابن القيِّم: (نهى أن يَتشَبَّهَ عِبادُه المؤمنونَ بمَن نَسِيَه بتَرْكِ تَقْواه، وأخبَر أنَّه عاقَب مَن ترَك التَّقْوى بأنْ أنساه نفْسَه، أي: أنساه مصالِحَها، وما يُنجيها مِن عذابِه، وما يوجِبُ له الحياةَ الأبَديَّةَ، وكمالَ لَذَّتِها وسُرورِها ونعيمِها، فأنساه اللهُ ذلك كلَّه جزاءً لِما نَسِيَه مِن عَظَمتِه وخَوفِه، والقيامِ بأمْرِه). ((الجواب الكافي)) (ص: ٧٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال أيضًا: (هؤلاء نَسُوا نُفوسَهم لا مِن جميعِ الوُجوهِ، بل مِنَ الوَجهِ الَّذي به مَصالِحُها وكمالُها وسعادتُها، وإن لم يَنسَوها مِن الوَجهِ الَّذي منه شَهوتُها وحَظُّها وإرادتُها، فأنساهم مَصالِحَ نُفوسِهم أن يَفعَلوها ويَطلُبوها، وعُيوبَها ونقائِصَها أن يُزيلوها ويجتَنِبوها، وكمالَها الَّذي خُلِقَت له أن يَعرِفوه ويَطلُبوه؛ فهم جاهِلونَ بحقائِقِ أنفُسِهم من هذه الوُجوهِ، وإن كانوا عالِمينَ بها مِن وُجوهٍ أُخَرَ). ((الروح)) (ص: ٢١٢). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٥).

وقال ابن تيميَّة: (ونِسيانُهم أنفُسَهم يَتضَمَّنُ إعراضَهم وغفلتَهم، وعدَمَ مَعرفتِهم بما كانوا عارِفينَ به قبْلَ ذلك مِن حالِ أنفُسِهم، كما أنَّه يَقتضي تَرْكَهم لِمَصالِحِ أنفُسِهم؛ فهو يَقتضي أنَّهم لا يَذكُرون أنفُسَهم ذِكرًا يَنفَعُها ويُصلِحُها، وأنَّهم لو ذكَروا اللهَ لَذَكَروا أنفُسَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال ابن جُزَي: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني: الكُفَّارَ، والنِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى التَّرْكِ أو الغَفْلةِ، أي: نَسُوا حقَّ اللهِ، فأنساهم حُقوقَ أنفُسِهم والنَّظَرَ لها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢).

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: أولئك الَّذين نَسُوا اللهَ، فأنساهم أنفُسَهم: هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ إلى مَعصيتِه(١).

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرشَد المؤمنينَ إلى ما هو مَصلَحتُهم يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وهدَّد الكافِرين بقولِه: ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]؛ بيَّن الفَرقَ بيْنَ الفَريقَينِ(٢)، فقال:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

أي: لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ في الفَضلِ والرُّتبةِ والجَزاءِ عِندَ اللهِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

قال ابن عاشور: (فالفاسِقونَ هم الآتُونَ بفواحِشِ السَّيِّئاتِ ومَساوئِ الأعمالِ، وأعظَمُها الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١، ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال البقاعي: (﴿لَا يَسْتَوِي﴾ أي: بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الَّتي هي محلُّ الشَّقاءِ الأعظَمِ ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الَّتي هي دارُ النَّعيمِ الأكبَرِ؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦١).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: في الفضلِ والرُّتبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (لا يَستوي هؤلاء وهؤلاء في حُكمِ الله يومَ القيامةِ، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ۝ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ هم وَحْدَهم النَّاجُونَ مِن العَذابِ، الظَّافِرونَ بالثَّوابِ[١].

كما قال الله وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى لعِبادِه ما بَيَّنَ، وأمَرَهم ونهاهم في كتابِه العزيزِ؛ كان هذا مُوجِبًا لأنْ يُبادِروا إلى ما دعاهم إليه، وحَثَّهم عليه، ولو كانوا في القَسْوةِ وصَلابةِ القُلوبِ كالجِبالِ الرَّواسي؛ فإنَّ هذا القُرآنَ لو أنزَلَه على جَبَلٍ لرأَيْتَه خاشِعًا متَصَدِّعًا مِن خَشيةِ اللهِ[٢].

= [الجاثية: ٢١]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ الآيةَ [غافر: ٥٨]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، في آياتٍ أُخَرَ دالَّاتٍ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُكرِمُ الأبرارَ، ويُهينُ الفُجَّارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وأيضًا لَمَّا حذَّر المسلمينَ من الوُقوعِ في مَهْواةِ نِسيانِ اللهِ الَّتي وقَعَ فيها الفاسِقون، وتوعَّد الَّذين نَسُوا اللهَ بالنَّارِ، وبيَّن حالَهم بأنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم الكفْرَ، وكان القرآنُ دالًّا على مَسالكِ الخَيرِ، ومُحذِّرًا من مَسالكِ الشَّرِّ، وما وقَعَ الفاسِقون في الهَلَكةِ إلَّا مِن جَرَّاءِ إهمالِهم التَّدبُّرَ فيه، وذلك مِن نِسيانِهم اللهَ تَعالى؛ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ الَّذي لا يَصرِفُ النَّاسَ عنه إلَّا أهْواؤُهم ومُكابَرتُهم، وكان إعراضُهم عنه أصلَ استمرارِ ضَلالِهم وشِركِهم- ضرَبَ لهم هذا المثَلَ تعجيبًا من تَصلُّبِهم في الضَّلالِ(١).

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على أيِّ جَبَلٍ مِن الجِبالِ، فسَمِعَ كَلامَ اللهِ وفَهِمَه؛ لَرأيتَه في حالِ خُضوعٍ وذُلٍّ، وفي غايةِ التَّشَقُّقِ؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، رَغْمَ قَساوتِه وصلابتِه؛ وذلك لكمالِ تأثيرِ معاني القرآنِ العَظيمِ(٢).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨، ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ كثير: (فكيف يَليقُ بكم -أيُّها البَشَرُ- ألَّا تَلينَ قُلوبُكم وتَخشَعَ، وتتصَدَّعَ مِن خَشيةِ اللهِ، وقد فَهِمتُم عن اللهِ أمْرَه، وتدبَّرتُم كِتابَه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المَضروبةُ في القُرآنِ نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفكَّرونَ فيها، فيَعتَبِرونَ بها ويتَّعظونَ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه حَثٌّ على تقوى اللهِ[٢]، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ في مجيءِ ﴿قَدَّمَتْ﴾ بصِيغةِ الماضي حَثٌّ على الإسراعِ في العَملِ، وعدَمِ التَّأخيرِ؛ لأنَّه لم يَملِكْ إلَّا ما قدَّمَ في الماضي، والمُستقبَلُ ليس بيَدِه، ولا يَدري ما يكونُ فيه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[٣] [لقمان: ٣٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وُجوبُ محاسَبةِ النَّفْسِ[٤]. والآيةُ أصلٌ في محاسَبةِ العَبدِ نَفْسَه، وأنَّه يَنبغي له أن يتفَقَّدَها؛ فإنْ رأى زَلَلًا تدارَكَه بالإقلاعِ عنه، والتَّوبةِ النَّصوحِ، والإعراضِ عن الأسبابِ الموصِلةِ إليه، وإنْ رأى نَفْسَه مُقَصِّرًا في أمرٍ مِن أوامِرِ اللهِ، بَذَل جُهدَه واستعان برَبِّه في تكميلِه وتتميمِه وإتقانِه، ويقايِسُ بيْن مِنَنِ اللهِ عليه وإحسانِه، وبيْنَ تَقصيرِه؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ له الحَياءَ بلا مَحالةٍ.

والحِرمانُ كُلُّ الحِرمانِ أن يَغفُلَ العبدُ عن هذا الأمرِ، ويُشابِهَ قَومًا نَسُوا اللهَ، وغَفَلوا عن ذِكرِه والقيامِ بحَقِّه، وأقبَلوا على حُظوظِ أنفُسِهم وشَهَواتِها؛ فلم يَنجَحوا، ولم يَحصُلوا على طائِلٍ، بل أنساهم اللهُ مصالحَ أنفُسِهم، وأغفَلَهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٢)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٨٤).

منافِعِها وفوائِدِها، فصار أمرُهم فُرُطًا، فرَجَعوا بخَسارةِ الدَّارَينِ، وغُبِنوا غَبنًا لا يُمكِنُهم تَدارُكُه، ولا يُجبَرُ كَسرُه؛ لأنَّهم هم الفاسِقونَ الَّذين خرَجوا عن طاعةِ رَبِّهم، وأوضَعوا في معاصيه، فهل يَستوي مَن حافَظَ على تقوى اللهِ ونَظَر لِما قدَّم لغَدِه، فاستحَقَّ جَنَّاتِ النَّعيم والعَيشَ السَّليمَ مع الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، ومَن غفَل عن ذِكرِ اللهِ، ونَسِيَ حُقوقَه؛ فشَقِيَ في الدُّنيا، واستحَقَّ العذابَ في الآخِرةِ؛ فالأوَّلونَ هم الفائِزونَ، والآخِرونَ هم الخاسِرونَ[(١)]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ جعَلَ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ في القُربِ بمَنزِلةِ الغَدِ؛ تَهييجًا لِدَواعي العبادِ على الاستِعدادِ له، والعملِ مِن أجْلِه، كما قرَّب زمَنَ إهلاكِ القُرونِ الماضيةِ فقال: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس: ٢٤]؛ لِيَكونَ ذلك في جهةِ الاعتِبارِ والادِّكارِ كأنَّه بالنِّسبةِ إلى يَومِهم الحاضِرِ أمْسِهم الذَّاهِبُ؛ فإنَّه أبْلَغُ في المَوعِظةِ والتَّخويفِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ تنبيهٌ للنَّاسِ، وإيذانٌ لهم بأنَّهم لفَرْطِ غَفلتِهم وقِلَّةِ فِكرِهم في العاقِبةِ، وتَهالُكِهم على إيثارِ العاجِلةِ، واتِّباعِ الشَّهواتِ؛ كأنَّهم لا يَعرِفون الفرْقَ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ، والبَونَ العظيمَ بيْن أصحابِهما، وأنَّ الفوزَ مع أصحابِ الجنَّةِ، فمِن حقِّهم أنْ يُعلَموا ذلك، ويُنبَّهوا عليه[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ حثَّ على تأمُّلِ مَواعِظِ القُرآنِ، وبيَّنَ أنَّه لا عُذْرَ في ترْكِ التَّدَبُّرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨).

فإنَّه لو خُوطِبَ بهذا القُرآنِ الجِبالُ مع تركيبِ العَقلِ فيها، لَانقادت لِمَواعِظِه، ولَرأيتَها على صلابتِها ورزانتِها خاشِعةً متصَدِّعةً[1]! فالغرضُ توبيخُ الإنسانِ على قَسْوةِ قلْبِه، وقِلَّةِ خشوعِه عندَ تِلاوةِ القُرآنِ، وإعراضِه عن تَدبُّرِ آياتِه، والتَّفكُّرِ في عجائبِ ما صُرِّف فيه مِن الوعدِ والوعيدِ[2].

٦- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه الجِبالُ -وهي الحِجارةُ الصُّلبةُ- قد أخبَرَ عنها فاطِرُها وباريها أنَّه لو أنزَلَ عليها كلامَه لخَشَعت ولتصَدَّعَت من خَشيةِ اللهِ.

فيا عَجَبًا مِن مُضغةِ لَحمٍ أَقسى مِن هذه الجِبالِ! تَسمَعُ آياتِ اللهِ تُتلَى عليها، ويُذكَرُ الرَّبُّ تبارك وتعالى، فلا تَلينُ ولا تَخشَعُ ولا تُنيبُ؛ فليس بمُستَنكَرٍ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يُخالِفُ حِكمتَه: أن يَخلُقَ لها نارًا تُذيبُها؛ إذ لم تَلِنْ بكلامِه وذِكْرِه، وزواجِرِه ومَواعِظِه، فمَن لم يَلِنْ لله في هذه الدَّارِ قَلْبُه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذِبْه بحُبِّه والبكاءِ مِن خَشيتِه؛ فلْيَتمتَّعْ قليلًا؛ فإنَّ أمامَه المُليِّنَ الأعظَمَ، وسيُرَدُّ إلى عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، فيَرى ويَعلَمُ[3]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أنَّ مِن أسبابِ لِينِ القَلبِ قراءةَ القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ إذا قَرَأه الإنسانُ بتدَبُّرٍ وتَمعُّنٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ١٩).

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحَضُّ على تَدَبُّرِ القرآنِ وفِقْهِه وعَقْلِه، والتَّذَكُّرِ به والتَّفكُّرِ فيه[1]. قال الحسَنُ: (يا ابْنَ آدَمَ، إذا وَسْوَسَ لك الشَّيطانُ بخطيئةٍ أو حدَّثَت بها نفْسَك، فاذكُرْ عندَ ذلك ما حمَّلك اللهُ مِن كتابِه ممَّا لو حملَتْه الجبالُ الرَّواسي لَخَشَعَتْ وتصَدَّعتْ، أمَا سمِعتَه يقولُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فإنَّما ضرَب لك الأمثالَ لِتَتفكَّرَ فيها، وتَعتبِرَ بها، وتَزدَجِرَ عن معاصي الله عزَّ وجلَّ، وأنت يا ابْنَ آدَمَ أحقُّ أن تَخشَعَ لِذِكْرِ الله، وما حمَّلك مِن كتابِه، وآتاك مِن حِكمةٍ؛ لأنَّ عليك الحسابَ، ولك الجنَّةَ أو النَّارَ)[2].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّه يَضرِبُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُوضِّحُ لعبادِه في كتابِه الحلالَ والحرامَ؛ مِن أجْلِ أن يتفكَّروا في آياتِه ويَتدَبَّروها؛ فإنَّ التَّفَكُّرَ فيها يَفتَحُ للعَبدِ خزائِنَ العِلمِ، ويُبَيِّنُ له طرُقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ويَحُثُّه على مَكارِمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الشِّيَمِ، ويَزجُرُه عن مَساوي الأخلاقِ؛ فلا أنفَعَ للعَبدِ مِن التَّفَكُّرِ في القُرآنِ، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فيه سؤالٌ: (الغَدُ): اليَومُ الَّذي يَعقُبُ لَيلتَك، فكيف أُطلِقَ على يومِ القيامةِ؟

أجابوا عن ذلك مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا كان أمرُ القيامةِ كائِنًا لا مَحالةَ، عَبَّرَ عنه بالغَدِ، وهو اليومُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

الَّذي يَلِي يومَك، على سَبيلِ التَّقريبِ.

الوَجهُ الثَّاني: عبَّرَ عن الآخِرةِ بالغَدِ، كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ نهارانِ: يومٌ، وغَدٌ[(١)].

الوَجهُ الثَّالِثُ: يحتَمِلُ أن يريدَ بقولِه ﴿لِغَدِ﴾: ليَومِ الموتِ؛ لأنَّه لكُلِّ إنسانٍ كغَدِه[(٢)].

الوَجهُ الرَّابعُ: الغَدُ له معنيانِ: اليومُ الَّذي يَعقُبُ ليلتَك، ومُطلَقُ الزَّمانِ المُستَقبَلُ[(٣)]، فاللُّغةُ العربيَّةُ واسِعةٌ، تقولُ: غدًا لليَومِ الَّذي يَلي يومَك، وتقولُ غدًا لليَومِ الَّذي بعدَ يومِك بآلافِ السِّنينَ، فقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يعني بـ «غدٍ» يومَ القيامةِ، وبَيْنَك وبيْنَه مَسافاتٌ اللهُ أعلَمُ بها، كذلك الأمسُ؛ فإنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ واسعةٌ، قد يُرادُ بالأمسِ ما قَبْلَ يومِك المباشِرِ، وقد يُرادُ به ما قبْلَ يومِك بزَمَنٍ بعيدٍ[(٤)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ لِمَن أراد المُبالَغةَ في وَصْفِ شيءٍ أنْ يُبالِغَ فيه، ولا يكونُ كاذِبًا ولا آثمًا؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ جلالُه سمَّى الآخرةَ بـ «غدٍ» كما ترى، وبَيْنَ نزولِ الآيةِ وبيْنَها دهرٌ طويلٌ[(٥)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ أنَّ الاعتِرافَ بالخالقِ عِلمٌ ضَروريٌّ لازِمٌ للإنسانِ، لا يَغفُلُ عنه أحدٌ بحيثُ لا يَعرِفُه، بل لا بُدَّ أنْ يكونَ قد عَرَفَه وإنْ قُدِّرَ أنَّه نَسِيَه؛ ولهذا يُسمَّى التَّعريفُ بذلك تذكيرًا؛ فإنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٢).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

تذكيرٌ بعُلومٍ فِطريَّةٍ ضَروريَّةٍ قد يَنساها العَبدُ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الجزاءُ بالمعاصي على المعاصي، وكقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][(٢)]. فقولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا مِن المُجازاةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ؛ عُوقِبوا على نِسيانِ جِهةِ اللهِ تعالى، بأن أنساهم أنفُسَهم[(٣)]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ مَن عَرَفَ اللهَ عَرَفَ ما سِواه، ومَن جَهِلَ ربَّه فهو لِمَا سِواهُ أجهَلُ؛ فتأمَّلْ هذه الآيةَ تَجِدْ تَحتَها معنًى شَريفًا عَظيمًا، وهو أنَّ مَن نَسِيَ ربَّه أنساه ذاتَه ونفْسَه، فلم يَعرِفْ حقيقتَه ولا مَصالِحَه، بل نَسِيَ ما به صلاحُه وفَلاحُه في مَعاشِه ومَعادِه؛ فصار مُعَطَّلًا مُهمَلًا بمَنزِلةِ الأنعامِ السَّائمةِ، بل رُبَّما كانتِ الأنعامُ أَخْبَرَ بمَصالِحِها منه؛ لبَقائِها على هُداها التَّامِّ الَّذي أعطاها إيَّاه خالِقُها، وأمَّا هذا فخَرَجَ عن فِطرتِه الَّتي خُلِقَ عليها، فنَسِيَ ربَّه، فأنساه نفْسَه وصِفاتِها وما تَكمُلُ به، وتَزكو به، وتَسْعَدُ به في مَعاشِها ومَعادِها[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أنَّ مَن أضاعَ اللهَ -أي: أضاع دِينَ اللهِ-، فإنَّ اللهَ يُضَيِّعُه ولا يَحفَظُه[(٥)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أنَّ مِن عُقوبةِ المعصيةِ أنَّها تُنسي العبدَ نفْسَه، وإذا نَسِيَ نفْسَه

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٠٤).

أهمَلَها وأفسَدَها وأهلَكَها[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ دوامَ ذِكرِ الرَّبِّ تبارك وتعالى يُوجِبُ الأمانَ مِن نِسيانِه الَّذي هو سَبَبُ شَقاءِ العَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يَقتضي نَفْيَ مُطلَقِ المُساواةِ بيْنَ المُسلمِ والكافرِ، لا نفْيَ المُساواةِ المُطلَقةِ؛ فإنَّها مُنتَفيةٌ عن كلِّ شيئَينِ وإنْ تماثَلا، وبهذه الآيةِ احتجَّ مَن نفى القِصاصَ بيْنَ أهلِ الذِّمَّةِ وبيْنَ المسلِمينَ[٣]، ومَن قال: إنَّ المسلِمَ لا يُقتَلُ بالذِّمِّيِّ[٤].

١٠- نفْيُ التَّساوي في كتابِ الله تعالى قد يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بيْنَ الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بيْن الجَزاءَينِ، كقولِه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهلُ والعالِمُ، والظُّلماتُ والنُّورُ: الكفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمنونَ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ١٣٦) و(٣١/ ٣٤٢).

والكفَّارُ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يكونُ هذا تأثيرَ القُرآنِ لو أُنزِلَ على الجِبالِ، ولم تتأثَّرْ به القُلوبُ؟

الجوابُ: أجاب القُرآنُ عن ذلك في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: ٧٤]، وكذلك أَصَمُّوا آذانَهم عن سَماعِه، وغَلَّفوا قُلوبَهم بالكُفرِ عن فَهْمِه، وأَوْصَدوها بأقْفالِها، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الكهف: ٥٧]، أي: بسَبَبِ الإعراضِ، وعَدَمِ التَّدبُّرِ، والنِّسيانِ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ للجَبَلِ إحساسًا؛ لأنَّه يَخشَعُ ويتَصَدَّعُ، والأمرُ كذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أُحُدٍ: ((هذا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[٣].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ضَربُ الأمثالِ في القرآنِ يُستفادُ منه أمورٌ: التَّذكيرُ والوَعظُ، والحَثُّ والزَّجرُ، والاعتبارُ والتَّقريرُ، وتقريبُ المرادِ للعَقلِ، وتَصويرُه في صورةِ المحسوسِ، بحيثُ يكونُ نِسبَتُه للعَقلِ كنِسبةِ المحسوسِ إلى الحِسِّ. وقد تأتي أمثالُ القُرآنِ مُشتَمِلةً على

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٧٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٤٢٢)، ومسلمٌ (١٣٩٢) مِن حديثِ أبي حُمَيدٍ السَّاعديِّ رضيَ اللهُ عنه.

بيانِ تَفاوُتِ الأجرِ على المَدحِ والذَّمِّ، وعلى الثَّوابِ والعِقابِ، وعلى تفخيمِ الأمرِ أو تحقيرِه، وعلى تحقيقِ أمرٍ وإبطالِ أمرٍ. واللهُ أعلَمُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ تنكيرُ النَّفْسِ لاستِقلالِ -أي: لتَقليلِ- الأنفُسِ النَّواظِرِ فيما قدَّمْن للآخِرةِ، وتَنكيرُ (الغَدِ)؛ لتَعظيمِه وإبهامِ أمْرِه، كأنَّه قِيل: لغَدٍ لا يُعرَفُ كُنْهُه لِعِظَمِه، وأصلُ الكلامِ: يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وانْظُروا ما تُقدِّموا لأنفُسِكم ليَومِ القِيامةِ؛ فوُضِعَ مَوضِعَ الضَّميرِ ﴿نَفۡسٞ﴾ مَنكورةً؛ تقليلًا لها، وتَقريعًا على قِلَّةِ نَظَرِها في العاقِبةِ، وأُقِيمَ مُقامَ يومِ القيامةِ (غَد) مَنْكورًا؛ تَهويلًا، كأنَّه قِيل: فلْتَنظُرْ نفْسٌ واحدةٌ لذلك اليَومِ الهَولِ(٢).

وقيل: ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفۡسٞ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ: وانْظُروا ما قدَّمْتُم؛ فعُدِلَ عن الإظهارِ لقَصْدِ العمومِ، أي: لِتَنْظُروا وتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ. وتَنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ يُفيدُ العُمومَ في سِياقِ الأمرِ، أي: لِتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ، وإنَّما لم يُعرَّفْ بلامِ التَّعريفِ تَنصيصًا على العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نفْسٌ مَعهودةٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٩٦)، (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

- و(التَّقديمُ) مُعبَّرٌ به هنا عن العمَلِ الَّذي يُعمَلُ لتحصيلِ فائدتِه في زمَنٍ آتٍ؛ شُبِّهَ قصْدُ الانتِفاعِ به في المُستقبَلِ بتَقديمِ مَن يَحُلُّ في المَنزلِ قبْلَ وُرودِ السَّائرينَ إليه مِن جَيشٍ أو سَفَرٍ ليُهيِّئَ لهم ما يُصلِحُ أمْرَهم، ومنه مُقدِّمةُ الجَيشِ، وتَقديمُ الرَّائدِ قبْلَ القافلةِ(١).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إعادةُ وتَكرُّرُ الأمرِ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليُبْنى عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فيَحصُلَ الرَّبطُ بيْن التَّعليلِ والمُعلَّلِ؛ إذ وقَعَ بيْنَهما فصْلٌ بـ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وإنَّما أُعِيدَ بطَريقِ العطْفِ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ وذلك أنَّ في العطفِ إيهامَ أنْ يكونَ التَّوكيدُ يُجعَلُ كالتَّأسيسِ؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالمُؤكَّدِ. أو كُرِّرَ الأمرُ بالتَّقْوى لاختلافِ مُتعلَّقِ التَّقْوى؛ فالأُولى في أداءِ الفرائضِ؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالعمَلِ، والثَّانيةُ في ترْكِ المعاصي؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ أوَّلًا مُرادًا به التَّقوى بمعْنى الخَوفِ مِن اللهِ، وهي الباعثةُ على العملِ؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، ويكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ ثانيًا مُرادًا به الدَّوامُ على التَّقوى الأُولى، أي: ودُوموا على التَّقوى؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بمِقدارِ اجتِهادِكم في التَّقوى، وأُردِفَ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، أي: أهْمَلوا التَّقْوى بعْدَ أنْ تَقلَّدُوها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

وقيل: التَّقْوى الأُولى لإيجادِ صُوَرِ الأعمالِ، والثَّانيةُ لتَصفيتِها وتزكيةِ أرواحِها؛ ولذلك علَّل بقولِه مُرغِّبًا مُرَهِّبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[(١)].

وقيل: الأمرُ بتقوى اللهِ أوَّلًا بالنِّسبةِ لِما مضى وسبَقَ مِن عَمَلٍ تقدَّمَ بالفِعْلِ، ويكونُ النَّظَرُ بمعنى المحاسَبةِ والتَّأمُّلِ، فإذا ما نَظَر في الماضي وحاسَبَ نَفْسَه، وعَلِمَ ما كان مِن تقصيرٍ أو وُقوعٍ في محظورٍ، جاءه الأمرُ الثَّاني بتقوى اللهِ لِما يَستَقبِلُ مِن عَمَلٍ جديدٍ، ومُراقَبةِ اللهِ تعالى عليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فلا يكونُ هناك تَكرارٌ، ولا يكونُ توزيعٌ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للحثِّ على تَقْوى اللهِ، ومَوقعُ (إنَّ) فيها مَوقعُ التَّعليلِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، فتَكونُ الجُملةُ مُستقِلَّةً بدَلالتِها أتمَّ استقلالٍ، فتَجْري مَجْرى الأمثالِ، ولتَربيةِ المَهابةِ في نفْسِ المُخاطَبينَ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ جِيءَ في النَّهيِ بنَهْيِهم عن حالةِ قَومٍ تَحقَّقت فيهم هذه الصِّلةُ؛ ليَكونَ النَّهيُ عن إضاعةِ التَّقوى مُصَوَّرًا في صُورةٍ مَحسوسةٍ هي صُورةُ قَومٍ تَحقَّقت فيهم تلك الصِّلةُ، وهم الَّذين أعْرَضوا عن التَّقوى[(٥)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٨).
(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

- قولُه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ قيل: ظاهرُ الموصولِ أنَّه لطائفةٍ مَعهودةٍ، فيحتملُ أنْ يُرادَ بـ(الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) المنافِقون؛ لأنَّهم كانوا مُشرِكين ولم يَهتَدُوا للتَّوحيدِ بهُدى الإسلامِ، فعُبِّرَ عن النِّفاقِ بنِسيانِ اللهِ؛ لأنَّه جهْلٌ بصِفاتِ اللهِ مِن التَّوحيدِ والكمالِ، وعبَّرَ عنهم بالفاسِقِينَ قولُه تَعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فتَكونَ هذه الآيةُ ناظِرةً إلى تلك. ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهم اليهودَ؛ لأنَّهم أضاعوا دِينَهم، ولم يَقبَلوا رِسالةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالمعْنى: نَسُوا دِينَ اللهِ ومِيثاقَه الَّذي واثَقَهم به، وقد أُطلِقَ نِسيانُهم على التَّرْكِ والإعراضِ عن عمْدٍ، أي: فنَسُوا دَلائلَ تَوحيدِ اللهِ، ودَلائلَ صِفاتِه، ودَلائلَ صِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفَهْمِ كِتابِه، فالكلامُ بتَقديرِ حذْفِ مُضافٍ أو مُضافَينِ[١].

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: نَسُوه؛ لاستِفظاعِ هذا النِّسيانِ، فعُلِّقَ باسمِ اللهِ الَّذي خَلَقَهم وأرْشَدَهم[٢].

- وأشعَرَ فاءُ التَّسبُّبِ في ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأنَّ إنساءَ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم مُسبَّبٌ على نِسيانِهم اللهَ[٣].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا لبَيانِ الإبهامِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، كأنَّ السَّامعَ سأَلَ: ماذا كان إثرَ إنْساءِ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم؟ فأُجِيبَ بأنَّهم بَلَغوا بسَببِ ذلك مُنْتهى الفِسقِ في الأعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٣).

السَّيِّئةِ حتَّى حقَّ عليهم أنْ يُقالَ: إنَّه لا فِسقَ بعْدَ فِسقِهم[1].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[2]؛ للمُبالَغةِ في وصْفِهم بشِدَّةِ الفِسقِ، حتَّى كأنَّ فِسقَ غيرِهم ليس بفِسقٍ في جانبِ فِسقِهم[3].

- وأيضًا يُستفادُ عِظَمُ الفِسقِ مِن تَعريفِ الخَبرِ بلامِ الجِنسِ، أي: همُ الكامِلون في الفِسقِ[4].

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّشهيرِ بهم بهذا الوصْفِ[5].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ تَذْييلٌ لجُملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ [الحشر: ١٨] إلخ؛ لأنَّه جامعٌ لخُلاصةِ عاقبةِ الحالَينِ: حالِ التَّقْوى والاستِعدادِ للآخِرةِ، وحالِ نِسيانِ ذلك وإهمالِه، ولِكلَا الفَريقينِ عاقِبةُ عَمَلِه، ويَشملُ الفَريقينِ وأمثالَهم، والجُملةُ أيضًا فَذْلَكةٌ[6] لِما قبْلَها مِن حالِ المُتَّقينَ والَّذين نَسُوا اللهَ ونَسُوا أنفُسَهم؛ لأنَّ ذِكرَ مِثلِ هذا الكلامِ بعْدَ ذِكرِ أحوالِ المُتحدَّثِ عنه يكونُ في الغالبِ للتَّعريضِ؛ فمعْنى الآيةِ كِنايةٌ عن كَونِ المؤمنينَ هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).
(٦) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

أصحابَ الجنَّةِ، وكَونِ الَّذين نَسُوا اللهَ هم أهلَ النارِ، فتَضمَّنَت الآيةُ وعْدًا للمُتَّقينَ، ووَعيدًا للفاسِقين(١).

- وتَقديمُ أصحابِ النَّارِ في الذِّكرِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ المقصورَ الَّذي يُنبِئُ عنه عدَمُ الاستِواءِ مِن جِهتِهم لا مِن جهةِ مُقابِليهم؛ فإنَّ مَفهومَ عدَمِ الاستواءِ بيْن الشَّيئينِ المُتفاوِتَينِ زيادةً ونُقصانًا، وإنْ جازَ اعتِبارُه بحسَبِ زيادةِ الزَّائدِ، لكنِ المُتبادِرُ اعتبارُه بحسَبِ نُقصانِ النَّاقصِ(٢)، وبيانُ ذلك أنَّ الفَرْقَ بيْن المتفاوتَينَ في الزِّيادةِ والنَّقصِ يمكنُ اعتبارُ التَّفاوُتِ بالنِّسبةِ إلى النَّقصِ في النَّاقصِ، ويمكن اعتبارُه بالنِّسبةِ إلى الزِّيادة في الزَّائدِ؛ فقدَّمَ الجانبَ النَّاقصَ ليُبيِّنَ أنَّ التَّفاوُتَ الَّذي حصَل بيْنَهما إنَّما هو بسَببِ النَّقصِ الَّذي جاء منهما، لا بسببِ الزِّيادةِ في الفريقِ الثَّاني، والنَّتيجةُ في ذلك عدمُ إمكانِ جانبِ النَّقصِ الاحتِجاجَ على جانبِ الزِّيادةِ. وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النَّقصِ(٣).

- وقيل: إنَّ الملوكَ إذا أرادُوا الجمْعَ بيْنَ الأشياءِ بالذِّكرِ قدَّموا الأدْنَى، والتَّقديمُ في الذِّكْرِ لا يَقتضي تشريفًا(٤).

- والمُرادُ مِن نفْيِ الاستِواءِ في مِثلِ هذا الكنايةُ عن البَونِ بيْن الشَّيئينِ(٥).

- قولُه: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ استِئنافٌ مُبَيِّنٌ لكَيفيَّةِ عدَمِ الاستِواءِ بيْنَ الفَريقَينِ، أي: هُمُ الفائزونَ بكلِّ مَطلوبٍ، النَّاجون مِن كلِّ مَكروهٍ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

- والقصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه تَعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ(١)؛ لأنَّ فَوزَهم أبديٌّ، فاعتُبِرَ فَوزُ غَيرِهم ببَعضِ أُمورِ الدُّنيا كالعدَمِ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ، وفي هذا الانتِقالِ إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ؛ لأنَّه انتِقالٌ بعْدَ طُولِ الكلامِ في غرَضِ فتْحِ قُرى اليهودِ وما يَنالُ المنافِقين مِن جَرَّائِه مِن خُسرانٍ في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

- فائدةُ الإتيانِ باسمِ إشارةِ القريبِ (هذا) في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ التَّعريضُ لهم بأنَّ القُرآنَ غيرُ بَعيدٍ عنْهم، وأنَّه في مُتناوَلِهم، ولا كُلْفةَ عليهم في تَدبُّرِه، ولكنَّهم قَصَدوا الإعراضَ عنه(٤).

- والخِطابُ في ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن يَسمَعُ هذا الكلامَ، والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ، وهي مَنْفيَّةٌ لوُقوعِها جَوابًا لحرْفِ (لو) الامتناعيَّةِ، والمعْنى: لو كان كذلك لَرَأيتَ الجَبَلَ في حالةِ الخُشوعِ والتَّصدُّعِ(٥).

- وجُملةُ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها سِيقَ مَساقَ المَثَلِ، فذُيِّلَ بأنَّ الأمثالَ الَّتي يَضرِبُها اللهُ في كَلامِه -مِثلَ هذا المثَلِ- أراد

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٧).

منها أنْ يَتفكَّروا، فإنْ لم يَتفكَّروا بها فقد سُجِّلَ عليهم عِنادُهم ومُكابرتُهم؛ فالإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى مَجموعِ ما مرَّ على أسْماعِهم مِن الأمثالِ الكثيرةِ، وتَقديرُ الكلامِ: ضَرَبْنا هذا مَثَلًا، وتلك الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧).

الآيات (٢٢-٢٤)

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾
هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ
ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: أي: الطَّاهِرُ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[(١)].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي: الَّذي سَلِمَ مِن كلِّ عَيبٍ، وبَرِئ مِن كلِّ آفةٍ ونَقْصٍ يَلْحَقُ المَخْلوقينَ، وأصلُ (سلم): الصِّحَّةُ والعافيةُ[(٢)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠).

قال ابن القيِّم: (أمَّا السَّلامُ الَّذي هو اسمٌ مِن أسماءِ الله، ففيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه... اسمُ مصدرٍ، وإطلاقُه عليه كإطلاقِ العدلِ عليه، والمعنى أنَّه ذو السَّلام وذو العدل، على حذفِ المُضاف. والثَّاني: أنَّ المصدرَ بمعنى الفاعلِ هنا، أي: السَّالم، كما سُمِّيَتْ لَيلةُ القَدْرِ سَلامًا، أي: سالِمةً مِن كلِّ شرٍّ، بل هي خَيرٌ لا شرَّ فيها. وأحسَنُ مِن القَولَينِ وأَقْيَسُ في العربيَّة أن يكونَ نفْسُ السَّلامِ مِن أسمائِه تعالى، كالعدلِ، وهو مِن بابِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعلِ لِكَونه غالبًا عليه، مُكرَّرًا منه، كقولِهم: رجُلٌ صَومٌ وعدلٌ وزَورٌ، وبابه، وأمَّا السَّلامُ الَّذي هو بمعنى السَّلامة فهو مصدرٌ نفْسُه، وهو مِثلُ الجَلالِ والجَلالةِ، فإذا حذَفْتَ التَّاءَ كان المرادُ نفْسَ المصدرِ، وإذا أتَيْتَ بالتَّاءِ كان فيه إيذانٌ بالتَّحديدِ بالمرَّةِ مِن المَصدرِ، كالحبِّ والحبَّةِ، فالسَّلامُ والجَمالُ والجَلالُ كالجِنسِ العامِّ مِن حيثُ لم يكُنْ فيه تاءُ التَّحديدِ، والسَّلامةُ والجَلالةُ والمَلاحةُ والفَصاحةُ =

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: أي: الَّذي يُؤمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه، فيَأْمَنون، أو الَّذي آمَنَ الخَلْقَ مِن ظُلمِه، مِن الأمانِ، أو المُصَدِّقُ لِرُسُلِه وأنبيائِه بما جاؤوا به، بالآياتِ والبَراهينِ والحُجَجِ، أو هو الَّذي يَصدُقُ ما وَعَدَ عِبادَه مِنَ الثَّوابِ، أو الَّذي يُصدقُ ظُنونَ عِبادِه المؤمنينَ، ولا يُخَيِّبُ آمالَهم، على أنَّ المؤمنَ: المُصَدِّقُ، مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ(١).

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أي: القائمُ على خَلقِه بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، وكلُّ مُشرِفٍ على كُنهِ الأمرِ مُستَوْلٍ عليه حافِظٍ له فهو مُهَيمِنٌ عليه، وأصلُ الهيمَنةِ: الحِفظُ والارتِقابُ، يُقالُ إذا رقَبَ الرَّجُلُ الشَّيءَ وحَفِظَه وشَهِدَه: قد هَيمَنَ فُلانٌ عليه. وقيل: المُهَيمِنُ: الشَّاهِدُ على خَلْقِه بما يكونُ منهم

= كلُّها تدُلُّ على الخَصلةِ الواحدةِ، ألَا ترى أنَّ المَلاحةَ خَصلةٌ مِن خِصالِ الكمالِ، والجَلالةَ مِن خِصالِ الجَلالِ؛ ولهذا لم يَقولوا: كمالة، كما قالوا: ملاحة، وفصاحة؛ لأنَّ الكمالَ اسمٌ جامعٌ لِصِفاتِ الشَّرفِ والفضلِ، فلو قالوا: كمالة، لَنَقَضوا الغرضَ المقصودَ مِن اسمِ الكمالِ، فتأمَّلْه... فتأمَّلِ الآنَ كيف جاء السَّلامُ مجرَّدًا عن التَّاءِ؛ إيذانًا بحُصولِ المسمَّى التَّامِّ؛ إذ لا يَحصُلُ المقصودُ إلَّا به؛ فإنَّه لو سَلِم مِن آفةٍ ووقَع في آفةٍ لم يكُنْ قد حصَل له السَّلامُ، فوضَح أنَّ السَّلامَ لم يخرُجْ عن المَصدريَّةِ في جميعِ وُجوهِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٣٨).

وقال أيضًا: (لَمَّا كان السَّلامُ اسمًا مِن أسماءِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، وهو اسمُ مصدر في الأصلِ -كالكلامِ والعَطاءِ- بمعنَى السَّلامةِ؛ كان الرَّبُّ تعالى أحقَّ به مِن كلِّ ما سِواه؛ لأنَّه السَّالمُ مِن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقْصٍ وذمٍّ؛ فإنَّ له الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ، وكمالُه مِن لَوازمِ ذاتِه، فلا يكونُ إلَّا كذلك، والسَّلامُ يَتضمَّنُ سلامةَ أفعالِه مِن العبَثِ والظُّلْمِ وخِلافِ الحِكمةِ، وسلامةَ صِفاتِه مِن مُشابَهةِ صِفاتِ المخلوقينَ، وسلامةَ ذاتِه مِن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ، وسلامةَ أسمائِه مِن كلِّ ذَمٍّ؛ فاسمُ السَّلامِ يَتضمَّنُ إثباتَ جميعِ الكمالاتِ له، وسَلْبَ جميعِ النَّقائصِ عنه). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٢١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

مِن قولٍ أو فعلٍ. وقيلَ: المُهَيمِنُ: الأمينُ[١].

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦) و(٢٢/ ٥٥٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٩٥)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابي: (والعزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (١/ ٤٧).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوك فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ =

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾: الجَبَّارُ بمعنى العَليِّ الأعلى، مِن قَولِهم: تَجَبَّرَ النَّباتُ: إذا عَلا، ويُقالُ للنَّخلةِ إذا طالَتْ وارتفعتْ وفاتَتِ الأيديَ: جَبَّارةٌ. وبمعنَى القَهَّارِ، الَّذي جَبَرَ الخَلْقَ على ما أراد، ودانَ له كلُّ شَيءٍ وخضَعَ، يُقالُ: أجبَرْتُه على كذا وجبَرْتُه؛ إذا أكرَهْتَه وقهَرْتَه عليه. وبمعنى الرَّؤوفِ، الَّذي يَجبُرُ الضَّعيفَ بالغِنى والقوَّةِ، ويجبُرُ الكَسيرَ بالسَّلامةِ، ويجبُرُ المُنكَسِرةَ قُلوبُهم، يُقالُ: جَبَرتُ عَظْمَه مِن كَسرٍ، وهذا مِن الإصلاحِ، وقيل: أصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضَربٍ مِن القَهرِ. والجبَّارُ: ذو الكبرياءِ والعَظَمةِ، يُقالُ: قَومٌ فيهم جَبريَّةٌ، أي: عَظَمةٌ وكِبرٌ، والجبَّارُ: الملِكُ، يُسمَّى بذلك؛ لِتَجَبُّرِه، وأصلُ (جبر): جِنْسٌ مِن العَظَمةِ والعُلوِّ والاستِقامةِ[(١)].

= عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالِبِ القاهِرِ، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عزَّةُ القوَّةِ، وعزَّةُ الامتِناعِ، وعزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩) و(٦/ ١٧٥).

قال ابن القيِّم: (الجبَّارُ في صفةِ الرَّبِّ سُبحانَه تَرجِعُ إلى ثلاثةِ مَعانٍ: الملْكُ، والقهرُ، والعُلُوُّ). ((شفاء العليل)) (ص: ١٢٠).

وقال السعدي بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ الجبَّارَ بمعنى العَليِّ الأعلى، وبمعنى القهَّارِ، وبمعنى الرَّؤوفِ: (وقد يُرادُ به معنًى رابعٌ، وهو المُتكبِّرُ عن كلِّ سوءٍ ونَقصٍ، وعن مُماثَلةِ أحَدٍ، وعن أن يكونَ =

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾: أي: الخالقُ المُنشِئُ مِنَ العَدَمِ، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على الخَلقِ[١].

﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾: المُوجِدُ لصُورِ الأشياءِ ومُرَكِّبُها على هَيئاتٍ مُختَلِفةٍ، والتَّصويرُ: التَّخطيطُ والتَّشكيلُ، وهو مُرتَّبٌ على الخَلقِ والبَرْأِ وتابعٌ لهما[٢].

﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: الحُسنى: تأنيثُ الأحسَنِ، كالكُبرى تأنيثُ الأكبَرِ، وهو صيغةُ تفضيلٍ، فالحُسنى أي: الَّتي هي أحسَنُ مِن غَيرِها؛ فهي أحسَنُ الأسماءِ لِدَلالتِها على أحسَنِ مُسَمًّى، وأشرَفِ مَدلولٍ. وقيل: هي مَصدرٌ وُصِفَ به، وحُسنُ أسماءِ اللهِ هي أنَّها صِفةُ مَدحٍ وتعظيمٍ وتحميدٍ[٣].

= له كُفؤٌ أو ضِدٌّ أو سَمِيٌّ أو شَريكٌ في خصائصِه وحقوقِه). ((تفسير أسماء الله الحسنى)) (ص: ١٧٦).

وقال ابن عثيمين: (ومِن أسمائه تعالى «الجَبَّارُ»، وله ثلاثةُ مَعانٍ: جَبرُ القوَّةِ، وجبرُ الرَّحمةِ، وجبرُ العُلوِّ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ٣٥١).

قال الشنقيطي: (وإنَّما وصَف أسماءَه جلَّ وعلا بلَفظِ المؤنَّثِ المُفرَدِ؛ لأنَّ جمْعَ التَّكسيرِ مُطلَقًا وجمْعَ المؤنَّثِ السَّالِمَ يَجريانِ مَجرَى المؤنَّثةِ الواحدةِ المَجازيَّةِ التَّأنيثِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧).

وقال الواحدي: (لأنَّها مؤنَّثةٌ، والجماعةُ توصَفُ بصِفةِ المؤنَّثِ الواحِدِ، كقولِه: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠]، و﴿مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، كأنَّها اسمٌ واحدٌ للجميعِ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٦١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُثنيًا على ذاتِه، ومبيِّنًا بعضَ أسمائِه الحسنَى: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ، هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ، المتَّصِفُ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، واهِبُ الأمنِ، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ، والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرينَ ما أَوْعَدَهم من العِقابِ، الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، المُتَّصِفُ بالعِزَّة التَّامَّةِ: الَّذي قد عَظُمَ قَدْرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، العَظيمُ القاهِرُ الَّذي قهَرَ جميعَ العِبادِ، المُصْلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم، المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ!

هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، المُتفَرِّدُ بتَقديرِ جَميعِ المخلوقاتِ وإنشائِها على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ، الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ، والَّذي يُصَوِّرُ كُلَّ مَخلوقٍ في أيِّ صُورةٍ شاءَها سُبحانَه، له وَحْدَه الأسماءُ الحُسنى، يُنَزِّهُه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَكرَّرَ في هذه السُّورةِ ذِكرُ اسمِ اللهِ وضَمائِرِه وصِفاتِه أرْبعينَ مرَّةً، منها

أربعٌ وعِشرون بذِكرِ اسمِ الجلالةِ، وسِتَّ عَشْرة مرَّةً بذِكرِ ضَميره الظَّاهر، أو صِفاتِه العَليَّة، وكان ما تَضمَّنَتْه السُّورةُ دَلائلَ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ تَصرُّفه وحِكمتِه، وكان ممَّا حَوَتْه السُّورةُ الاعتبارُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ؛ إذ أيَّدَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ ونَصَرَهم على بَني النَّضيرِ ذلك النَّصرَ الخارقَ للعادةِ، وذُكِرَ ما حلَّ بالمنافِقين أنْصارِهم، وأنَّ ذلك لأنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وقُوبِلَ ذلك بالثَّناءِ على المؤمنينَ باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين نَصَروا الدِّينَ، ثمَّ الأمرُ بطاعةِ اللهِ والاستِعدادِ ليَومِ الجزاءِ، والتَّحذيرُ مِن الَّذين أعْرَضوا عن كِتابِ اللهِ ومِن سُوءِ عاقِبتِهم، وخُتِمَ ذلك بالتَّذكيرِ بالقرآنِ الدَّالِّ على الخَيرِ، والمُعرِّفِ بعَظَمةِ اللهِ المُقتضيةِ شِدَّةَ خَشيتِه- عُقِّبَ ذلك بذِكرِ طائفةٍ مِن عَظيمِ صِفاتِ اللهِ ذاتِ الآثارِ العديدةِ في تَصرُّفاتِه المُناسبةِ لغَرَضِ السُّورةِ؛ زيادةً في تَعريفِ المؤمنينَ بعَظَمتِه المُقتَضيةِ للمَزيدِ مِن خَشيتِه، وبالصِّفاتِ الحُسنى المُوجِبةِ لمَحبَّتِه، وزيادةً في إرهابِ المُعانِدين المُعرِضين مِن صِفاتِ بَطْشِه وجَبروتِه؛ ولذلك ذُكِرَ في هذه الآياتِ الخواتِمِ للسُّورةِ مِن صِفاتِه تَعالى ما هو مُختلِفُ التَّعلُّقِ والآثارِ للفريقَينِ حَظُّ ما يَليقُ به منها، وفي غُضونِ ذلك كلِّه دَلائلُ على بُطلانِ إشراكِهم به أصْنامَهم[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى القُرآنَ بالعِظَمِ، ومَعلومٌ أنَّ عِظَمَ الصِّفةِ تابعٌ لعِظَمِ الموصوفِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ عَظَمةِ اللهِ، فقال تعالى[2]:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، وكلُّ ما عُبِدَ مِن دُونه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

فهو باطِلٌ[(١)].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾.

أي: العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، سواءٌ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، أو ما يُشاهِدونَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: اللهُ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ العظيمةِ الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ. الموصِلُ رحمتَه إلى مَن يَشاءُ مِن عبادِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال ابن جرير: (الَّذي يَتصَدَّعُ مِن خَشيتِه الجَبَلُ -أيُّها النَّاسُ- هو المعبودُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ والأُلوهةُ إلَّا له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٨)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

ممَّن اختار أنَّ الرَّحمنَ اسمٌ دلَّ على اتِّصافِه بالرَّحمةِ، والرَّحيمَ اسمٌ دلَّ على وُقوعِ الفِعلِ منه، وهو إيصالُ رحمتِه إلى خَلقِه: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٣، ٢٤)، ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٦، ٤٦٧).

قال ابن القيِّم: (قال السُّهَيلي: «... وفائدةُ الجَمعِ بيْنَ الصِّفَتينِ الرَّحمنِ والرَّحيم: الإنباءُ عن رحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ». قلتُ:... وأمَّا الجمعُ بيْنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ففيه معنًى هو أحسَنُ مِن المعنيَينِ اللَّذَينِ ذكرَهما، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائمةِ به سُبحانَه، =

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((جَعَل اللهُ الرَّحمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عِندَه تِسعةً وتِسعينَ، وأنزَلَ في الأرضِ جُزءًا واحِدًا، فمِن ذلك الجزءِ تَتراحَمُ الخلائِقُ، حتَّى تَرفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عن وَلَدِها؛ خَشْيةَ أن تُصيبَه))(١).

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾.

= والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحومِ؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ، فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه، وإذا أرَدْتَ فَهْمَ هذا فتأمَّلْ قَولَه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يَجِيءْ قَطُّ رَحمنٌ بهم؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّحمنَ هو المَوصوفُ بالرَّحمةِ، ورَحيمٌ هو الرَّاحِمُ برحمتِه، وهذه نُكتةٌ لا تكادُ تَجِدُها في كتابٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٣، ٢٤). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ، و﴿الرَّحِيمُ﴾ الموصِلُ رحمتَه مَن شاء مِن خَلْقِه؛ فالفَرقُ بيْنَ الرَّحمنِ والرَّحيمِ أنَّ الأوَّلَ باعتِبارِ كَونِ الرَّحمةِ وَصْفًا له، والثَّانيَ باعتِبارِها فِعلًا له يُوصِلُها لِمَن شاء مِن خَلْقِه). ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) (ص: ٢٩).

وقال الخَطَّابي: (الرَّحمنُ: ذو الرَّحمةِ الشَّامِلةِ الَّتي وَسِعَتِ الخَلْقَ في أرزاقِهم وأسبابِ مَعاشِهم ومَصالِحِهم، وعَمَّتِ المؤمنَ والكافِرَ، والصَّالِحَ والطَّالِحَ، وأمَّا الرَّحيمُ فخاصٌّ للمؤمِنينَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٣٨).

وقال ابن جرير: (هو رحمنُ الدُّنيا والآخرةِ، رحيمٌ بأهلِ الإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٠٠)، ومسلمٌ (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المالِكُ لجَميعِ الأشياءِ، الكامِلُ التَّصرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ(٢).

كما قال اللهُ تبارك وتعالى حاكيًا قولَ الملائِكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ مِنَ الوِتْرِ قال: ((سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثَ مرَّاتٍ)). وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٣٠)، والنسائي (١٦٩٩)، وأحمد (٢١١٨٠)، وابن حبان (٢٤٥٠). =

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا سلَّم -أي: مِن الوِتْرِ-: ((سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثًا، ويَرفَعُ صَوتَه بالثَّالِثةِ))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائِكةِ والرُّوحِ))(٢).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه(٣).

= صَحَّحه ابنُ القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(١) أخرجه النسائي (١٧٣٢)، وأحمد (١٥٣٦١) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٧٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٣٢).

وذكر محمد بنُ عبدِ الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (١/ ٥١٥) أنَّه رُويَ بطُرقٍ كثيرةٍ، وقد أرسله بعضُهم.

(٢) رواه مسلم (٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣١)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

قال القرطبي: (﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السَّلامةِ مِن النَّقائِصِ. وقال ابنُ العربي: اتَّفَق العُلَماءُ -رحمةُ الله عليهم- على أنَّ معنى قولِنا في اللهِ: السَّلامُ: النِّسبةُ، تقديرُه: ذو السَّلامةِ. ثمَّ اختلَفوا في ترجمةِ النِّسبةِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: معناه: الَّذي سَلِمَ مِن كُلِّ عَيبٍ، وبَرِئَ مِن كُلِّ نَقصٍ. الثَّاني: معناه: ذو السَّلامِ، أي: المُسَلِّمُ على عبادِه في الجنَّةِ، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصَرَفَ مِن صَلاتِه استَغفَرَ ثَلاثًا، وقال: اللَّهمَّ أنت السَّلامُ، ومنك السَّلامُ، تبارَكْتَ ذا الجَلالِ والإكرامِ))[1].

﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُ ﴾.

أي: واهِبُ الأمنِ، فلا يأمَنُ إلَّا مَن آمَنه اللهُ تعالى، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ،

= ٥٨]. الثَّالثُ: أنَّ معناه: الَّذي سَلِمَ الخَلقُ مِن ظُلمِه. قلتُ: وهذا قَولُ الخَطَّابيِّ، وعليه والَّذي قَبْلَه يكونُ صِفةَ فِعلٍ. وعلى أنَّه البَريءُ مِن العيوبِ والنَّقائِصِ يكونُ صِفةَ ذاتٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦). ويُنظر: ((الأمد الأقصى)) لابن العربي (١/ ٣٤٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٤١).

وقال السعدي: («القُدُّوسُ، السَّلامُ» أي: المُعَظَّمُ المُنَزَّهُ عن صِفاتِ النَّقصِ كلِّها، وأن يُماثِلَه أحدٌ مِن الخَلقِ، فهو المُتنَزِّهُ عن جميعِ العُيوبِ، والمُتَنزِّهُ عن أن يُقارِبَه أو يُماثِلَه أحدٌ في شَيءٍ مِن الكمالِ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، فالقُدُّوسُ كالسَّلامِ، يَنفيانِ كلَّ نقصٍ مِن جميعِ الوُجوهِ، ويَتَضمَّنانِ الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ؛ لأنَّ النَّقصَ إذا انتفى ثبَت الكمالُ كلُّه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٦).

وقال الهرَّاس: (القُدُّوسُ والسَّلامُ، ومعناهما مُتقارِبانِ؛ فانَّ القُدُّوسَ مأخوذٌ من قدَّس، بمعنى: نزَّهه وأبْعَدَه عن السُّوءِ، مع الإجلالِ والتَّعظيم. والسَّلامَ مأخوذٌ مِن السَّلامةِ، فهو سُبحانَه السَّالمُ مِن مُماثَلةِ أحدٍ مِن خَلْقِه، ومِن النُّقصانِ، ومِن كلِّ ما يُنافي كمالَه). ((شرح القصيدة النونية)) (٢/ ١٠٧).

(١) رواه مسلم (٥٩١).

والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرين ما أوعَدَهم مِن العِقابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١).

قال الزَّجَّاجي: (المؤمنُ في صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الأمانِ، أي: يُؤْمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه فيَأْمَنون ذلك، كما تقولُ: آمنَ فُلانٌ فلانًا، أي: أعطاه أمانًا لِيَسكُنَ إليه ويَأمَنَ، فكذلك أيضًا يُقالُ: اللهُ المؤمِنُ، أي: يؤمِنُ عِبادَه المؤمنينَ، فلا يَأمَنُ إلَّا مَن آمنَه... والوجهُ الآخَرُ: أن يكونَ المؤمِنُ مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ، فيَكونَ ذلك على ضَربَينِ؛ أحدُهما: أن يُقالَ: «اللهُ المؤمِنُ» أي: مُصدِّقٌ عِبادَه المؤمنينَ، أي: يصدقُهم على إيمانِهم، فيكونُ تصديقُه إيَّاهم قَبولَ صِدقِهم وإيمانِهم، وإثابتَهم عليه. والآخَرُ: أن يكونَ «اللهُ المؤمِنُ» أي: مُصدقٌ ما وعَدَه عبادَه، كما يقالُ: صدَق فُلانٌ في قولِه وصدَّق، إذا كرَّر وبالَغَ، يكونُ بمَنزِلةِ ضرَب وضرَّب؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ مُصدِّقٌ ما وعد به عِبادَه ومُحَقِّقُه. فهذه ثلاثةُ أوجُهٍ في المؤمنِ، سائغٌ إضافتُها إلى الله.

ولا يُصرفُ فِعلُ هذه الصِّفةِ مِن صِفاتِه عزَّ وجلَّ، فلا يُقالُ: آمَنَ اللهُ، كما يُقالُ: تقدَّسَ اللهُ، وتَبارَكَ اللهُ، ولا يُقالُ: اللهُ يؤمِنُ، كما يُقالُ: اللهُ يَحلُمُ ويَغفِرُ، ولم يُستعمَلْ ذلك). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٢١-٢٢٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿الْمُؤْمِنُ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مِنَ الأمْنِ؛ الَّذي أمَّن عِبادَه، والآخَرُ: أنَّه مِن الإيمانِ، أي: المُصَدِّقُ لعِبادِه في إيمانِهم، أو في شَهادتِهم على النَّاسِ يومَ القيامةِ، أو المصدِّقُ نفْسَه في أقوالِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه مِنَ الأمْنِ: ابنُ جرير، البغويُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

والمعنى على هذا القولِ: أنَّه واهِبُ الأمْنِ، أو أمَّن عِبادَه من العذابِ، أو أمَّن خَلْقَه من الظُّلْم.

قال البقاعي: (فهو الَّذي يُعزَى إليه الأمنُ والأمانُ بإفادتِه أسبابَه، ومَنْعِ أسبابِ المَخاوِفِ؛ فلا أَمْنَ في الوُجودِ ولا أمانَ إلَّا وهو مُستفادٌ مِن جِهتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٧١).

وقال ابنُ عاشور: (المؤمنُ اسمُ فاعِلٍ مِن آمَنَ الَّذي هَمزتُه للتَّعْدِيةِ، أي: جَعَل غَيرَه آمِنًا؛ فاللهُ هو الَّذي جَعَل الأمانَ في غالِبِ أحوالِ الموجوداتِ؛ إذ خَلَق نظامَ المخلوقاتِ بعيدًا عن الأخطارِ =

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾.

أي: الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعه واستيلائِه وحِفظِه(١).

﴿الْعَزِيزُ﴾.

أي: المُتَّصِفُ بالعِزَّة التَّامَّة: الَّذي قد عَظُم قَدرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوه، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، ولا يُذِلُّه أحَدٌ(٢).

= والمصائِبِ، وإنَّما تَعرِضُ للمخلوقاتِ المصائبُ بعوارِضَ تترَكَّبُ مِن تقارُنٍ أو تَضادٍّ، أو تعارُضِ مَصالِحَ، فيَرجَحُ أقواها ويَدحَضُ أدناها، وقد تأتي مِن جرَّاءِ أفعالِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وممَّن اختار أنَّه مِن الإيمانِ، أي: التَّصديق: ابنُ قُتَيْبَةَ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

والمعنى على ذلك: المصدِّقُ لرُسُله بإظهارِ مُعجزاتِه عليهم، ومصدقُ المؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، ومصدقُ الكافرين ما أوْعَدَهم مِن العِقابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (﴿الْمُؤْمِنُ﴾: الَّذي وَحَّد نَفْسَه بقولِه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٥٠).

وهذا القولُ نسَبه القرطبي لمجاهدٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وقال السجستاني: (المُهَيمِنُ في أسماءِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ: القائِمُ على خَلْقِه بأعمالِهم وآجالِهم وأرزاقِهم). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠).

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾.

أي: العَظيمُ القاهِرُ -الَّذي قهَر جميعَ العبادِ-، المُصلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم(١).

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾.

أي: المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، المُتعالي والمترَفِّعُ عن الانقيادِ لِغَيرِه(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٤)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤، ٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤، ١٨٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠، ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

قال ابن عاشور: (وإذا وُصِفَ الإنسانُ بالجَبَّارِ كان وَصْفَ ذَمٍّ؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّه يَحمِلُ غَيرَه على هواه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ المتكَبِّرَ في حَقِّ الخَلقِ اسمُ ذَمٍّ؛ لأنَّ المتكَبِّرَ هو الَّذي يُظهِرُ مِن نَفْسِه الكِبْرَ، وذلك نَقصٌ في حَقِّ الخَلْقِ؛ لأنَّه ليس له كِبرٌ ولا عُلُوٌّ، بل ليس معه إلَّا الحقارةُ والذِّلَّةُ والمَسْكنةُ، فإذا أظهَرَ العُلُوَّ كان كاذِبًا، فكان ذلك مذمومًا في حَقِّه، أمَّا الحَقُّ سُبحانَه فله جميعُ أنواعِ العُلُوِّ والكِبرياءِ، فإذا أظهَرَه فقد أرشَدَ العِبادَ إلى تعريفِ جَلالِه وعُلُوِّه، فكان ذلك في غايةِ المدحِ في حَقِّه سُبحانَه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤). ويُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((العِزُّ إزاري، والكِبرياءُ رِدائي، فمَنْ نازَعَني بشَيءٍ منهما عذَّبْتُه))[(١)].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيلةً، فقام فقَرَأَ سُورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وَقَف فسَأَلَ، ولا يَمُرُّ بآيةِ عَذابٍ إلَّا وَقَف فتعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبْرياءِ والعَظَمةِ، ثمَّ سَجَد بقَدْرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثْلَ ذلك، ثمَّ قام فقَرَأَ بآلِ عِمْرانَ، ثمَّ قرأَ سُورةً سُورةً))[(٢)].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[(٣)].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾.

أي: هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، الَّذي تفرَّدَ بتَقديرِ وإنشاءِ جَميعِ المخلوقاتِ على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ[(٤)].

---

(١) رواه البخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٥٥٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣) واللفظ له، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).

صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤)، ووثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٧٥)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ٱلْبَارِئُ﴾.

أي: الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ على مُقتَضى ما خلَقَ وقَدَّرَ[١].

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

أي: الَّذي يُصَوِّرُ ويُشَكِّلُ كُلَّ مَخلوقٍ على الصِّفةِ واللَّونِ والصُّورةِ الَّتي يَختارُها سُبحانَه[٢].

= ٣٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٥-٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

والخَلقُ في كلامِ العربِ على ضربَينِ؛ أحدُهما: ابتداعُ الشَّيءِ وإنشاؤُه على مِثالٍ لم يُسبَقْ إليه. والثَّاني: التَّقديرُ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسْنِها، والدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلَّا واحِدًا، مَن أحصاها دَخَل الجَنَّةَ))[٢].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يُنَزِّهُ اللهَ وَحْدَه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الشنقيطي: (أسماءُ الله حُسْنى، أي: هي أحسَنُ شَيءٍ؛ لأنَّ الحُسنى صيغةُ تفضيلٍ، هي أفضَلُ مِن كلِّ شَيءٍ في الحُسنِ والجَمالِ؛ لِما تدُلُّ عليه مِن صِفاتِ الكمالِ والجَلالِ المَوصوفِ بها خالِقُنا جلَّ وعَلا تقدَّسَ وتَعاظَمَ وتَنَزَّهَ؛ لأنَّ أسماءَه تدُلُّ على صِفاتِ كمالِه وجَلالِه جلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، وهو الحَكيمُ في كلِّ ما خَلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى قولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه يَستَدِلُّ بأسمائِه وصفاتِه على وَحدانيَّتِه، وعلى بُطلانِ الشِّركِ(٢).

٢- القَولُ بأنَّ أسماءَ اللهِ أعلامٌ مَحضَةٌ مُترادِفةٌ لا تدُلُّ إلَّا على ذاتِ اللهِ فقط: قَولٌ باطلٌ؛ فاللهُ تعالى يُسَمِّي نفْسَه باسمَينِ أو أكثَرَ في مَوضِعٍ واحدٍ، كقَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾، فلو كانتِ الأسماءُ مُترادِفةً ترادُفًا مَحْضًا لَكان ذِكرُها مُجتَمِعةً لَغْوًا مِن القَولِ؛ لعدَمِ الفائدةِ، فدَلالاتُ الكتابِ والسُّنَّةِ مُتضافِرةٌ على أنَّ كلَّ اسمٍ مِن أسماءِ الله دالٌّ على معناه المُختَصِّ به، مع اتِّفاقِها على مُسمًّى واحدٍ ومَوصوفٍ واحدٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

٣- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ليس بتَكرارٍ، بل هي مَعانٍ مُتغايِرةٌ، بَيْنَها قَدْرٌ مُشتَرَكٌ، وبَيانُه: أنَّ الإيجادَ يَتعلَّقُ بالمادَّةِ وبالصُّورةِ وبمَجموعِهما؛ فإنْ تَعَلَّقَ بالمادَّةِ فهو بَرْؤُه، ولا يُقالُ للمُصَوِّرِ: إنَّه بارئٌ باعتبارِ تَصويرِه، وإنَّما البارئُ مِن بَرَأَ الشَّيءَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، وإنْ تَعَلَّقَ بالصُّورةِ فهو تصويرٌ، ويُقالُ لفاعِلِه: المُصَوِّرُ. والخالِقُ يَنظِمُهما معًا؛ فالبارِئُ للمادَّةِ، والمُصَوِّرُ للصُّوَرِ، والخالِقُ لهما جَميعًا، فأينَ التَّكرارُ[(١)]؟!

وأيضًا: الخَلْقُ: التَّقديرُ، والبراءُ: هو الفَرْيُ، وهو التَّنفيذُ وإبرازُ ما قدَّره وقرَّره إلى الوجودِ، وليس كلُّ مَن قدَّر شيئًا ورتَّبه يقدِرُ على تنفيذِه وإيجادِه سوَى الله عزَّ وجلَّ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أرادَ شيئًا قال له: كُنْ، فيكونُ على الصِّفةِ التي يريدُ، والصُّورةِ التي يختارُ، كقولِه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] لهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي يُنفذُ ما يريدُ إيجادَه على الصِّفةِ التي يريدُها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ سُبحانَه وتعالى كلَّها حُسْنى، ليس فيها نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ولا بحالٍ مِن الأحوالِ؛ ووَجهُه: أنَّه سُبحانَه وَصَفَها باسمِ التَّفضيلِ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مُشتَقَّةٌ، أي: إنَّها تتضَمَّنُ معانيَ وأوصافًا؛ فكلُّ اسمٍ منها يتضَمَّنُ الصِّفةَ الَّتي اشتُقَّ منها، حتَّى اسمُ «اللهِ» يتضَمَّنُ صِفةً، وهي الألوهيَّةُ؛ فأسماءُ اللهِ تعالى إذَنْ أعلامٌ دالَّةٌ على صِفةٍ، ولولا ذلك ما كانت حُسنى؛ لأنَّها إذا لم تتضَمَّنْ معنًى صارتْ أسماءً جامدةً

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٢).

لا معنَى لها، وإذا كانت أسماءً جامدةً لا معنَى لها فلا تُوصَفُ بالحُسْنى، واللهُ عزَّ وجلَّ وَصَفَها بأنَّها حُسنى، أي: بالغةٌ في الحُسنِ كمالَه، وقد يتضَمَّنُ بعضُها صِفتَينِ أو أكثرَ عن طريقِ الالتزامِ، يعني: مِن بابِ دَلالةِ اللُّزومِ أو الالتزامِ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مختصَّةٌ به، فكما اختَصَّ بالعبادةِ وبالألوهيَّةِ؛ فلا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، وبأنَّه يُسَبِّحُ له ما في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو مُختَصٌّ بالأسماءِ الحُسنى، فتسميةُ غيرِه بها على الوَجهِ الَّذي يَختَصُّ باللهِ عزَّ وجلَّ مَيلٌ بها عمَّا يَجِبُ فيها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ضَميرُ الغَيبةِ ﴿هُوَ﴾ مُبتدأٌ، وهو عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ في قولِه تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]. واسمُ الجَلالةِ في ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى ...﴾ خبرٌ عنه، و(الَّذي) صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ الاقتِصارَ على الضَّميرِ دونَ ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن الضَّميرِ بـ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبما بعْدَ ذلك مِن الصِّفاتِ العَلِيَّةِ، فالجمْعُ بيْن الضَّميرِ وما يُساوي مُعادَه اعتبارٌ بأنَّ اسمَ الجلالةِ يَجمَعُ صِفاتِ الكمالِ؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، ومَدلولُ (الإلَه) يَقْتضي

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٣).
ودَلالةُ اللُّزومِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على لازِمِ مُسمَّاه؛ كدَلالةِ السَّقفِ على الجِدارِ، ودَلالةِ الأسدِ على الشَّجاعةِ. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٤٥)، ((الإبهاج في شرح المنهاج)) للسبكي (١/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ١٧).

جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ الضَّميرُ ضَميرَ الشَّأنِ، واسمُ الجلالةِ مبتدَأً، و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرًا، والجُملةُ خبرًا عن ضَميرِ الشَّأنِ، ويكونَ الكلامُ استِئنافًا قُصِدَ منه تَعليمُ المسلِمينَ هذه الصِّفاتِ؛ لِيَتبصَّروا فيها، ولِلرَّدِّ على المُشرِكين إشراكَهم بصاحِبِ هذه الصِّفاتِ معه أصْنافًا ليس لواحِدٍ منها شَيءٌ مِن مِثلِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك خُتِمَت طائفةٌ منها بجُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لتَكونَ خِتامًا لهذه السُّورةِ الجليلةِ الَّتي تَضمَّنَت مِنَّةً عَظيمةً، وهي مِنَّةُ الفتْحِ الواقعِ والفتْحِ المُيسَّرِ في المُستقبَلِ، لا جَرَمَ أنَّه حَقيقٌ بأنْ يَعرِفوا جَلائلَ صِفاتِه الَّتي لِتَعلُّقاتِها آثارٌ في الأحوالِ الحاصلةِ والَّتي ستَحصُلُ مِن هذه الفُتوحِ، ولَمَّا كان شأْنُ هذه الصِّفاتِ عَظيمًا، ناسَبَ أنْ تُفتَتَحَ الجُملةُ بضَميرِ الشَّأنِ[1].

- وابتُدِئَ في هذه الصِّفاتِ العَليَّةِ بصِفةِ الوَحدانيَّةِ، وهي مَدلولُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي الأصلُ فيما يَتبَعُها مِن الصِّفاتِ؛ ولذلك كَثُرَ في القُرآنِ ذِكرُها عَقِبَ اسمِ الجلالةِ، كما في آيةِ الكُرسيِّ وفاتحةِ (آلِ عِمرانَ)، وثُنِّيَ بصِفةِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّها الصِّفةُ الَّتي تَقتَضيها صِفةُ الإلهيَّةِ؛ إذ عِلمُ اللهِ هو العِلمُ الواجبُ، وهي تَقْتضي جَميعَ الصِّفاتِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن مُتعلِّقاتِ عِلمِه أُمورُ الغَيبِ؛ لأنَّه الَّذي فارَقَ به عِلمُ اللهِ تَعالى عِلمَ غيرِه، وذُكِرَ معه عِلمُ الشَّهادةِ للاحتِراسِ[2] مِن تَوهُّمِ أنَّه يَعلَمُ الحقائقَ العاليةَ الكُلِّيَّةَ فقطْ، كما ذهَبَ إليه فريقٌ مِن الفلاسِفةِ الأقدمينَ؛ ولأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للاستغراقِ، أي: كلّ غَيبٍ وشَهادةٍ، وذلك ممَّا لا يُشارِكُه فيه غيرُه.

وفي ذِكرِ الغَيبِ إيماءٌ إلى ضَلالِ الَّذين قَصَروا أنفُسَهم على المُشاهَداتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

وكَفَروا بالمُغيَّباتِ مِن البعثِ والجَزاءِ وإرسالِ الرُّسلِ، أمَّا ذِكرُ عِلمِ الشَّهادةِ فتتميمٌ[1] على أنَّ المشركينَ يَتوهَّمون اللهَ لا يَطَّلِعُ على ما يُخْفُونه؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[2] [فصلت: ٢٢، ٢٣].

- وتَقديمُ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ لتَقدُّمِه في الوُجودِ، وتَعلُّقِ العِلمِ الأزَليِّ به[3].

- والضَميرُ (هو) في: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ضَميرُ فصْلٍ يُفيدُ قصْرَ الرَّحمةِ عليه تَعالى؛ لعدَمِ الاعتِدادِ برَحمةِ غيرِه؛ لقُصورِها، قال تَعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4] [الأعراف: ١٥٦].

- ووَجْهُ تَعقيبِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ بصِفةِ الرَّحمةِ أنَّ عُمومَ العِلمِ يَقْتضي ألَّا يَغيبَ عن عِلمِه شَيءٌ مِن أحوالِ خلْقِه وحاجتِهم إليه، فهو يَرحَمُ المُحتاجينَ إلى رَحمتِه، ويُمهِلُ المعانِدينَ إلى عِقابِ الآخرةِ؛ فهو رحْمنٌ بهم في الدُّنيا[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تكريرٌ للاستِئنافِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعظيمٍ، وهو مِن مَقاماتِ التَّكريرِ، وفيه اهتمامٌ بِصِفةِ الوَحدانيَّةِ[6].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٩، ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

- وعُقِّبَ وَصْفَا الرَّحمةِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بوصْفِ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ رَحمتَه فضْلٌ، وأنَّه مُطلَقُ التَّصرُّف(١).

- و﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ(٢). وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ وصْفُ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ(٣).

- و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ وُصِفَ اللهُ تَعالى به على طَريقةِ الوَصْفِ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، أي: ذو السَّلامِ والسَّلامة(٤).

- وعُقِّبَ وصْفُ المَلِكِ بوصْفِ السَّلامِ؛ للدَّلالةِ على العدْلِ في مُعامَلتِه الخلْقَ، وهذا احتراسٌ أيضًا(٥).

- وبَدَأَ بالقُدُّوسِ قبْلَ السَّلامِ؛ لأنَّ القُدُّوسَ مَحْوٌ للنَّقصِ في الماضي -إنْ قُدِّرَ-، والسَّلامَ مَنْعٌ للنَّقصِ المُستَقبَلِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠، ١٢١).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٤).

قال السَّفَّاريني: (الفرقُ بيْن القُدُّوسِ والسَّلامِ أنَّ القُدُّوسَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه بريءٌ مِن جميعِ

- وذِكرُ وصْفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ عَقِبَ الأوصافِ الَّتي قبْلَه إتمامٌ للاحتِراسِ مِن تَوهُّمِ وَصْفِه تَعالى بالمَلِكِ؛ أنَّه كالمُلوكِ المَعروفين بالنَّقائصِ، فأُفِيدَ أوَّلًا نَزاهةُ ذاتِه بوصْفِ القدُّوسِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه المُغيَّبَةِ عن الغدْرِ والكَيدِ بوصْفِ المؤمنِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه الظَّاهرةِ عن الجَورِ والظُّلمِ بوصْفِ السَّلامِ[(١)].

- وتَعقيبُ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنَّ تَأْمينَه عن ضَعْفٍ أو عن مَخافةِ غَيرِه، فأُعْلِموا أنَّ تَأمينَه لِحكمتِه مع أنَّه رَقيبٌ مُطَّلِعٌ على أحوالِ خلْقِه، فتَأمينُه إيَّاهم رَحمةٌ بهم[(٢)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ووَجْهُ ذِكرِ الصِّفاتِ الثَّلاثِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ عَقِبَ صِفةِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أنَّ جَميعَ ما ذَكَرَه آنِفًا مِن الصِّفاتِ لا يُؤذِنُ إلَّا باطمئنانِ العِبادِ لِعنايةِ ربِّهم بهم، وإصلاحِ أُمورِهم، وأنَّ صِفةَ المُهيمنِ تُؤذِنُ بأمْرٍ مُشتركٍ، فعُقِّبَت بصِفةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ غالبٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ، وأُتْبِعَت بصِفةِ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الدَّالَّةِ على أنَّه مُسخِّرُ المخلوقاتِ لإرادتِه، ثمَّ صِفةِ المُتكبِّرِ الدَّالَّةِ على أنَّه ذُو الكِبْرياءِ يَصغُرُ كلُّ شَيءٍ دونَ كِبريائِه؛ فكانت هذه الصِّفاتُ في جانبِ التَّخويفِ كما كانتِ الصِّفاتُ قبْلَها في جانبِ الإطماعِ[(٣)].

العُيوبِ والنَّقائصِ في الماضي والحاضرِ، والسَّلامَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَطرأُ عليه شَيءٌ مِن = ذلك في المُستقبَلِ). ((لوامع الأنوار البهية)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).
وقيل: القُدُّوسُ هو المُنزَّهُ عن النَّقائصِ في ذاتِه وفي صِفاتِه. والسَّلامُ هو المُنزَّهُ عن النَّقائصِ في أفعالِه. يُنظر: ((المطالب العالية من العلم الإلهي)) للرازي (٣/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ذُيِّلَت الصِّفاتُ المذكورةُ بتَنزيهِ اللهِ تَعالى عن أنْ يكونَ له شُركاءُ بأنْ أشْرَكَ به المُشرِكون؛ فضَميرُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المقامِ، وهم المُشرِكون الَّذين لم يَزَلِ القُرآنِ يَقْرَعُهم بالمواعظِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ كان ضَميرُ الغَيبةِ (هُوَ) ضَميرَ شأْنٍ فالجُملةُ بعْدَه خبَرٌ عنه، وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ تُفيدُ قصْرًا بطَريقِ تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ؛ هو الخالقُ لا شُركاؤُهم، وهذا إبطالٌ لإلهيَّةِ ما لا يَخلُقُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] [النحل: ١٧].

- قوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابعةً؛ لأنَّ كلَّ ما يخرجُ مِن العدمِ إلى الوُجودِ يَفتقِرُ إلى تقديرٍ أوَّلًا، وإلى الإيجادِ على وَفْقِ التَّقديرِ ثانيًا، وإلى التَّصويرِ بعدَ الإيجادِ ثالثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالَى خالِقٌ مِن حيثُ إنَّه مُقدِّرٌ، وبارئٌ مِن حيثُ إنَّه مُختَرِعٌ موجِدٌ، ومُصَوِّرٌ مِن حيثُ إنَّه مُرَتِّبٌ صوَرِ المُختَرَعاتِ أحسَنَ ترتيبٍ[3].

وقيل: الخالقُ: اسمُ فاعِلٍ مِن الخَلقِ، وأصلُ الخلْقِ في اللُّغةِ إيجادُ شَيءٍ على صُورةٍ مَخصوصةٍ، ويُطلَقُ الخلْقُ على معنًى أخصَّ مِن إيجادِ الصُّوَرِ، وهو إيجادُ ما لم يكُنْ مَوجودًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [ق: ٣٨]، وهذا هو المعْنى الغالبُ مِن إطلاقِ اسمِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٥).

تَعالى (الخالِق)، وبهذا يكونُ الخلْقُ أعمَّ مِن التَّصوير، ويكونُ ذِكرُ (البارئِ والمُصوِّرِ) بعْدَ (الخالقِ) تَنبيهًا على أحوالٍ خاصَّةٍ في الخلْقِ[1].

وقيل: إنَّما ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابعةً؛ لأنَّ مِن مَجموعِها يَحصُلُ تَصوُّرُ الإبداعِ الإلهيِّ للإنسانِ؛ فابتُدِئَ بالخلْقِ الَّذي هو الإيجادُ الأصليُّ، ثمَّ بالبَرْءِ الَّذي هو تَكوينُ جِسمِ الإنسانِ، ثمَّ بالتَّصويرِ الَّذي هو إعطاءُ الصُّورةِ الحَسَنةِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[2] [آل عمران: ٦].

- ووجْهُ ذِكرِ هذه الصِّفاتِ ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ عقِبَ الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الثَّلاثَ أُريدَ منها الإشارةُ إلى تَصرُّفِه في البشرِ بالإيجادِ على كَيفيَّتِه البديعةِ؛ ليُثيرَ داعيةَ شُكْرِهم على ذلك؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

- قيل: وَجْهُ إرجاعِ هذه الصِّفاتِ الحُسنى إلى ما يُناسِبُها ممَّا اشتَمَلَت عليه السُّورةُ يَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ولكنَّها ذُكِرَت في الآيةِ بحسَبِ تَناسُبِ مَواقعِ بَعضِها عقِبَ بعضٍ مِن تَنظيرٍ، أو احتراسٍ[4]، أو تَتميمٍ[5]:

القِسمُ الأوَّلُ: يَتعلَّقُ بما يُناسِبُ أحوالَ المشركين وأحلافِهم اليهودِ المُتألِّبين على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المسلمينَ بالحرْبِ والكَيدِ والأذى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

وأنصارِهم مِن المنافِقين المُخادِعين للمُسلمينَ.

وإلى هذا القِسمِ تَنْضوي صِفةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهذه الصِّفةُ هي الأصلُ في التَّهيُّؤِ للتَّدبُّرِ والنَّظرِ في بَقيَّةِ الصِّفاتِ؛ فإنَّ الإشراكَ أصلُ الضَّلالاتِ، والمشرِكون همُ الَّذين يُغْرُون اليهودَ، والمنافِقونَ بيْن يَهودَ ومُشرِكين تَستَّروا بإظهارِ الإسلامِ، فالشِّركُ هو الَّذي صدَّ النَّاسَ عن الوصولِ إلى مَسالكِ الهُدى.

وصِفةُ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ فإنَّ مِن أُصولِ الشِّركِ إنكارَ الغَيبِ الَّذي مِن آثارِه إنكارُ البعثِ والجزاءِ، والاسترسالُ في الغَيِّ وأعمالِ السَّيِّئاتِ، وإنكارُ الوحْيِ والرِّسالةِ، وهذا ناظرٌ إلى قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] الآيةَ.

وكذلك ذِكرُ صِفاتِ (المَلِك، والعَزيز، والجبَّار، والمُتكبِّر)؛ لأنَّها تُناسِبُ ما أنْزَلَه ببَني النَّضيرِ مِن الرُّعبِ والخِزْيِ والبطْشةِ.

القِسمُ الثَّاني: مُتعلِّقٌ بما اجْتَناهُ المؤمنون مِن ثَمَرةِ النَّصرِ في قصَّةِ بَني النَّضيرِ، وتلك صِفاتُ ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، أي: لم يَتجشَّمِ المسلِمون للغِنى مَشقَّةً، ولا أذًى، ولا قِتالًا.

وكذلك صِفتَا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ لِمُناسَبتِهما لإعطاءِ حظٍّ في الفَيءِ للضُّعفاءِ.

القِسمُ الثالثُ: مُتعلِّقٌ بما يَشترِكُ فيه الفريقانِ المذكورانِ في هذه السُّورةِ، فيَأخُذُ كلُّ فريقٍ حظَّه منها، وهي صِفاتُ (القُدُّوس، المُهيمِن، الخالِق، البارِئ، المُصوِّر)[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥، ١٢٦).

- قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تَذييلٌ لِما عُدِّدَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، أي: له جَميعُ الأسماءِ الحُسنى الَّتي بَعضُها الصِّفاتُ المذكورةُ آنفًا[١].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ الحالِ، وأُوثِرَ هاتانِ الصِّفتانِ؛ لشِدَّةِ مُناسَبتِهما لنِظامِ الخلْقِ[٢].

- وفي هذه الآيةِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ لأنَّ صَدْرَ السُّورةِ مُماثِلٌ لآخِرِها[٤].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُمْتحنةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٧).









الفهرس







الفهرس

سورةُ الحَديدِ

سورةُ الحَشْرِ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَرِ السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠